سلسلة الرسائل الجامعية ١٤

الحرب النفسية

كما تحدث عنها القرآن الكريم

رسالة ماجستير

إعداد
همام محمد عبده عوض

دار المحدثين
دار عباد الرحمن

سلسلة الرسائل الجامعية

- ١٤ -

الحرب النفسية

كما تحدث عنها القرآن





الطبعة الأولى

١٤٣١هـ-٢٠١٠م

رقم الإيداع

٢٠٠٩/٢٢٧٦٣

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عوض، هانم محمد عبده عوض.

الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن الكريم/ هانم محمد عبد عوض، ط١ - القاهرة، دار المحدثين للبحث العلمي والترجمة والنشر

٢٠١٠م؛ ٥٩٩ص؛ ٢٤سم.

سلسلة الرسائل الجامعية (١٤)

تدمك ٢ ٣٥ ٦٣١٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الحرب النفسية في القرآن الكريم

أ. العنوان

٢٢٩,٨٣٥٥٣٤٣٤

مكتبة عباد الرحمن

مصر



الإدارة والمركز الرئيسي: ٧٦أ ش جسر السويس - ميدان الألف مسكن - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٩٣١٠٧٤(٢٠٢)(٠٠٢)

رئيس مجلس الإدارة: ٠١٢/٧٧٥٥٩٥١(٠٠٢)

الإدارة والمبيعات: ٠١١/٤١٥٥٧٧٧(٠٠٢) ٠١١/٤١٥٥٨٨٨(٠٠٢)

البريد الالكتروني: muhaddethin@yahoo.com

الحرب النفسية

كما تحدث عنها القرآن

رسالة ماجستير

تأليف

هانم محمد عبده عوض

المقدمة

وتشمل على:

* توطئة للحديث عن الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن الكريم.
* سبب اختياري لهذا الموضوع.
* خطة هذا الموضوع ومنهجي في البحث فيه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

فإن القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل الذي ترطب الألسنة تلاوته ويشرح الصدور قراءته، إن له الحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وهو معجزة النبي ﷺ التي لا تضاهي ودستور البشرية الذي تعلو به وتتباهى، وهو مصدر عزة متبعيه والمنذر بالنكال والعذاب لمخالفيه.

لا تنفض بكارتة ولا يهلك عن كثرة الرد ومهما أوتي الإنسان من علم فيه فإنما هو قطرة من فيض.

وبعد:

فإن تناول «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن» قد يبدو لأول وهلة غريبًا على الأسماع وذلك لأمرين:

أولاً: أن مصطلح «الحرب النفسية» مصطلح لم يعرف إلا حديثًا قد لا يكون عرف قبل سنة ١٩٤١م على لسان المؤلف الأمريكي «بول لاينبارج» مع أن مفهوم الحرب النفسية قديم قدم البشرية(١).

الثاني: أن هذا الموضوع مع توفر معاني آيات القرآن الكريم التي تشير إليه إلا أنه لم يتطرق أحد من الباحثين إلى الحديث عنه من خلال القرآن الكريم حتى الآن فيما أعلم.

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يلاحظ أنه قد تعرض لمعالجة الحرب النفسية تعرضًا قاصدًا فلقد حملت آيات القرآن الكريم ذكر ما تعرض له أنبياء الله عز وجل وأتباعهم

---

(١) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية، للباحث حنفي بكري، رسالة ماجستير، قسم الأديان والمذاهب (ص١١)، طبعة سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

من حرب نفسية من أعدائهم، وهو لم يكتف بهذا بل رد القرآن الكريم على حملات هؤلاء الأعداء النفسية ردًا دامغًا أسقط كل ما حاولوا به النيل من نفس الأنبياء وأتباعهم، ولم يكتف القرآن الكريم بمجرد الرد، بل شن عليهم حربًا نفسية جعلتهم في موقف لا يحسدون عليه.

هذا ولقد ذكرت آيات القرآن ما شنه اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون ضد الإسلام ورسوله وأتباعه ورد عليهم وأسقط شبههم وقاد حربًا نفسية ضدهم كان الهدف من ورائها الذب عن أتباع الحق، وهداية هؤلاء إلى طرق الله المستقيم.

كما حملت آيات القرآن توجيهًا نفسيًا للرسل -عليهم السلام- وأتباعهم بالصبر والثبات، وأنهم على الحق، والحق دائمًا ينتصر في النهاية مهما طال الأمد.

وهذه دراسة جديدة تتعلق بالقرآن الكريم وقد لازمني شعور بالقصور وأنا أمضي فيها فشأن القرآن الكريم أكبر من أن يتعرض له مثلي ولكني حرصت على أن أزداد فقهًا في القرآن وتدبرًا لمعانيه وقلت: قد أرتاد طريقًا لم أسبق إليه أفتتح به بابًا من أبواب الخير، والقرآن الكريم لا تنفض عجائبه، ولن نبلغ مهما بذلنا مداه!![١].

هذا ولما كان بحثي هذا الذي بعنوان «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن الكريم» ينتمي لنوع من أنواع التفسير وهو التفسير الموضوعي آثرت أن أقدم تعريفًا مختصرًا لكل من التفسير والتفسير الموضوعي.

التفسير معناه:

أولاً: في اللغة: يقال: فسر الشيء يفسره -بالكسر- ويفسُره -بالضم- أبانه وفصله، والفسر كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل[٢].

وقيل: مأخوذ من التفسير، وهي اسم لما يعرف به الطبيب المرض، ويقال هو:

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، لمحمد الغزالي، القاهرة، دار الشروق، (ص٥).

(٢) لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٣٤١٥)، ط/ دار المعارف.

مقلوب السفر. تقول: أسفر الصبح إذا أضاء، وأسفرت المرأة عن وجهها النقاب أي كشفته[١].

ثانيًا في الاصطلاح: له تعريفات متعددة منها:

١- «علم يعرف به فهم كتاب الله -تعالى- المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»[٢].

٢- وقيل: هو «علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها»[٣].

٣- وقيل: هو «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»[٤].

هذا وموضوع بحثي ينتمي تحت منهج من مناهج التفسير وهو «التفسير الموضوعي»، والتفسير الموضوعي نوعان:

أولاً: تفسير موضوعي كلي.

ثانيًا: تفسير موضوعي جزئي.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص٤٢٣)، تحقيق/ محمود محمد نصار، ط/ مكتبة التراث الإسلامي.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ١٣)، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ دار التراث، القاهرة.

(٣) الإتقان في علوم القرآن الكريم، للسيوطي (٢/ ١٧٤)، بيروت، المكتبة الثقافية، ١٩٧٣م.

(٤) مناهل العرفان، للزرقاني (٢/ ٣) ط/ المطبعة الفنية، القاهرة.

فالتفسير الموضوعي الكلي، معناه: القصد إلى استقصاء آيات القرآن الكريم التي اشتركت في موضوع واحد وتتبعها وإفرادها بالبحث[١].

أما التفسير الموضوعي الجزئي: فهو اختيار سورة من سور القرآن الكريم وإبراز الفكرة أو الموضوع الأساسي التي تدور حوله السورة الكريمة[٢].

وبحثي يندرج تحت النوع الأول من التفسير الموضوعي.

وقد عرفه البعض أيضًا بأنه:

بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد وإن اختلفت عباراتها وتعددت أماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيها، ويلم بكل أطرافه وإن أعوزه ذلك لجأ إلى التعريف لبعض الأحاديث المناسبة لتزيدها إيضاحًا وبيانًا[٣].

سبب اختياري لموضوع «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن»:

ولقد اخترت هذا الموضوع بعون الله وتوفيقه لأسباب:

أولاً: أنه يخرج عن الموضوعات التقليدية التي تعودت أن أرى الباحثين يكتبون عنها.

ثانيًا: أنه يتماشى مع هدف أساسي لديَّ وهو إبراز معالجة القرآن الكريم لموضوعات معاصرة خاصة وأنه موضوع على جانب كبير من الأهمية.

ثالثًا: أنه موضوع قديم وحديث في آن واحد.

---

(١) مقال التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د/ سيد مرسي بيومي، مجلة منبر الإسلام، عدد (٤) لسنة (٤٧) شهر ربيع الثاني ١٤٠٩هـ/ نوفمبر ١٩٨٨م.

(٢) انظر: التفسير المأثور لسورة الفرقان، محمد عبد السلام كامل أبو حزيم، رسالة ماجستير، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م (ص٤٣٥).

(٣) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الأستاذ الدكتور/ أحمد الكومي، والأستاذ الدكتور/ محمد أحمد يوسف القاسم (ص٩).

رابعًا: لأنه يبرز مدى ما يعتور نفوس أعداء الإسلام المعاداة والحقد والكراهية الذي يضمره أعداء الإسلام للإسلام والمسلمين على مر العصور.

خامسًا: أنه يبرز وحدة منهج أنبياء الله عز وجل في الدعوة إلى الله سبحانه، كما يبرز وحدة منهج أعدائهم في محاربتهم لهم، فالكفر كله ملة واحدة.

سادسًا: أنه محاولة متواضعة مني لإبراز خطورة المعركة التي يخوضها المسلمون مع أعدائهم لكي يحترزوا منها ويتخذوا الإجراءات اللازمة نحوها.

سابعًا: أنه يثبت أن القرآن الكريم كتاب الله الذي يخط للناس منهج حياتهم الذي فيه صلاحهم على مر الأزمان، فهو منهج الله الصالح لكل زمان ومكان.

خطتي في بحث «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن»:

قسمت خطتي في البحث على النحو التالي:

البحث مكون من مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

المقدمة تشتمل على توطئة للحديث عن «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن»، وسبب اختياري لهذا الموضوع وخطتي لهذا الموضوعي ومنهج في البحث فيه.

والتمهيد ويشتمل على:

أولاً: التحليل لألفاظ عنوان الموضوع «حرب - نفس - قرآن».

ثانيًا: الجذور التاريخية للحرب النفسية.

الفصل الأول: صور من الحرب النفسية مع الأنبياء الذين سبقوا النبي ﷺ وكيف قاومها الأنبياء عليهم السلام.

ويتكون من تمهيد وأربعة مباحث:

تحدثت في التمهيد عن بعض وسائل الحرب النفسية التي تعرض لها الأنبياء عليهم السلام إجمالاً وسبب اقتصاري على أولي العزم منهم.

المبحث الأول: الحرب النفسية ضد نوح عليه السلام وكيف قاومها.

المبحث الثاني: الحرب النفسية ضد إبراهيم عليه السلام وكيف قاومها.

المبحث الثالث: الحرب النفسية ضد موسى عليه السلام وكيف قاومها.

المبحث الرابع: الحرب النفسية ضد عيسى عليه السلام وكيف قاومها.

ثم أفردت الحديث عن الحرب النفسية ضد سيدنا محمد ﷺ في الأربعة فصول المتبقية.

الفصل الثاني: الحرب النفسية جبهاتها وأنواعها.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بجبهات الحرب النفسية المعادية للنبي ﷺ وهم: أهل الكتاب - المشركون - المنافقون.

المبحث الثاني: أنواع الحرب النفسية.

الفصل الثالث: وسائل وأهداف الأعداء في الحرب النفسية ورد القرآن عليها.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: وسائل الأعداء في الحرب النفسية والرد عليها.

المبحث الثاني: أهداف الأعداء في الحرب النفسية.

الفصل الرابع: وسائل وأهداف المسلمين في مواجهة الحرب النفسية ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: وسائل المسلمين في الحرب النفسية.

المبحث الثاني: أهداف المسلمين في الحرب النفسية.

الفصل الخامس: منهج القرآن في الحماية من الحرب النفسية ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان ولأثره في الوقاية من الحرب النفسية.

المبحث الثاني: التوجيه النفسي القرآني للصف المسلم.

المبحث الثالث: إزالة آثار الحرب النفسية.

الخاتمة: وتشتمل على:

أولاً: أهم النتائج التي وصلت إليها من خلال دراستي.

ثانيًا: بعض التوصيات.

ثالثًا: المراجع.

رابعًا: الفهرس.

منهجي في البحث

أولاً: التزمت الأمانة العلمية، فعزوت كل قول إلى قائله، وإذا تصرفت في النص المنقول أشير إلى ذلك بقولي «بتصرف»، وإذا اقتبست الفكرة وعبرت عنها بأسلوبي أقول «انظر».

ثانيًا: عزوت كل آية من الآيات التي ذكرتها إلى سورتها وذكرت رقم الآية.

ثالثًا: قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في البحث.

رابعًا: قسمت البحث تقسيمًا علميًا إلى فصول ومباحث.

خامسًا: كتبت ترجمة مختصرة لمعظم من ورد ذكرهم في البحث من الصحابة والعلماء.

سادسًا: رجعت إلى أمهات كتب التفسير والحديث والسير، كما رجعت إلى بعض الكتب الحديثة.

سابعًا: أثناء كتابتي أراعي تقديم آيات القرآن الكريم وذكر تفسيرها ثم أتبع ذلك بمواقف السنة، ثم أربط العنصر الذي أتحدث عنه بعصرنا الحديث كلما أمكن ذلك.

ثامنًا: قد يتكرر ذكر الآية أو الموقف من السنة في أكثر من موضع ولكن أراعي الاستشهاد المختلف في كل موضع.

تاسعًا: جعلت البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة فصول، وذكرت ما يحتويه كل فصل في ورقة مستقلة قبل الدخول فيه ليحيط القارئ بما يتضمنه الفصل إحاطة مجملة قبل قراءته.

عاشرًا: ذكرت في آخر البحث أهم النتائج التي توصلت إليها وأهم التوصيات التي أوصي بالعمل بها.

الحادي عشر: رتبت المراجع كالآتي أولاً القرآن الكريم، ثم كتب التفسير وعلوم القرآن، ثم كتب السنة المطهرة، ثم كتب السيرة والتاريخ والتراجم، ثم المعاجم

اللغوية، ثم الكتب الأخرى، ثم المجلات والصحف، ثم عقدت فهرسًا للموضوعات.

وبعد:

فهذا جهد ضعيف قدمته بعون الله وتوفيقه محاولة مني لخدمة كتاب الله العزيز، وإبراز جانب من جوانبه، فإن أصبت فلله عز وجل الفضل والمنة.

وإن كانت الأخرى فمن نفسي، وعزائي أنني بذلت جهدي وأفرغت طاقتي، ولا ينال الكمال إلا الله رب العالمين.

وأتضرع إلى الله عز وجل أن يجعل هذا العمل صالحًا ولوجه الله خالصًا، ولا يجعل للشيطان فيه حظًا ولا نصيبًا، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه عز وجل وأن يجبر تقصيري.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

ويشتمل على:

أولاً: تحليل ألفاظ العنوان:

- كلمة حرب.
- كلمة نفس.
- تعريف الحرب النفسية.
- مدلول القرآن الكريم.

ثانيًا: الجذور التاريخية للحرب النفسية.

أولاً: تحليل ألفاظ العنوان
«حرب - نفس - قرآن»

١ - معنى كلمة «حرب» في اللغة:

يقول ابن منظور(١): الحرب نقيض السلم، فيقال رجل محرب، أي معروف بالحرب عارف بها.

وقد تعرض ابن منظور لتعريف الحرب النفسية بطريق غير مباشر في مادة «رجف» والرجف والرجفان من معاني الحرب النفسية حيث يقول: «الرجف الاضطراب الشديد، وأرجف القوم إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن، والمرجفون هم الذين يولدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب الناس»(٢).

أما القاموس المحيط: فورد فيه مادة «رجف» قوله: «أرجف القوم أي خافوا من أخبار الفتن ومنها المرجفون في المدينة»(٣).

قال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

تعريف الموسوعة العربية الميسرة لمادة «حرب»:

هي حرب يعمها تخريب وتدمير بين قوات المتحاربين وممتلكاتهم وغير المتحاربين بهدف إملاء شروط معينة على الفريق المهزوم وإملاء عقيدة دينية أو مذهب سياسي أو

---

(١) ابن منظور: هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن منظور، ولد سنة ٦٣٠هـ، وكان أديبًا لغويًا، ومن مؤلفاته الثمينة: «لسان العرب»، توفي بمصر سنة ٧١١هـ انظر: الأعلام، لخير الدين الزركلي (١٠٨٧)، معجم المؤلفين، لرضا عمر كحالة (١٢/ ٤٦)، وانظر: بغية الوعاء في طبقات النحويين والنحاة، للإمام السيوطي (١/ ٢٤٨)، ط/ دار الفكر.

(٢) لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٨١٦)، ط/ دار المعارف، القاهرة، (ص٢٩٢).

(٣) القاموس المحيط، للفيروز آبادي، دار الجيل (١/ ٥٥).

حماية تلك من أي عبث(١).

وأعتقد أن هذا هو أقرب التعاريف اللغوية للتعريف الاصطلاحي للحرب النفسية، وقد وردت كلمة حرب في القرآن الكريم في مواطن كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

٢- كلمة «نفس»:

«النفس»: الروح(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ [المائدة: ١١٦].

ونفس الإنسان: ذاته وعينه(٣)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والنَفَس: واحدة الأنفاس، ومعناها: السعة والفسحة في الأمر والجرعة والرأي(٤).

وهكذا يلاحظ أن معظم التعريفات اللغوية حول كلمة «حرب» كانت بمعنى الإرجاف والاضطراب. وأن معظم التعريفات اللغوية حول كلمة «نفس» كانت بمعنى الروح والذات والرأي.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة، لمحمد شفيق، الكويت (ص٦٩٥).

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٥٢٢)، ط/ دار الفكر.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (١/ ٩٤٠)، ط/ دار الدعوة، تركيا.

(٤) انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية (ص٦٢٧).

ويمكن من الجمع بين تعريف «حرب» في اللغة وتعريف «نفس» في اللغة أن يقال: «الحرب النفسية» هي إحداث الإرجاف والاضطراب للأرواح والآراء.

ولعل هذا المعنى قريب من بعض تعريفات الحرب النفسية الاصطلاحية الحديثة التي سأذكرها في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

وتطلق النفس في القرآن على معانٍ كثيرة منها:

١- تطلق النفس في القرآن ويراد بها الذات الإنسانية كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٢- وتطلق النفس ويراد بها الدلالة على أصل الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

٣- وتطلق النفس ويراد بها الروح كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

٤- وتطلق ويراد بها ضمير الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥].

٣- الحرب النفسية اصطلاحًا:

تعددت تعاريف الحرب النفسية اصطلاحًا ومن هذه التعاريف:

١- أن الحرب النفسية هي: «الاستخدام المخطط للدعاية أو ما ينتمي إليها من الإجراءات الموجهة إلى الدول المعادية أو المحايدة أو الصديقة بهدف التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول بما يحقق للدولة «الموجِّهة»

أهدافها»[١].

٢- أن الحرب النفسية: «تتضمن استخدام الدعاية ضد عدو ما مع استخدام عملية عسكرية أو إجراءات أخرى تدعو الحاجة إليها لتكملة مثل هذه الدعاية»[٢].

٣- ومن تعريفات الحرب النفسية أيضًا أنها: «النضال من أجل عقول الرجال وإرادتهم»[٣].

والوصول إلى عقل المقاتل وإرادته أنجح وأجدي من القناطير المقنطرة من الأسلحة والذخائر لأن المقاتل يقاتل بعقله وقلبه ومشاعره، قبل أن يقاتل بيده أو بآلاته الحربية، والوصول إلى تحطيم هذا الجندي بتحطيم معنوياته وتخذيل روحه القتالية يغني ذلك عن خوض المعارك العسكرية.

٤- وعرفها البعض بأنها: «الكلمات والأفعال التي توهن من تصميم العدو على القتال بإضعاف روحه المعنوية» أو هي: «إجراءات تهدف إلى شل إرادة الخصم وتحطيم رغبته في القتال، بإيصاله إلى وضع لا يرى فيه أي أمل للنصر»[٤].

٥- والحرب النفسية هي: استخدام علم النفس بصفة عامة، وعلم النفس العسكري بصفة خاصة، لإحراز النصر، وتعتبر الحرب النفسية أمضى سلاح تستخدمه الدول في الحرب الحديثة؛ لأنها تقوم بالدور الفعال في قتل إرادة ومعنويات العدو[٥].

٦- كما أن الحرب النفسية هي: «استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة من الدول

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، لجمال الدين محفوظ، (ص١٤٧)، ط/ دار الاعتصام.

(٢) الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، لصلاح نصر (١/ ٩٢).

(٣) المصدر السابق (١/ ٩٩).

(٤) الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية، لأحمد بدر (ص٤٩)، ط/ دار القلم، الكويت ١٣٩٤هـ.

(٥) أسس علم النفس الاجتماعي، لمختار حمزة (ص٢٥٣)، ط/ دار المجتمع، ١٣٩٩هـ.

في وقت الحرب أو وقت السلم، لإجراءات إعلامية بقصد التأثير في آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية معادية أو محايدة أو صديقة، بطريقة تساعد على تحقيق سياسة وأهداف الدولة أو الدول المستخدمة لها»[(١)].

٧- كما أن الحرب النفسية هي: «خطة شاملة تقوم على دراسة متأنية لاستخدام أساليب متنوعة في وقت الحرب أو السلم تستهدف عقل ووجدان وروح إنسان ما أو جماعة معينة لتحطيمها وإعادة بنائها وما يتفق مع مصلحة القائم بها لتحقيق غرض مادي أو معنوي معين»[(٢)].

ومن خلال دراسة الحرب النفسية واستخدام المسلمين لها يمكن تعريفها بأنها: «الاستخدام المخطط لوسائل مختلفة للتأثير على معنويات المؤيدين أو المحايدين أو المعارضين لتحقيق أهداف سامية تتفق ورسالة المسلمين التي أناطها الله عز وجل بهم».

ومن خلال التعاريف السابقة يمكن تعريف الحرب النفسية بوجه عام بأنها: «محاولة الاستعاضة عن الحرب العسكرية أو مساعدتها بطرق سلمية تؤثر في تغيير سلوك الآخرين وأفكارهم بما يخدم أهداف الجهة المستخدمة لها».

٤- مدلول القرآن:

القرآن اسم خاص بكلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ، المعجز، المدون في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

وهو غير مهموز ولا مشتق عند الإمام الشافعي[(٣)]، وقيل: أنه مشتق من قرنت

---

(١) الحرب النفسية في العصر المدني، مرجع سابق (ص٢٥).

(٢) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية، رسالة ماجستير للباحث حنفي بكري حنفي أحمد (ص٢٤).

(٣) هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس... القرشي الشافعي، نسيب رسول الله ﷺ وناصر سنته، قال أبو ثور: ما رأيت مثل الشافعي، ت ٢٠٤هـ، رحمه الله، انظر: حلية الأولياء (٩/ ٦٣)، والبداية والنهاية (٥/ ٧٨١)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ١٠٢).

الشيء بالشيء إذا ضممته إليه، وتسميته بذلك لاقتران سوره وآياته وحروفه، ومنه قيل للجمع بين الحج والعمرة قران، وقيل أنه مشتق من القرائن؛ لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضًا ويشابه بعضها بعضًا، فهي حينئذ قرائن[١].

وهذه الأقوال الثلاثة تقوم على أساس أن لفظ القرآن غير مهموز أصلاً، بيد أن الزجاج يعد هذا القول من قبيل السهو، والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها[٢].

واختلف القائلون بأنه مهموز فقال بعضهم: هو مصدر لقرآن كالرجحان والغفران، سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر، وقيل: هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض، أي جمعته، وسمي بذلك؛ لأنه جمع السور بعضها إلى بعض، أو لأنه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، أو لأنه جمع أنواع العلوم كلها.

وقيل أنه: مشتق من قرأ بمعنى أظهر وبين، لأن القارئ يظهره ويبين ما فيه[٣].

وقد نقل الزركشي تأييد هذا القول ونقد القول الذي قبله، حيث قال: وقال بعض المتأخرين لا يكون القرآن ومادة «قرأ» بمعنى جمع، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧] فغاير بينهما، وإنما مادته «قرأ» بمعنى أظهر وبين، والقارئ يظهر القرآن ويخرجه، والقرء: الدم لظهوره وخروجه.

والقرء: الوقت فإن التوقيت لا يكون إلا بما يظهر[٤].

والمختار من هذه الأقوال هو قول الإمام الشافعي، لأن الإمام ابن كثير[٥] كان يقرأ

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٨).

(٢) انظر: الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٦٨).

(٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٧).

(٥) هو الإمام ابن كثير صاحب القراءات، واسمه عبد الله بن كثير الداري، كان من إمام الناس في

القرآن بغير همز، وهي قراءة الإمام الشافعي أيضًا[(١)].

ويقوي هذا توجيه الإمام الشافعي لرأيه بقوله: القرآن اسم وليس مهموزًا، ولم يؤخذ من قرأت ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآنًا، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل[(٢)].

وأحسب أنه لا مانع من أن يلاحظ مع علمية القرآن واختصاصه بكلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ تلك الأوصاف الاشتقاقية.

حديث القرآن عن الحرب النفسية:

ذكرت من خلال التعاريف السابقة للحرب النفسية وورود كلمة حرب في القرآن كذلك ورود كلمة نفس والمتتبع لآيات القرآن الكريم يلاحظ حديث القرآن الكريم عن الحرب النفسية من جهات متعددة:

فلقد أشارت آياته الكريمة إلى ما عانى منه أنبياء الله عليهم السلام من حرب نفسية وكيف واجهوها.

كما أشارت إلى ما عاناه النبي ﷺ بالذات من حرب نفسية من أعدائه، وكيف قاومها وكيف ردت آيات القرآن الكريم على وسائل الأعداء في الحرب النفسية ضد الرسول ﷺ.

كما أشارت آيات القرآن إلى أهداف أعداء الإسلام من وراء حربهم النفسية ضد

=

القراءة بمكة، تحفه السكينة ويحوطه الوقار، لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، توفي سنة ١٢٠هـ بمكة، انظر: مناهل العرفان للزرقاني (١/ ٤٥٧)، ط/ مطبعة عيسى الحلبي، بدون تاريخ.

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر للقراءات الأربعة عشر، لأحمد البنا (١/ ٤٣١).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٧، ٢٧٨).

الإسلام والمسلمين، وكذلك تحدثت آيات القرآن الكريم عن الحرب النفسية التي قام بها المسلمون في مواجهة أعدائهم، وأهدافهم من وراء استخدامهم لها.

كما بينت آيات القرآن الكريم المنهج الوقائي والعلاجي في الحماية من الحرب النفسية.

وسأذكر هذا بالتفصيل قدر استطاعتي إن شاء الله على صفحات هذا البحث بعنوان «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن».

ثانيًا: الجذور التاريخية للحرب النفسية

الحرب النفسية قديمة قدم الجنس البشري فهي مرتبطة بوجود الإنسان، وذلك لأن المجتمع البشري لا يخلو من المنازعات والمشاجرات التي تنشأ معها الحرب النفسية.

وإن كانت الحرب النفسية لم تعرف بهذه التسمية إلا في العصر الحديث إلا أنها كانت تمارس بشكل تلقائي دون أن يكون لها هذا المسمى.

وكتب التاريخ تحمل في طياتها أحداثًا تاريخية قديمة استخدمت فيها الحرب النفسية، وهي لا تختلف عن الحرب النفسية الآن إلا في وسيلة التطبيق، وكانت ومازالت هدفها عقل الإنسان وتفكيره وتعتبر الكلمة من ذخيراتها الأساسية، كما أنها تتعامل مع الأفكار والآراء والعقائد بطرق سلمية وبدون عنف على نقيض الحرب العسكرية.

ولقد عرف الساسة ورجال الدين الحرب النفسية منذ القدم وإن اختلفت وسائل كل منهم التي يبرزون الاهتمام بها في الحرب النفسية فتارة يهتمون بالدعاية وتارة بإثارة الرعب وتارة بالإشاعة إلى غير ذلك...

ومما يدل على ذلك ما تذكره كتب تاريخ مصر القديم أنه لما انفرد تحتمس الثالث بعرش مصر عزم على القضاء على تمرد الأمراء وتوسيع ملكه، فقام بسبع عشرة حملة،

وكان إلى جانب الحملات يبث الرعب في قلوب الشعوب المجاورة مما أدى إلى أن أرسل إليه ملوك بابل والحيثيون وجزيرة قبرص والجزائر المجاورة هدايا إعلانًا لولائهم وطمعًا في إرضائه[(١)].

كما يحكي لنا التاريخ القديم أنه في عهد الدولة الرومانية استطاع «هانيبال» بمقدرته الحربية الفائقة أن يزحف على أسبانيا ويعبر جبال الألب ويغير على إيطاليا من الشمال، فعل كل هذا بسرعة فائقة شلت حركة الرومان فانتصر عليهم في مواقع حربية هامة[(٢)].

ولعل سبب انتصاره كان عامل السرعة الذي فاجأهم به، وهذا ما يسمونه بعنصر المباغتة في الحرب النفسية.

كما يذكر التاريخ قصة القائد تحوتي من قواد الملك تحتمس أنه لما أراد أن يستولي على مدينة يافا خدع حاكمها بأن أدخل جنده مختبئين في زلع محمولة على حمير[(٣)]، ووسيلة الخداع وسيلة قوية التأثير من وسائل الحرب النفسية.

كما يذكر التاريخ أنه في معركة «مجدو»[(٤)] قد هيأت عوامل الرعب والفزع والذعر التي انتشرت بين رجال الجيش السوري فرصة سانحة للجيش المصري للاستيلاء على المدينة أثناء الاضطراب الذي أحدثه فرار جيش السوريين[(٥)].

كما ظهرت بوادر الحرب النفسية في دعوات الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى أقوامهم، فنوح عليه السلام عانى الكثير من ألوان الحرب النفسية

---

(١) مصر في العصور القديمة، لإبراهيم نمير سيف الدين، زكي علي، أحمد نجيب هاشم، القاهرة، مكتبة المدبولي، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (ص٨٣، ٨٤).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢٩).

(٣) المصدر السابق (ص١٧٨).

(٤) معركة مجدو: إحدى معارك تحتمس الثالث مع السوريين.

(٥) مصر القديمة لسليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٤/ ٣، ٤).

من قومه، كذلك كان إبراهيم عليه السلام فلقد عانى الكثير من ألوان التكذيب والإعراض والتهديد.

كما كانت قصة يوسف عليه السلام مثالاً للحرب النفسية حيث خدع أخوته أباه حتى يتمكنوا من قتله والقضاء عليه.

وقصة موسى عليه السلام الذي تعنت عليه قومه وقالوا له: ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥].

والتعنت وسيلة من وسائل الحرب النفسية لاقى من جرائها موسى عليه السلام الكثير من الويلات خاصة وأن قومه قوم ديدنهم التعنت والعناد والتكذيب للأنبياء، ووصل بهم الأمر إلى أنه من الممكن أن يقتلوا نبيهم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٠].

كما شهدت آيات القرآن بالحرب النفسية التي أثارها بنو إسرائيل ضد عيسى عليه السلام ووصل بهم الأمر أن حاولوا قتله فرفعه الله إليه ونجاه منهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٧].

فأزمنة الأنبياء عليهم السلام مثلت حقبًا تاريخية مورست فيها الحرب النفسية على نطاق واسع وبوسائل متعددة، وإن لم تكن قد عرفت بعد بمسماها «الحرب النفسية».

وفي عهد النبي ﷺ استخدمت الحرب النفسية في فترة الدعوة السلمية بمكة قبل هجرة النبي ﷺ حيث واجهت الدعوة الإسلامية استنكار واستخفاف كبراء مكة، انقلب هذا الاستنكار إلى حرب كلامية مستخدمة الشعر كوسيلة إعلامية من وسائل الحرب النفسية ثم بدأت تظهر وسائل أخرى من الدعاية والشائعات والمقاطعة وغيرها وكلها من وسائل الحرب النفسية.

وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة لم تتوقف الحرب النفسية بل سارت إلى جانب

الحروب العسكرية فاستخدم اليهود والمنافقون والمشركون وسائل مختلفة من الحرب النفسية من التحدي والشائعات والجدل بالباطل وغيرها.

والرسول ﷺ استخدم الحرب النفسية أيضًا لمواجهة أعدائه، والدفاع عن دينه ومقاومة الحرب النفسية التي خاضها أعداؤه محاولة منه ﷺ لإرجاعهم إلى فطرتهم التي فطرهم الله سبحانه وتعالى عليها.

ومن الوسائل التي استخدمها الرسول ﷺ والمسلمون إظهار القوة للأعداء لإدخال الرهبة في نفوسهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

كذلك استخدم المسلمون إشاعة الفرقة في صفوف الأعداء كوسيلة من وسائل الحرب النفسية وسأذكر هذه الوسائل وغيرها بالتفصيل في حينها إن شاء الله.

والقرآن الكريم تضمن آيات كريمات من الممكن أن يفهم منها الإشارة إلى بعض وسائل الحرب النفسية المعروفة حديثًا، منها إثارة الرعب والتحدي والسخرية والجدال وغيرها.

كما استخدم قادة المسلمين الحرب النفسية بمختلف وسائلها ومن ذلك:

استخدام خالد بن الوليد(١) للحرب النفسية في كثير من معاركه فقد استخدم أسلوب التمويه بصفوف الجيش لمخادعة الأعداء كما في غزوة مؤتة(٢).

---

(١) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عمرو القريشي المخزومي سيف الله، أحد أشراف قريش في الجاهلية، وأحد أعلام الصحابة في الإسلام، أسلم سنة خمسة من الهجرة، وأبلى في المعارك الإسلامية بعد إسلامه بلاء حسنًا، مات في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وقيل: بحمص. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٤١٣، ٤١٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧، ٢٤٨)، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٣، ٢١٤).

غزوة مؤتة: كانت سنة ٨ هجرية في جمادي الأولى، استعمل الرسول ﷺ على قوات المسلمين ثلاث قواد: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة فاستشهدوا جميعًا فاصطلح

كما قاتل خالد بأسلوب النظام الخماسي(١) والكراديس(٢) وباغت الأعداء به حيث لم يكن الأعداء على دراية بهذا النظام، فلقد كان خالد ﷺ سباقًا في هذا المجال(٣).

كما برزت الدعاية كوسيلة مهمة من وسائل الحرب النفسية في عهد بني أمية فلقد تفوقوا فيها وأجادوا فنونها وأساليبها(٤).

وصلاح الدين الأيوبي من قواد المسلمين البارزين في استخدام وسائل شتى من وسائل الحرب النفسية منها التورية والتمويه لأعدائه ليخفى عليهم غرضه، كما استخدم العملاء السريون «الجواسيس» لتأتيه بأخبار أعدائه، كما استخدم عامل المفاجأة لأعدائه والمفاجأة وسيلة مؤثرة من وسائل الحرب النفسية(٥).

وإذا كان هذا شأن قواد المسلمين في استخدامهم الحرب النفسية فيجدر أن نشير

= الناس على قيادة خالد بن الوليد لهم، فراوغ الروم وانصرف بجيش المسلمين لما كان فرق العدد بينهم شديد. انظر: زاد المعاد لابن القيم (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(١) النظام الخماسي: هو ترتيب القوات لتكون محمية من الجهات الأربع، وذلك بترتيب ميمنة وميسرة ومقدمة وساق، ثم جعل القلب في الوسط. انظر: الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوافل (٢/ ١٥٨).

وقد أشار سيدنا خالد على سيدنا أبي عبيدة بن الجراح في معركة اليرموك أن يقاتل بهذا النظام. انظر البداية والنهاية (٧/ ٨).

(٢) الكراديس هي: مشابهة للنظام الخماسي، عدا أن تشكيلات النظام الخماسي وهي «الميمنة والميسرة والمقدمة والساق والقلب» يتألف كل منها من عدد من الكراديس «الكتائب». انظر: الحرب النفسية من منظور إسلامي، د. أحمد نوافل (٢/ ١٥٩)، وانظر: عبقرية خالد لعباس محمود العقاد (ص٢٢٣، ٢٢٤)، ط/ دار الهلال، بالقاهرة.

(٣) انظر تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٦).

(٤) الحرب النفسية في صدر الإسلام، د/ محمد بن مخلف، ط/ دار عالم الكتب (ص٣٨) نقلاً عن محمد منير حجاب، الدعاية السياسية في العصر الأموي، جامعة أسيوط، ١٤٠٦هـ.

(٥) انظر عبد العزيز سيد الأهل، أيام صلاح الدين -القاهرة- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة التعريف بالإسلام، رقم (١٠)، طبعة (١) ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م (ص١٤٥).

إلى أن أعداء المسلمين قد استخدموها أيضًا.

فهاهم المغول قد استخدموا الجواسيس في حملاتهم التي شنوها على البلاد الإسلامية كما لجأوا إلى الشائعات لتجسيد وتشنيع عدد قواتهم وعنف جنودهم فاسم القائد المغولي «جنكيز خان» مقترن بالرعب وقيل عنه إنه كان يمتنع عن الطعام والشراب قبل أي معركة لمدة يومين أو ثلاثة وبعد هذا يجمع قواته في ساحة واسعة بينما يمتطي أحد خيوله جاريًا بسرعة بين أفراد قواته ويفتش عليهم وبعدها يأتي بحديدة وينحر الحصان في صدره، ويحبو القائدة على ركبتيه ويمتص دم الحصان حتى يروي ظمأه وجوعه وعندما يقف يعني أن ساعة الصفر قد دقت فتبدأ المعركة(١).

ويعد ما قام به نابليون بونابرت حينما حاول غزو مصر عام ١٧٩٧م ليستعبد أهلها ويستغل ثرواتها فادعى أنه قدم ليخلص المصريين من ظلم المماليك وخلع على نفسه لقب «حامي الإسلام»(٢).

وتعد تلك صورة من صور الحرب النفسية وهي الخداع والتمويه.

وكل النماذج السابقة تؤكد امتداد جذور الحرب النفسية عبر التاريخ فلقد استخدمت بوسائلها المختلفة وإن كانت لم يطلق عليها بعد «الحرب النفسية».

ومنذ مطلع القرن العشرين لازمت الحرب النفسية السياسة الدولية للدول الكبرى. ففي الحرب العالمية الأولى تحولت الحرب النفسية من وسيلة حربية إلى آلة عسكرية رئيسية، وقد قيل أن الحرب النفسية فيها كانت هي السلام الذي كسب الحرب، حيث نشرت الدعاية بين الجانبين المتضادين، وكانت الحرب النفسية بينهما سلاحًا قاطعًا احتلت الدعاية فيه مكان الصدارة عن طريق وسائل الاتصال المختلفة.

وكان لأمريكا في الحرب العالمية الأولى هيئتان للدعاية وهما: الوكالة الدولية

---

(١) الحرب النفسية بين الكلمة والطاقة، وليد الكيلاني (ص٣٩)، القيادة العامة للقوات المسلحة الأردنية، عمان، ١٩٧٥م.

(٢) انظر: الحرب النفسية ومعركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر (١/ ٨٠، ٨٢).

للمعلومات والوكالة العسكرية وفيها قسم للدعاية والحرب النفسية[١].

كما استخدمت بعض الدول الإذاعات كوسيلة فعالة في القيام بأعمال التشويه ضد إذاعات الدول المعادية، فقامت تلك الإذاعات بجذب انتباه عدد كبير من المستمعين والتأثير عليهم وتطورت هذه الوسيلة إلى ما يمكن أن نسميه حرب الإذاعات.

هذا بالإضافة إلى استخدام وسائل النشر وعمليات الدعاية والحرب النفسية بين الدولة المتحاربة، وظهر ما يسمى بحرب الأفكار أو المعتقدات حتى أصبحت حرب اليوم حربًا نفسية كاملة شاملة لها هدف واحد هو نفسية الإنسان[٢].

والملاحظ أن الحرب النفسية حديثًا يتولى إدارة دفتها الدول الكبرى، كل دولة تستعرض عضلاتها لتبين إمكانياتها في تلك الحرب وتستغل الوسائل المعددة أمام الدول الأخرى على حساب الشعوب الضعيفة أو ما يسمونه حديثًا بدول العالم الثالث الذي يقطن فيه معظم الشعوب الإسلامية والعربية.

وهذا يعطينا دلالة واضحة على أن المستهدف بهذه الحرب الآن هما الإسلام والمسلمين اللذان كانا مستهدفين بها في الأمس.

ولكن الحال بين اليوم والأمس تغير كثيرًا فالمسلمون بالأمس كانوا أقوياء بدينهم متمسكين به، على دراية كافية بطبيعة الأعداء وحقيقة الأمور فكانوا يقظين لما يكاد لهم وكانوا يحسنون الرد عليه والدفاع عن دينهم.

أما الآن فحالهم لا يخفى على أحد حيث أصبحوا غثاء كغثاء السيل لا حول لهم ولا قوة تتداعى عليهم الأمم يلتهمون خيراتهم وينفذون فيهم مؤامراتهم فما أحوجهم إلى أن يعودوا لمصدر عزتهم وهو كتاب الله وسنة رسول الله.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٨٧، ٨٨).

(٢) انظر: الحرب النفسية في صدر الإسلام العهد المدني، د/ محمد مخلف (ص٤١، ٤٢)، ط/ عالم الكتب، الرياض، ١٤١١هـ/ ١٩٩٢م.

الفصل الأول
صور من الحرب النفسية
في عهد الأنبياء قبل محمد ﷺ

ويشتمل على:

تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد: بعض الوسائل في الحرب النفسية التي تعرض لها الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- إجمالاً.

المبحث الأول: الحرب النفسية ضد نوح -عليه السلام- وكيف قاومها.

المبحث الثاني: الحرب النفسية ضد إبراهيم -عليه السلام- وكيف قاومها.

المبحث الثالث: الحرب النفسية ضد موسى -عليه السلام- وكيف قاومها.

المبحث الرابع: الحرب النفسية ضد عيسى -عليه السلام- وكيف قاومها.

تمهيد

إن المواجهة بين الحق والباطل قديمة قدم البشرية فمنذ أطل الحق على ظهر الأرض والباطل يريد الوثوب عليه، والتخلص منه، حتى يخلو له جو الأرض فيعبث فيه كيف يشاء، ويملأه خرابًا وفسادًا وظلمًا وإلحادًا.

ومما لا شك فيه أن الباطل في صراعه الطويل مع الحق قد استخدم كل الأسلحة الممكنة للقضاء على هذا الحق من حرب عسكرية واقتصادية وسياسية وهي ما نسميه في العصر الحاضر بالحرب النفسية.

ومما يلفت النظر ويسترعي الانتباه أن القرآن الكريم في معالجة الحرب النفسية التي تعرض لها رسل الله السابقين قد سلك طريقين:

الطريق الأول: أن القرآن تناول ما تعرض له الرسل السابقون من الحرب النفسية على وجه الإجمال والعموم.

الطريق الثاني: أن القرآن تناول ما تعرض له كل رسول من الحرب النفسية على حدة.

واتباعًا لمنهج القرآن سوف أذكر إن شاء الله في هذا التمهيد بعض ما ذكره القرآن عن الرسل إجمالاً من حيث ما تعرضوا له عليهم السلام من حرب النفسية.

ثم أتبعه إن شاء الله بالتفصيل بذكر ما تعرض له أولوا العزم من الرسل من حرب نفسية في المباحث التي تناولها هذا الفصل ولقد اقتصرت في ذكر الأنبياء بالتفصيل على أولوا العزم منهم عليهم الصلاة والسلام لأسباب، هذه الأسباب أهمها:

أولاً: أنهم أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن الكريم.

ثانيًا: نادرًا ما نجد نبيًا غيرهم قد تعرض لحرب نفسية لم يتعرضوا هم لها.

ثالثًا: أنهم أكثر من غيرهم من الأنبياء تعرضًا للحرب النفسية.

رابعًا: ضيق البحث عن أن يستوعب جميع الأنبياء على سبيل التفصيل.

ولذلك ونظرًا لشدة ما لاقاه أولو العزم من الرسل من الأذى ومن الحرب النفسية بمختلف صورها من أقوامهم فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يتأسى بهم عليهم السلام في الصبر على شدائد الدعوة ومصاعبها لأنهم ضربوا أروع الأمثلة في ذلك.

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

يقول العلامة أبو السعود في تفسيره لهذه الآية ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فاصبر على ما يصيبك من جهتهم كما صبر أولو الثبات والحزم من الرسل فإنك من جملتهم فإنهم صبروا على تحمل تبليغ الشرائع ومعاداة الطاعنين فيها[(١)].

والمراد بأولي العزم كما قال مجاهد[(٢)]: هم خمسة: نوح -عليه السلام-، وإبراهيم -عليه السلام-، وموسى -عليه السلام-، وعيسى -عليه السلام-، ومحمد ﷺ وهم أصحاب الشرائع[(٣)].

بعض الوسائل التي أشار القرآن الكريم إلى استخدامها ضد الرسل إجمالاً:

أولاً: الاستهزاء:

الاستهزاء وسيلة قوية التأثير من وسائل الحرب النفسية والتي استخدمت ضد أنبياء الله عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٥/ ٥٨٢) باختصار.

(٢) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المفسر الإمام، روى عن خلق كثير، وروى عنه عكرمة وقتادة وآخرون، قال -رحمه الله-: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وكان عالمًا بالتفسير، توفي إحدى أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة ومائة وله ثلاث وثمانون سنة. انظر: طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٠٥)، وتهذيب التهذيب (٤/ ٣٧٣)، وانظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، طبعة دار المعرفة، ط/ الثانية.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩/ ٦٠٤٠).

سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠].

يقول العلامة الألوسي[(١)] في تفسيره لهذه الآية:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ : تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من فوقه كالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل وأضرابهم، أي أنك لست أول رسول استهزأ به قومه فكم وكم من رسول جليل الشأن فعل معه ذلك.

فالتنوين في ﴿ بِرُسُلٍ ﴾ للتفخيم والتكثير[(٢)]، فالآية الكريمة فيها تسلية له ﷺ بأن هذا الإعراض والتكذيب الذي يلاقيه من قومه ليس بدعًا في تاريخ الدعوة إلى الحق، فقد لقى مثله من الرسل قبله وقد لقى المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كان به يستهزئون في نهاية المطاف، فالآية الكريمة تذكير للمستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم المستهزئين وتذكيرهم بهذه المصارع إذا هم لجوا في الاستهزاء والسخرية[(٣)].

والآية الكريمة تؤكد عدة معان منها:

أولاً: أن أسلوب الاستهزاء أسلوب تأصل في أعداء الله استخدامه في الحرب النفسية ضد الأنبياء وضد دعاة الحق على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة.

ثانيًا: أن الله سبحانه وتعالى يقف بجوار أتباعه أتباع الحق دائمًا فينتصر لهم وينتقم من أعدائهم.

ثالثًا: إذا فطن أتباع الحق إلى أنهم من الطبعي أن يكونوا محط استهزاء أعدائهم وأن الله ناصرهم فعليهم أن يصبروا ويحتسبوا ولا يضجروا ولا يتعجلوا ولهم في رسل الله

---

(١) العلامة الألوسي هو: محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ولد في بغداد سنة ١٢١٧هـ وجمع من العلم الكثير حتى أصبح شيخ العلماء في العراق واشتغل بالتدريس وهو ابن ثلاثة عشرة سنة وتوفي سنة ١٢٧٠هـ. انظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، ط/ دار الكتب الحديثة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، القاهرة (١٠/ ٣٥٢، ٣٥٤).

(٢) روح المعاني، للألوسي، الجزء السابع (٥/ ١٤٧).

(٣) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢/ ١٠٤٥).

عليهم السلام أسوة حسنة.

ثانيًا: التهديد:

يقال «هد» الصوت - هدؤا: غلظ، و«هدده»: أوعده وخوفه، و«تهدده»: مبالغة في هدده، و«التهداد»: التخويف والتوعد بالعقوبة(١).

والتهديد وسيلة أخرى من وسائل الحرب النفسية أشار القرآن الكريم إلى استخدامها ضد رسل الله عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣].

فالآية الكريمة تبين تهديد الذين كفروا لرسلهم بالإخراج من الأرض إن لم يتركوا عبادة الله وحده وتبين مبالغة الأعداء في ذلك، إذ يؤكدون قولهم بالقسم، وهذا ما يوضحه العلامة الشوكاني(٢) في تفسيره لهذه الآية إذ يقول: قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ القائلون هم طائفة من المتمردين عن إجابة الرسل واللام في ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم ﴾ هي الموطئة للقسم أي: والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا، لم يقتنعوا بردهم لما جاءت به الرسل، وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترءوا عليهم بهذا وخيروهم بين الخروج من أرضهم أو العودة في ملتهم الكافرة.

وقيل: إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي: إلى الرسل ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: قال لهم لنهلكن

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، استانبول، تركيا، بدون تاريخ (٢/ ٩٧٦).

(٢) العلامة الشوكاني هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ولد باليمن ١١٧٣هـ، وانتقل إلى صنعاء، وعمل فيها بالفتيا والتدريس والقضاء، له مؤلفات كثيرة منها: «نيل الأوطار»، و«الدرر البهية»، و«السيل الجرار»، و«فتح القدير» وغيرها، توفي سنة ١٢٥٠هـ انظر: معجم المؤلفين، لرضا كحالة (١١/ ٥٣).

الظالمين[1] فلا تنزعجوا بتهديدهم ولا تتأثروا له فنحن نتولى الذب عنكم.

ومما يستفاد من هذه الآية:

أولاً: أن الآية الكريمة فيها تسلية وتثبيت لقلب النبي ﷺ ولكل من تبعه حتى يصبروا على إخراج قومهم لهم.

ثانيًا: فيها دعوة عامة لدعاة الحق إلى الصبر والثبات أمام تهديد معانديهم.

ثالثًا: أن الدائرة دائمًا تدور على الظالمين وفي النهاية الحق سينتظر لا محالة.

رابعًا: أن أتباع الباطل لا يطيقون أتباع الحق إلى جوارهم وأمام أعينهم فهم دائمًا حريصون على إبعادهم بصور الإبعاد المختلفة من نفي أو سجن أو قتل، قال تعالى على لسان قوم لوط: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

ثالثًا: اتهامهم بالسحر والجنون:

وسيلة أخرى من وسائل الكفار من أقوام الأنبياء -عليهم السلام- أن اتهموا أنبياءهم بالسحر والجنون، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]، فالآية الكريمة تبين وحدة منهج الكافرين ضد أنبيائهم -عليهم السلام- مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة، فقد اتفقوا على اتهام أنبيائهم تهمتين شنيعتين «السحر والجنون» إمعانًا منهم في حرب أنبيائهم نفسيًا والتأثير على معنوياتهم فهم لشدة تشابههم في استخدام هذه الوسيلة وكأنهم أوصى بعضهم بعضًا وهم في الحقيقة لم يتواصوا وإنما جمع بينهم الطغيان.

---

(١) فتح القدير، للشوكاني (٣/ ١٠١).

يقول العلامة ابن عاشور(١) في تفسيره لهاتين الآيتين:

المعنى أن حال هؤلاء العرب المكذبين لمحمد ﷺ كحال الذين سبقوهم ممن كانوا مشركين من قبلهم فقد كانوا يصفون أنبيائهم بالسحر والجنون وزيادة ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ للتنصيص على إرادة العموم، أي أن كل رسول قال فيه فريق من قومه هو ساحر أو مجنون، وقد يجمعون بين القولين مثل ما قال فرعون لموسى عليه السلام(٢).

﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ﴾ تعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضًا بهذا القول حتى قالوا جميعًا.

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ إضراب عن أن التواصي جمعهم، إلا أن الجامع لهم على ذلك القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه(٣).

والآيتان الكريمتان تشيران إلى:

أولاً: أن الاتهام بالسحر والجنون تكرر مع الأنبياء عليهم السلام من أقوامهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ثانيًا: أنه من شدة تشابه استخدام الأعداء لوسيلة الاتهام للأنبياء بالسحر والجنون فكأنهم تواصوا بذلك.

ثالثًا: أن الحامل للكافرين على عدائهم للأنبياء واتهامهم لهم عليهم السلام بالسحر والجنون، إنما هو الطغيان ومجاوزة حدود الله.

---

(١) العلامة ابن عاشور هو: محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، كبير علماء تونس، ولي قضاؤه سنة ١٢٦٧هـ، ثم الفتيا سنة ١٢٧٧هـ له مؤلفات متعددة منها: «شفاء القلب الجريح»، و«هدية الأريب»، و«الغيث الأفريقي»، و«التحرير والتنوير»، توفي سنة ١٢٨٤هـ انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ١٧٣).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الجزء السابع والعشرون (١٣/ ٢١)، باختصار وتصرف.

(٣) روح المعاني للعلامة الألوسي، الجزء السابع والعشرون (١٥/ ٣٠).

رابعًا: أن الطغيان يعمي الأبصار ويطمس القلوب حتى يتسبب في قلب الحقائق وتزييف الواقع، ولم لا وقد قال الكافرون على أنبيائهم، سحرة ومجانين، وهم أرجح الناس عقلاً وأكملهم فكرًا.

خامسًا: شدة وضراوة الحرب النفسية التي تعرض لها أنبياء الله عليهم السلام على مر العصور.

رابعًا: التكذيب:

وسيلة أخرى من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها الكافرون مع أنبيائهم على اختلاف العصور، وهي وسيلة شديدة الأثر على نفس الأنبياء، ولم لا وهم الهداة المشفقون على أقوامهم الحريصون على الأخذ بأيديهم إلى طريق الرشاد.

وفي استخدام المعارضين لهذه الوسيلة إشارة قوية على إمعانهم في الصد عن سبيل الله والتعنت في قبول الحق والإذعان له، ومما يدل على تكذيب أنبياء الله من أقوامهم قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٢-١٤].

يقول العلامة الرازي(١) في تفسيره لهذه الآية: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر المكذبين هنا من الأمم السابقة تذكيرًا للمكذبين من أمة محمد ﷺ وإنذارًا بإهلاكهم واستئصالهم تسلية للرسول ﷺ وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل، كذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم(٢).

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي كل من هذه الأمم كذبوا رسولهم، ومن كذب رسوله

---

(١) العلامة الرازي هو: فخر الدين عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التميمي المعروف بالفخر الرازي، ولد سنة ٥٤٤هـ، وله مؤلفات متعددة منها: «مفاتيح الغيب»، و«المطالب العالية في علم الكلام»، و«شرح أسماء الله الحسنى»، توفي سنة ٦٠٦هـ، انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٢٤٨)، معجم المؤلفين لرضا عمر كحالة (١١/ ٧٩).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١٤/ ٤٣٢).

فكأنما كذب الرسل جميعًا.

﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فوجب لهم الوعيد الذي وعد به من كفر وهو العذاب والنقمة(١).

فالآيات الكريمات قد نصت على أن الرسل قد كذبوا من أقوامهم، فهم اشتركوا في التكذيب وإن اختلفوا في الأزمان والأجناس والأعراق.

وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم أشارت إلى أن أقوام الأنبياء قد استخدموا وسيلة التكذيب مع أنبيائهم، وهي وسيلة من وسائل الحرب النفسية شديدة الوقع على النفس.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٢-١٤].

ولعل تكرار المواضع القرآنية التي أشارت إلى تكذيب الأقوام لأنبيائهم ليدل دلالة واضحة على ضراوة الحرب النفسية التي عانى منها الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليمه من جرَّاء هذه الوسيلة.

ومن الآيات التي تؤكد استخدام الكافرين لهذه الوسيلة مع أنبيائهم ولكنها تزيد على الآيات السابقة في توجيهها للرسول ﷺ بالصبر تأسيًا بمن قبله من الأنبياء، كما أنها تحمل الوعد بالنصر والغلبة على المكذبين قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

يقول العلامة الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ ﴾ هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (١٥/ ٥٤٨٨)، بتصرف يسير.

أي أن هذا الذي وقع من هؤلاء ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل من قبلك فاقتد بهم ولا تحزن، واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا، حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فإنا لا نخلف الميعاد.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ما جاءك من تجرئ قومهم عليهم في الابتداء، وتكذيبهم لهم، ثم نصرهم عليهم في الانتهاء، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل فيرجعون إليك، ويدخلون في الدين الذي تدعوهم إليه طوعًا أو كرهًا[(١)].

فالآيات الكريمات جاءت للرسول ﷺ في معرض التسرية والمواساة له ﷺ وهي كذلك ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحًا، ودورهم محددًا، كما ترسم لهذه متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق.

إنها تعلمهم أن سنة الله سبحانه وتعالى في الدعوات واحدة، كما أنها كذلك واحدة لا تتجزأ، دعوات تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقى أصحابها بالأذى، وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى.

وسنة الله تجري بالنصر في النهاية، ولكنها تجيء به في موعده[(٢)].

خامسًا: التشكيك:

معنى الشك: ما خالف اليقين، يقال شكوك وشك في الأمر، وتشكك وشككه غيره[(٣)].

وقيل هو: اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، واشتقاقه إما من شككت

---

(١) فتح القدير، للشوكاني (٢/ ١١٦).

(٢) انظر في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٢/ ١٠٧٧)، القاهرة، دار الشروق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٧م، الطبعة الثالثة عشر.

(٣) القاموس المحيط لفيروز آبادي، بيروت، لبنان، دار الجيل، بدون تاريخ (٣/ ٣١٩).

الشيء أي خرقته، ويصح أن يكون مستعارًا من الشك وهو لصوق العضد بالجنب، وذلك أن يتلاصق النقيضان فلا مدخل للفهم والرأي لتخلخل ما بينهما[1].

والتشكيك وسيلة أخرى من وسائل الحرب النفسية المستخدمة ضد أنبياء الله عليهم السلام من أقوامهم، والذي يدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأقوام لم يكتفوا بالكفر والتكذيب، بل بالغوا في ذلك وتفننوا في معارضة الأنبياء وجحود ما جاءوا به فأعلنوا شكهم وريبتهم وأخذوا يبثون هذه الشكوك في مجتمعاتهم.

وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على تصاعد الحرب النفسية التي تعرض لها الأنبياء، وكأن أقوامهم كانوا يتفننون في رد دعوتهم وصرف الناس عنها.

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

يقول العلامة البيضاوي[2] عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ عضوا غيظًا مما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١١٩] أو وضعوها عليها تعجبًا منه أو استهزاء عليه كمن غلبه الضحك، أو إسكاتًا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرًا لهم بإطباق الأفواه[3] لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم، وقيل المعنى أنهم

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ، (ص٢٧٢).

(٢) العلامة البيضاوي هو: عبد الله بن محمد بن ناصر الدين البيضاوي صاحب التفسير المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، والمنهاج في الأصول وشرح المطابع في المنطق وغيرها، توفي سنة ٧٩١هـ، انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٥١٤).

أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها من المقالة، وهي قولهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ أي لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بألسنتنا هذه، وقيل: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردًا لقولهم، فالضمير الأول على الكفار، والثاني على الرسل.

وقيل المعنى: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم.

وقيل إن الأيدي هنا: النعم، أي ردوا نعم الرسل بأفواههم، أي بالنطق والتكذيب، والمراد بالنعم هنا ما جاءهم به من الشرائع(١).

﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي في شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان والتوحيد، ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة، وهي: قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء(٢).

فالآية الكريمة خطاب للنبي ﷺ ولأمته لإرشادهم وتنبيههم إلى ما كان يلاقيه حاملوا دعوة الحق من أقوامهم على مر العصور من كفر بيِّنٍ وجحود لآيات الله، والمبالغة في ردها ومعاندتها، ورد الخير الذي جاءت تحمله في طياتها، وهم مع ذلك لم يكتفوا بالفعال بل ساندوها بالأقوال التي تنطق بالمعارضة فأعلنوا كفرهم وشكهم فيما جاء به الأنبياء، بل أكدوا ذلك بأن ما جاء به الأنبياء موجب للشك والريبة، فلا يتسنى للرسول ﷺ وأتباعه أن يضجروا من معانديهم بعد ذلك فهم ليسوا أول من حوربوا في دعوتهم، وليسوا أول من أثيرت الشكوك حولهم، ولهم في الرسل من قبلهم أسوة حسنة.

وهكذا أشارت آيات القرآن الكريم إلى بعض وسائل الحرب النفسية التي استخدمت ضد الأنبياء إجمالاً على اختلاف أزمانهم، وقد تحدثت عن خمسة وسائل هي:

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٩٨) باختصار.

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء الثالث عشر (٨/ ٢٨٠، ٢٨١).

الاستهزاء، والتهديد، واتهامهم عليهم السلام بالسحر والجنون، والتكذيب، والتشكيك.

وقد بينت الآيات الكريمة مبالغة أقوام الأنبياء في استخدام هذه الأساليب مما يؤكد ضراوة الحرب النفسية التي تعرض لها أنبياء الله عليهم السلام، وبذلك أكون في هذا التمهيد قد اتبعت طريقة القرآن في الحديث عن الرسل عليهم السلام إجمالاً.

وفي المباحث التالية من هذا الفصل سأتحدث إن شاء الله عن أولي العزم من الرسل على وجه التفصيل.

المبحث الأول

الحرب النفسية ضد نوح -عليه السلام-
وكيف قاومها

نوح عليه السلام:

نسبه: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ أي «إدريس» فإدريس جده الأكبر، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليهما السلام.

وكان مولده بعد وفاة آدم عليه السلام بسبعمائة سنة وستة وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير وغيره، وكان بينه وبين آدم كما جاء في صحيح البخاري، عن ابن عباس[(١)] قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[(٢)].

ذكر نوح في القرآن الكريم:

ذكر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن الكريم، وذكرت قصته مفصلة في القرآن الكريم في كثير من السور الكريمة منها: الأعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، والقمر، وذكرت سورة له عليه السلام خاصة.

ويذكر المؤرخون أن نوحًا عليه السلام هو أول رسول وإن كان قبله أنبياء.

المدة التي عاشها نوح عليه السلام:

عاش نوح عليه السلام طويلاً فهو أطول الأنبياء عمرًا وأكثرهم جهادًا، فقد أقام في قومه تسعمائة وخمسين عامًا يدعوهم سرًا وجهرًا، ليلاً ونهارًا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنه لم يلق إلا كل تكذيب واضطهاد وصدود وإعراض فقد كانت قلوبهم أشد من الحجارة، وعقولهم أصلب من الحديد، ومع طول المدة التي أقامها نوح عليه السلام بينهم لم يؤمن برسالته إلا قليل.

---

(١) عبد الله بن عباس هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ كان يسمى البحر لسعة علمه، ويسمى حبر الأمة لدعاء الرسول ﷺ له بأن يعلمه الله تعالى الحكمة، استعمله علي بن أبي طالب ﷺ على البصرة، وعمي في آخر عمره، وتوفي سنة ٦٨هـ، وقيل توفي سنة ٧٠هـ، وقيل سنة ٧٣هـ انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير (٣/ ٢٩٥، ٢٩٩).

(٢) قصص الأنبياء، لابن كثير (ص٦١)، ط/ دار التراث العربي، باختصار وتصرف.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

وقد ذكر بعض المفسرين أن عدد الذين آمنوا معه كانوا عشرة وهم الذين ركبوا معه في السفينة، وذكر آخرون أنهم كانوا أربعين، والرواية الصحيحة التي وردت عن ابن عباس أنهم كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم[(١)].

والآيات التي تحدثت عن قصة نوح عليه السلام تشير إلى أنه قد بعث إلى قوم أشركوا بالله، وعبدوا الأوثان والأصنام، واتخذوا آلهة من دون الله اعتقدوا أنها تضر وتنفع وتبصر وتسمع، وأنها تستطيع أن تجلب لهم الخير وتدفع عنهم السوء، وتغني عنهم من دون الله، وهم أول قوم عبدوا الأصنام، وأشركوا بالله، ولهذا بعث الله سبحانه وتعالى إليهم نوحًا عليه السلام بالإنذار والتخويف[(٢)].

الحرب النفسية التي لاقاها نوح عليه السلام ومقاومته لها:

ما أشد ما لاقاه نوح عليه السلام من حرب نفسية من قومه وهي حرب ضروس تعرض لها عليه السلام لا هوادة فيها، اتخذت العديد من الوسائل، فهم لم يتورعوا عن إلقاء التهم عليه -عليه السلام-، ومجادلته بالباطل وتكذيبه والإعراض عنه.

وحتى نتخيل مدى ما عاناه نوح عليه السلام من قومه، علينا أن نتأمل قول الله عز وجل ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠]، إنه يستغيث بربه عز وجل، ويطلب منه النصر السريع والانتقام من أعدائه، وهذا يوحي بمدى اليأس الذي دب في قلب نوح عليه السلام، وهذا ما نلمحه في قول الله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

---

(١) النبوة والأنبياء للشيخ محمد علي الصابوني، دمشق، دار العلم من (ص١٨٧ حتى ص١٩٠) باختصار وتصرف.

(٢) المصدر السابق (ص١٩٠).

ومما يدل على تصاعد الحرب النفسية ضده عليه السلام، وأن قومه أغلقوا أمامه جميع الأبواب والنوافذ لهدايتهم، وأجهدوه غاية الإجهاد بحربهم النفسية له، أنه عليه السلام قد دعا عليهم أن يهلكهم الله.

قال تعالى على لسان سيدنا نوح: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

إن هذه اللهجة العادلة لتدلنا على مدى ما كان يعانيه نوح -عليه السلام- من قومه من حرب نفسية يمكن إجمال وسائلها ومقاومته لها فيما يلي:

أولاً: اتهامه عليه السلام بالضلال المبين:

كان رد قوم نوح عليه السلام على دعوته لهم بعبادة الله وتقواه وطاعتهم نوح عليه السلام هو مجابهتهم له باتهامه بالضلال المبين من أول لحظة، فهم لم يعطوا لأنفسهم ولو لحظة واحدة يفكرون فيها حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويتذوقوا حلاوة الحق الذي جاء يهديهم إليه.

فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦١]، فيا للعجب من قوم كان هذا ردهم: رسول رفيق بهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويحذرهم عذابه، فيكون ردهم عليه أنه في ضلال وليس ضلال وفقط، وإنما ضلال بين واضح.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ ٱلْمَلَأُ ﴾: الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء... وهم الذين يملأون صدور المجالس وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء.

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ ﴾ الرؤية: بمعنى الاعتقاد والظن، ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ خطأ ظاهر وضلال بين[(١)]، حكموا بضلاله وأكدوه بالتعبير بالرؤية العلمية، وبأن واللام، وبالظرفية المفيدة للإحاطة، كأنهم قالوا: إنا لنراك في غمرة من الضلال محيطة بك لا تهتدي معها إلى الصواب سبيلاً، وذلك لما رأوه عليه من الثقة بما يدعو إليه[(٢)].

فهم قالوا عن نوح عليه السلام إنه في ضلال مبين، وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدي هو الضال!

بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسخ في الفطر، هكذا تنقلب الضوابط، ويحكم الهوى ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل.

وهكذا ترد جاهلية كل عصر عن الهداة فيها أنهم أهل الضلال، فالجاهلية هي الجاهلية ولا يتغير إلا الأشكال والظروف[(٣)].

ولنا أن نتخيل ما يحدث لنفس نوح عليه السلام تجاه هذا الرد العنيد من إيلام وحسرة، ولم لا وهو النبي الصادق والداعية المخلص الحريص على هداية قومه والأخذ بأيديهم إلى طريق الرشاد.

ثانيًا: اتهامه بالجنون:

وسيلة من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها الملأ من قوم نوح عليه السلام أن اتهموه بالجنون ليردوا دعوته، ويساغ لهم في زعمهم إنكارها، ويفضوا الناس عنها.

قال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

يقول العلامة ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: وجملة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٧/ ١٦٣).

(٢) المنار للشيخ رشيد رضا (٨/ ٤٣٤).

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣/ ١٣٠٨، ١٣٠٩) باختصار وتصرف.

استئناف بياني لأن جميع ما قالوه يثير في نفوس السامعين أن يتساءلوا، إذا كان هذا حال دعوته في البطلان والزيف فماذا دعاه إلى القول بها؟ فيجاب بأنه أصابه خلل في عقله فطلب ما لم يكن ليناله مثله من التفضل على الناس كلهم، فقد طمع فيما لا يطمع عاقل في مثله فدل طمعه في ذلك على أنه مجنون.

والتنوين في ﴿ جِنَّةٌ ﴾ للنوعية أي هو متلبس بشيء من الجنون، وهذا اقتصاد منهم في حالة حيث احترزوا من أن يورطوا أنفسهم في وصفه بالخبال مع أن المشاهد من حاله ينافي هذا، فأوهموا قومه أن به جنونًا خفيفًا لا تبدوا آثاره واضحة، وأمروا قومهم بالانتظار عما ينكشف بعد زمان: إما شفاء من الجنة فيرجع إلى الرشد أو ازدياد الجنون فيتضح أمره، فتعلموا أنه لا اعتداد بكلامه[1].

فالآية الكريمة تبين كيف انقلبت الحقائق لدى هؤلاء القوم فوصفوا أكملهم عقلاً بالجنون، ولكنهم كانوا حذرين في وصفهم له بذلك خشية أن يعارضهم الناس لما يعرفونه عن رجاحة عقل نوح عليه السلام ولذلك وصفوه بالجنون الخفيف.

ولقد بينت سورة القمر أن قوم نوح وصفوه بالجنون بعد أن كذبوه، وبالغوا في تكذيبه وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنهم إنما أرادوا تسويغ تكذيبه.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ أي لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأسًا كذبوا نوحًا لأنه من جملة الرسل.

وقيل معنى كذبت: قصدت التكذيب وابتدأته، ومعنى فكذبوا: أتموه وبلغوا نهايته.

﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون[2] وهي

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الجزء الثامن عشر (٩/ ٤٤) بتصرف يسير.

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء السابع والعشرون (١٥/ ١٢٤).

إشارة إلى أنه أتى بالآيات الدالة على صدقه، حيث رأوا ما عجزوا عنه، وقالوا هو مصاب الجن، أو هو لزيادة بيان قبح صنعهم، حيث لم يقنعوا بقولهم أنه كاذب، بل قالوا أنه مجنون أي يقول ما لا يقبله عاقل، والكاذب العاقل يقول ما يظن به أنه صادق، فقالوا: ﴿ مَجْنُونٌ ﴾ أي يقول ما لم يقل به عاقل، فبين مبالغتهم في التكذيب(١).

وأسند التكذيب إلى جميع القوم؛ لأن الذين صدقوه عدد قليل، فإنه ما آمن به إلا قليل، وأعيد «كذبوا» لإفادة توكيد التكذيب أو هو تكذيب قوي، ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ وهو افتعل من الزجر، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة، ومعناه: ازدجروه أي نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة(٢).

وهكذا فقد جمعت هذه الآية ذكر وسائل مختلفة من وسائل الحرب النفسية في مواجهة نوح عليه السلاح، وذلك يؤكد ولا شك مدى الأثر الذي أثرته الحرب النفسية على نفس نوح عليه السلام، فلقد كذبوه وبالغوا في تكذيبه جريًا على سنتهم في تكذيب أنبياء الله عليهم السلام.

ولم يكتفوا بهذا، بل ادعوا أنه مجنون، كما منعوه من ممارسة دعوته بشتى الوسائل القاسية فنوح عليه السلام عكف على التفنن في وسائل دعوتهم إلى طريق الحق، وهم عليهم لعنة الله قد عكفوا على التفنن في وسائل معاداته وردِّ دعوته.

ثالثًا: الجدال:

تعريف الجدال في اللغة: اللدد في الخصومة والقدرة عليها(٣).

وفي الاصطلاح: الجدل والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٦٦).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الجزء السابع والعشرون (١٣/ ١٨٠، ١٨١) باختصار.

(٣) لسان العرب، لابن منظور (١/ ٥٧١) ط/ دار المعارف.

(٤) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص٢٩٨)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٦هـ.

والجدل وسيلة خطيرة من وسائل الحرب النفسية، أمعن الملأ من قوم نوح عليه السلام في استخدامها في حربهم النفسية ضد نوح عليه السلام، وأثاروا في جدالهم مع نوح عليه السلام جملة شبهات تبريرًا لرفضهم دعوة نوح، ويمكن إجمال هذه الشبهات فيما يلي:

أولاً: كون نوح عليه السلام من البشر.

ثانيًا: النبي يكون ملكًا.

ثالثًا: أن أتباع نوح من الأرذلين.

رابعًا: أنهم لا يرون لنوح ولا للمؤمنين به من فضل عليهم.

خامسًا: أنه بدعوته يريد أن يتفضل عليهم.

سادسًا: أنه رجل مجنون[1].

سابعًا: أنهم يرون نوحًا وأتباعه من الكاذبين.

قال تعالى حكاية عن قوم نوح وما أثاروه من شبهات في جدالهم مع نوح عليه السلام: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥].

يقول العلامة الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ...﴾ الآية.

الآية الكريمة فيها ذكر ما أجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم

---

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د/ عبد الكريم زيدان (٢/ ١٣٧).

في نبوته من ثلاث جهات، فقال: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ والملأ: الأشراف، ووصفهم بالكفر ذمًا لهم، ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته أي نحن وأنت مشتركون في البشرية فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا.

والجهة الثانية: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ ولم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية في اتباع هؤلاء الأراذل لك، والأراذل هم: الفقراء والذين لا حسب لهم.

والجهة الثالثة: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي وما نرى لك ومن اتبعك من الأراذل علينا من فضل تتميزون به، وتستحقون ما تدعونه.

ثم أضربوا عن الثلاثة مطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان فقالوا: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ فيما تدعونه[1].

فالآية الكريمة تضمنت بعض صور جدالهم مع نحو عليه السلام:

وأما باقي هذه الصور فقد تضمنها قول الله عز وجل: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ... ﴾ الآية.

قال الملأ هذه المقالة بعدما دعاهم نوح عليه السلام إلى عبادة الله وحده، ولكنهم يكرهون ذلك لخوفهم من الدين الجديد الذي يزيل الفوارق ويعامل الناس على السواء، وهم لا يريدون ذلك، فكيف يخضعون لدين يجعل نوح رئيسهم وهم مرءوسون تابعون له، فأخذوا يثيرون الشبهات ضده ما يدفعهم إليها إلا الكبر والغرور والحقد والحسد فأخذوا يقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم من عامتكم ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، لو أراد الله إرسال رسول لأرسل ملائكة، وما نوح إلا رجل

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٠٦).

مجنون فانتظروا حتى يكشف ما به[1].

﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ عطف هنا جواب الملأ من قومه بالفاء لوجهين:

أحدهما: أنهم لم يوجهوا الكلام إليه بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح.

الثاني: ليفاد أنهم أسرعوا بتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر.

ووصف الملأ بأنهم الذين كفروا للإيماء إلى أن كفرهم الذي أنطقهم.

﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ ﴾ كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة بدليل من ذاته بحجة أن المساواة في البشرية مانعة من الوساطة بين الله وخلقه.

﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ما جاء برسالته إلا حبًا في أن يسود عليكم، فرؤساء القوم خافوا على سيادتهم القوم بدعوى نوح بالرسالة.

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ بعدما منعوا كون الرسول بشرًا قالوا: لو شاء الله إرسال رسول لأنزل ملائكة رسلاً.

﴿ مَّا سَمِعۡنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ مستأنفة قصدوا بها تكذيب الدعوة بعد تكذيب الداعي.

﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ أمروا قومهم بانتظار ما ينكشف عن أمره بعد زمان، إما شفاء من الجنة فيرجع إلى الرشد، أو ازدياد الجنون فيتضح أمره فلا يعتد به[2].

الرد على الشبهة التي أثارها قوم نوح في جدالهم معه:

بالطبع لم يقف نوح عليه السلام مكتوف الأيدي أمام هذه الشبهات التي أثارها

---

(١) انظر: التفسير الواضح، د/ محمد محمود حجازي، الجزء الثامن عشر (٢/ ١٣، ١٤)، القاهرة، دار التفسير، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، باختصار وتصرف.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الجزء الثامن عشر (٩/ ٤٢، ٤٤) باختصار.

الملأ من قومه ولقد حكى القرآن الكريم رده عليه السلام عليهم:

الرد على شبهة البشرية:

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨].

أي أخبروني إن كنت على برهان من ربي في النبوة يدل على صحتها مع كون ما جعلتموه قادحًا ليس بقادح في الحقيقة، فإن المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة.

﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ هي النبوة أو المعجزة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ فعماها الله عليكم، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ أي أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها؛ فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله[(١)]، فهل يساغ لكم أن تجعلوا بشرية الرسول عقبة في سبيل اعتناقكم للرسالة.

الرد على شبهتهم في أن النبي يكون ملكًا:

لقد احتج قوم نوح في جدالهم مع نوح عليه السلام أن النبي يكون ملكًا وليس بشرًا، فلو شاء الله إرسال أحد لأرسل ملائكة ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فرد عليهم نوح عليه السلام بما حكاه القرآن الكريم: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣]، أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لينذركم ولتتقوا نعمة الله ولا تشركوا به[(٢)].

ووجه الرحمة في كون الرسول من البشر وليس من الملائكة: أن البشر في حالتهم العادية غير مستعدين لرؤية الملائكة في حالتهم التي خلقوا عليها، ولهذا لو أرسل الله

---

(١) فتح القدير (٢/ ٥٠٦، ٥٠٧) باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٢٣).

تعالى رسولاً من الملائكة لجعله في صورة رجل حتى يمكن للبشر أن يروه ويسمعوا منه، وعند ذلك يعتقدون أنه بشر وليس ملك فلا يتحقق ما يريدونه من أن يكون الرسول ملكًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

أي لو جعل الله تعالى الرسول المبعوث إلى البشر ملكًا، لجعل الله تعالى هذا الملك متمثلاً في صورة بشر لتمكينهم من رؤيته، وسماع كلامه الذي يبلغه من الله تعالى، ولو جعله الله تعالى ملكًا في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر، وحينئذ يقعون في نفس اللبس في استنكارهم كون الرسول بشرًا[1].

الرد على شبهتهم في أن الأرذلين هم أتباع نوح:

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٢٩-٣١].

والمعنى: أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: أنا لا أطلب مالاً منكم على تبليغكم رسالة ربي حتى يتفاوت الحال عندي بسبب كون المستجيب للدعوة فقيرًا أو غنيًا، وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أم أغنياء فأنا أدعوهم، فمن يستجب فهو من أتباعي وجلسائي فقيرًا كان أو غنيًا، وكأن القوم سألوا نوحًا عليه السلام أن يطرد الذين آمنوا من مجلسه، فقال لهم: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أي ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا من

(١) تفسير المنار، لرشيد رضا (٧/ ٢٦٠).

قربي وجواري، لاحتقاركم لهم ووصفكم إياهم بالأراذل جهلاً منكم بقدرهم ومنزلتهم عند الله الذي سيلاقونه، فيكون نوح عليه السلام قد قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عز وجل، ولمنزلتهم العالية عنده تعالى، ويمكن أن يكون نوح قال هذا على وجه الاختصام، أي لو فعلت ذلك وطردتهم من قربي ومن مجلسي لخاصموني عند الله تعالى، فيجازيهم على إيمانهم بأحسن الجزاء، ويجازي من طردهم بما يستحق من العقاب.

ثم أكد نوح عليه السلام هذا البيان بوجه آخر فقال: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أي كما لا أسألكم مالاً فكذلك لا أدعي أني أملك مالاً، ولا لي غرض في المال، لا أخذًا ولا دفعًا، ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي، ولأتباعي، ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ حتى أتعظم بذلك عليكم، بل طريقي الخضوع والتواضع، ومن كان هذا شأنه وطريقه فإنه لا يستنكف عن مخالطة المؤمنين الفقراء والمساكين.

ثم أكد نوح عليه السلام عزمه على عدم طرد الذين آمنوا بقوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِىٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا ۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباع نوح مع الفقر والذلة إلى النفاق، فقال إني لا أقول ذلك لأنه من باب الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، وعلى هذا فأنا لا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم إنه ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، فالله تعالى أعلم بما في نفوسهم، فإن كانوا مؤمنين باطنًا كما هو الظاهر من حالهم فلهم من الله حسن الجزاء، ولو ادعى لهم أحد بشر بعدما آمنوا لكان ظالمًا قائلاً ما لا علم له به[1].

---

(١) المستفاد من قصص الأنبياء للدعوة والدعاة، د/ عبد الكريم زيدان (١/ ١٤٠، ١٤١)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، وانظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٤٣) باختصار وتصرف، والمنار لرشيد رضا (١٢/ ٥١، ٥٢) باختصار وتصرف.

الرد على شبهتهم أن لا فضل لنوح ولا للمؤمنين عليهم:

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧]، وشبهتهم هذه تدل على جهلهم، ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ لأن الفضيلة المعتبرة عند الله هي القرب من الله ومراقبته وتقواه وليست بالجاه ولا المال كما كانوا يزعمون، وإن كان الأمر كذلك فنوح وأتباعه هم أصحاب الفضل الذي لا يداني قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما أن قولهم في شبهتهم هذه ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ مبنية على الظن الذي لا أساس له من الصحة والذي يسقط أمام الحق الواضح، الذي يقبله العقل السليم[١].

الرد على شبهتهم في أن نوح يريد بدعوته أن يتفضل عليهم:

وشبهتهم هذه باطلة وزعمهم فاسد، فنوح عليه السلام كشأن الأنبياء يريد هدايتهم، وتبليغ رسالة الله عز وجل لهم، وهذا في مصلحتهم ومنفعتهم، ولا يريد أن يتفضل عليهم كما يقولون.

ولكنها شبهة أثاروها ليسوغوا معاندتهم له، ففي الحقيقة ما منعهم من اتباعه إلا الحقد والحسد والكبر، وحرصهم على رئاستهم الزائلة، وزعامتهم المزيفة.

كما أن قولهم «إن هو إلا رجل به جنة» قول باطل، لأنهم يعلمون كمال عقله، وأن الله لا يرسل مجنونًا[٢].

رابعًا: السخرية:

كانت وسيلة السخرية من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها الملأ من قوم نوح عليه السلام معه، وتفننوا في استخدامها كشأن غيرهم من أعداء الحق في كل زمان ومكان.

---

(١) انظر المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د/ عبد الكريم زيدان (١/ ١٤٣، ١٤٤).
(٢) انظر المصدر السابق (١/ ١٤٤).

قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

يقول العلامة الرازي في تفسيره لهاتين الآيتين: واختلفوا فيما لأجله كانوا يسخرون، وفيه وجوه:

الوجه الأول: أنهم كانوا يقولون: يا نوح كنت تدعي رسالة الله لك فصرت بعد ذلك نجارًا.

الوجه الثاني: أنهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقًا في دعواك، لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق.

الوجه الثالث: أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها، وكانوا يتعجبون منه ويسخرون.

الوجه الرابع: أن تلك السفينة كانت كبيرة، وهو كان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جدًا، وكانوا يقولون ليس هنا ماء، ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة، وإلى البحار، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون.

الوجه الخامس: أنه لما طالت مدته مع القوم، وكان ينذرهم بالغرق، ما شاهدوا من ذلك المعنى خبرًا ولا أثرًا غلب على ظنونهم كونه كاذبًا في ذلك المقال، فلما اشتغل بعمل السفينة لا جرم سخروا منه، وكل هذه الوجوه محتملة(١).

فالأقوال التي ذكرها العلامة الرازي تبين لنا الكثير من صور السخرية التي اتبعها قوم نوح عليه السلام معه، مما يؤكد أثر السخرية على نفسه عليه السلام، فقد كانت سخريتهم استهزاء منه، وتسفيهًا له، وادعاء عليه بالجنون، ورميه بالكذب، واستبعادًا لما يخوفهم منه، وينذرهم عاقبته.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٨/ ٥٢٤).

كل هذا كان من وجوه سخرية قوم نوح عليه السلام منه فيا لصبر نوح، ويا لكونه مثلاً يحتذى في الصبر على الإيذاء واحتمال الأذى.

ولقد ورد في القرآن الكريم ما يفيد رد نوح عليه السلام عليهم في السخرية منه بما هو أبلغ وأقوى في الأثر، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

والمعنى: إن تسخروا منا لهذا العمل، ومباشرة أسباب الخلاص فإنا نسخر منكم لما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة، ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي.

وإطلاق السخرية عليهم حقيقة وعليه عليه السلام للمشاكلة، لأنها لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، وفسرها بعضهم بالاستجهال وهو مجاز؛ لأنه سبب للسخرية، فأطلقت السخرية وأريد سببها، وقيل ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ في الدنيا، ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ في الآخرة، أو عند غرقكم.

ثم من جملة الرد:

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي يفضحه أو يذله أو يهلكه، وهو عذاب دائم ومستمر، وهو عذاب النار(١).

فإذا كان مصيركم هو ذاك، فاسخروا كيف شئتم فالعاقبة الحسنى للمؤمنين.

والتعبير بالمضارع هو الذي يعطي للمشهد حيويته وجدته، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول ويدعوهم، ثم إذا هو ينقلب نجارًا يصنع مركبًا، إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ولا

---

(١) روح المعاني للألوسي، الجزء الثاني عشر (٧/ ٧٥، ٧٦) باختصار وتصرف.

يعلمون ما وراءه من وحي وأمر، شأنهم دائمًا في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما ورائها من حكمة وتقدير، فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء بأنه يبادلهم سخرية بسخرية ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾.

نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أنحن أم أنتم يوم ينكشف المستور عن المحظور[1].

فالآيات الكريمة تصور لنا فرق الصراع وموقف كل فريق، إنهم فريقان لا ثالث لهما:

فريق يسخر عن جهل، ولا يرى إلا تحت قدميه، وفريق على نور من الله يبعث فيه الأمل، والثقة، والصبر فيعل غير مكترث لما يفعله الجهال، أو يقولونه، فهو يعلم أن النصر له، والدائرة على أعدائه، ينتظرهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وفي المشهد الذي تصوره الآيات عبرة لأولي الألباب من أصحاب الحق في كل زمان ومكان، وهي عبرة لمن كان له عقل يفكر ليرى مصير كل فريق لكي يعلم مصير الفرق المشابهة على مر العصور.

خامسًا: التهديد:

كان نهاية المطاف في وسائل قوم نوح في حربهم النفسية ضده بعدما جربوا الكثير من الوسائل ففشلوا وسقط في أيديهم، لجأوا إلى التهديد له عليه السلام عسى أن يحطم معنوياته ويقلع عما هو عليه.

قال تعالى حكاية لما هددوه به ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦] أي لئن لم تنته يا نوح عن سب آلهتنا وعيب ديننا لتكونن من المرجومين

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٧).

بالحجارة، وقال ابن عباس: من المقتولين[١].

وفي تفسير ابن كثير[٢] لهذه الآية: أي ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ عن دعوتك إيانا إلى ذلك تكونن من المرجومين، أي لنرجمنك[٣].

والرجم: الرمي بالحجارة، وقد غلب استعماله في القتل بها[٤].

فما عساه أن يفعل تجاه هذا التهديد الشديد بالقتل والرجم؟ هل يقلع عما هو عليه، ويخافهم، ويخاف سطوتهم، أم هل يمضي في طريقه ولا يعبأ بهم؟

وللـرد على هذا السؤال نتأمل قول الحق -عز وجل- على لسان نوح عليه السلام: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].

والمعنى: أي يا قوم إن كان كبر، أي شق وعظم عليكم قيامي، أي إذا ثقل عليكم قيامي أي بشيء فيكم، وتذكيري إياكم، وتخويفي لكم بعذاب الله، فأجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله تعالى، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، أي ليكن أمركم ظاهرًا تتمكنون فيه مما شئتم لا كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد، ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي توجهوا إليّ ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٤٨٣٧).

(٢) ابن كثير هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوى الحافظ عماد الدين أبو الفداء، كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، سمع الكثير وأقبل على حفظ المتون والرجال والتاريخ حتى بلغ في ذلك وهو شاب له مؤلفات عديدة، توفي سنة ٧٤٧هـ، انظر: طبقات المفسرين للنووي (١/ ١١١)، وإنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ لابن حجر، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م (١/ ٣٩)، والبدر الطالع لمحاسن من بعد القرن التاسع للعلامة الشوكاني، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٨٤هـ (١/ ١٥٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٤١).

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الجزء التاسع عشر (٩/ ١٦٣).

مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أبالي بكم ولا أخافكم، لأنكم لستم على شيء وأنا متوكل ومعتمد على الله[١].

وهكذا يجيب صاحب الحق الذي يعرف قدر الحق الذي معه، فهو لا يرهب وعيدًا، ولا يخاف تهديدًا، فالله معه خير وكيل ونصير.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٢٥)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٣٢٠١، ٣٢٠٢)، ومحاسن التأويل للقاسمي (٩/ ٣٨٨٠، ٣٨٨١).

الحرب النفسية ضد أتباع نوح عليه السلام

ولم تقل الحرب النفسية ضد المؤمنين بشاعة وجرأة ووقاحة عن تلك التي كانت ضد نوح عليه السلام، والدافع الحقيقي وراء تلك الحرب هي أن أتباع الرسل دائمًا ما يكونون من الفقراء والمستضعفين.

من هنا اتخذ قوم نوح مبررًا للهجوم عليهم وعلى نوح ورسالته في نفس الوقت، إذ أنهم لم يتصوروا أن يكون هؤلاء الفقراء أسبق منهم إلى اتباع الخير والحق والعدل، ومع أن هذا شغب مرفوض، ودجل واضح إلا أنهم استغلوا ذلك في النيل من هذه العصبة المؤمنة التي لا تتجاوز العدد القليل، كما يحكي القرآن الكريم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

استغلوا ذلك في حربهم النفسية وبالغوا في الإساءة إليهم وتحقير شأنهم، ورميهم بالوضاعة، وقلة التدبير، والتروي، وانعدام التفكير، لقد عز عليهم أن يسبقهم الفقراء إلى النور وغالى بهم غرورهم عن معرفة وجه الحق والانصياع لأمر الله، فاتخذوا من لا شيء مطية إلى تحقيق أطماعهم، وإلى تحقيق دخائل نفوسهم، فشنوا حربًا نفسية شعواء ضد الأتباع المؤمنين، ويكفي في توضيح تلك الحرب التي شنها قوم نوح أن نقرأ الآيات التالية: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

الاستفهام للإنكار، أي كيف نتبعك ونؤمن بك والحال أن قد اتبعك الأرذلون؟ وهم الأقلون جاهًا ومالاً، والرذالة: الخسة والذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم(١).

فهم يعنون بالأرذلين: الفقراء، وهم السابقون إلى الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع، أو مكانة، ومن ثم فهم المسلمون السابقون، فأما الملأ من الكبراء فيقعد بهم كبرياؤهم،

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٠٦) باختصار.

وتقعد بهم مصالحهم القائمة على الأوضاع المزيفة المستمدة من الأوهام والأساطير[١].

وقال الله تعالى على لسانهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

ولم يكتفوا في حربهم النفسية ضد أتباع نوح عليه السلام، بذلك بل صعدوا الأمر بأن طلبوا من نوح عليه السلام أن يطردهم فهو استعظموا أن يساويهم وهؤلاء الفقراء دين واحد، ولكنه عليه السلام رفض الاستجابة لهم في طلبهم بطرد المؤمنين، وهذا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩] فهذا الرد من نوح عليه السلام كان ردًا قاطعًا لآمالهم في أن يطرد نوح عليه السلام المؤمنين، وكيف يطردهم وهم المستجيبون لأمر الله المؤمنون به لمجرد طلبكم لذلك أيها الجاهلون المعاندون.

ثم يبالغ أهل الكفر في التنكيل بالأتباع مما يدل على أن نفوسهم قد طفحت من الحقد والكراهية والاحتقار والسخرية، فإذا هم يطلبون من نوح عليه السلام أن يقول لأتباعه المؤمنين، إن الله لن يوفقكم ولن يهديكم ولن يتقبل منكم، وانظر إلى نوح عليه السلام إذ يقول: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٣١].

﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي: تحتقرهم وتستصغرهم أعينكم، يعني المؤمنين، وذلك أنهم قالوا عنهم أراذلنا، ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ﴾ أي توفيقًا وإيمانًا وأجرًا[٢]، لن أقول ذلك إرضاء لكبريائكم أو مسايرة لتقديركم الأرضي وقيمكم العرضية.

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ فليس لي إلا ظاهرهم، وظاهرهم يدعو إلى التكريم

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٥/ ٢٦٠٧).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٣٨١).

وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيرًا[(١)] فإن ما أعده الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا[(٢)].

﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إن ادعيت أي دعوة من هذه الدعاوي[(٣)].

ولقد سن المخالفون لنوح عليه السلام سنة سيئة في الأزدراء من الأتباع المؤمنين، واحتقارهم، والمكر ضدهم، ومحاولة إبعادهم عن نبي الله نوح، وهو مكر مكره الكفار مع الرسول ﷺ.

وكما رفضه نوح عليه السلام ورده ردًا قاطعًا كما يبين قول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩].

كذلك أوحى الله إلى نبيه الكريم برفض طلب الكفار إبعاد الفقراء من المؤمنين من مجلسه ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

فعلى الداعي المسلم والجماعة المسلمة الحذر من هذا المكر الخبيث من أهل الباطل المخالفين للدعوة الإسلامية وإن على الدعاة والجماعة المسلمة إظهار اعتزازهم باتباعهم المؤمنين، وإن كانوا فقراء أو مغمورين، أو أصحاب حرف بسيطة يستهين بها الناس، وإذا طلب أهل الباطل في جدالهم مع الدعاة أو مع الجماعة المسلمة رفض هذا الطلب رفضًا قاطعًا وباتًا وحالاً[(٤)] ولهم في نوح عليه السلام ومحمد ﷺ خير أسوة في ذلك.

وهكذا فقد كانت رحلة نوح عليه السلام مع قومه رحلة مريرة طويلة عصيبة

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٥).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (١/ ٤٥٥).

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٥).

(٤) المستفاد من قصص الأنبياء للدعوة والدعاة (١/ ١٦١).

لاقى فيها الكثير من ألوان الحرب النفسية، ولذا لما نجاه الله عز وجل ومن معه من المؤمنين عبر عن إنجائهم بقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٦].

فهذه العبارة القوية توحي بضراوة ما كان يعانيه نوح عليه السلام من أول لحظة للدعوة في رميه بأنه على ضلال مبين، ومرورًا بوصفه بالجنون، واختلاق الأباطيل الواهية، ومجادلته حول حجج ساقطة، والتهوين من شأنه وشأن أتباعه، وتصعيدًا للموقف بتهديده بالقتل والرجم، والقضاء عليه نهائيًا.

فالملأ من قوم نوح عليه السلام لم يكفوا عن توجيه الحرب النفسية له حتى بعد أن يئس من إيمانهم، واشتغل بصنع السفينة، فتوجهوا إليه بالسخرية والاستهزاء منه، إنه حقًا كرب عظيم، وحرب نفسية شعواء لاقاها نوح عليه السلام، وهو أول رسول من ولد آدم، وهو في ذلك يضرب المثل لجميع الرسل من بعده.

ويضرب المثل للدعاة المصلحين على مر العصور، وكانت نهاية قصة نوح عليه السلام عبرة لأولي الألباب حيث نجاه الله عز وجل ومن معه من الفئة المؤمنة، وأغرق الله القوم الكافرين جزاء وفاقًا لما واجهوا به دعوة الحق على لسان نبيهم نوح عليه السلام.

المبحث الثاني

الحرب النفسية ضد إبراهيم -عليه السلام- وكيف قاومها

سيدنا إبراهيم عليه السلام

نسبه: هو إبراهيم بن تاج بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفشذ بن سام بن نوح عليه السلام[١].

وإبراهيم هو الاسم العلم لخليل الرحمن أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح عليهما السلام.

ولد إبراهيم عليه السلام في أور الكلدانيين في العراق[٢] وأما أبوه فهو آزر كما ورد في القرآن الكريم[٣].

وكان قوم إبراهيم الذي ولد فيهم يعبدون الكواكب السيارة والأصنام[٤].

وقد دلت آثار أولئك القوم التي اكتشفت في العراق على صحة ما عرف في التاريخ على عبادتهم للأصنام الكثيرة كما ورد في القرآن الكريم، حتى كاد أن يكون لكل واحد منهم صنم خاص به سواء الملوك والسوقة في ذلك[٥].

وقد دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام.

وقد عاب إبراهيم على قومه في العراق شركهم بالله، وعبادتهم للأصنام، وجادل أباه، وقومه في ذلك، ثم أراد أن يلفت الأنظار إلى باطل ما هم عليه من عبادة غير الله بما حاججهم به، وبتكسيره الأصنام إلا كبيرها، ولكن لم يرجعوا عن كفرهم وضلالهم، وإنما قرروا إحراقه بإلقائه في النار، ففعلوا ذلك، ونجاه الله تعالى، ثم خرج إبراهيم عليه السلام ومعه ابن أخيه لوط إلى أرض الشام إلى الأرض المقدسة منها[٦]، وهي فلسطين

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص١٢٨).

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٤٠).

(٣) نفس المرجع السابق (٧/ ٤٤١).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٥١).

(٥) تفسير المنار، مرجع سابق (٧/ ٤٥٨).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٧٤، ١٨٥).

وكانت أرض الكنعانيين.

وأقام في مدينة أشكيل وهي مدينة نابلس، ثم رحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر ثم رجع إلى فلسطين(١) فأقام فيها مدة، وقد ولدت له زوجه هاجر ابنه إسماعيل، وقد خرج بها وبابنها إسماعيل وهو رضيع إلى مكة.

فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس: «**ثم جاء بها -أي بهاجر أم إسماعيل- وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند درجة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندها جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم رجع إبراهيم عليه السلام، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لن يضيعنا**»(٢).

ثم عاد إبراهيم إلى مكة، وقد كبر إسماعيل فرأى إبراهيم عليه السلام ذبحه لرؤيا رآها ثم فداه الله عز وجل.

وقد اشترك إسماعيل مع أبيه في بناء البيت، وقد خص الله إبراهيم بفضله باتخاذه خليلاً، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وإنما سمي إبراهيم خليلاً لشدة محبته عليه السلام لربه عز وجل، لما قام به من الطاعة التي يحبها الله ويرضاها، والخلة التي انتهى إليها إبراهيم عليه السلام هي أرفع مقامات المحبة.

ولم تثبت فضيلة «الخلة» إلا لإبراهيم عليه السلام كما ورد في كتاب الله عز وجل.

ولنبينا محمد ﷺ لما ثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ خطب في الناس، فقال فيما قاله:

---

(١) قصص الأنبياء، تأليف عبد الوهاب النجار (ص٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب (١١) (٤/ ١٧٣)، ط/ دار الشعب، بدون تاريخ.

«أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله»(١).

ثم مات الخليل إبراهيم عليه السلام، ودفن في الموضع الذي قامت عليه مدينة الخليل في فلسطين(٢).

إبراهيم عليه السلام والحرب النفسية:

إبراهيم عليه السلام، هو أبو الأنبياء، وهو أحد أولي العزم من الرسل، وارتبطت هذه الصفة بمدى ما كان يعانيه من إيذاء واضطهاد وحرب نفسية، وصبره عليها، ومحاجته لقومه والذين فضلوا أن يظلوا عاكفين على عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عن نفسها شيئًا فضلاً عن أن تغني عن غيرها.

والحرب النفسية ضد إبراهيم عليه السلام لم تكن هينة أو سهلة، وإنما كانت قاسية مؤلمة، وكانت تتسم بالجبروت والقسوة واستعمال القوة، وقد اتخذت هذه الحرب عدة وسائل منها:

أولاً: المجادلة، ثانيًا: التهديد

وسأوضح بإذن الله تعالى كل وسيلة على حدة:

أولاً: المجادلة:

والمجادلة وسيلة من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها المشركون مع إبراهيم عليه السلام، ولو أنها كانت مجادلة في الحق، كان لا بأس بها، وإنما كانت مجادلة في الباطل وللباطل، قصد بها التشويش والتشويه ضد إبراهيم عليه السلام ودعوته.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر، حديث رقم (٦) (٤/ ١٨٥٥)، ط/ الحلبي، بتاريخ ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

(٢) المستفاد من قصص الأنبياء للدعوة والدعاة، تأليف الدكتور/ عبد الكريم زيدان، ط/ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، (١/ ١٩٢).

استخدمها الناس على عامتهم، واستخدمها ملكهم، مما يؤكد مبالغتهم في استخدام هذه الوسيلة ضد إبراهيم عليه السلام.

فكانت حربًا نفسية ضده عليه السلام تعددت جبهاتها، ولكنه بالحق الذي معه درأها وتغلب عليها، فصارت كأن لم تكن وكانت الغلبة في النهاية لإبراهيم عليه السلام وللحق الذي معه بإذن الله.

وقد جاءت المجادلة مشتملة على قسمين:

أ- مجادلة الملك، ب- مجادلة قومه،

أ- مجادلة الملك له:

لقد حكت آيات القرآن الكريم بما دار بين إبراهيم عليه السلام من جدال، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى هل رأيت؟ أي هل رأيت الذي حاج إبراهيم، وهو النمرود بن كوس بن كنعان بن سام بن توم، قيل النمرود بن فالح بن عامر بن سالخ بن سام.

وقوله: ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ أي لأن أتاه الله الملك، بمعنى أن إيتاء الملك أبطره وأدركه الكبر والعتو فحاج لذلك، أو على أن وضع الحجاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، كما يقال: عاديتني لأني أحسنت إليك، أو وقت أن أتاه الله الملك[(١)].

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ فعن قتادة[(٢)]

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٥٢).

(٢) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي الحافظ العلامة المفسر، حدث عن كثيرين وكان =

أنه قال: كنا نحدث أنه ملك يقال له نمرود بن كنعان، وهو أول ملك تجبر في الأرض وهو صاحب الصرح ببابل، ذكر لنا لأنه دعا برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر، فقال أنا أقتل من شئت وأحيي من شئت[١].

فإبراهيم عليه السلام أراد بمقولته أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر: إنه يقدر أن يعفو عن القتل، ويكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جوابًا أحمقًا لا يصح نصبه في مقابلة محجة إبراهيم[٢].

ولما كان رد النمرود في منتهى المغالطة، انتقل إبراهيم عليه السلام إلى حجة أخرى يفحمه بها، ولا يستطيع الرد ولا الجدال، فقال كما جاء على لسانه في القرآن: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿ فَبُهِتَ ﴾ أي بقي مغلوبًا، لا يجد مقالاً، ولا للمسألة جوابًا[٣].

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ وكان أولى به أن يهتدي ويسلم لأمر واضح الظهور والجلاء وجدير بأن يؤمن به، ولكنه أبى الرجوع إلى الحق والإذعان به، والتسليم له، فكان التصميم على الكفر، فبهت وتحير لزم الضلال.

ب- جدال قومه له:

وإن كان هذا هو جدال الملك مع إبراهيم فإنه لم يكن الجدال الوحيد، بل جادله عامة قومه ليؤكد ذلك أن وسيلة الجدال قد استخدمت من جبهات العداء المختلفة ضد

=

أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئًا إلا حفظه، توفي سنة ثماني عشر، وقيل سبع عشر ومائة، انظر: طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٤٧)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ٥٤٠).

(١) الدر المنثور للسيوطي (١/ ٣٣١).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٥٢).

(٣) تفسير مفاتيح الغيب للرازي (٣/ ٥٦٦).

إبراهيم عليه السلام.

وقد بين القرآن الكريم ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ دليل على الحجاج والجدال، حاجوه في توحيد الله[1].

والمحاجة مفاعلة متصرفة من الحجة، وهي الدليل المؤيد للدعوى.

والمعنى أنهم سلكوا معه طريق الحجة على صحة دينهم أو على إبطال معتقده، وهو يسمع، فجعل سماعه كلامهم بمنزلة جواب منه فأطلق على ذلك كلمة المحاجة[2].

وحذف متعلق «حاجه» لدلالة المقام، ودلالة ما بعده عليه من قوله ﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ ﴾.

وقد ذكرت حججهم في مواضع من القرآن منها قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ويدخل في الحجاجة ما ليس بحجة ولكنه مما يرونه حججًا بأن خوفوه غضب آلهتهم كما يدل عليه قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾.

وقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ ﴾ أي أتجادلونني في توحيد الله وقد هداني للتوحيد والحق.

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ وذلك لأنهم قالوا له احذر الأصنام فإنا نخاف أن تمسك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إياها[3].

فكان رد إبراهيم عليه السلام عليهم إني لا أرهب آلهتكم، ولا أخافها؛ لأنها لا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٤/ ٢٤٦٥).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء السابع (٤/ ٣٢٦).

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١١١).

تضر ولا تنفع[١] فكان هذا ردًا على تخويفهم له من آلهتهم.

ثم بالغ في الرد ليبين لهم أنهم الأحق بالخوف، فقال لهم: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ من الأصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع[٢] وهي مأمونة الخوف[٣].

﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أي حجة وبرهانًا وهو القاهر القادر على كل شيء.

﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ ﴾ أولى ﴿ بِٱلْأَمْنِ ﴾ أنا وأهل ديني أم أنتم، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كان لكم عقل وعلم تستطيعون بهما التمييز لكان منهما الهداية لكم إلى الحق، وهو أنني على الحق الذي هو أحق أن يتبع أما أنتم فعلى باطل[٤].

وهكذا تستخدم الجبهات المختلفة الجدال بالباطل كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد إبراهيم عليه السلام لينالوا منه، ولكن هيهات فهو لم يتأثر بجدالهم، بل واستخدم نفس الأسلوب معهم، ولكن شتان ما بين جدال لهداية الناس إلى الحق وهو جدال محمود، وهو جدال سيدنا إبراهيم عليه السلام، وجدال يعمي الناس عن الحق وهو جدال النمرود وقومه.

وآيات القرآن الكريم تشهد بالحجج الواضحات التي استخدمها إبراهيم عليه السلام ليأخذ بيد قومه من الظلمات إلى النور، ونجح في أن يمس نفوسهم وضمائرهم، ولكنهم نكسوا على رؤوسهم، وأصروا على الباطل الذي يعيشون فيه.

وهذا ما يشهد له قول الله عز وجل بعد حكاية ما دار بين إبراهيم وقومه من إقناع

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٧٦) باختصار وتصرف.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ١١٢).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ٢٣٨٧).

(٤) معالم التنزيل مرجع سابق (٢/ ١١٢).

لهم ببطلان عبادتهم للأصنام، حيث يقول الله عز وجل حكاية عنهم ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤، ٦٥].

وهكذا فالحق دائمًا واضح ظاهر، تقتنع به ضمائر الناس المؤيد منهم والمعارض، ولكن المعارض تتكبر نفسه، ويأبى أن يذعن له ويخضع لسلطانه.

ثانيًا: التهديد:

وسيلة أخرى من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها أعداء الهدى والحق مع إبراهيم عليه السلام.

ولعلها أشد من سابقتها إيلامًا نفسيًا على إبراهيم عليه السلام لتعدد الجبهات المستخدمة لها وهي:

أ- تهديد أبوه له، ب- تهديد قومه له،

أ- تهديد أبيه:

فلقد هدده أبوه بعد رحلة طويلة من الدعوة إلى الله بالرفق واللين والعطف والحنان.

وكان الجواب بعد هذه الرحلة ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان أبي إبراهيم ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

يقول العلامة الرازي عند تفسيره لهذه الآية: اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ وأورد كل ذلك مقرونًا باللطف والرفق، قابله أبوه بجواب يضاد ذلك، فقابل حجته بالتقليد، فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ ﴾ فأصر على ادعاء آلهيتها جهلاً وتقليدًا، وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده

بالضرب والشتم.

قابل رفقه في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ﴾ بالعنف حيث لم يقل يا بني بل قال[١]: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾.

ولقد هدده أبوه بالرجم حيث قال: ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ بالشتم والقول قاله ابن عباس ومجاهد أو بالحجارة ﴿ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ اهجرني طويلاً أو اهجرني سليمًا قبل أن تصيبك عقوبتي[٢].

وهكذا يتلقى إبراهيم التهديد بالرجم والعقوبة والشتم من أقرب الناس إليه من أبيه الذي طالما دعاه بالرفق واللين، فما كان منه إلا الغلظة والفظاظة، إنها حقًا حرب نفسية شديدة على إبراهيم عليه السلام.

ب- تهديد قومه:

وإمعانًا في استخدام هذه الوسيلة من الجبهات المعادية لإبراهيم عليه السلام لم يقتصر الأمر عند تهديد أبيه له، بل تمادى حتى وصل إلى تهديد القوم له.

فقد هددوه بالقتل أو التحريق، قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت: ٢٤] إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام، أي قال: بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين[٣].

ولقد كشف القرآن عن غرضهم من تهديده حيث قال: ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا ﴾ [الصافات: ٩٨].

والمعنى أنه لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم.

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي (١/ ٤٧١).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢٣٧)، وانظر: تفسير ابن عباس (ص٣٣٤)، تحقيق راشد عبد المنعم الرجال، ط/ مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٩٢).

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهانًا نيرًا على علو شأنه، حيث جعل النار عليه بردًا وسلامًا(١).

قال تعالى: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

يقول العلامة أبي السعود في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل، وعيت بهم العلل، وهكذا ديدن المبطل المحجوج إذا قرعت شبهتهم بالحجة القاطعة وافتضح لا يبقى له مفزع إلا المناصبة ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإنه أشد العقوبات، ﴿ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها.

﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أي للنصر أو بشيء يعتد به، قيل القائل نمرود بن كنعان، وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون، وقيل: هدير خسفت به الأرض.

فيا للعجب ينتقمون هم لآلهتهم، أما كان أولى بها أن تنتقم لنفسها إنها مهانة وذلة لهم تنطق بها ألسنتهم، إنهم هم المنتقمون لآلهتهم بدلاً من أن تنتقم لنفسها ولهم مما لحق بها.

ولم يدع الله سبحانه نبيه بل جعل الناس عليه بردًا وسلامًا.

وانتقم ممن كادوا له، قال تعالى: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، وقيل معناه: أنهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم.

وقيل معناه: إن الله عز وجل أرسل على النمرود وأهله البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت واحدة في دماغه فأهلكته(٢).

إبراهيم الأسوة الحسنة:

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٢٩٨).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب، الحكيم لأبي السعود (٣/ ٥٢٦).

عندما ينتشر الباطل مزهوًا بما يملك من مال وعتاد، فقد وجب على أهل الحق أن يظهروا بمظهر القوة المعبر عن الحق في جماله وجلاله، ويرحم الله كل مؤمن يرى المبطلين من نفسه قوة.

قوة تكسر شوكتهم، ثم تهوى بهم في حضيض الذل، في الوقت الذي يبلغ فيه غرورهم مداه، وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام حين ضرب الأصنام، وبقوة أطارت صواب القوم الذين عادوا من سهرتهم الماجنة ليروا أصنامهم جذاذًا.

وهو درس من دروس الدعوة يلقنه عليه السلام مَنْ بعده... لتنهض أمة الإسلام في مواجهة الكفار صلبة الإرادة(١).

وهكذا فالنجاح دائمًا وبعد ضراوة الحرب النفسية وشراستها من نصيب الفريق الذي يؤيد الحق ويسعى له، فهذه هي سنة الله في خلقه، يدور الحق والباطل في حلبة الصراع، وتدور الحرب سجال وقد ينتصر الباطل في أول الأمر ولكنه انتصار مؤقت، أو إن أردت فقل هو إمهال مؤقت يليه النتيجة الحاسمة وهي انتصار الحق وآله.

---

(١) أصول الدعوة من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، د/ محمد محمود محمد عمارة (ص٦١)، ط/ مكتبة الإيمان.

المبحث الثالث

الحرب النفسية ضد موسى عليه السلام وكيف قاومها

سيدنا موسى عليه السلام

نسبه:

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لادي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام[١].

وأخوه هو هارون عليه السلام الذي بعثه الله عضدًا ومعينًا لموسى حين أراد الله أن يبعثه إلى فرعون لتبليغ رسالة الله، وكان ذلك بدعوة دعى بها موسى ربه، قال تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴾ [طه: ٢٩-٣٠].

ولادته:

ولد موسى عليه السلام في عهد الطاغية الأكبر فرعون عدو الله، الذي اشتهر بالطغيان والجبروت فنازع الله في ملكه، وادعى الربوبية وأعلن التمرد والعصيان وزعم أنه هو الإله المعبود من دون الله، واسم الطاغية الوليد بن مصعب ولقبه فرعون، وفرعون لقب كل من ملك أرض مصر من الجبابرة، كما أن كسرى لقب لكل من ملك بلاد فارس، وقيصر لقب لكل من ملك بلاد الروم.

مدة ملك فرعون:

عمر فرعون مدة تزيد على أربعمائة سنة في بني إسرائيل وهو يسومهم سوء العذاب فيسخرهم ويستخدمهم في أخس الأعمال وأحقرها، وقد صنفهم أصنافًا، فصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يتولون الأعمال القذرة، ومن لم يكن أهلاً للعمل فعليه الجزية.

فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يفرج عن بني إسرائيل بعث إليهم موسى عليه السلام لينقذهم من شر هذا الطاغية الجبار، ويخلصهم من ظلمه وطغيانه، فكانت بعثة موسى عليه السلام رحمة لبني إسرائيل وإنقاذًا لهم من ظلم ذلك الجبار العنيد.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص٢٩٦).

الرؤيا المنامية:

وذكر أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا أقبلت من بيت المقدس إلى بلاد مصر فأحرقتها وأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، فأفزعته تلك الرؤيا، ودعا الكهنة فقالوا له: سيولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاك ملكك على يديه، وهذا هو زمانه، فأمر فرعون بتقتيل الذكور من بني إسرائيل، وفي ذلك[1] يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩].

وكان فرعون مصر يقتل الذكور من بني إسرائيل حين ولادتهم، فلما ولد موسى خافت عليه أمه من القتل فألقى الله في قلبها أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم أي في البحر وهو نهر النيل، وهكذا فعلت إذ وضعته في تابوت وألقته في نهر النيل، ووصل إلى امرأة فرعون[2]، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٧-٩].

عندما قالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك، قال لها قرة عين لك، قيل، ولو قال لي لهداه الله، وعاش موسى عليه السلام في بيت فرعون، وقد ألقى الله محبته في قلب آسية كما أحبه فرعون، وعطف عليه، وهو تصديق لقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه: ٣٩] وأخذت آسية تبحث له عن مرضعة عندما اشتد به الجوع فلم يقبل ثدي أحد، ورأت أخت موسى ذلك وهي ترقبه، فعرضت على امرأة فرعون أن تأتي لها بامرأة

---

(١) النبوة والأنبياء (ص٢٢٦-٢٢٨) باختصار.

(٢) المستفاد من قصص الأنبياء (١/ ٣٠٣) مرجع سابق.

مرضعة فقالت امرأة فرعون إن أخذ ثديها أكرمتها فلما وضعته أمه في حجرها التقم ثديها وأخذ يرضع من لبنها حتى ارتوى ففرحت آسية وقال لأم موسى اجلسي معنا في القصر، فأبت وطلبت من آسية أن تأخذ الرضيع إلى بيتها فوافقت على ذلك، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٠-١٣].

وشب موسى في بيت فرعون وعاش فيه معززًا مكرمًا، وكان يعيش عيشة أبناء الملوك فيركب مراكب فرعون ويلبس ما يلبس فرعون، وكان الناس يدعونه موسى بن فرعون، وترعرع موسى حتى إذا بلغ أشده دخل ذات يوم من الأيام المدينة وبينما هو يتجول في المدينة إذ برجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل وآخر قبطي من آل فرعون وقد اعتدى القبطي على الإسرائيلي، واستغاثه الإسرائيلي ليخلصه من شر ذلك القبطي فأقل نحوه موسى يريد أن يمنعه عن الاعتداء فوكزه موسى أي ضربه بمجمع يده فخر القبطي على الأرض ميتًا لا حراك فيه ولم يرد موسى قتله وإنما أراد إبعاده فكانت القاضية، فحزن موسى على قتله وندم على ما حدث وتنحى يستغفر الله، ولم يكن أحد رآه حين قتل القبطي إلا الله والإسرائيلي.

وأصبح موسى خائفًا يترقب وبينما هو يمر في شوارع المدينة إذ به يجد الإسرائيلي قد تشاجر مرة أخرى مع فرعوني ويستغيث بموسى مرة ثانية فذهب إليه موسى ليفتك بالفرعوني، ولكن الإسرائيلي ظن أنه يريده هو، فقال له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ ﴾ فوصلت الكلمات إلى فرعون فأخذ يبحث عن موسى ليقتله، فأخبر موسى رجل من آل فرعون يسمى حزقيل يكتم إيمانه بأن فرعون يريد

قتله، فخرج موسى هاربًا إلى أرض مدين، ودعى ربه أن يهديه الطريق ويأخذ العيون حتى لا يبصره أحد من أعدائه[1]، حيث صور القرآن الكريم تلك الأحاديث في الآيات التالية كما في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ١٥-٢١].

وصول موسى عليه السلام إلى مدين:

عندما وصل موسى إلى أرض مدين وجد أناسًا يسقون ووجد امرأتين تزودان أي تمنعان غنمهما عن الماء، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما، وذهب إليهما وسقى لهما، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣-٢٤].

وعندما قصت البنتان على أبوهما الخبر أمر باستدعاء موسى ليشكره على فعله،

---

(١) النبوة والأنبياء (ص٢٣٢).

وقص موسى عليه خبره فقال له: لا تخف، وعرض عليه الزواج من إحدى ابنتيه على أن يعمل معه مدة من الزمن، فعمل معه موسى مدة عشر سنين.

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧].

رجوع موسى إلى مصر:

بعد أن أمضى موسى عليه السلام السنوات العشر في أرض مدين، حن قلبه إلى وطنه فعزم على الرجوع إلى مصر مع أهله، وولده وبينما هو في الطريق في ليلة مظلمة باردة تاه في الطريق فلم يهتد إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يقدح شيئًا، واشتد الظلام، والبرد وكانت امرأته حاملاً وقد قرب أوان وضعها فتحير وبينما هو كذلك آنس من جانب الطور نورًا، فحسبه نارًا ﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾ [طه: ١٠] أي ابقوا هنا حتى آتيكم بقطعة من هذه النار تستدفئون بها، فعندما وصل إليها سمع خطاب الله عز وجل بأمره أن يخلع نعليه ثم يدخل ذلك الوادي المقدس حتى يقترب من جبل الطور فإن الله سبحانه وتعالى سيكلمه، ويجعله رسولاً، ثم يرسله إلى فرعون ليبلغه رسالة الله[1].

قال تعالى: ﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٠-١٤].

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وكانت الرحلة الشاقة ووصل موسى إلى

---

(١) النبوة والأنبياء (ص٢٣٧) باختصار وتصرف مرجع سابق.

مصر ليلاً، واجتمع بأخيه هارون وانطلقا إلى فرعون وأخذا يبلغاه رسالة الله، فاستكبر وأبى واتهمهما بالسحر، واستدعى السحرة لمناظرتهما، وآمنوا بهما لما رأوا الحق فقتل فرعون السحرة وطلب موسى من فرعون أن يأخذ بني إسرائيل ويخرج ولكن فرعون أبى، فأرسل الله عز وجل آيات من القحط والطوفات والجراد والقمل والضفادع والدم عسى أن يقلعوا عن إبائهم عن دعوة الله، ومع ذلك أصروا على طغيانهم.

وعندما يئس موسى من استجابة فرعون لمطالبه أخذ بني إسرائيل بأمر الله، وخرج وراءه فرعون فكانت هنا نهاية فرعون.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

وهكذا كانت نهاية العدو اللدود لدعوة الحق في عهد موسى عليه السلام.

فرعون والحرب النفسية ضد موسى عليه السلام

من المعروف في فقه كل مسلم أن بعض رسل الله عليهم السلام تحملوا في سبيل دعوة الله وإلى عبادته شتى ألوان العذاب.

والذي تحملوه أكثر من غيرهم من رسل الله الآخرين ومن المعروف أن المعنى بقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

هم خمسة من الرسل هم الذين تحملوا أعباء كثيرة، وقد ركز القرآن الكريم على سيدنا موسى عليه السلام وقومه تركيزًا واضحًا في معرض حديث القرآن عن الرسل والقصص، وقد زاد ذكر موسى عليه السلام في القرآن عن مائة وثلاثين مرة، ما لم يكن لرسول قبله هذا، بجانب الآيات الكثيرة التي تتحدث عن قومه والتي تحدثت عن صراعه مع فرعون وهامان مما يضيق به الحصر[1].

والقرآن في هذا يلفت الأنظار إلى شدة ما لاقاه موسى عليه السلام في سبيل الدعوة إلى الله وأنه لاقى في سبيل ذلك شتى ألوان الحرب وعلى رأسها الحرب النفسية الشرسة، والتي تولى كبرها ضد موسى عليه السلام جبهتان:

الجبهة الأولى: فرعون وملؤه.

الجبهة الثانية: بنو إسرائيل.

وفي الصفحات القادمة إن شاء الله سأحاول إلقاء الضوء على دور كلتا الجبهتين في الحرب النفسية ضد موسى عليه السلام.

أولاً: فرعون والحرب النفسية:

غني عن البيان أن فرعون كان أشد من تحدث عنهم القرآن الكريم من أعداء الله مغاضبة لله، وعنادًا في كفره، وتحديًا صريحًا مباشرًا لله حتى ادعى لنفسه شيئًا لا يليق

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أ/ محمد فؤاد عبد الباقي (ص٨٥٤، ٨٥٥)، ط/ دار الحديث، القاهرة.

لبشر ضعيف، فادعى الألوهية، بل بالغ في ذلك حتى ادعى الوحدانية المطلقة منكرًا أن يكون لأي إله آخر وجود.

والقرآن الكريم يصور لنا ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨].

وكان مستبدًا في آرائه متجبرًا متعنتًا مع خصمائه ومن تحت ملكه.

ويعرف الكواكبي(١) الاستبداد فيقول:

ومعنى الاستبداد تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بدون إرادتهم(٢) قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

لكن أعجب ما يلفت النظر في القرآن الكريم وهو سر عظمته وسموه، أنه لم يتحامل على فرعون تحامل خصوم الدنيا بعضهم على بعض، يتصيد الأخطاء، ولكنه ذكر لفرعون أنه أفسح المجال لموسى عليه السلام، حتى يقول ما عنده، فاستمع فرعون لموسى عليه السلام، على عكس ما يفعله ملوك الأرض اليوم مع مخالفيهم.

ورغم هذا نلمح من آيات القرآن الكريم استخدام فرعون لوسائل شتى من وسائل الحرب النفسية مع موسى عليه السلام منها:

أولاً: الاستهزاء.

ثانيًا: اتهامه بالسحر.

---

(١) هو: عبد الرحمن بن مسعود الكواكبي، من الكتاب الأدباء ومن رجال الإصلاح الإسلامي، ولد سنة ١٢٦٥هـ بحلب وتعلم فيها، ورحل إلى مصر واستقر فيها له من الكتب: «طبائع الاستبداد» «أم القرى» توفي سنة ١٣٢٠هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٢٩٨).

(٢) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م (ص٧١).

ثالثًا: اتهامه بالكذب.

رابعًا: المن أو التعيير.

خامسًا: اتهامه بالجنون.

سادسًا: اتهامه بالفساد.

سابعًا: التهديد.

أولاً: الاستهزاء:

وهو من الوسائل التي استخدمها فرعون في الحرب النفسية ضد سيدنا موسى عليه السلام من أول لحظة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

يقول تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام: إنه أرسله إلى فرعون وملأيه من الأحرار والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة من سواه، وأنه تعالى بعث معه آيات عظامًا كيده، وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع، والدم وغيرها، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاء بها[1].

أي فلما أتاهم بالحجج على التوحيد والبراءة من الشرك إذا فرعون وقومه يضحكون أي كما كان قومك مما جئتهم من الآيات والعبر يسخرون، وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيه ﷺ[2]، ففرعون وملؤه سخروا من موسى عليه السلام ومن الآيات التي جاء بها من أول وهلة دون تفكير أو تأمل أو إعمال نظر، ولا شك أن هذه الوسيلة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ١٢٩).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٥/ ٥٢٧٦).

لها من التأثير في نفس موسى عليه السلام الأثر الكبير، كما أن لها الأثر الكبير على نفس كل داعية صادق.

ثانيًا: اتهام موسى بالسحر:

استمرت سلسلة الحرب النفسية ضد موسى عليه السلام وذلك أن فرعون لما عجز عن مجاراة موسى في حجته وبيانه بدأ يلجأ إلى حيلة أخرى في حرب موسى لعلها تنال من موسى عليه السلام فبدأ يرميه بالسحر، وأعمال السحرة والشعوذة[(١)].

قال تعالى حكاية لذلك: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي أشراف قومه وأركان الدولة منهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي راسخ في العلم يريد أن يخرجكم من أرضكم.

أي قد وجه إرادته لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره، بأن يستميل الشعب المصري فيتبعه، فينتزع منكم الملك، ويستبد به دونكم.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بمعنى الإدلاء بالرأي[(٢)].

وهذا من تمام الحكاية عن قول الملأ، أو مستأنف من قول فرعون، تقديره: فقال ماذا تأمرون[(٣)].

فالآية الكريمة بينت أن الذين اتهموا موسى عليه السلام بالسحر هم الملأ من قوم فرعون.

وقد وردت آيات أخرى من القرآن الكريم تبين أن فرعون قد اتهم موسى عليه السلام بنفس التهمة كما ورد ما يبين أن فرعون وهامان وقارون قد اتهموا موسى عليه

---

(١) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية، رسالة ماجستير (ص١٧٨).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٢).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٢٨٣٢).

السلام بالسحر أيضًا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شراسة الحرب النفسية التي تعرض لها موسى عليه السلام حيث كانت الجبهات التي توجه له الاتهامات جبهات قوية ومتعددة، ففرعون كان ملك البلاد، وهامان كان وزيره، وقارون كان من أغنى أغنياء قومه، والملأ كانوا أشراف القوم ورؤسائهم.

فمن الآيات التي تدل على اتهام فرعون لموسى عليه السلام بالسحر قول الله عز وجل على لسان فرعون: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ ﴾ يعني أشراف قومه.

﴿ حَوْلَهُۥٓ ﴾ وهو ظرف مستقر وقع حالاً أي مستقرين حوله.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فائق في علم السحر(١).

وقدمت آيات القرآن الكريم على أن الذين اتهموا موسى بالسحر جهات ثلاث:

أولاً: فرعون ثم هامان وقارون ثم الملأ من القوم:

وقد ذكرت الآيات التي تحدثت عن الملأ من قوم فرعون، والآيات التي تتحدث عن فرعون، أما الآيات التي تحدثت عن هامان وقارون، فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

ولنا أن نتخيل قوة وشراسة الحرب النفسية التي يتولى كبرها عليه القوم ورؤساؤهم ضد نبي من أنبياء الله عز وجل.

ولم تقف الحرب النفسية من فرعون ووزرائه وملئه عند اتهامه بالسحر فقط، بل جمعوا له السحرة ليهزموه بسحرهم لاعتقادهم أن سحر سحرتهم أقوى من الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، والتي قالوا عنها إنها سحر، ونظرًا لأنهم كانوا على

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء التاسع عشر (١١/ ١١٣).

ثقة من هزيمة موسى عليه السلام، تركوا له أن يحدد مكان وزمان مناظرته مع السحرة.

وبذل فرعون أقصى جهده ليجمع أكبر عدد من السحرة، وأغراهم بالعطاء الوفير إن هم هزموا موسى، ثم كانت الصاعقة بأن آمن السحرة بموسى بعد أن رأوا صدق ما بيده من آيات، وأنها ليست سحرًا وانقلب كيد فرعون عليه، وبانت هزيمته، وانتصر موسى عليه السلام.

قال الله تعالى حكاية عن ذلك: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٥٧-٦٧].

﴿ قَالَ ﴾ يعني فرعون، ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ يعني أرض مصر.

﴿ بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ أي تريد أن تقلب علينا ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها[1].

والمعنى أنك يا موسى جئتنا من مكانك الذي كنت فيه بعد ما غبت عنا، أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر، وهذا مما لا يصدر عن عاقل لكونه من باب محاولة المحال، وإنما قال ذلك ليحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام،

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٢٢١) باختصار وتصرف.

بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم، بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد ويبالغوا في المدافعة إذ الإخراج من الوطن أخو القتل[1] كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي اضرب بينك وبيننا أجلاً وميقاتًا.

﴿ لَّا نُخْلِفُهُ ﴾ لا تجاوزه، ﴿ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ والمعنى اجعل بيننا وبينك موعدًا مكانًا نتواعد بحضورنا ذلك المكان ولا يقع منا خلاف في حضوره.

﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ أي تستوي مسافته على الفريقين، فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ في تفسير اليوم أربعة أوجه:

أحدهما: يوم عيد لهم، عن ابن عباس والسدي ومجاهد.

الثاني: يوم عاشوراء.

الثالث: يوم النيروز، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم في السنة.

الرابع: يوم سوق لهم[2]، قاله سعيد بن جبير[3].

وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي، الجزء السادس عشر (٩/ ٣١٥، ٣١٦) باختصار.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢٩٤، ٢٩٥) باختصار.

(٣) هو سعيد بن جبير بن هشام الأزدي، روى عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما، وعنه ابنه عبد الملك وعبد الله وآخرون، قال أبو القاسم الطبري: هو ثقة إمام حجة على المسلمين وكان سفيان يقدمه في العلم، قتل بين يدي الحجاج سنة ٩٥هـ، ولم يكمل الخمسين سنة. انظر: تهذيب التهذيب (٢/ ٢٩٢).

الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع القاص، لتقوي رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العَلَمْ في كل بدو وحضر[(١)].

﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ صحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضحى وهي حين تشرق الشمس، وخص الضحى لأنه أول النهار، فلو امتد الأمر فيما بينهم لكان في النهار متسع[(٢)] وواعدهم ذلك اليوم.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾ والمعنى أن فرعون تولى عن الحق الذي أمر به أو أنه انصرف إلى منزله للاستعداد ما يلقى به موسى وجمع مكره وحيلته.

﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي حضر الموعد[(٣)].

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ أي للسحرة الذين جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرًا مع كل واحد حبل وعصا، وقيل كانوا أربعمائة، وقيل: كانوا اثني عشر ألفًا، وقيل: أكثر من ذلك.

﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أي فيهلككم، وقال قتادة: فيستأصلكم[(٤)].

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أي خسر وهلك والمعنى: قد خسر من افترى على الله[(٥)].

فسيدنا موسى عليه السلام خوفهم من عقاب الله لهم لمعاندتهم نبيه، ومساعدتهم لطاغية كافر به، وهو بذلك يستعمل معهم حربًا نفسية تصل إلى قلوبهم فتصيبهم باضطراب وتحير، وكان هدف سيدنا موسى عليه السلام من استعمال الحرب النفسية

---

(١) حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري (٢/ ٥٤٢، ٥٤٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٦/ ٤٢٥٤) باختصار.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢٩٥).
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٤٢٥٤) باختصار.
(٥) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٧٤).

هنا أن يأخذ بأيديهم إلى الحق وإلى الإيمان بالله، ولذلك فقد أتت الحرب النفسية من سيدنا موسى ضد السحرة أكلها، فعندما خوفهم سيدنا موسى بالله ومن عقاب الله قالوا فيها بينهم إن هذا ليس بكلام ساحر.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه عليه السلام وتشاوروا وتناظروا ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ في كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول في ذلك.

﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ والمعنى أنهم بالغوا في إخفاء كلامهم عن موسى وأخيه عليهما السلام، وكان نجواهم أنهم لما سمعوا مقالة موسى عليه السلام قالوا فيما بينهم ما هذا بقول ساحر[1].

والآيات الكريمة توضح مدى الحرب النفسية التي أعدها فرعون للضغط على موسى عليه السلام فما بالك برجل واحد ويجتمع عليه الملك وحاشيته وقومه كل هؤلاء ضده فما بالك بحاله؟ إنها حرب نفسية ضده لا هوادة فيها، أراد بها فرعون الضغط عليه وتحطيم معنوياته وإرهابه، وكادت بالفعل هذه الحرب أن تؤتي أكلها لولا أن الله بجوار عبده لا يتركه لأعدائه ولا يسلمه لهم ولا يهزمه أبدًا.

قال تعالى مبينًا أن موسى بالفعل كادت أن تؤثر فيه هذه الحرب النفسية التي شنها فرعون وقومه ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧].

أي أحسن وقيل وجد وقيل أحمر وقيل خاف، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه[2].

والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته في ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى[3].

---

(١) روح المعاني للألوسي، الجزء السادس عشر (٩/ ٣٢٢)، باختصار وتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٧٦).

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٤٢).

ثم ينتهي المشهد بإيمان السحرة فكان إيمانهم أمرًا عظيمًا جدًا، وبرهانًا قاطعًا للعذر، وحجة دامغة على أن موسى عليه السلام رسول من رب العالمين، وذلك أن الذين استنصر بهم فرعون وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا وخضعوا وآمنوا بالله في الساعة الراهنة وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغُلب فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله(١).

ثالثًا: اتهامه بالكذب:

من وسائل الحرب النفسية التي بالغ في استخدامها فرعون وملأه ضد موسى عليه السلام بعد أن فشلت محاولاته لإثناء موسى عن موقفه بالاستهزاء منه واتهامه بالسحر، أن اتهموه بالكذب، والسمة التي تلاحظ على استخدام فرعون لهذه الوسيلة أنه كان يحاول إقناع أكبر قاعدة ممكنة بكذب موسى حتى يتحشد الجميع في وجهه ولا يكون فرعون بمفرده، وإذا تسنى له ذلك استطاع أن يقوي من حملته النفسية ضد موسى عليه السلام.

ولقد شهدت آيات القرآن بما حاوله فرعون من تشكيك في موسى بأنه كذاب وأن ما يقوله ليس وحيًا وإنما هو افتراء.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القصص: ٣٦].

﴿ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ الواضحات للدلالة على صحة رسالته وأنها من عند الله(٢).

﴿ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي سحر تعلمته أنت ثم تفتريه على الله، أو سحر ظاهر افتراؤه، أو موصوف بالافتراء كسائر جميع أنواع السحر وليس بمعجزة من

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٣٤) باختصار وتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٦٨).

عند الله[١]، والافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب[٢].

﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا ﴾ أي السحر أو إدعاء النبوة، أو بأن للعالم إلهًا يرسل الرسل بالآيات.

﴿ فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي كائنًا أو واقعًا في آبائنا الأولين[٣].

وتنقلب لديهم الحقائق وتختل لديهم الموازين حتى يدعوا أن آيات الله سحرًا ورسوله كاذبًا مختلقًا لهذه الآيات لمجرد التقليد الأعمى الذي يتمسكون به ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

وقال الله عز وجل مبينًا أن فرعون اتهم موسى بالكذب وحاول إقناع الناس بذلك ليحشدهم ضده، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨].

يقول العلامة ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: أراد فرعون بخطابه مع ملئه أن يثبتهم على عقيدة إلهيته ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ إبطالا لقول موسى المحكي في سورة الشعراء ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦].

فأظهر لهم فرعون أن دعوة موسى لم ترج عنده، وأنه لم يصدق بها.

فأمر وزيره هامان أن يصنع له صرحًا مرتفعًا ليرى الإله الذي زعمه موسى حتى إذا لم يجده رجع إلى قومه فأثبت لهم عدم وجود إله في السماء، وبهذا يخبر قومه أن نتيجة بحثه أسفرت عن كذب موسى، وبهذا يزدادون ثقة ببطلان قول موسى عليه السلام[٤].

---

(١) حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري (٣/ ١٧٦).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٣/ ٤٧٠٦).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٧٦).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠/ ١٢١، ١٢٢)، الجزء العشرون، باختصار.

وليس فرعون وحده هو الذي اتهم موسى بالكذب، بل معه هامان وقارون أيضًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

وهكذا يقود الحرب النفسية ضد موسى عليه السلام ملك القوم وعليتهم ليتهموا نبيهم بالكذب وهو الذي جاءهم بالهدى من ربهم ولكنه صلف القلوب وصدأ الصدور يحدوهم لمعاندة نبي الله، ومحاولة النيل منه ولكن أنى لهم ذلك، والله سبحانه وتعالى معه يثبته ويقويه يسمع ويرى.

رابعًا: المن أو التعيير:

والمن في اللغة يقال: من عليه منا فخر الله بنعمته حتى كدرها[1]، وفي التنزيل العزيز ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والمن على وجهين أحدهما: أن يكون بالفعل فيقال: من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وذلك على الحقيقة لا يكون إلا الله تعالى.

والثاني: يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس ولقبح ذلك قيل المنة تهدم الصنيعة[2].

والمن والتعيير من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها فرعون مع موسى عليه السلام من أول لحظة حيث عيره بتربيته إياه ورعايته له كما عيره بأن لم يقتله كما قتل الأطفال زمن ولادته عليه السلام، كما عيره بالنفس التي وكزها فماتت.

ولقد قصد فرعون بذلك أن يحرج موسى عليه السلام ويخزيه ويهزمه نفسيًا حتى يثني عن دعوته وكأنه يقول له يا من فعلنا بك ذلك لا يليق بك أن تعترضنا وتخالف أوامرنا.

---

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٨٨٨).

(٢) معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ص٤٩٤).

ولقد حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥-١٩].

يقول العلامة الشوكاني مبينًا أن خطاب فرعون لموسى كان على سبيل المن.

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ أي قال فرعون لموسى وهارون بعد أن أتياه وقالا له ما أمرهما الله به، ومعنى ﴿ فِينَا ﴾ أي في حجرنا ومنزلنا، أراد بذلك المن عليه والاحتقار له، أي ربيناك صغيرًا ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال.

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه، قيل: لبث فيهم ثماني عشرة سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وقيل أربعين سنة.

ثم قرره بقتل القبطي فقال: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ أي أنه لما عدد عليه النعم، ذكر له ذنوبه وأراد بالفعل قتل القبطي، ثم قال: ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي من الكافرين بالنعمة، حيث قتلت رجلاً من أصحابي، وقيل: المعنى ﴿ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بأن فرعون إله(١).

ووجه فرعون خطابه إلى موسى وحده لأنه علم من تفصيل كلام موسى وهارون أن موسى هو الرسول بالأصالة وأن هارون كان عونًا له على التبليغ فلم يشتغل بالكلام مع هارون، وأعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى وتخويفه من جنايته حسبانًا بأن ذلك يقتلع الدعوة من جذمها(٢) ويكف موسى عنها وقصده من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشية فرعون حيث أوجد سببًا يتزرع به إلى قتله، ويكون معذورًا فيه حيث كفر

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٩٤).

(٢) جذمها: جذورها.

نعمة الولاية بالتربية واقترف جرم الجناية على الأنفس[١].

ففرعون قد بدت من كلماته فحوى موقفه فهو كافر بنبوة موسى معاندًا لها وأراد بكلماته المن على موسى وتعييره واحتقاره ذلك كي يحدث داخل موسى هزيمة نفسية كما أنه لمح في كلامه بقتله، حيث بين مسوغات القتل بكفران النعمة وقتل النفس وبهذا إن قتل فرعون موسى لا يلومه أحد، ولكن موسى عليه السلام لا ينثني ولا يهتز لهذا الذي قاله فرعون، بل يرد عليه بكل قوة وصرامة مفندًا ما قاله ليبين حقيقة قتل النفس، وإنكار النعمة التي ذكرها فرعون، فما هي بنعمة تستحق المن ولكنها طغيان اقترفه فرعون في حق بني إسرائيل.

قال تعالى مبينًا رد موسى على فرعون: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي قال موسى مجيبًا لفرعون فعلت هذه الفعلة التي ذكرت وهي قتل القبطي وأنا إذ ذاك من الضالين، أي الجاهلين فنفى عليه السلام عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله.

وقيل المعنى: من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل، وقال أبو عبيدة من الناسين.

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١].

أي خرجت من بينكم إلى مدين ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ أي نبوة وعلمًا وفهمًا، وقال الزجاج المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله.

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢] قيل هو من موسى على جهة الإنكار أي أتمن علي بأن ربيتني وليدًا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم وهم قومي، ولولا هذا لكانت أمي مستغنية عن قذفي في اليم[٢].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الجز التاسع عشر (٩/ ١١٠).

(٢) فتح القدير الشوكاني (٤/ ٩٤، ٩٥) باختصار.

هكذا أجاب موسى عليه السلام على محاولة فرعون هذه ففندها وردها فأصبحت لا قيمة لها، ونفي الأساس الذي من أجله قام الحوار وهو كون موسى نبي داعي لفرعون المدعو وفشلت محاولة فرعون للعثمة موسى وقتل الدعوة في مهدها.

خامسًا: اتهامه بالجنون:

من وسائل فرعون في الحرب النفسية ضد موسى عليه السلام اتهامه بالجنون، وهي تهمة تكررت مع كثير من الأنبياء مع أقوامهم، مما يؤكد أن الكفر كله ملة واحدة وإن اختلفت العصور والأشخاص.

فما بالك بنبي هو من أكمل خلق الله وأرجحهم عقلاً يدعو قومًا في ضلال ويحاول الأخذ بأيديهم إلى سبيل الله المستقيم، وإذا هم يرمونه بالجنون قلبًا للحقيقة وصدودًا عن الحق وفضا للناس أن يستمعوا إليه فضلاً عن كونهم يستجيبون له، ولا شك أن ذلك له أكبر الأثر على نفس النبي ومعنوياته، ولقد حكى القرآن الكريم مقولة فرعون هذه لموسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

يبين العلامة الألوسي في تفسيره لهذه الآية أن فرعون قصد بهذا المبالغة في رد الرسالة وإثارة غضب الناس لردها وإنكارهم لها فيقول في تفسيره: ﴿ قَالَ ﴾ مبالغًا في الرد والإشارة إلى عدم الاعتداد بذلك مصرحًا بما ينفر قلوبهم عن قائله وقبول ما يجيء به.

﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ حيث يسأل عن شيء ويجيب عن شيء آخر وينبه على جوابه ولا ينتبه، وسماه رسولاً بطريق الاستهزاء وأضافه إلى مخاطبيه ترفعًا من أن يكون مرسلاً إلى نفسه وأكد ذلك بالوصف وفيه إثارة لغضبهم واستدعاء لإنكارهم لرسالته بعد سماع الخبر ترفعًا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلاً أن يرسل إليهم مجنون[١].

---

(١) روح المعاني، الجزء التاسع عشر (١١/ ١٠٧).

ويحكي لنا القرآن أن موسى عليه السلام رد عن نفسه هذه التهمة بأبلغ رد، فدعوته حق، حيث يدعو إلى عبادة الله رب المشرق والمغرب وكل شيء، وأنتم أيها المنكرون حقًا أنتم الذين لا تعقلون.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨].

أي إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة، وتلويح بأنهم بمعزل عن دائرة الحق، وأنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون[١].

هذا وإن كانت الآية في قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧] دلت صراحة على اتهام موسى بالجنون.

فلقد ذكر لنا القرآن أن فرعون قد اتهمه عليه السلام بخبال العقل وغيابه أيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ ﴾ أي دلالات واضحات فهي الآيات التسع وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات.

﴿ فَسْـَٔلْ ﴾ يا محمد، ﴿ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ موسى ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ أي مطبوبًا[٢].

وكلمة ﴿ مَسْحُورًا ﴾ ظاهرها أن معناها متأثرًا بالسحر أي سحرك السحرة

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي (٣/ ٤١١٠).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ١٣٩، ١٤٠) باختصار.

وأفسدوا عقلك فصرت تهرف بالكلام الباطل الدال على خلل العقل[١].

فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية.

فأما موسى فهو قوى بالحق الذي أرسل به مشرقًا منيرًا مطمئن إلى نصرة الله له وأخذه للطغاة[٢].

ولذلك يرد على مقولة فرعون هذه والتي يساغ أن ينطق بها كل طاغية في وجه داعية مصلح يرد ويكل قوة بدون تأثر بها.

فيقول كما يحكى القرآن ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون ﴿ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني الآيات التي أظهرها، وأنزل بمعنى أوجد ﴿ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند.

﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، والثبور: الهلاك والخراب، وقيل: بمعنى ناقص العقل[٣] والمعنى أنك مصروف عن الخير مطبوعًا عن الشر.

فرق بين ظن فرعون عليه اللعنة، وظن موسى عليه السلام فإن ظن فرعون كذب بحت، وظن موسى عليه السلام يحوم حول اليقين من تظاهر أماراته[٤].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الخامس عشر (٧/ ٢٢٦).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٢٥٢).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٩).

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٥٨٤).

فأنت يا فرعون هالك مدمر، جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره يملك هذه الخوارق وإنها لواضحة مكشوفة منيرة للبصائر حتى لكأنها البصائر تكشف الحقائق وتجلوها[1].

وهكذا يحاول فرعون عليه اللعنة أن يتهم موسى عليه السلام بنقصان العقل وغيابه ليثنيه عن دعوته، ويشكك الناس فيه.

فإذا موسى عليه السلام يرد عليه بتكذيب ما ادعاه وبيان إنكاره لما هو أوضح من ضوء الشمس وإعلامه بأنه هالك مدمر.

سادسًا: اتهامه بالفساد:

من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها فرعون ضد موسى عليه السلام أن اتهمه بالفساد بهدف تشكيك الناس فيه وفض الناس عنه وتسويغ قتله، وهي وسيلة تشي بمدى مغالطة هذا الطاغية وقلبه للحقائق، قال تعالى حكاية لمقولة فرعون هذه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ كان كلما هم بقتله كفوه بقولهم ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا ساحر يقاومه ساحر مثله.

وإنك إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرته بالحجة والظاهر أنه لعنة الله عليه استيقن أنه عليه السلام نبي ولكن كان فيه خب وجربذة وكان قتالاً سفاكًا للدماء في أهون شيء فيكف لا يقتل من أحس منه بأنه الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك فقوله ﴿ ذَرُونِىٓ ﴾ كان تمويها على قومه وإيهامًا أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٥٣).

﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ الظاهر الاستهانة بموسى عليه السلام بدعائه ربه سبحانه كما يقال ادع ناصرك فأني منتقم منك وباطنه أنه كان يرعد فرائسه من دعائه ربه فلهذا تكلم به أول ما تكلم وأظهر أنه لا يبالي لدعاء ربه(١).

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده(٢).

﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ وذلك باجتهاده الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب ويهلك الناس قتلاً وضياعًا، فالفساد الذي عناه فساد دنياهم فيكون حاصل المعنى على ما قرر أولاً إني أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل(٣).

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني عن موسى رسول الله عليه السلام ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾.

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادي؟ إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين(٤).

ثم لم يكن فرعون وحده هو الذي يتهم موسى بالفساد ويسمي دعوته إلى الحق فسادًا بل كذلك سار على دربه الملأ من قومه وذلك ما حكاه القرآن الكريم في قوله

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء الرابع والعشري (١٣/ ٩٤).
(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٧٠).
(٣) روح المعاني للألوسي الجزء الرابع والعشرين (١٣/ ٩٥).
(٤) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٧٨).

تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ مخاطبين له بعدما شاهدوا أمر موسى عليه السلام ما شاهدوا.

﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ ﴾ أتتركه، ﴿ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر، والمراد بالإفساد ما يشمل الديني والدنيوي أي يفسدوا الناس بدعوتهم إلى دينهم والخروج عليك، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما آمنت السحرة اتبع موسى عليه السلام ستمائة ألف من بني إسرائيل.

﴿ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾ معبوداتك يروى أنه كان يعبد الكواكب في آلهته وكان يعتقد أنها المربية للعالم السفلي مطلقًا وهو رب النوع الإنساني، وعن السدي أن فرعون كان قد اتخذ لقومه أصنامًا وأمرهم بأن يعبدوها تقربًا إليه[(١)].

فالملأ قد ساروا على نهج ملكهم في تسمية الحق فسادًا وتسمية من يدعو إليه مفسد فهو المنطق المقلوب الذي يقلب الحقائق ويزيف المسلمات وهو المنطق الذي يواجه الدعاة المصلحين من المناوئين المعادين لهم على مر العصور.

سابعًا: التهديد:

هو من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها فرعون وبالغ في استخدامها ضد موسى وأتباعه.

فمن الآيات التي شهدت بتهديد فرعون لموسى عليه السلام بالسجن قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

لما لم يجد فرعون لحججه نجاحًا ورأى شدة شكيمة موسى في الحق عدل عن

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء التاسع (٦/ ٤٤).

الحجاج إلى التخويف ليقطع دعوة موسى من أصلها وهذا شأن من قهرته الحجة وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد[(١)].

﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ أي لأجعلنك من أهل السجن أشد من القتل لأنه إذا سجن أحدًا لم يخرجه حتى يموت[(٢)].

وهكذا يهدد فرعون موسى وهو أسلوب الضعفاء عن الحجة العاجزين عن البيان يهدده ليرده عن الدعوة إلى الحق، ولكن هيهات له ذلك فموسى ماض في طريقه مهما كان التهديد، ولذلك يرد عليه ويقول له: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ويمعن في بيان آيات الله التي معه وتبليغ وحيه دون مبالاة بتهديد أو خوف من وعيد.

كذلك هدد فرعون موسى عليه السلام بالقتل وهو ما أشار إليه قول الله عز وجل ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

فالآية الكريمة حملت تلميح فرعون وتهديده لموسى عليه السلام بالقتل.

فما كان من موسى إلا أن بين له أنه لا يخافه لأنه يستعين بالله من كل متكبر فلا يضره كيد جبار، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧].

والمعنى أني التجأت إليه وتوكلت عليه، فهو ناصر دينه ومعز أهله[(٣)].

ولم يتوقف استخدام فرعون للتهديد عند موسى عليه السلام وفقط بل تعداه لأتباعه من بني إسرائيل حيث هددهم بقتل الأبناء واستحياء النساء، ونفذ تهديده وفي ذلك حرب نفسية خطيرة للنبي وأتباعه.

---

(١) التحرير والتنوير، الجزء التاسع عشر (٩/ ١٢١).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٩٦).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي (١٤/ ٥١٦٣).

وهذا ما أشار إليه قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ أي قال مجيبًا للملأ سنقتل أبناءهم تقتيلاً ما تناسلوا، فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج ونستبقي نساءهم أحياء كما كنا نفعل قبل ولادته حتى ينقرضوا.

﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل فلا يستطيعون إفسادًا في أرضنا، ولا خروجًا من حظيرة عبيدنا[١].

وأسلوب قتل الأولاد واستحياء النساء أسلوب اخترعه فرعون وجنوده كوسيلة من وسائل الحرب النفسية القاسية، وهي استحياء البنات واتخاذهم للخدم والعمل في القصور، فضموا إلى جريمة قتل الأبناء استحياء البنات وهي من الأشياء التي تثير حمية الرجال، وهذا النوع من أنواع الحرب النفسية من أقسى وسائل الحرب النفسية ألمًا على النفس وخصوصًا نفسية الرجال[٢].

ولم يتوقف تهديد فرعون لأتباع موسى من المؤمنين من بني إسرائيل بل تعداهم إلى السحرة الذين ناظروا موسى فلما علموا أنه على الحق آمنوا به فهددهم فرعون بتقطيع الأيدي والأرجل والصلب إن لم ينتهوا فأصروا على موقفهم ولم يلتفتوا إلى تهديده ففعل بهم ما فعل فضربوا أروع الأمثلة في هوان النفس في سبيل الحق.

قال تعالى حكاية لذلك: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٨).

(٢) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية (ص١٨١).

وَأَبْقَىٰٓ ۝ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٠-٧٢].

﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ أخرج ابن أبي حاتم قال: لما وقعوا له سجدًا رأوا أهل النار وأهل الجنة وثواب أهليهما فقالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات[١].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون للسحرة ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ أي لموسى عليه الصلاة والسلام، واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع، وقرئ على الاستفهام التوبيخي، ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ ﴾ أي من غير أن آذن لكم في الإيمان له[٢].

والمعنى لما رأى فرعون والملأ إيمان السحرة وقامت الحجة بإيمان أهل علمهم ومظنة نصرتهم، وقع فرعون في الورطة العظمى، فرجع إلى السحرة موبخًا لهم على إيمانهم بموسى قبل إذن لهم بالإيمان باعتباره أنه الحاكم المطاع[٣].

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ يعني موسى، ﴿ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ أي في سحركم وأعلمكم به وأستاذكم الذي علمكم السحر فتواطأتم على ما فعلتم أو فعلمكم شيء دون شيء فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين وألقاها على قومه، وأراهم أن أمر الإيمان منوط بإذنه فلما كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتد به وإنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما أظهروه كمالاً، وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس للسحرة في الإيمان بالله تعالى فلا عبرة بما أظهره كما لا عبرة بما أظهروه[٤].

وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم فكيف

---

(١) الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٣٠٣).
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم لأبي السعود (٣/ ٤٧٦).
(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (١١/ ١٠٩).
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم لأبي السعود (٣/ ٤٧٦).

يكون كبيرهم الذي علمهم صناعة السحر.

ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ ﴾ أي فوالله لأقطعن.

﴿ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ أي اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومن ابتدائية كأن القطع ابتداء من مخالفة العضو العضو، فإن المبتدأ من المعروض مبتدئ من العارض أيضًا، وهي مع مجرورها في حيز النصب على الحالية أي لأقطعنها مختلفتان.

وتعيين تلك الحالة للإيذاء بتحقيق الأمر لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة في باب السياسة لا لأنها أقطع من غيرها.

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أي عليها وإيثار كلمة ﴿ فِى ﴾ للدلالة على إبقائهم عليها زمانًا مديدًا[(١)].

إنه تهديد غليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ويسلطونه على الأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح، إنهم يستعلون بالقوة الغاشمة قوة الوحوش في الغابة، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب[(٢)].

فما عساهم أن يفعلوا تجاه هذا التهديد الغاشم الذي سيذهب بأرواحهم بعد أن يمثل بجسدهم هل يستبقون حياتهم أم هل يضحون بها في سبيل الحق الذي آمنوا به.

كانت النتيجة أن قالوا ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٣/ ٤٧٧).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٤٣).

الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد ﷺ مثل صدق(١).

وهكذا يضرب موسى عليه السلام وأتباعه من المؤمنين أروع الأمثلة في الصبر والثبات أمام كل هذه الضغوطات والتهديدات والنكال والتعذيب.

فكل ذلك لم يثنهم عن إيمانهم بل كانوا في وضعهم المهين معلمين لفرعون دروسًا في الصمود والإباء والشموخ، وكانوا في حالهم هذا مثالاً رائعًا في استعذاب العذاب والآلام وتحمل الأذى في سبيل الله، وكانت خسارة فرعون بقتلهم وتعذيبهم أكبر من خسارتهم؛ لأنهم ارتفعوا في أعين الناس وزادت مكانتهم وعظم شأنهم بينما هبط فرعون من عليائه وكبريائه إلى منزلة الوحوش والأنعام.

وكانت المشانق التي علقت لهم والصلبان التي مزقت أجسادهم مصباحًا ينير للإنسانية طريق الصراط المستقيم.

وكان بوقًا يهتف في آذان الغافلين أن هذا هو الصراط المستقيم فاتبعوه.

وكانت النتيجة النهائية فخرًا وشرفًا وعزًا للإيمان(٢).

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤١-٤٢].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء السادس عشر (٨/ ٢٦٦).

(٢) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية (ص١٨١، ١٨٢) باختصار.

بنو إسرائيل والحرب النفسية ضد موسى عليه السلام

شعب إسرائيل من الشعوب الغريبة الأطوار، المعقدة التركيب، شعب غليظ الرقبة بادي العداوة قاسي القلب لا قيمة عنده للعقيدة، ولا للأخلاق والقيم والمبادئ لا يقدس من ذلك شيء، تقديسه للمال والشهوات والملذات، يدوس على كل القيم والأعراف في سبيل متاع قليل فلا مانع لدى اليهودي أن يبيع عرضه مقابل حفنة قليلة من الذهب الأصفر، فإن بريقه أقدس لديه من كل شرف ومن كل خلق ومن كل عرض، وتاريخهم حافل بالأحداث الجسام(١).

والذي يعيش مع كتاب الله يجد أن القرآن الكريم قد أكثر من الحديث عن قوم غابرين وزراريهم المعاصرين للتنزيل، ولم يتحدث عن غيرهم معشار ما تحدث عنهم وهؤلاء القوم المغضوب عليهم هم اليهود، فتارة يحدثنا عنهم تحت عنوان «بني إسرائيل» وتارة يحدثنا عنهم تحت عنوان «اليهود»، وقد بلغ عدد السور التي تحدثت عن هؤلاء القوم اثنتين وعشرين سورة جلها من السور المدنية الطويلة وسميت أطول سورة في القرآن سورة البقرة لأنها تحدثت عن بقرة بني إسرائيل، وإن المتدبر لهذه الآيات يدرك أن القرآن الكريم يركز على طبيعتهم العدوانية وصفاتهم الذميمة من الكفر والكذب والغدر والخيانة ونقض العهد وتحريف الكلم عن موضعه وسوء الخلق والفحش والتفحش والاستهانة بالحق وأهله والاستهزاء بالأنبياء والشغب عليهم بصور كثيرة والتآمر عليهم وسفك دمائهم ودماء الذين يأمرون بالقسط من الناس.

وقد كشف القرآن الكريم حقيقة اليهود وهتك أستارهم وفضح مؤامراتهم، وبين وسائل مقاومتهم وذكر خصائصهم وصفاتهم وجرائمهم، والقرآن يصف اليهود الذين في عهد النبي ﷺ وقبله قتلة أنبياء ومغضوب عليهم لأن الأبناء لا يخرجون عن سياسة

---

(١) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية (ص١٨٤).

الآباء ويرضعون لبان الاعتداء والعدوان جيلاً بعد جيل، ويحملون الصفات الشريرة والأخلاق السيئة، ويتواصون بها على مرور الأيام وفي كل الأجيال.

نعم إن اليهود هم الذين قتلوا زكريا عليه السلام وقتلوا ولده السيد الحصور يحيى عليه السلام إذ قامت راقصة اسمها سلامة تطلب رأس يحيى من الحاكم الظالم الفاجر حتى تلبي له ما يريد من فسق وفجور وقطع رأس نبي من أجل بغي من بغايا بني إسرائيل.

وهم الذين تآمروا على عيسى عليه السلام وأرادوا قتله ويفخرون بأنهم قتلوه، ولكن الله تبارك وتعالى نجاه منهم ورفعه وطهره من رجسهم.

واليهود هم الذين تآمروا على قتل نبينا ﷺ في المدينة حينما اتفق يهود بني النضير أن يلقى على رأس النبي حجرًا ضخمًا من سطح المنزل الذي كان يتكئ عليه مسندًا ظهره إليه فنجاه الله من هذه المؤامرة الخبيثة وأعانه على تطهير المدينة منهم.

أليس أبناء وذراري الجيل الإسرائيلي الذين كانوا مع موسى هم الذين قتلوا رسول الله ﷺ فوضعوا له السم في الشاة المصلية بخيبر عن طريق يهودي حاقد.

فقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «**يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**»[(١)].

وهؤلاء الإسرائيليون بأجيالهم المتعاقبة يتمتعون بنفسية شريرة، وطوية خبيثة وسيرتهم تدل على أنهم أعداء لكل نبي ولكل رسول ولكل صالح من الناس لا يتورعون عن قتله إذا اقتضت مصلحتهم المادية ذلك.

قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١].

---

(١) صحيح البخاري، من فتح الباري (٩/ ١٩٥)، والأبهر عرض مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٩/ ١٩٦).

وواقع اليهود اليوم في عالمنا المعاصر يدل على هذه الصفة العدوانية الدموية الحاقدة فهم الذين حرقوا المسجد الأقصى ومنبر صلاح الدين الأيوبي وهم الذين رموا المصلين فيه بالرصاص، وهم الذين يريدون هدم المسجد الأقصى وتدميره وبناء الهيكل المزعوم مكانه، وهم الذين رموا المصلين في فجر منتصف رمضان في المسجد الإبراهيمي في الخليل، وعدوا الذي قتل العشرات من الركع السجود من أبطالهم ومن قديسيهم.

وهم الذين شنوا المذابح في فلسطين وخارج فلسطين ضد هذا الشعب الفلسطيني المسلم في قبيه ودير ياسين وحوسان وفوكين وتل الزعتر بمشاركة إخوانهم الصليبيين.

إن الذي حدثنا عن هذه النفسية العدوانية الدموية الخبيثة وحكم عليهم الحكم العادل هو الله تبارك وتعالى فهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، والمسلم يتلوا هذا الحكم في كل صلاة في فاتحة الكتاب[1]:

وإذا كان ما سبق استعراض موجز لتاريخ بني إسرائيل قديمًا وحديثًا.

وإذا كنا بصدد الحديث عن حربهم النفسية مع موسى عليه السلام.

فلقد عانى موسى عليه السلام من سلوك بني إسرائيل أشد المعاناة، وقد شن بنو إسرائيل على موسى عليه السلام حربًا نفسية شعواء لا هوادة فيها وهي فوق طاقة أي بشر عادى، ولولا ما ركب في طبع نبي الله موسى من القوة والبأس وشدة التحمل لكان من أمره شأن آخر مع بني إسرائيل[2].

ولقد تمثلت وسائل بني إسرائيل في حربهم النفسية ضد موسى عليه السلام فيما يلي:

أولاً: انحراف العقيدة.

---

(١) شغب اليهود على الأنبياء، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، مرجع سابق (ص١٢).
(٢) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية (ص٨٦).

ثانيًا: التحدي والتعجيز.

ثالثًا: التمرد والعصيان.

رابعًا: المراوغة.

خامسًا: الإيذاء.

أولاً: انحراف العقيدة وأثره على نفس موسى عليه السلام:

ما أشد انحراف عقيدة الأتباع على نفس النبي أو المصلح خاصة وإذا كان هذا بعد رحلة جهاد طويلة كابد فيها المتاعب والمصاعب.

كان موسى عليه السلام أكثر الأنبياء معاناة من قومه من جراء تلك الآفة المتأصلة فيهم والتي بدت مظاهرها في كثير من المواقف منها:

أ- موقفهم عند رؤيتهم لجنود فرعون.

ب- طلبهم أن يجعل لهم إلهًا.

ج- عبادتهم العجل.

أ- موقفهم عند رؤيتهم لجنود فرعون:

وقت أن رأى بنو إسرائيل فرعون وجنوده قد تبعوهم وقربوا منهم، ولما رأوا البحر أمامهم وجنود فرعون من خلفهم غابت عقيدتهم وبان انحرافها، فبدلاً من أن يتضرعوا لله رب العالمين ويسألوه الصبر والثبات ويبذلون أنفسهم للشهادة في سبيله جزعوا وفزعوا ونطقوا لأول وهلة ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ .

وهي كلمة تنبئ عن خور العزائم وضعف النفوس، ولنا أن نتخيل مدى وقع هذه العبارة على نفس موسى عليه السلام من أتباعه بعد رحلة العذاب المريرة.

يقول العلامة ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] ما يفيد أن قولهم هذا جزع منهم ولذلك رد عليهم موسى بقوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾ أي لما بلغ فرعون وجنوده قريبًا من جموع بني إسرائيل بحيث يرى كل فريق منهما الفريق الآخر، وقوله ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ بالتأكيد لشدة الاهتمام بهذا الخبر وهو مستعمل في معنى الجزع وكلمة ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع به موسى ظنهم أنهم يدركهم فرعون، وعلل ردعهم عن ذلك بجملة ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢][(١)].

ومع ردع موسى عليه السلام لهم إلا أن موقفهم الخائر هذا قد أثر في نفسه ولا شك لم لا والقائد يرى جنوده ينسونه وينسون سبب عزتهم ونصرتهم وهو الله عز وجل في أول اختبار وأمام أول عقبة.

ب- طلبهم أن يجعل لهم إلهًا:

من مظاهر انحراف عقيدة اليهود والذي كان حربًا نفسية شديدة على موسى عليه السلام طلبهم منه أن يجعل لهم إلهًا صنمًا مثل إله قوم مروا عليهم.

والعجيب أن يطلبوا من ذلك قبل أن تجف أقدامهم من ماء البحر الذي نجاهم الله بالمرور منه من فرعون وجنوده، فهل يرى الإنسان صلفًا مثل هذا الصلف، وعتامة قلب وغشاوة بصر مثل هذا.

ويحكي لنا القرآن مقولتهم ورد موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء التاسع عشر (٩/ ١٣٥).

يقول العلامة الألوسي في تفسيره لهذه الآيات:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ شروع بعد انتهاء قصة فرعون في قصة بني إسرائيل وشرح ما أحدثوه بعد أن من الله تعالى عليهم بها من وأراهم من الآيات ما أراهم.

وهو تسلية للرسول ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة فإنهم جروا معه على دأب أسلافهم مع أخيه موسى عليه السلام وإيقاظ المؤمنين أن لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم، ومراقبة نعم الله تعالى عليهم.

﴿ وَجَٰوَزْنَا ﴾ أي قطعنا البحر بهم، والمراد بالبحر بحر القلزم وقيل إنه نيل مصر وعن الكلبي[1] أن موسى عليه السلام عبر بهم يوم عاشوراء بعد أن أهلك الله فرعون وجنوده فصاموه شكرًا لله تعالى.

﴿ فَأَتَوْاْ ﴾ أي مروا بعد المجاوزة.

﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ قال قتادة كانوا من العمالقة الكنعانيين.

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ أي يواظبون على عبادتها ويلازمونها.

قيل كانت التماثيل بقر من نحاس، وقيل كانت من حجارة، قالوا عندما شاهدوا ذلك ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا ﴾ مثالاً نعبده.

﴿ كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ يعبدونها.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تعجب عليه السلام من قولهم هذا بعد ما شاهدوه من الآية الكبرى والبينة العظمى، فوصفهم بالجهل على أتم وجه، أي تجهلون كل شيء[2].

---

(١) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمر الكلبي الكوفي المفسر روى عن أخويه سفيان وسلمة وروى عنه ابن هشام وابن جرير ومحمد بن مروان، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن حجر: متهم بالكذب ورمي بالرفض، توفي سنة ٤٦هـ رحمه الله، انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ١١٦)، المجروحين (٢/ ٢٥٣).

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء التاسع (٦/ ٦٢).

ولكن هؤلاء القوم أعني بني إسرائيل أشد خلق الله عنادًا وجهلاً وتلونًا[١].

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام.

﴿ مُتَبَّرٌ﴾ أي مدمر مهلك، كما قال ابن عباس.

﴿ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ من الدين، يعني يدمر الله تعالى دينهم الذي هم عليه على يدي ويهلك أصنامهم ويجعلها فتاتًا.

﴿ وَبَٰطِلٌ﴾ أي مضمحل بالكلية.

﴿ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ما استمروا على عمله من عبادتها وإن قصدوا بذلك التقرب إلى الله، والمراد أن ذلك لا ينفعهم أصلاً[٢]، ثم ذكرهم بنعم الله وأنها ما ينبغي أن تقابل بهذا.

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي كيف أطلب لكم غير الله إلهًا تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي البعض منه.

﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم عليكم من إهلاك عدوكم واستخلافكم في الأرض وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره[٣].

وهكذا كان انحراف عقيدة بني إسرائيل قد بلغ المدى ولم لا وهم قد نكثوا إلى جاهلية بعد أن رفعهم الله بالإسلام وهم قد جحدوا النعمة ونسوها بعد أن لم يكن قد مر عليها زمن يذكر، ولنا أن نتخيل ما قد يحدث كل هذا من أثر أليم على نفس موسى عليه السلام فمثله ومثلهم كالمنادي على صم أو كالمخاطب قومًا أموات.

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٥٢).
(٢) روح المعاني للألوسي (٢/ ١٦).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٥٢).

ج- عبادتهم العجل:

مظهر ثالث من مظاهر انحراف عقيدة بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، لعب دورًا كبيرًا في التأثير النفسي السيئ على نفسيته عليه السلام وأنه لأشد إيلامًا لنفسه من المظهر السابق بل يزيد عنه درجات في التحديث والسفور والجهر بالكفر وإعلان الحرب على موسى عليه السلام إذ اتخذوا إلهًا صنعوه بأيديهم وخروا له ساجدين من دون الله، وذلك على الرغم من وجود موسى عليه السلام بين أظهرهم، والصورة تتمثل في خروج موسى عليه السلام إلى البقعة المباركة ليكلم الله تعالى ويأخذ منه العهد والميثاق ويتلقى عنه التشريع والدستور والهدي الرباني، فيستغلون غيبة موسى عليه السلام ويستجيبون لدعوة أفاك يعيش بينهم إنه السامري لقد جمع الذهب الذي سرقوه من المصريين، وصنع منه عجلاً جسدًا لا روح فيه ولا لحم ولا دم ولا عقل ولا قدرة له على الكلام ولا على النفع ولا على الضر، ووضع هذا العجل الجسد الخالي من كل أسباب الحياة في مهب الريح حتى يخرج منه صوت شبيه بخوار البقر، وزعم كاذب أن الإله الذي ذهب إليه موسى هو هذا العجل الذهبي ودعاهم إلى عبادته فأجابوه إلى طلبه لموافقة هواهم وانحراف عقيدتهم[(١)].

ولقد صور لنا القرآن الكريم هذا المشهد كما صور لنا وقعة على نفسية موسى عليه السلام وما أحدثت فيه من إيلام نفسي تمثل في شدة الغضب والثورة حتى ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ

---

(١) شغب اليهود على الأنبياء، لمحمد عبد القادر أبو فارس (ص١٨).

يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥١].

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ أي بعد خروجه إلى الطور، ﴿ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ ﴾ التي استعاروها من قوم فرعون، ومن للتبعيض أو للابتداء أو للبيان وأضيفت الحلي إليهم وإن كانت لغيرهم لأن الإضافة تجوز لأدنى ملابسة.

﴿ عِجۡلٗا جَسَدٗا ﴾ بدنًا ذا لحم ودم أو جسدًا من الذهب خاليًا من الروح[(١)].

ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعًا مع أنه اتخذه السامري وحده لكونه واحدًا منهم وهم راضون بفعله، روى أنه لما واعد موسى قومه ثلاثين ليلة فأبطأ عليهم في العشر المزيدة، قال السامري لبني إسرائيل وكان مطاعًا فيهم إن معكم حلي من حلي آل فرعون الذي استعرتموه منهم لتتزينوا به في العيد وخرجتم وهو معكم وقد أغرق الله أهله من القبط فهاتوه، فدفعوها إليه فاتخذ منها العجل المذكور.

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه إلهًا لا يقدر على تكليمهم، فضلاً على أن يقدر على جلب نفع لهم أو دفع ضر عنهم.

﴿ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ﴾ أي طريقًا واضحًا يسلكونه.

﴿ ٱتَّخَذُوهُ ﴾ تكرير للذنب أي اتخذوه إلهًا[(٢)].

﴿ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ واضعين الأشياء في غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعًا منهم[(٣)].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٣٦٠).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٦٠).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٣٥٩).

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا وتحيروا بعد عودة موسى من الميقات، وقيل كناية عن اشتداد ندمهم، ومعناه سقط الندم في أنفسهم(١).

﴿ وَرَأَوْا ﴾ وعلموا، ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ باتخاذ العجل، ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ بإنزال التوراة، ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بالتجاوز عن الخطيئة، ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٢).

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، وأسفًا شديد الغضب، وقال ابن عباس والسدي: أسفًا أي حزينًا والأسف أشد الحزن(٣).

قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا ولذلك رجع وهو غضبان أسفًا.

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ هذا من موسى لقومه، أي بئس العمل ما عملتموه من بعدي أي من بعد غيبتي عنكم، استنكر عليهم ما فعلوه وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والإيمان لله وحده، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلون حالهم واضطراب أفعالهم.

ثم قال منكرًا عليهم ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ والعجلة التقدم بالشيء قبل وقته، يقال عجلت الشيء: سبقته، والمعنى: أعجلتم عن انتظار أمر ربكم أي ميعاده الذي وعدنيه وهو الأربعون، ففعلتم ما فعلتم، وقيل معناه: تعجلتم سخط ربكم، وقيل معناه: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم.

﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ أي طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٥٩).
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٣٥١).
(٣) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٠١).

﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ أي أخذ برأس أخيه هارون أو بشعر رأسه حال كونه يجره إليه.

فقال هارون معتذرًا منه ﴿ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى ﴾ أي أني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي.

﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ والشماتة السرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه من المصائب ومنه قوله ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء»**(١)، والمعنى لا تفعل بي ما يكون سببًا للشماتة منهم.

﴿ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا تجعلني بغضبك علي في عداد القوم الظالمين الذي عبدوا العجل، أو لا تعتقد أني منهم(٢).

وهكذا قاسى موسى عليه السلام الكثير من أثر انحراف عقيدة اليهود وهم القوم الذي بذل من أجلهم الكثير، ولاقى من أجلهم الصعاب وأراهم من آيات الله ما تخضع به القلوب وتقنت لله رب العالمين، وإذا بهم بعد كل هذا يصدمونه الصدمة تلو الصدمة.

ففي البداية تجزع نفوسهم وتخر عزائمهم أمام أول اختبار لقوة عقيدتهم، فإذا هم راسبون، ثم يريهم الله آية في إنقاذهم من فرعون وجنوده، يجعلهم يمرون من البحر بدون أذى من فرعون أو غرق وقبل أن تجف أقدامهم من ماء البحر يظهرون بمظهر آخر لانحراف العقيدة وهو طلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهًا صنمًا مثل إله القوم الذين مروا بهم، ثم يغيب عنهم فترة قصيرة من الزمن، وإذا بهم يضيعون كل تعبه ويعبدون عجلاً من دون الله، فهل ترى قلوبًا أقسى من هذه القلوب، وأبصارًا أشد

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٤/ ٢٠٨٠) حديث رقم (٢٧٠٧).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٦٠، ٢٦١).

عمى من هذه الأبصار، وعقول مصمتة عن الخير مثل هذه العقول، إنها قسوة قلوب كافرة جائية قاسية.

وهل رأيت قومًا أذاقوا نبيهم أذى نفسيًا مثل ما أذاق موسى عليه السلام قومه، حتى حق لهارون عليه السلام أن يسميهم أعداء ويخاف من شماتتهم.

ثانيًا: التحدي والتعجيز:

من صور الحرب النفسية التي لاقاها موسى عليه السلام من قومه بصورة شديدة البشاعة والشراسة تحديهم له ومحاولتهم تعجيزه بطلب أمور ما من شأنهم أن يطلبوها، وما من شأنه عليه السلام أن يجيبهم إليها، ومن هذه المطالب:

أنهم لما تابوا من عبادة العجل أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يختار سبعين رجلاً من بني إسرائيل ممن عبدوا العجل ليعتذروا إلى الله تبارك وتعالى عما اقترفوه من الشرك والكفر، قال لهم موسى صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم استعدادًا للقاء ربكم، وخرج بهم موسى إلى طور سيناء، فلما دنا من الجبل وكلمه ربه، وانتظر موسى هؤلاء القوم أن يعتذروا عما بدا منهم من كفر وشرك فقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ تأمل إذا كان هؤلاء هم خيرة بني إسرائيل من الجيل الذي كان مع موسى يتصرفون هذا التصرف القبيح فيرفضون الاعتذار عما بدا منهم، بل لم يصدقوا موسى عليه السلام فيما أخبرهم عن الرب في مناجاته، فما بالك بعامة القوم منهم[1].

ولقد صور القرآن الكريم ما حدث في ذلك بين موسى عليه السلام وقومه إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ

(١) شغب اليهود (ص٢٧) مرجع سابق.

ٱلۡغَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

يقول العلامة القاسمي[١] في تفسيره لهذه الآية: روى محمد بن إسحاق[٢] أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه والسامري ما قال وحرق العجل وذراه في اليم، اختار من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم وخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال: افعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام وسمعوا كلام الله عز وجل وهو يكلم موسى عليه السلام يأمره وينهاه افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، فقالوا لموسى ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥].

فأخذتهم الصاعقة وهي الصاعقة التي يحصل منها الاضطراب الشديد فماتوا جميعًا، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّـٰيَ ﴾.

وفي رواية عن السدي[٣] قام موسى يبكي ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل

(١) هو جمال الدين أو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، ولد في دمشق سنة ١٢٨٣هـ وكانا إمامًا للشام في عصره، ومن مصنفاته «دلائل التوحيد»، و«تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب»، و«جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب» وغيرها، توفي بدمشق سنة ١٣٣٢هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٢/ ١٣٥).

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار من المحدثين خاصة في المغازي، وكان الزهري يثني عليه بذلك ويفضله على غيره وهو مدني، توفي ببغداد سنة إحدى وخمسين ومائة هجرية. انظر: السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق محمد فهمي السرجاني (١/ ٦) طبعة دار الفكر.

(٣) السدي هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، الإمام المفسر أبو محمد الحجازي، ثم الكوفي الأعور السدي، أحد موالي قريش، حدث عن أنس وابن عباس، وعبد خير الهمذاني وغيرهم،

إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم[١] ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وإياي، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني.

﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ هذا استفهام استعطاف.

﴿ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ عبدة العجل، قال الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل، وإنما أهلكوا بقولهم ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾.

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ابتلاؤك أو عذابك، ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ ناصرنا وحافظنا[٢].

وهكذا كان تحدي بني إسرائيل لموسى عليه السلام تحد سافر كالح لا حياء فيه ولا إيمان فهم قوم لا يؤمنون إلا بما يرونه رأي العين.

وهكذا كانت وسيلة التحدي من وسائل الحرب النفسية التي استخدمها بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام.

ثالثًا: التمرد والعصيان:

مظهر آخر يتجلى في حرب بني إسرائيل النفسية ضد موسى عليه السلام، إذ يأخذ عليهم ميثاق الله وعهده بأن يطيعوا الله ويطيعوه ويلتزموا بأوامره، وما يلبثون أن يعصون ويخالفوا أوامر الله، وفي تمردهم هذا على موسى عليه السلام الأثر الأليم على نفسه شأن كل قائد يتمرد عليه أتباعه وما بالك وهذا ليس أي قائد بل قائد مرسل من

=

وحدث عنه شعبة وسفيان الثوري وزائدة وغيرهم، توفي سنة مائة وسبع وعشرين هجرية، انظر: سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي، ط/ مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٢٨٦٥).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٢٦٩).

عند الله يحب الهداية لقومه وحريص عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٣].

يقول العلامة أبو السعود:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم في ادعائهم الإيمان بما أنزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم أي واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ قائلين ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ ﴾ أي خذوا بما أمرتم به في التوراة واسمعوا ما فيها سمع طاعة وقبول.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ استئناف مبني على سؤال سائل كأنه قيل، فماذا قالوا، قيل: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا ﴾ قولك ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك[1].

والمعنى: أنهم قبلوا الميثاق وفهموه، ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتًا وتأولًا[2].

فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء، وكفروا بما في تضاعيف التوبة، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان بما فيها.

﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة، أي تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به، وحرصهم على عبادته.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (١/ ١٥٧).

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١/ ٣١٥).

﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ بسبب كفرهم السابق[١].

أي سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل، وهو ما كانوا عليه من الوثنية في مصر[٢].

حقًا إنها حالة حرجة محرجة لموسى عليه السلام وهو يواجه هذا العناد وهذا الرفض، وهذا الصلف والحمق والحماقة من أناس أغلقوا قلوبهم وعقولهم عن الحق وإدراكه وقبوله[٣].

لقد حكى القرآن الكريم بعض الصور التي تجلت فيها رذيلة التمرد والعصيان لدى بني إسرائيل من هذه الصور أنهم عصوا أمر موسى عليه السلام برفضهم القيام بواجب القتال ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

مناسبة موقع هذه الآية هنا وهي ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ...﴾ :

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (١/ ١٥٧).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣١٦).

(٣) شغب اليهود على الأنبياء (ص٣٢).

أن القصة مشتملة على تذكير بنعم الله تعالى عليهم وحثهم على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الطاعة تمهيدًا لطلب امتثالهم، وقدم موسى عليه السلام أمره لبني إسرائيل بحرب الكنعانيين بتذكيرهم بنعمة الله عليه ليهيئ نفوسهم إلى قبول هذا الأمر العظيم عليهم، وليثقوا بالنصر إن قاتلوا أعداءهم فذكر نعمة الله عليهم وعدها لهم ثلاث نعم عظيمة.

أولاً: أن فيهم أنبياء.

ثانيًا: أن جعلهم ملوك.

ثالثًا: أن أتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين[١].

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ معنى المقدسة المطهرة وهي المطهرة من الشرك وقيل المباركة والمراد بالأرض، قيل: إنها أريحا وهي أرض بيت المقدس، وقيل أنها الطور وما حوله وقيل إنها دمشق وفلسطين وقيل إنها الشام كلها.

﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ بمعنى أمركم وفرض عليكم دخولها.

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ لا ترجعوا عن أمر الله إلى معصيته[٢].

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أي عظام الأجسام طوال.

﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا ﴾ يعني البلدة وهي إيلياء.

﴿ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ أي حتى يسلموها لنا من غير قتال.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ قيل هما يوشع وكالب بن يوقنا.

﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بنعمة الإسلام، أو باليقين والصلاح.

﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ﴾ والمعنى: لا يهولنكم عظم أجسامهم فقلوبهم مليئة رعبًا منكم فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، وكانوا قد

---

(١) التحرير والتنوير الجزء السادس (٤/ ١٦١).

(٢) زاد المسير (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤) باختصار.

علموا أنهم إذا دخلوا من هذا الباب كان لهم الغلبة.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين به فإنه ينصركم.

قيل لما قالا هذا الكلام أراد بنو إسرائيل رجمهما بالحجارة(١).

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ ﴾ نعني لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد الميئس.

﴿ أَبَدًا ﴾ تعليق بالنفي المؤكد بالدهر المتطاول.

﴿ مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾ بيان للأبد الظاهر.

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ إنهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء وقصدوا إذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بهما رؤية الله عز وجل جهرة، والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم.

ويحكى أن موسى وهارون عليهما السلام خروا لوجوههما قدامهم لشدة ما ورد عليهم فهموا برجمهما، وتمردوا عليهما وخالفوهما وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق مع موسى عليه السلام مطيع له يثق به إلا هارون، ولذلك قال موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ ﴾ لنصرة دينك ﴿ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾.

وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة.

﴿ فَٱفْرُقْ ﴾ فافصل، ﴿ بَيْنَنَا ﴾ وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم.

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا ﴾ فإن الأرض المقدسة، ﴿ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها.

فإن قلت كيف يوفق بين هذا وبين التي كتب الله لكم؟ قلت: أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها فلما أبوا الجهاد قيل إنها محرمة عليكم.

الثاني: أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٤/ ٢١٢٣، ٢١٢٤) باختصار وتصرف.

﴿ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقًا(١).

وهكذا يخرج الجبناء فيتوقحون ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفصون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون، والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان، يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن فيحرج بأنه ناكل عن الواجب فيسب هذا الواجب ويتوقح على دعوته التي تكلفه ما لم يرد ويقولون في وقاحة العاجز لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان، أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان.

وهذه هي نهاية المطاف بموسى، نهاية الجهد الجهيد والسفر الطويل واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل نقوضًا عن الأرض المقدسة ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق فبماذا يصنع وبمن يستجير(٢).

وهكذا نقضوا ميثاق الله وتمردوا على رسوله وعصوا أمره وأظهروا جبنهم وخورهم وضعف عقيدتهم وتوقحوا على الله ورسوله وقالوا: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ فكأنه ليس ربهم إن كانت ربوبيته ستكلفهم الجهاد الذي يجبنون عنه ولنا أن نتخيل مدى الألم النفسي الذي لحق بموسى عليه السلام تجاه كل هذا فهذا الذي فعلوه تنفطر له القلوب والأبدان.

ولقد ذكر المفسرون أنه من شدة تأثر موسى وهارون خروا أمامهم، فهموا برجمهما فيا لقساوة القلب وخبث النفس.

ولذلك كان جزاء وفاقًا لهم أن حرمت عليهم الأرض التي جبنوا عن الجهاد لدخولها أربعين سنة تاهوا في الأرض ونشأ جيل جديد غير الذي عصى من قبل.

وبعد أن مضت الأربعون وطلب منهم موسى عليه السلام أن يدخلوها بهيئة معينة فتمردوا على أمره وعصوا في ذلك نقضًا للميثاق وعصيان لأوامر الله لأن موسى

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٦٠٤، ٦٠٥).

(٢) وفي ظلال القرآن (٢/ ٨٧٠، ٨٧١) باختصار.

عليه السلام لا يكلمهم بأمر إلا بناء على أمر الله، فرغم اختلاف الجيل إلا أنهم اتفقوا في العصيان والتمرد فكأنهم تواصوا بذلك أو أنها جبلة فيهم وإن اختلفت الأشخاص.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم عصيانهم لموسى وتمردهم عليه في تلك الوقعة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ سُميت القرية قرية لأنها تجمع أهلها، قيل هي: أريحة وهي قرية الجبارين، وقيل هي بيت المقدس.

﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ موسعًا عليكم، ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ ﴾ يعني بابًا من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب.

﴿ سُجَّدًا ﴾ أي ركعًا خضعًا منحنين شاكرين لله تعالى، ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ أي حط عنا خطايانا، وهذا أمر بالاستغفار.

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ نسترها.

﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ثوابًا من فضلنا(١).

كان هذا هو الأمر ولكنهم عصوا الأمر وتمردوا عليه.

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ عن ابن عباس في قوله ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ ﴾ قال: باب ضيق.

﴿ سُجَّدًا ﴾ ركعًا، ﴿ حِطَّةٌ ﴾ أي مغفرة.

قال فدخلوا من قبل أستاهم وقالوا حنطة استهزاء، قال فذلك قوله عز وجل: ﴿

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٧٦).

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ يدل على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به لا على أنهم أتوا له ببدل[٢].

وقد فسر الإمام ابن الجوزي[٣] التبديل: بتبديل القول والفعل، أما تبديل الفعل ففيه خمسة أقوال:

أحدها: أنهم دخلوا متزحفين على أستاههم[٤].

الثاني: أنهم دخلوا من قبل أستاههم، قاله ابن عباس.

الثالث: أنهم دخلوا مقنعي رؤوسهم، قاله ابن مسعود.

الرابع: أنهم دخلوا على حروف عيونهم، قاله مجاهد.

الخامس: أنهم دخلوا مستلقين، قاله مقاتل.

وأما تبديل القول ففيه خمسة أقوال:

أحدها: أنهم قالوا مكان «حطة» حبة في شعير.

الثاني: أنهم قالوا: «حنطة».

الثالث: أنهم قالوا «حنطة حمراء» فيها شعرة.

الرابع: قالوا حبة حنطة مثقوبة فيها شعيرة سوداء.

الخامس: أنهم قالوا سنبلاثًا[٥].

---

(١) الدر المنثور للسيوطي (١/ ٧١).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢/ ١٢٨).

(٣) ابن الجوزي هو: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، ولد ببغداد سنة ٥١٠هـ، ومن مؤلفاته: «صيد الخاطر»، «الأذكياء»، و«تاريخ عمر» وغيرها، توفي سنة ٥٩٧٨هـ ببغداد. انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٣١٦، ٣١٧).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في الأنبياء (٤/ ١٩٠) ط/ دار الشعب.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٨٦).

حقًا إنهم كانوا في غاية الصلف والوقاحة والسماجة والطفولة، أرأيت إلى هذه الصورة الحقيرة المزرية لأصحابها أن ترى رجالاً ذوي لحى قادرين على المشي والغزو والقتال يقعدون على الأرض ويزحفون على أستاههم كما يزحف الأطفال العاجزون عن المشي على أستاهم ويصحب هذه الحالة المزرية كلام سخيف ليس فيه شكر ولا ثناء ولا استغفار، إنه كلام أطفال غير مميزين تخرج منهم ألفاظ لا معنى لها، وإنما هي أصوات ليس إلا، ويظن هؤلاء الأطفال أنهم تكلموا فأفصحوا ونطقوا فأجادوا.

حقًا إنها الطفولة في الإدراك والطفولة في الفهم والوعي، والطفولة في الحركة(١).

إلى هذا الحد تتقلب على موسى من قومه صفحات الواحدة أسود من التي تليها، فيتلونون عليه بكل ألوان الحماقة والجهالة والجبن والخور، كلما انتهى من موقف مؤلم وضعوه في آخر، وكلما انقرض جيل جاء الذي بعده أسوأ منه، ما أشد هذه الحرب النفسية المثارة ضده عليه السلام والذي استحق بها أن يكون من أولي العزم من الرسل.

حقًا إنها رحلة كليلة مريرة تنقسم لها ظهور الرجال، وتنفطر لها قلوبهم.

رابعًا: المراوغة:

تعددت الألوان والأشكال التي عامل بها بنو إسرائيل موسى عليه السلام تجاه الأوامر التي يبلغهم بها عن ربه إمعانًا في إيلامه النفسي وتحطيم معنوياته.

ففي الفقرة الماضية كانوا يتمردون ويعصون، ويبدلون الأوامر ويغيرونها من تلقاء أنفسهم تغييرًا لا معنى له ولا مفهوم.

وها هم يراوغون ويماطلون في تنفيذ أمر الله المبلغ لهم على لسان موسى عليه السلام بذبح البقرة.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم هذه القصة وبين فيها مدى مراوغة القوم في تنفيذ الأمر حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ

(١) شغب اليهود (ص٥٨، ٥٩).

قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

تعرضت هذه الآيات لقصة من قصص بني إسرائيل ظهر فيها من قلة التوقير لنبيهم ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها[١].

وهذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بني إسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها، ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال مما يقتضي التشديد في الأحكام.

فمن شدد شدد عليه[٢].

تذكر كتب التفسير أن رجلاً موسرًا من بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام لم يكن له أولاد يرثونه فقام أخوه أو أبناء إخوته فقتلوه حتى يرثوه ثم أخذوا جثته ووضعوها في جنح الظلام عند قبيلة يهودية أخرى ثم جاءوا واتهموهم بقتله وطالبوهم بديته، فأنكر هؤلاء قتله، واحتشد الفريقان وأضمرت كل قبيلة للأخرى العداوة والخصام، وبعد تلاسن وتدابر جاءوا إلى موسى عليه السلام وأخبروه بالقضية وضرورة معرفة القاتل[٣] فأمر الله عز وجل موسى أن يأمرهم بذبح بقرة.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الأول (١/ ٥٤٦).

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٨٢).

(٣) التحرير والتنوير مرجع سابق (١/ ٥٦٠) باختصار وتصرف.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ بني إسرائيل.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ وذلك عندما وجد القتيل وأرادوا أن يعرفوا قاتله.

﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي أتجعلنا مكان هزو أو أهل هزو[١].

والهزو: اللعب والسخرية[٢].

وأشعر جوابهم ما ثبت من فظاظتهم إذ فيه سوء الأدب على من ثبتت رسالته وقد علموها.

﴿ قَالَ ﴾ استئناف[٣] ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

لأن الهزو في مثل ذلك جهل وسفه، نفى عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعًا له[٤].

﴿ قَالُوا۟ ﴾ تماديًا في الغلظة.

﴿ ٱدْعُ لَنَا ﴾ أي لأجلنا.

﴿ رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ ﴾ ما حالها وما صفاتها.

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحي.

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ تعالى يقول ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي البقرة المأمور بذبحها.

﴿ بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ ﴾ لا مسنة.

﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي لا فتية، صغيرة لم يلحقها الفحل.

﴿ عَوَانٌۢ ﴾ النصف.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (١/ ١٥٢) باختصار وتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ١٦٠).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي (١/ ١٥٢).

(٤) أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي (١/ ٦٧).

﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي سني الفارض والبكر.

﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ هذا أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به، وفيه حث على الامتثال وزجر عن المراجعة ومع ذلك لم يفعلوا بل سألوا بيان اللون بعد بيان السن.

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ شديدة الصفرة ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾ تبهج نفوسهم.

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم[1].

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ ثم هم لم يتورعوا عن غوايتهم ولا أراعوا عن سفههم وجهلهم بل عادوا إلى تعنتهم فقالوا: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي أن جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة، ووعدوا أنفسهم بالاهتداء إلى ما دلهم عليه والامتثال لما أمروا به[2].

ثم أمرهم الله عز وجل بعد ذبحهم البقرة أن يؤخذ عضو من أعضائها ويضرب به الميت الذي قتل وينطق الميت باسم قريبه الذي قتله بعد ضربه، ثم يعود ميتًا، والقبيلتان والناس ينظرون ويشاهدون هذه المعجزة.

والله تعالى يقول: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

الآية تفيد أن القاتل منكم يا معشر اليهود، ونسب القتل إلى الجماعة بقوله قتلتم مع

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (١/ ١٥٤).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ١٦١).

أن القاتل واحد، ذلك أن الكل متواطئ على هذه الجريمة وبخاصة أنتم قد اشتهر عنكم أنكم قتلة الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس.

لقد أسندت الآية القتل إلى اليهود المعاصرين للنبي ﷺ لأنهم سلائل أولئك وهم راضون بفعلهم كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد لأن الأمة في مجموعها كالشخص الواحد فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد(١).

وهكذا ففي هذه القصة تبدو السمات الرئيسية لبني إسرائيل وهي:

انقطاع الصلة بين قلوبهم وعدم الثقة بربهم وعدم الاستعداد لتصديق ما يأتيهم من الرسل ثم التلكؤ والمراوغة في الاستجابة للتكاليف وتلمس الحجج والمعاذير والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان(٢).

ولولا هذا كله لكفاهم أن يقول لهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ فتكون الإجابة منهم سمعنا وأطعنا.

ثم هم أفضل من يفعلون الجريمة ثم يرمونها على غيرهم، وتزيد وقاحتهم أن يطلبوا من هذا الذي رموه عليه جزاء فعله، فهل ترى هذه البجاحة في أحد مثل هؤلاء.

فلله درك يا موسى كم قاسيت من قومك وكم آلموك وكم راوغوك، وكم تباطئوا في تنفيذ أوامرك، وما أشد وما أقسى على قائد أن يكون أتباعه على هذا الحال.

وهكذا تتجلى هذه السمة في بني إسرائيل وهي سمة التلكؤ والمراوغة كسمة لعبت دورًا كبيرًا في حربهم ضد موسى عليه السلام نفسيًا فأحدثوا في نفسه الأثر الكبير من الألم والأسى.

خامسًا: الإيذاء:

لون من ألوان الحرب النفسية استخدمه بنو إسرائيل وأمعنوا في استخدامه ضد

---

(١) تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي (١/ ١٤٤)، طبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٧٧).

موسى عليه السلام إيلامًا لنفسه وتشويهًا لسمعته ونيلاً من سيرته بين الناس.

وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

يقول العلامة القرطبي [1] في تفسيره:

﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ وذلك حين رموه بالأدرة، ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور.

ومن الأذى قولهم: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾.

ومن الأذى قولهم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾.

وقولهم: إنك قتلت هارون.

﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ ﴾ والرسول يحترم ويعظم، ودخلت قد على تعلمون للتأكيد كأنه قال: وتعلمون علمًا يقينًا لا شبهة لكم فيه.

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ ﴾ أي مالوا عن الحق.

﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ أي أمالها عن الهدى، وقيل: فلما زاغوا عن الطاعة أزاغ الله قلوبهم.

قيل إنهم لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم [2].

ونظرًا لشدة الإيذاء الذي لاقاه موسى عليه السلام من بني إسرائيل حذر الله عز

---

(١) العلامة القرطبي هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، من العلماء العباد، له غير الجامع لأحكام القرآن من المصنفات، التذكرة، وشرح الأسماء الحسنى، وغيرها، توفي سنة ٦٧١هـ، انظر: طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٦٥، ٦٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٦٥٦١، ٦٥٦٢).

وجل المسلمين من أن يؤذوا نبيهم محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

أخرج الإمام البخاري[(١)] من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن موسى عليه السلام كان رجلاً حييًا ستيرًا لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، وقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا، وأن موسى عليه السلام خلى يومًا وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر وجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله تعالى، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا»**[(٢)].

وأخرج الحاكم[(٣)] وصححه عن ابن مسعود: أن الله أوحى إلى موسى إني متوفي هارون فأت به جبل كذا وكذا، فانطلقا نحو الجبل فإذا هم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيب، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه، قال يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير، قال: نم عليه، قال: نم معي، فلما ناما أخذ

(١) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ... الجعفي، مولاه أبو عبد الله البخاري، إمام أهل الدنيا في فقه الحديث، روى عن عبيد الله بن موسى ومحمد بن عبد الله الأنصاري، وخلق كثير، وعنه الترمذي، ومسلم وأبو زرعة وآخرون، طلب العلم وجالس الناس ورحل غي طلب الحديث ومهر فيه وكان حسن المعرفة حسن الخلق، أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ وأحفظهم له، توفي سنة ١٥٦هـ انظر سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩١).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٤/ ١٩٠)، ط/ دار الشعب بالقاهرة، بدون.

(٣) هو الإمام محمد بن عبد الله بن محمد ... أبو عبد الله الحاكم النيسابوري الإمام الحافظ، الناقد، العلامة شيخ المحدثين، صاحب التصانيف الجمة، توفي سنة ٤٠٣هـ، رحمه الله، انظر: تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٩٣)، وشذرات الذهب (٥/ ٣٣).

هارون الموت، فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت الشجرة ورفع السرير إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: قتل هارون وحسده حب بني إسرائيل له، وكان هارون أألف بهم وألين، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال: ويحكم إنه كان أخي أفتروني أقتله؟ فلما أكثروا عليه، قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه(١).

وأخرج البخاري عن ابن مسعود قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسمًا فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا فصبر»(٢).

وذكر العلامة الألوسي صورة أخرى للإيذاء حيث قال: إن قارون أغرى مومسة على قذف موسى عليه السلام بنفسها ودفع إليها مالاً كثيرًا فأقرت بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل به ما فعل كما فصل في سورة القصص.

وقال العلامة الألوسي أنهم آذوه بما نسبوا إليه من السحر والجنون:

﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذا جاه ومنزلة عند الله عز وجل أو كان مستجاب الدعوة(٣).

وهكذا كان إيذاء بني إسرائيل لموسى متنوع الأشكال والألوان ففيه إمعان لحربه عليه السلام نفسيًا وتأثير في معنوياته، فهم آذوه في جسده وقالوا إن فيه أدرة، وقالوا هو أبرص، وآذوه في سمعته فاتهموه بالفجور مع البغي وآذوه في أعز إنسان عنده فاتهموه بقتل أخيه وبرأه الله من كل هذا وأظهر براءته، ثم هم آذوه في عقيدته فقالوا له ﴿ ٱجْعَل

---

(١) صحيح الحاكم (٢/ ٥٧٩)، وقال: على شرط مسلم، وقال الذهبي: «بل على شرط الشيخين»، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، بدون.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٤/ ١٩١)، ط/ دار الشعب.

(٣) روح المعاني، للألوسي، الجزء الثاني والعشرون (١٢/ ١٣٦) باختصار وتصرف.

لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وعبدوا العجل من دون الله، ثم هم آذوه بعصيانهم له وتمردهم عليه برفضهم الجهاد في دخول القرية وبرفضهم الهيئة التي أمرهم أن يدخلوا القرية بها بعد سنوات التيه وبرفضهم قول ما أمرهم أن يقولوه في دخولها.

ثم هم آذوه في تلكؤهم وتباطؤهم ومراوغتهم في أمره لهم بذبح البقرة.

كل هذا يدلنا على قساوة الحرب النفسية التي عايشها موسى عليه السلام من قومه وضراوتها فاستحقوا بهذا كله اللعنة والغضب من الله سبحانه وتعالى، بعد أن كانوا هم المفضلين على العالمين في عصرهم.

العبرة من تاريخ بني إسرائيل:

وقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن بني إسرائيل، وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم ليأخذ الناس العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية التي تقابل النعمة بالجحود والإحسان بالعصيان، فقد أغدق الله عليهم نعمه ونجاهم من كيد عدوهم، وأهلك فرعون وجنوده، فما كان منهم بعد هذا الجميل والإحسان إلا أن عبدوا العجل وتنكروا لدعوة نبيهم موسى عليه السلام وقتلوا الأنبياء وسفكوا دماء الأبرياء، وفعلوا ما تقشعر له الأبدان، وكانت نهايتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير وغضب الله عليهم ولعنهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وإن حياتهم سلسلة من الجرائم لا في حق البشرية فحسب بل في حق الأنبياء والرسل وفي حق الذات العليا، ذات الله تبارك وتعالى، حيث اتهموا الله عز وجل بأنواع من الاتهامات الشنيعة فقد اتهموه بالبخل والشح، ورموه بالعجز والظلم[1].

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ

(١) النبوة والأنبياء للصابوني (ص٢٤٦).

وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

فكان جزاؤهم من الله عز وجل وفاقًا لجرائمهم الشنيعة بأن لعنهم الله، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ومسخ منهم قردة وخنازير، فما من شعب تجرأ على مثل رذائلهم، كذلك ما من شعب عوقب من الله عز وجل بمثل عقابهم.

المبحث الرابع

الحرب النفسية ضد عيسى عليه السلام وكيف قاومها

عيسى عليه السلام

رابع أولي العزم من الرسل الذين قاسوا من أقوامهم الويلات والويلات، وقبل الكلام على سيدنا عيسى عليه السلام يجدر أن أتحدث عن أمه مريم عليها السلام.

نسبها:

هي مريم بنت عمران الصدّيقة البتول العذراء الطاهرة التي تربت في حجر الفضيلة، وعاشت عيشة الطهر والنزاهة.

وكان والدها عمران رجلاً عظيمًا، وعالمًا جليلاً من علماء بني إسرائيل، وكانت زوجته أم مريم لا تحمل، فنذرت إن حملت لتجعلن ولدها محررًا لله تعالى لخدمة بيت المقدس فاستجاب الله دعاءها فحملت بمريم عليها السلام.

فلما ولدت تبينت أن الجنين كان أنثى، وكانت ترجو أن يكون ذكرًا ليخدم في بيت الله وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قالت ذلك على وجه التحسر والحزن وذلك أنها كانت ترجو أن يكون ذكرًا لينقطع إلى خدمة بيت الله والعبادة فيه والأنثى لا تصلح لذلك[١].

كفالة زكريا لمريم:

توفي عمران وابنته مريم طفلة صغيرة تحتاج إلى من يكفلها فخرجت بها أمها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد المقيمين فيه، وكانت ابنة إمامهم ورئيسهم فتنازعوا واختلفوا فيمن يقوم بكفالتها، وكان زكريا عليه السلام نبي ذلك العصر وهو الذي يريد كفالتها لأنه زوج أختها، وقيل زوج خالتها، وهو أحق بها، ولكنه قطعًا للنزاع وافق على الاقتراع معهم، وخرجت القرعة فكان الكافل لمريم هو زكريا والد يحيى عليهما السلام.

---

(١) المستفاد من قصص الأنبياء للدعوة والدعاة (١/ ٤٧٦) مرجع سابق.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

تقبل الله عز وجل مريم من أمها ورضي بها في النذر مكان الذكر لتنقطع لعبادته وخدمة بيته، ورباها ونماها تربية حسنة، وجعل زكريا كافلاً لها[١].

وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها للتعلم منه علمًا نافعًا وعملاً صالحًا[٢].

وأعطى الله عز وجل مريم كرامات كان زكريا عندما يدخل عليها يجد فاكهة الصيف في الشتاء، والشتاء في الصيف وفيه دلالة على كرامات الأولياء[٣].

فضل مريم عليها السلام:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [مريم: ٤٢] أي أن الله اصطفاك للتقرب منه والمحبة، وطهرك من الرذائل، واصطفاك بالتفضيل على نساء زمانك[٤].

أخرج الإمام البخاري أن الرسول ﷺ قال: «**خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»[٥].

وأخرج الإمام الترمذي[٦] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «حسبك من نساء

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٦٠).

(٣) نفس المرجع (١/ ٣٦٠).

(٤) تفسير محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٨٤٠، ٨٤١).

(٥) أخرجه الإمام البخاري، كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٥/ ٤٧)، ط/ دار الشعب.

(٦) الترمذي هو: الإمام أبو عبد عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ولد سنة ٢١٠هـ، وتوفي سنة ٢٧٩هـ، كان إمامًا من أئمة المسلمين، وله الكثير من المصنفات أهمها السنن والشمائل المحمدية، والعلل. سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٧٠)، وفيات الأعيان (٤/ ٢٧٨).

العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[١].

بشارة الله لمريم:

لما بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء بشرها الله عز وجل بعيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

أخبرها الله عز وجل بمولود تلده يكون وجوده بكلمة من الله، وسمي المسيح لكثرة سياحته، وقيل: كان مسيح القدمين، ونسب إلى أمه حيث لا أب له[٢].

وبعث الله عز وجل إليها جبريل في صورة إنسان، فعندما رأته ارتابت وخافت على نفسها منه، وظنت أنه رجل عادي، فأخبرها بالحقيقة وهي أن الله عز وجل أرسله بالوحي ليهب لها غلام زكيًا، ونفخ في جيب قميصها نفخة وصلت إلى رحمها فحملت بتلك النفخة، وإنما مثل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه[٣].

ولادة عيسى عليه السلام:

حملت السيدة مريم بعيسى عليه السلام وكان عندها ثلاث عشرة سنة، وقد اختلف العلماء في مدة الحمل، فقيل أنها كانت ساعة، وقيل تسع ساعات، وقيل ثمانية أشهر، والصحيح أنها حملت به حملاً طبيعيًا كما تحمل النساء ووضعته كما تضع النساء[٤].

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي، باب فضل خديجة رضي الله عنها، حديث رقم (٥/ ٣٦٧/ ٣٩٨١)، وقال: حديث صحيح، ط/ دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٦٤).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٦/ ١٨٠).

(٤) النبوة والأنبياء للشيخ محمد علي الصابوني (ص٢٥٦، ٢٥٧) نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٥).

اتهام مريم عليها السلام:

روى السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت على أختها -زوج زكريا- فقالت لها أختها أشعرت أني حبلى، فقالت مريم وشعرت أني أيضًا حبلى فاعتنقتها وقالت لها -أم يحيى- إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال: ما لك أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام على يحيى، وبلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة.

وقد شاع الخبر في بني إسرائيل أن مريم حامل فما دخل على أهل بيت من الهم والحزن كما دخل على آل بيت زكريا حتى اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبد معها في المسجد واتهمها آخرون بزكريا.

ويقول ابن جرير أنهم أرادوا قتله ففر منهم فلحقوه حتى أمسكوا به ونشروه بالمنشار، فقتل صلوات الله عليه بأيدي اليهود المجرمين(١).

ووضعت مريم البتول العذراء طفلها وهزت جذع النخلة التي لا ثمر فيها فتساقط عليها الرطب الجني فأكلت وشربت وحمدت الله عز وجل، وعندما أقبلت به على قومها فلما شاهدوه فزعوا لهذا الحدث العظيم وأخذوا يظنون بها الظنون، وتعجبوا وقالوا: كيف تأتي مريم بمثل هذه الجريمة النكراء وهنا سكتت مريم وأشارت إلى ولدها الرضيع ليتكلم فدافع عن نفسه وعن أمه ورد الاتهامات والافتراءات وأثبت براءة أمه وطهارتها.

حياة عيسى عليه السلام:

لما بلغ الطفل ثمانية أيام حملته أمه إلى الهيكل فختن وسمته يسوع كما أمرها جبريل عليه السلام.

وعندما بلغ سبع سنين أخذ يتنقل مع أمه من مصر إلى الخليل، وعندما بلغ اثنتي

(١) النبوة والأنبياء (ص٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩).

عشرة سنة ذهب إلى الهيكل وأخذ يحاج العلماء، وقد أعجب كل الناس بأسئلته وأجوبته[1].

بدء نبوة عيسى عليه السلام:

لما بلغ عيسى عليه السلام من العمر ثلاثين عامًا نزل عليه جبريل عليه السلام بالإنجيل.

دعوته:

كان يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه في مجتمع يهودي دخل فيه انحرافات كثيرة وخرافات وأباطيل بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على موسى عليه السلام وقد أجرى الله على يدي عيسى عليه السلام كثير من المعجزات الباهرة تصديقًا لنبوته وتأييدًا لرسالته منها: شفاء المرضى، وإبراء الأكمه، وإحياء الموتى، والإخبار عن بعض المغيبات، والكلام في المهد.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقد لاقى السيد المسيح من اليهود تعنتًا واستكبارًا، ولاقى أثناء دعوته أهوالاً وشدائد وخاصة من الكهنة ورؤساء الدين، فاصطدم معهم بجدال عنيف حول مفاهيم الدين وأصول الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام، والتي حرفها أولئك الظالمون، وأخذ يدلهم على الله ويأمرهم بالاستقامة ويبين فساد طريقتهم ويفضح رياءهم وخبثهم

(١) النبوة والأنبياء (ص٢٦٠، ٢٦١) باختصار.

حتى ضاقوا به ذرعًا فقرروا التخلص منه(١).

مريم والحرب النفسية:

قبل أن أتعرض لعيسى عليه السلام والحرب النفسية المثارة ضده يجدر بي أن أشير إلى أمه البتول عليها السلام لم تسلم من هذه الحرب بل تعرضت لها في أشرف ما عند المرأة.

حيث اتهمها قومها بالزنا عندما حملت في عيسى عليه السلام وبالغوا في اتهامها، ورموها بيوسف النجار، ومنهم من رماها بزكريا حتى ذكرت بعض الروايات أن وصل الأمر أن قتلوا زكريا عليه السلام.

ولقد وبخوها في ذلك وبالغوا في توبيخها، قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ ﴾ قال ابن عباس أتتهم به بعد أربعين يومًا حين طهرت من نفاسها وقيل انطلق قومها يطلبونها فلما رأتهم حملت عيسى فتلقتهم به.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: شيئًا عظيمًا.

الثاني: عجبًا فائقًا.

الثالث: شيئًا مصنوعًا.

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ المراد بهارون خمسة أقوال:

أحدها: أنه أخ لها من أمها وقيل كان من أبيها وأمها.

الثاني: أنها كانت من بني هارون أخو موسى فنسبت إليه لأنها من ولده.

الثالث: أنه رجل صالح كان في بني إسرائيل فشبهوها بها في الصلاح.

---

(١) النبوة والأنبياء (ص٢٦٢، ٢٦٣) باختصار.

الرابع: أن قوم هارون كان فيهم فساق وزناة فنسبوها إليهم.

الخامس: أنه رجل من فساق بني إسرائيل فشبهوها به[١].

﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ﴾ يعني عمران، ﴿ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: زانيًا.

﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴾ حنة، ﴿ بَغِيًّا ﴾ أي زانية فمن أين لك هذا الولد[٢].

ولنا أن نتخيل مدى الإيلام النفسي الذي لحق مريم عليها السلام من هذه التهمة الشنعاء التي لا تتهم امرأة بأفظع منها وهي الشريفة العفيفة البتول التي كرمها الله وجعلها تحمل بكلمة منه في نبي من أنبيائه.

اليهود هم اليهود أسرع الناس اتهامًا للشرفاء ونسج الأباطيل حولهم وإشاعتها عنهم فهم قوم غلاظ القلوب خبثاء النفوس.

قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩-٣٢].

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ١٩٤).

الحرب النفسية المستخدمة ضد عيسى عليه السلام

ولقد استخدم ضد عيسى عليه السلام وسائل متنوعة من وسائل الحرب النفسية منها:

أولاً: رميه بالسحر. **ثانيًا: التآمر على قتله.**

أولاً: رميه بالسحر:

وهي التهمة التي كثيرًا ما رمي بها أنبياء الله من أقوامهم والتي تؤكد أن الكفر كله ملة واحدة وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ أي منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إلي وطهرتك من دنسهم.

﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أي المعجزات التي توجب انقيادهم لك لتعاليها عن قوى البشر فلا يتوهم فيها السحر[١].

﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني قال الذين لم يؤمنوا بك وجحدوا نبوتك.

﴿ إِنْ هَـٰذَآ ﴾ أي المعجزات[٢].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ٢٢١٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم (٤/ ٢٣٦٠).

﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي إن هذا إلا سحر ظاهر لا من جنس الآيات التي جاء بها موسى[(١)].

وقرأ حمزة والكسائي «ساحر» أي إن هذا الرجل إلا ساحر قوي على السحر[(٢)].

وهكذا أقفلت قلوبهم عن قبول الحق والإذعان له وأغمضت عيونهم عن أن يروا وضح النهار فقالوا عن المعجزات الباهرات سحر مبين، وقالوا عن نبيهم المبعوث فيهم ليأخذ بأيديهم إلى الجادة ساحر مبين.

وفي القرآن الكريم مواضع أخرى أشارت إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

والمعنى: أن عيسى عليه السلام يقول: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، والتوراة قد بشرت بي، وأنا مصدق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكنى أحمد[(٣)].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا: هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر وقيل المراد به محمد ﷺ أي لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة والأول أولى[(٤)].

فتعدد مواضع القرآن التي تذكر اتهام بني إسرائيل لعيسى عليه السلام بالسحر توحي بأن ذلك كان ديدنهم وأنهم قد بالغوا في استخدام هذه الوسيلة في حربه عليه السلام نفسيًا.

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٢٠٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم (٤/ ٢٣٦٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٣٥٩).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢١٨).

كما تؤكد الآيات الكريمة أنهم قالوا هذه المقولة الشنعاء على أمور كان حقيق بها أن تخضع نفوسهم وأن تذلل قلوبهم لله رب العالمين، ولكنهم قلبوا الحقائق وزيفوا الوقائع فقالوا عن المعجزات الباهرات سحر مبين.

ثانيًا: التآمر على قتل عيسى عليه السلام:

اليهود هم قتلة الأنبياء والصالحين على مر العصور فهم لا يتورعون أمام سفك الدماء والتعدي على الأرواح مهما كانت قدسية الروح التي يتعرضون لها.

قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي وبسبب قولهم هذا فإنه يؤذن بمنتهى الجرأة على الباطل وارتكاب أفظع الجرائم والضراوة بارتكاب الجرائم واستهزاء بآيات الله ورسله[١].

فهم ما وصفوه بأنه ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ إلا على سبيل التهكم والاستهزاء به، ويحتمل أن يكون ذلك منهم بناء على قول عيسى عليه السلام وإن لم يعتقدوه، وقيل أنهم وصفوه بغير ذلك من صفات الذم، فغير في الحكاية.

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴾ روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رهطًا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخوا قردة وخنازير فبلغ ذلك يهوذا رأس اليهود فخاف، فجمع اليهود فاتفقوا على قتله عليه السلام فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبريل عليه السلام بيتًا ورفعه منه إلى السماء ولم يشعروا بذلك فدخل عليه طيطأنوس ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم وألقى الله عليه

---

(١) تفسير المنار (٦/ ١٥).

شبه عيسى فلما خرج قتلوه وصلبوه[١].

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ يعني ما قتلوه حقًا تأكيدًا لانتفاء قتله، وقد روى في سعي اليهود لقتله، أن اليهود لم يؤمنوا بعيسى بالرغم من المعجزات التي أجراها الله على يده، حتى جعل عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلده بل يكثر السياحة هو وأمه في الأرض يدعو إلى الله ولم يقنع اليهود ذلك فأرادوا قتله، وسعوا سعيًا حثيثًا لتحقيق ما أرادوا وروى أن رجلاً من اليهود جعل له جعل ليدلهم على مكان عيسى فما زال يتعقبه حتى عرف مكانه، فدل عليه، وروى أن الشبه ألقى على اليهودي الذي دل عليه فصلب[٢].

وهكذا تصل جرأة هؤلاء العتاة أن يصل بهم الحال إلى أن يحاولوا قتل نبيهم ويقتلوا صاحبهم ظنًا منهم أنه نبيهم فهل رأيت جرأة على الباطل مثل جرأة هؤلاء، وهل رأيت بجاحة على الحق مثل بجاحة هؤلاء.

وهكذا فلقد عانى عيسى عليه السلام معاناة نفسية شديدة من قومه بدأت منذ رميت أمه فيه بالزنا، واستمرت طول حياته من اضطهاد منهم له وكفر به، وعناد وتعنت ضده، والقول على ما جاء به من معجزات أنها سحر.

وتستمر الحرب ضده حتى آخر لحظة قضاها على الأرض حيث رفعه الله تعالى إليه ونجاه منهم عندما عزموا وأصروا على قتله.

إنها حقًا رحلة صعبة مريرة على الرغم من أن عمرها الزمني لم يصل حتى استحق بها عيسى عليه السلام أن يكون من أولي العزم من الرسل.

وهكذا يتبين كيف عانى أولوا العزم من الرسل عليهم السلام الويلات والصعاب من أقوامهم حتى استحقوا بالفعل أن يكونوا أولي العزم.

إنها رحلة طويلة مريرة قاسوها عليهم السلام من أقوام رغم اختلاف أزمانهم

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء السادس (٤/ ١٦).

(٢) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (١/ ٤٩٦، ٤٩٧).

وأمكنتهم إلا أنه جمعت بينهم الصفات الرذيلة من التعنت مع أنبيائهم وصدودهم عنهم واتهامهم لهم بالتهم الفظيعة التي ينطق واقع هؤلاء الأنبياء بكذبها.

فهم على الرغم من اختلاف العصور وكأنهم تواصوا بمحاربتهم للأنبياء جمع بينهم الطغيان فتشابهت فيهم الفعال.

كما يتبين أيضًا من ذكر الحرب النفسية ضد أولي العزم من الرسل عليهم السلام شفقة هؤلاء الأنبياء ورحمتهم بأقوامهم وحرصهم على هدايتهم وردهم العنف بالحلم والإساءة بالإحسان.

كما تبين أيضًا قوة حجة هؤلاء الأنبياء في ردودهم على أقوامهم ولم لا وهم لا ينطقون إلا عن وحي من خالق الأرض والسماوات.

وتبين أيضًا أن الباطل لا بد مندحر والحق لا بد منتصر مهما طال الزمن فالعاقبة الحسنى للحق وآله.

الفصل الثاني
الحرب النفسية على النبي ﷺ
-جبهاتها وأنواعها-

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بجبهات العداء للرسول ﷺ في الحرب النفسية

المبحث الثاني: أنواع الحرب النفسية

المبحث الأول
التعريف بجبهات العداء للرسول ﷺ في الحرب النفسية

المطلب الأول: الكفار والمشركون.

المطلب الثاني: اليهود.

المطلب الثالث: النصارى.

المطلب الرابع: المنافقون.

أولاً: الكفار والمشركون: الجبهة الأولى من جبهات العداء للرسول ﷺ:

والكفر معناه: الستر والتغطية والمواراة.

والكافر: الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شيء وكفر النعمة جحدها[(١)].

وقيل سمي الكافر كافرًا لأنه ستر نعمة الله عز وجل، ونعمه: آياته الدالة على توحيده[(٢)].

قال بعض العلماء الكفر على أربعة أنحاء:

١ - كفر إنكار: وهو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به ويكفر بقلبه ولسانه.

٢- كفر جحود: وهو أن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر إبليس وكفر أهل الكتاب.

٣- كفر عناد: وهو أن يعترف بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به حسدًا وبغيًا ككفر أبي جهل وإضرابه.

٤- كفر نفاق: وهو أن يقر بلسانه ويكفر بقلبه فلا يعتقد بما يقول وهو فعل المنافقين[(٣)].

يقال للرجل كافر لأنه ستر فكرته وغطاها بغطاء من الجهل والسفاهة وتوارت عن بصيرته فطرة الدين وفطرة نفسه وهو مخلوق على الفطرة الإسلامية فهو لا يستخدم قواه الفكرية والعلمية إلا فيما يخالف فطرته، فالكافر مرتكس في الضلال والغي.

فالكفر جهل حيث لا جهل أكبر من جهل من لا يعرف ربه والكفر ظلم ومعنى الظلم: أن تضع الشيء في غير محله اللائق به وتستعمله بما لا تلتئم به فطرته، والكفر بغي وعدوان وجحود وكنود[(٤)].

---

(١) مختار الصحاح للرازي (ص٢٣٩)، ط/ مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.

(٢) لسان العرب مادة كفر (٥/ ٣٨٩٩)، ط/ دار المعارف.

(٣) لسان العرب مادة كفر، وانظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام للصابوني (٢/ ٢٣٦)، ط/ دار القلم، دمشق.

(٤) مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودوي، مؤسسة الرسالة، بيروت (ص٨) باختصار وتصرف.

والشرك: هو جعل شريك لله في ربوبيته وإلهيته والغالب الإشراك يكون في ألوهيته وهو أن يدعو مع الله غيره أو يصرف له شيئًا من أنواع العبادة كالذبح والنذر والخوف والرجاء والمحبة، والشرك أعظم الذنوب(١).

الطبيعة النفسية للمشركين تجاه المؤمنين:

لقد حملت جبهات العداء المختلفة مشاعر الحقد والحسد والكراهية للمؤمنين، وهذا ما دفعهم لحربهم ضدهم إذ لا يعقل أن يحارب الحبيب من يحب.

ولقد جسدت بعض آيات القرآن طبيعة المشاعر التي تنطوي عليها قلوب المشركين وغيرهم من أعداء الإسلام للإسلام والمسلمين.

ومن هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقد فُسِّر الخير بالوحي:

والمعنى أنهم يحسدونكم عليه وما يحبون أن ينزل عليكم شيئًا منه.

وفُسر الخير بالعلم والنصرة ولعل المراد به يعم ذلك.

﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ بعدما ذكر الله طبيعة مشاعر أعداء الإسلام أراد أن يطمئن المسلمين فلا ييئسوا بهذه المشاعر فالله سبحانه يستنبئ من يشاء ويعلم وينصر من يشاء، وكل ما يفعله جار بمشيئته وفضله وحكمته(٢).

٢- ومن الآيات التي تجسد طبيعة مشاعر أعداء الإسلام للإسلام ولأهله وخاصة المشركين واليهود قول الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ

---

(١) كتاب التوحيد، صالح بن فوزان الفوزان (ص٩)، مكتبة الأثير، الرياض.

(٢) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٨٠) باختصار وتصرف.

وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢].

فلقد جعل الله سبحانه وتعالى في الآية اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا في قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾[(١)].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ فلم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود في قتلهم للمسلمين وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه[(٢)].

والآية الكريمة فيها دلالة واضحة على ما تضمره قلوب أعداء الإسلام للمسلمين من عداوة بل من شدة العداوة وخاصة اليهود والمشركين، وهذا ما يؤكد ضراوة الحرب التي يخوضونها كل حين ضد الإسلام وآله.

ومن الآيات تؤكد الطبيعة النفسية الخبيثة للمشركين تجاه الإسلام ورسوله وأتباعه قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١].

يقول العلامة النسفي[(٣)] في تفسيره لهذه الآية: أي قارب الكفار من شدة نظرهم

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٦٣٧) بتصرف يسير.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٥٦).

(٣) العلامة النسفي هو: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود الملقب حافظ الدين المكي النسفي، نشأ في بيئة علمية خصبة، أخذ العلم عن الإمام محمد بن عبد الستار الكردي وعن علي بن محمد بن علي البخاري، له تلاميذ كثيرين منهم الإمام الحسين بن علي بن حجاج الملقب بحامي الدين، وفاته قيل توفي سنة ٧٠١، وقيل: ٧١٠، وقيل ٧٥١هـ. انظر: هداية العارفين (١/ ٤٦٤)، وانظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي (١/ ٢٨٩) طبعة مكتبة وهبة القاهرة.

إليك شذرا بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك لشدة حنقهم عليك، وكان العين في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول لم أر كاليوم مثله إلا هلك فأريد بعض العيانين على أن يقول في رسول الله ﷺ مثل ذلك فقال لم أر كاليوم مثله رجلاً فعصمه الله من ذلك.

﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ القرآن، ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حسدًا على ما أوتيت من النبوة، ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ إن محمدًا لمجنون حيرة في أمره وتنفيرًا منه[1].

وهكذا ففي الآية الكريمة دلالة واضحة على ما أضمرته نفسية القوم من كره وحمق وحسد للرسول ﷺ وهذا ما دفعهم إلى الافتراء والادعاء الكاذب عليه حتى تجرأوا أن يقولوا عليه مجنون وحاشاه.

وإذا كانت هذه مشاعرهم تجاه الرسول فما بالك بمشاعرهم تجاه أتباعه! وهل يتصور من مشاعر تلك حرارتها أن تكون الحرب الناتجة عنها حربًا هينة؟ بالطبع لا، إنها حرب ضروس دفعتها نفسيات خبيثة وقلوب مريضة، نتج عنها ما عبر عنه القرآن بالمكر ووصف مداه فقال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

والمعنى: أنهم قد مكروا في رد الحق وإثبات الباطل مكرهم العظيم الذي استغرقوا فيه وسعهم ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي وعند الله جزاء مكرهم فهو مجازيهم به.

والمخاطبون: هم قوم محمد ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه ثم وصف مكرهم بقوله ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾.

وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته أي وإن كان مكرهم يبلغ في الكيد إلى إزالة الجبال[2].

---

(١) تفسير النسفي (٤/ ٢٨٥) باختصار.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ١١٧) باختصار وتصرف.

وهكذا فالمشركين كجبهة من جبهات العداء في الحرب النفسية ضد الرسول محمد ﷺ والمسلمين قد حملوا من المشاعر السيئة والخبايا الخبيثة تجاه الرسول ﷺ ودينه وأتباعه ما حملهم على إدارة دفة من دفات الحرب النفسية ذات هجوم خطير ووسائل متعددة سأبينها عند حديثي عن وسائل الأعداء في الحرب النفسية إن شاء الله.

ثانيًا: اليهود:

اليهود الجبهة الثانية من جبهات العداء للرسول ﷺ في الحرب النفسية:

واليهود: مشتقة من هاد بمعنى تاب ورجع ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تبنا إليك ومنه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [المائدة: ٤١] كأنهم رجعوا عن شيء إلى شيء[(١)].

قال صاحب لسان العرب[(٢)] «الهود»: التوبة، هاد يهود هودا، تاب ورجع إلى الحق فهو هائد[(٣)].

ومن أشهر أسماء اليهود:

العبريون، الإسرائيليون، ويهود أو اليهود.

وفي سبب تسميتهم اليهود:

١ - قيل أنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل وقالوا ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا ورجعنا. فاليهود لم يستطيعوا في أي فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة

---

(١) تفسير غريب القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة بتحقيق السيد أحمد صقر، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م (ص١٧٣).

(٢) صاحب لسان العرب هو: ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري المصري، اللغوي، صاحب اللسان، ولد سنة ٦٣٠هـ ومات سنة ٧١١هـ ولي قضاء طرابلس، انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للإمام السيوطي (١/ ٢٤٨)، طبعة دار الفكر.

(٣) لسان العرب لابن منظور (٦/ ٤٧١٨)، ط/ دار المعارف.

الله الواحد التي دعا لها الأنبياء[١].

٢- وقيل أنهم سموا بذلك، لأنهم يتهودون، أي يتحركون عند قراءة التوراة[٢].

٣- وقيل أنهم سموا يهود نسبة إلى «يهوذا» الابن الرابع ليعقوب عليه السلام[٣].

اليهود والإسلام

عاش اليهود في شبه الجزيرة العربية بعد أن وصلوا إليها نتيجة تشردهم وخاصة بعد خراب الهيكل على يد تيتطس سنة ٧٠م.

ويحدثنا التاريخ عن وجود اليهود في اليمن عملاء للفرس، وعن وجودهم في شمال الحجاز وقد انحصر وجودهم في شمال الجزيرة بالمدينة وما حولها.

وحين بعث محمد ﷺ كان اليهود يعيشون في المدينة وما حولها[٤].

وقد عاش اليهود عالة على عرب الحجاز حين نافسوهم حياتهم وأرضهم، وظلوا في صراع دائم تارة يتحاربون وتارة يتهادنون، وقد كان اليهود يمارسون الزراعة وأعمال الربا الفاحش، وبث روح الشقاق والفرقة بين عرب المدينة -الأوس والخزرج- مما أدى إلى حروب طاحنة بين الإخوة، حتى حقق اليهود أهدافهم في السيطرة المادية على العرب، عن طريق نفث سمومهم بالمكر والجشع والحقد والفتنة والهمجية.

وكيفما كانت العداوة بين العرب أنفسهم إلا أنهم متفقون على سوء خلق معظم اليهود واحتقارهم وبالتالي كره دينهم المحرف، وعدم الإيمان به مفضلين عليه

---

(١) مقارنة الأديان «المسيحية»، د/ أحمد شلبي (ص٢٤٠)، ط/ النهضة المصرية.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د/ محمد سيد طنطاوي، القاهرة، دار الشروق، (ص١٣،١٢)، ١٩٩٧م.

(٣) انظر: تاريخ الملل والنحل، للمرحوم أ/ أمين الخولي (٢/ ٤).

(٤) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، د/ عبد الله التل (ص٣٨) باختصار وتصرف، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت.

عبادة الأصنام[١].

وقبل مبعث محمد ﷺ كان أحبار اليهود قد تحدثوا عن نبي يبعث في الجزيرة العربية ورويت صفاته في كتبهم وأحاديث أنبيائهم، فقد قال ابن إسحاق عن عاصم بن قتادة، عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا، ما كنا نسمع من رجال اليهود وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا: إنه قد تقارب زمن نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع منهم ذلك، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا نحن وكفروا به[٢] ففينا وفيهم نزل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٨٩].

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعني اليهود.

ونزلت فيهم حين كانت غطفان تقاتلهم وتهزمهم، أو حين كانوا يلقون العرب أذى كثيرًا، أو حين حاربهم الأوس والخزرج فغلبتهم.

و﴿ كِتَٰبٌ ﴾ هو القرآن.

﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ نعت للكتاب.

﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ هو التوراة والإنجيل.

﴿ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ يطلبون الفتح ويستنصرون به[٣].

---

(١) نظرة حول المؤامرات الدولية اليهودية، د/ سعيد محمد أحمد باناجة (ص١٦، ١٧)، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص٣٠، ٣١) باختصار وتصرف.

(٣) الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي (١/ ٤١٩) باختصار وتصرف.

﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ ﴾ أبعدهم عن رحمته وطردهم، وقد كان اليهود عندهم في التوراة وصف النبي ﷺ وبيان زمانه وكانوا يمنون أنفسهم بالنصر على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة.

فلما جاءهم النبي ﷺ في يمينه القرآن مصدقًا لما عندهم في التوراة ومؤيدًا بوصفه المعروف عندهم كفروا واستكبروا، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة فلعنة الله عليهم أجمعين(١).

بداية الكيد اليهودي للإسلام والمسلمين:

كان أولى باليهود الذين هم أهل الكتاب وعلى علم بالنبي الجديد وصفاته وكانوا يتهددون به العرب من أهل المدينة أن يكونوا أول الناس اتباعًا له حين علموا بمبعثه عن طريق اتصالهم بمكة للتجارة وللأعمال المختلفة وعن طريق ذهاب بعض أهل مكة إليهم يتبادلون المنافع ولكنهم رغم هذا قد سلكوا مسلكًا مخالفًا، لقد سلكوا مسلك العداء للنبي ﷺ ولدينه منذ اللحظة الأولى وحتى قبل أن يهاجر إلى المدينة وكان من مظاهر هذا العداء.

أ- أنهم كانوا يلقنون الكفار أسئلة يحرجون بها النبي ﷺ.

ب- أنهم ناصروا كفار قريش وأيدوهم في عبادتهم للأصنام.

أ- أنهم كانوا يلقنون الكفار أسئلة يحرجون بها النبي ﷺ:

أنهم كانوا يلقنون العرب من أهل مكة أسئلة يحرجون ويتحدون بها النبي ﷺ منها أن قالوا لهم: سلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب؟ وسلوه عن الروح ما هي(٢).

---

(١) التفسير الواضح، د/ محمد محمود حجازي، دار التفسير للطبع والنشر، الزقازيق، ط/ العاشرة، ١٩٩٢م/ ١٤١٢هـ (١/ ٥٥).

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢١٠، ٢١١)، وانظر: بنو إسرائيل في القرآن، د/ محمد سيد طنطاوي (ص١٣٣، ١٣٤).

ب- أنهم ناصروا كفار قريش وأيدوهم في عبادتهم للأصنام:

وكان من مظاهر عدائهم للإسلام ونبي الإسلام أيضًا قبل الهجرة أنهم ناصروا كفار قريش المشركين عبدة الأصنام وأيدوهم في عبادة الأوثان وأكدوا لهم أنها أفضل من الدين الإسلامي الذي يقوم على التوحيد وعبادة رب العالمين[1] فأشار القرآن الكريم إلى عملهم هذا بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

يقول العلامة الطبري[2] عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ ...﴾ قال إن هذه الآية نزلت في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ورجلين من اليهود من بني النضير لقيا قريش بموسم، فقال لهم المشركون: أنحن أهدى أم محمد وأصحابه؟ فإنا أهل السقاية وإنا أهل الحرم، فقالا: لا، بل أنتم أهدى من محمد وأصحابه وهما يعلمان أنهما كاذبان، وإنما حملهما على ذلك حسد محمد وأصحابه، وقيل بل هي صفة حيي بن أخطب وحده.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ هؤلاء الذين وصف صفاتهم أنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، هم الذين لعنهم الله، ويقول: أخزاهم الله بإبعادهم من رحمته بإيمانهم بالجب والطاغوت وكفرهم بالله ورسوله، عنادًا منهم لله ورسوله، وبقولهم: ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾، ﴿ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ ﴾ أي ومن يخزي الله إلى

---

(١) انظر: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، عبد الله التل (ص٤٠).

(٢) العلامة الطبري هو: أبو جعفر بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب جامع البيان في تفسير القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، ولد سنة ٢٢٤هـ بطبرستان وتوفي سنة ٣١٠هـ ببغداد، انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خليكان، تحقيق/ إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ (٤/ ١٩١).

فيبعده من رحمته، ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ أي فلن تجد له يا محمد ناصرًا ينصره من عقوبة الله التي تحل به، فيدفع ذلك عنه(١).

ومن مظاهر كيد اليهود للإسلام والمسلمين عند الهجرة وبعدها:

أ- طريقتهم في استقبال النبي ﷺ عند هجرته إلى المدينة.

ب- محالفتهم للمنافقين.

ج- تحالفهم مع المشركين.

د- محاولتهم قتل النبي ﷺ.

أ- استقبال اليهود للنبي ﷺ عند هجرته إلى المدينة:

في يوم من أيام التاريخ المشهود، وبينما المسلمون في المدينة، كانوا ينتظرون كعادتهم قدوم النبي ﷺ بعد أن ترامت الأخبار إلى مسامعهم بهجرته إليهم، صاح بهم يهودي، وقد لمح الركب النبوي «يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء»(٢).

أخرج البخاري في حديث الهجرة: أن المسلمين في المدينة حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يخرجون كل غداء إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا إلى أهلهم بعد أن طال انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي إلى أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا الرسول ﷺ بظهر الحرة(٣).

واشترك اليهود -في مجموعة- من المهاجرين والأنصار في حسن استقبال صاحب

---

(١) جامع البيان للطبري (٥/ ١٣٥، ١٣٦)، ط/ دار الفكر.

(٢) نسب الأوس والخزرج الذين يجمعهم أب واحد إلى أمهم قيلة بنت كاهل بن عجرة، ولذا كانوا يسمون بأبناء قيلة. انظر: بنو إسرائيل في القرآن مرجع سابق (ص٣٧).

(٣) أخرجه البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٥/ ٧٧).

الدعوة ﷺ رغم أنهم -في مجموعهم- كما ساقت الأخبار الصحيحة والتي حدثتنا أن بعض اليهود قد تنكر للدعوة الإسلامية، وتوجس خيفة من صاحبها ﷺ منذ اليوم الأول من الهجرة.

فعن صفية بنت حيي بن أخطب -رضي الله عنها- قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما في ولد لهما قط، وأهش إليهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم النبي ﷺ ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا إليه أبي وعمي أبو ياسر مغلسين، قالت: فوالله ما رجعا إلا مع مغيب الشمس، قالت: فرجعا إلينا فاترين كسلانين يمشيان الهويني، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله قال: أتعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله، قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته -والله- ما بقيت[(١)].

وذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن أبا ياسر بن أخطب، لما قدم النبي ﷺ المدينة، ذهب إليه وسمع منه وحادثه، ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعوني فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرونه فاتبعوه ولا تخالفوه، فانطلق أخوه حيي بن أخطب، وهو يومئذ سيد اليهود، وهما من بني النضير -فحل إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، ثم رجع إلى قومه- وكان فيهم مطاعًا فقال: أتيت من عند رجل -والله- لا أزال له عدوًا أبدًا، فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابنؤم أطعني في هذا الأمر واعصني فيما شئت بعده لا تهلك، قال: لا والله لا أطيعك أبدًا واستحوذ عليه الشيطان، واتبعه قومه على رأيه، قلت: أما أبو ياسر فلا أدري ما آل إليه أمره، وأما حيي فشرب عداوة النبي ﷺ ولم يزل ذلك رأيه حتى هلك[(٢)].

فمن هذين النصين نرى أن بعض اليهود قد أضمروا سوءًا للدعوة الإسلامية منذ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٧٤)، وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٢١٢) باختصار.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢١٢)، وانظر: بني إسرائيل في القرآن مرجع سابق (ص١٣٨).

وصول النبي ﷺ إلى المدينة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ قد تغاضى عن عداوة هذا البعض دون أن يجهلها، وعمل على نشر روح التعاون والمودة مع اليهود، فتحدث إلى رؤسائهم وتحدثوا إليه، وتقرب منهم فتقربوا منه، وأباح للمسلمين أن يؤاكلوهم وأن يتزوجوا من نسائهم، وفرح اليهود عندما رأوا النبي ﷺ والمسلمين يستقبلون في صلاتهم بيت المقدس، والذي هو قبلة بني إسرائيل في صلاتهم[1].

وقبل أن أذكر مظاهر كيد اليهود للإسلام والمسلمين بعد الهجرة فسأذكر أولاً موقف الرسول ﷺ والمسلمين معه من اليهود:

قال محمد بن إسحاق: كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم، وأموالهم.

وكان مما جاء في الكتاب ويخص اليهود:

* أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

* وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ[2] إلا نفسه وأهل بيته.

* وأن ليهود بن النجار مثل ما ليهود بني عوف.

* وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

* وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

* وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

* وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

* وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهله، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) يهلك ويفسد، انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٤، ٦٥) باختصار وتصرف.

وأن لبني جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

وأن لبني الشطيبة ما ليهود بني عوف، وأن البرجون الأثم.

وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

وأن بطانة يهود كأنفسهم.

وأنه لا يخرج منه أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وأنه لا ينحجز على ثقر جرح، وأنه من فتك فبنفسه، وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبردون الإثم، وأنه لا يأثر امرؤ بحليفة، وأن النصر للمظلوم.

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن من أهلها.

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وأنه لا تجار قريش، ولا من نصرهم.

وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

وان يهود الأوس ومواليهم، وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة.

وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن

بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[١].

هذه هي المعاهدة التي عقدها النبي ﷺ بين طوائف اليهود، وقد تضمنت كثيرًا من المبادئ السامية، والأسس التي يجب أن تقوم عليها العلاقات بين الأمم، وهذه بعض الأمور التي يمكن أن تستخلص منها:

أولاً: نصت المعاهدة على كفالة الحرية الدينية لليهود، وأباحت لهم أن يقوموا بأداء شعائر دينهم، بدليل أن من بين بنودها «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم».

ثانيًا: في المعاهدة روح اجتماعية عالية، فهي تقرر أن من خالف نصًا من نصوصها، واعتدى على أحد ممن تكفل لهم الأمن والسلامة، فإن أهل الصحيفة كلهم حرب عليه، وفي ذلك اعتراف صريح بشخصية الجماعة وأن لها حقوقًا على أفراد وعليها واجبات نحوهم، وأن سلامة المدينة يشترك في تحقيقها جميع سكانها.

ثالثًا: المعاهدة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الصادق مع اليهود، من أجل نشر الطمأنينة، والأمن في المدينة، والضرب على أيدي العادين، ومدبري الفتنة أيًا كان دينهم، أو جنسهم بدون تفرقة، أو تمييز بين أحد، وإذا حصل عدوان خارج على المدينة، فالمسلمون واليهود يشتركون في الدفاع عنها.

رابعًا: اشتملت المعاهدة على كثير من المبادئ الإنسانية السامية، كنصرة المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة، والتعاون على دفع الدية، والنداء الأسري، ومساعدة المدين، إلى غير ذلك من المبادئ التي تشعر أبناء البلدة الواحدة كأنهم أسرة واحدة.

خامسًا: نصت المعاهدة على ما كان بين المسلمين وبين قريش من عداوة حينئذ، وحرمت على من اشترك فيها من مسلمين أو يهود، موالاة قريش أو مناصرتها، أو إيواء أحد منها، وأن من فعل ذلك فعليه لعنة الله، وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٤، ٦٥) باختصار وتصرف.

سادسًا: نصت الصحيفة على وجوب اشتراك اليهود مع المسلمين في دفع ما عليهم من نفقات في حالة الحرب، كما نصت على وجوب مؤازرتهم ومناصرتهم للمسلمين بكل طريقة ممكنة، فقد جاء فيها: «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب».

سابعًا: نصت الصحيفة على أن كل أمر يختلف فيه أهلها، يكون مرد الحكم فيه إلى النبي ﷺ لأنه صاحب السلطة العليا في المدينة.

ثامنًا: تضمنت الصحيفة أن من ارتكب إثمًا يوجب عقوبة نفذت عليه، وأن اشتراكه في هذه الصحيفة لا يعفيه من العقوبة، ومن بين نصوصها «وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم».

تاسعًا: من المكاسب التي نالها المسلمون عن طريق هذه الصحيفة، أنهم أصبحوا أمام عدو واحد هو قريش، لأن الصحيفة أمنتهم جانب اليهود، لو أنهم -أي اليهود- حافظوا على ما اشتملت عليه من مبادئ، ولم ينقضوها بعد زمن قليل من كتابتها.

عاشرًا: ومن المكاسب التي ظفر بها اليهود بسبب هذا المعاهدة، حماية المسلمين لهم من أي اعتداء عليهم، فقد نصت المعاهدة على أن من تبعنا من يهود فإن لهم النصر والإسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، ولكن اليهود لم يحافظوا على هذه المكاسب؛ لعدم وفاتهم بعهودهم(١).

هذا، وقد علق الأستاذ عبد الرحمن عزام على هذه الصحيفة بقوله:

هذه المعاهدة من أنفس العقود الدولية، وأمتعها، وأحقها بالنظر والتقدير، من كافة الناس، وما أولاها بأن تكون نبراسًا للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم، وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى، هذا فضلاً عن أن عقدها ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتها وابتدأ الاعتراف بالمسلمين كدولة.

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د/ محمد سيد طنطاوي (ص١٤٢، ١٤٣) باختصار وتصرف.

هذه المعاهدة تعاقد فيها المسلمون مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى فنشأ عن ذلك أول ميثاق «لجمعية أمم» أساسه النصر للمظلوم، والنصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وحرمة الأوطان المشتركة، وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جواره، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم.

ولقد سبق الإسلام بهذه المعاهدة عهد «عصبة الأمم» الحديثة، بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا وهكذا وضع الرسول ﷺ الأساس المتين للدولة العالمية، والمعاملات الدولية في هذا الميثاق على أساس الحرية للمشتركين فيه وعلى مبدأ الاستقلال.

ومن كل ما تقدم نستخلص: أن اليهود كانوا على علم بأخبار الدعوة الإسلامية في مكة، خصوصًا في السنوات الأخيرة التي سبقت الهجرة، وأنهم في استقبالهم النبي ﷺ عند وصوله إلى المدينة استقبالاً فيه مبالغة -وأن عهدًا- ليس بالطويل من العلاقات الهائدة بينهم وبين المسلمين قد ساد المدينة بعد الهجرة[1].

ب- محالفتهم للمنافقين:

من مظاهر كيد اليهود للإسلام والمسلمين بعد الهجرة:

فعلى الرغم من اعتراف النبي ﷺ والمسلمين بالوجود اليهودي في المدينة ومسالمتهم وموادعتهم لهم إلا أن اليهود لم يتخلوا أمام هذه السماحة عن حقدهم وكراهيتهم وكيدهم للإسلام والمسلمين ومحالفتهم المنافقين للقضاء على الإسلام والمسلمين.

ومن الآيات التي دلت على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د/ محمد سيد طنطاوي (ص١٤٤) باختصار وتصرف.

يقول العلامة: جلال الدين السيوطي[(١)] في سبب نزول هاتين الآيتين:

عن عبادة بن الصامت[(٢)] قال: لما حاربت بنو قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى الرسول من خلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي فحالفهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم، قال ففي وفي عبد الله بن أبي نزلت[(٣)]: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الآية [المائدة: ٥١].

ومعنى الآية أن الله سبحانه وتعالى ينهى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم إنها تهدد وتوعد من يتعاطى موالاتهم ووصفه بالظلم، وأن الله لا يحبه وأي عقوبة أفظع من أن يبغض الله إنسانًا[(٤)].

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ يقول ابن جرير: فإن من تولاهم ونصرهم على

---

(١) هو الإمام عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، نشأ يتيمًا وحفظ القرآن وهو دون ثماني سنين، ثم حفظ المتون، وشرع في الاشتغال بالعلم بعد ذلك، واشتغل بالتدريس والإفتاء، ورزق التبحر في علوم شتى، وله مصنفات كثيرة، توفي سنة ٩١١هـ رحمه الله تعالى، انظر: البدر الطالع (١/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ط/ السعادة، القاهرة.

(٢) هو الصحابي الجليل عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أحد النقباء بالعقبة، شهد المشاهد كلها بعد بدر، روى عن النبي ﷺ كثير وعن غيره من الصحابة، وروى عنه جمع كثير، توفي سنة ٣٤هـ، وله اثنتان وسبعون سنة ﷺ، انظر: الإصابة (٢/ ٢٦٨)، ط/ دار الفكر، الاستيعاب (٢/ ٤٩٩) ط/ دار الفكر.

(٣) لباب النقول في أسباب النزول للعلامة جلال الدين السيوطي، بيروت، دار إحياء العلوم، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م (ص٩٢، ٩٣).

(٤) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٣/ ١٤٢٢) ط/ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدًا إلا وهو به وبدينه راض وإذا رضي دينه فقد عاد من خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه[(١)].

ولقد بلغت المودة بين اليهود والمنافقين في المدينة مبلغًا كبيرًا بدليل أن عبد الله بن أبي -زعيم المنافقين- لما حضرته الوفاة أحاط اليهود بسريره وأخذوا يكون ويتحبون، فغضب لذلك أحد أبناء عبد الله بن أبي وأراد أن يطردهم فمنعه أبوه، وقال له: دعهم فإن قربهم مني يشفي صدري، فقال له اليهود: يا عبد الله نود أن نفديك بدمائنا وأموالنا، ولما مات أرادوا أن يقوموا بدفنه فمنعوا من ذلك، وبعد دفنه أخذ اليهود ينثرون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والألم لوفاة زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي.

هذا ومن الممكن أن يكون وجود اليهود في المدينة من الأسباب القوية التي علمت بعض أهلها خلق النفاق، وذلك لأن العربي صريح بطبعه، وحركة النفاق ما ظهرت في العهد المكي، لأن القرشيين كانوا صرحاء في حربهم للإسلام والمسلمين.

فلما تمت الهجرة وانتصر المسلمون في بدر، بدأ بعض اليهود وتبعهم بعض العرب يتظاهرون بالإسلام[(٢)].

وقد ساق ابن هشام أسماء عدد كبير من اليهود، الذين أسلموا نفاقًا، وذكر من بينهم زيد بن الصليت، وسعد بن حنيف ورافع بن حريملة ... وغيرهم[(٣)].

ومما يدل على تحالف المنافقين مع اليهود أيضًا ما ذكره ابن هشام من أن أناسًا من المنافقين اجتمعوا في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل[(٤)].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٦/ ٢٧٧) باختصار وتصرف.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د/ محمد سيد طنطاوي (ص٢٤٠) باختصار وتصرف.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٧٨) باختصار وتصرف.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٤).

ج- تحالفهم مع المشركين:

ومن مظاهر كيد اليهود للإسلام والمسلمين بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أيضا أن تحالفوا مع المشركين ضد النبي ﷺ وأصحابه.

وهذا ما سجلته آيات سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ٥١-٥٥].

يقول العلامة الواحدي في سبب نزول هذه الآيات: أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف جاءا إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد! قالوا: نحن ننحر الكوماء ونسقي اللبن على الماء، ونفك العناه ونصل الأرحام ونسقي الحجيج، وديننا القديم ودين محمد الحديث، قال: بل أنتم خير منه أهدى سبيلا، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾.

وقال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف في سبعين ركبًا من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشًا على غدر رسول الله ﷺ وينقدوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل كعب على أبي سفيان، ونزلت اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكرًا منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل فذاك قوله ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ذلك.

فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب أديننا خير أم دين محمد؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني كعبًا وأصحابه[(١)].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هذا تعجب من حال اليهود واختلف المفسرون في معنى الجبت فقيل هو السحر، والطاغوت: الشيطان، وقيل إن الجبت والطاغوت هو كعب بن الأشرف.

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش: أنتم أهدى من الذين آمنوا بمحمد سبيلاً، أي أقوم دينًا وأرشد طريقًا[(٢)].

د- محاولتهم قتل الرسول ﷺ:

ومن مظاهر كيد اليهود للإسلام ونبيه وأتباعه بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة تكررت محاولاتهم لقتل النبي ﷺ ولقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بنعم الله تعالى عليهم وكيف أنه سبحانه نجا نبيه ﷺ من مكر اليهود وأذاهم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١].

ذكر العلامة الواحدي[(٣)] في سبب نزول هذه الآية: عن مجاهد والكلبي وعكرمة: قتل رجل[(٤)] من أصحاب رسول الله ﷺ قتل رجلين من بني سليم وبين النبي ﷺ وبين

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص١٢٩، ١٣٠).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٦٧).

(٣) هو علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدي النيسابوري، كان أوحد عصره في التفسير، صنف التفاسير الثلاثة، البسيط والوسيط والوجيز وله مؤلفات أخرى منها أسباب النزول، توفي سنة ٤٦٨هـ رحمه الله. انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٩٤).

(٤) هو الصحابي عمرو بن أمية الضمري وقد قتل رجلين ثأرًا لشهداء بئر معونة وكان القتيلان معاهدين للنبي ﷺ ولم يعلم بذلك عمرو. انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧٤)، وانظر: هذا الحبيب (ص٢٨٩).

قومهما موادعة، فجاء قومهما يطلبون الدية فأتى النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف رضوان الله عليهم جميعًا، فدخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينوهم في عقلهما، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، وجلس هو وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لم تجدوا محمد أقرب منه الآن، فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمر بن جحا من بني كعب: أنا، فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله تعالى يده، وجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك، فخرج رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى هذه الآية(1).

وهذه الآية الكريمة تذكير من الله تعالى المؤمنين بنعمة عظيمة من نعمه، هي نجاة نبيهم محمد ﷺ من قتل أعدائه وأعدائهم وهم اليهود ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ حيث أوحى إلى رسوله ما دبره اليهود فانصرف وتركهم لم يظفروا بما أرادوا، ثم الآية أمر من الله تعالى المؤمنين بتقواه إذا هي سلم كمالهم وسبيل نجاحهم وهي عبارة عن امتثال أمره وأمر رسوله واجتناب نهيهما وأشار إلى التوكل على الله في جميع الأمور.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ولم تكن هذه المحاولة لقتل النبي ﷺ هي المحاولة الوحيدة ومما يدل على ذلك:

ما ذكره محمد بن شهاب الزهري في المغازي النبوية ما ملخصه أن بني النضير أجمعت على الغدر بالرسول ﷺ فأرسلت إليه: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبرًا، حتى نلتقي في مكان كذا، نصف ما بيننا وبينك فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه

---

(1) أسباب النزول للواحدي (ص١٥٩).

(2) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر جابر الجزائري، جدة، راسم للدعاية والإعلان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م (١/ ٥٠٨، ٥٠٩) باختصار.

ثلاثون حبرًا من اليهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض، قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه كيف نفهم وتفهم ونحن ستون رجلاً، اخرج في ثلاث من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فيسمعوا منك فإن آمنوا آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه وخرج اليهود أيضًا واشتملوا على الخناجر، وأراد الفتك برسول الله فأخبر الرسول ﷺ بذلك فحاصرهم وأجلاهم عن المدينة(١).

ومن الأدلة على تكرر محاولاتهم لقتل النبي ﷺ:

عن أبي هريرة(٢) ﷺ قال: أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: **«اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود»** فجمعوا له، فقال لهم: **«فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟»** قالوا: نعم، فقال: **«هل جعلتم في هذه الشاة سمًا؟»** فقالوا: نعم، فقال: **«ما حملكم على ذلك؟»** فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك وإن كنت نبيًا لم يضرك(٣).

وعن أنس(٤) أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت أن أقتلك، قال: **«ما كان الله ليسلطك**

---

(١) انظر: المغازي النبوية لابن شهاب الزهري (ص٧٢، ٧٣)، وأنساب الأشراف (١/ ٣٣٩)، والمواهب اللدنية (٢/ ٨١).

(٢) هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الدوسي، وأبو هريرة كنيته، أسلم عام خيبر سنة سبع من الهجرة، ولازم النبي ﷺ وكان أكثر الصحابة رواية على الإطلاق، وأحفظهم وله مناقب كثيرة توفي سنة سبع أو تسع وخمسين عن ثماني وسبعين سنة ﷺ. انظر: الإصابة (٤/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ (٧/ ١٨٠).

(٤) هو الصحابي الجليل: أنس بن مالك بن النضر ضمضم خادم رسول الله ﷺ عشر سنين ودعا له الرسول بالبركة في رزقه وماله وولده فقيل ولد له ثمانية وسبعون ذكرًا وبنتان، توفي سنة ٩٢هـ وقيل ثلاث وتسعين عن عمر يناهز مائة سنة وعشر، انظر: الاستيعاب (١/ ١٠٩، ١١١).

على ذلك» قال: أو قال: «عليّ» قال: قالوا[١]: ألا تقتلها؟ قال: «لا»، قال: فما زلت أعرفها في لهوات[٢] رسول الله ﷺ[٣].

وعن عائشة[٤] رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرض موته الذي مات فيه: «**يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلته بخيبر فهذا أوان، وجدت انقطاع أبهري[٥] من ذلك السم**»[٦].

وكان مع النبي ﷺ الصحابي بشر بن البراء[٧] ازدرء لقمة من الشاة المسمومة فمات[٨].

وهكذا فقد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على أنه:

---

(١) أي الصحابة.

(٢) لهوات: جمع لهاة وهي اللحمة الحمراء المعلقة في أصل الحنك، والمراد أنه بقي للسم علامة وأثر. انظر صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السم (٤/ ١٧٢١).

(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب السلام، باب السم برقم (٢١٩٠) (٤/ ١٧٢١) طبعة عيسى الحلبي.

(٤) هي الصحابية الجليلة أم المؤمنين وأفضل أزواج النبي ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق ﷺ، روت عن النبي ﷺ الكثير وعن أبيها وعمر وروى عنها أختها أم كلثوم وأخوها من الرضاعة عوف بن الحارث وجمع من الصحابة، كانت من أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة توفيت سنة ٥٨هـ رضي الله عنها. انظر: الإصابة (٤/ ٣٥٩)، والاستيعاب (٤/ ٣٥٦).

(٥) الإبهر عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه، وهو الشريان الذي يوزع الدم من القلب إلى بقية أعضاء الجسم. صحيح البخاري (١٠/ ٢٥٧)، ط/ دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.

(٦) صحيح البخاري في فتح الباري (١٠/ ٢٥٧)، ط/ دار الريان للتراث.

(٧) بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي من بني سلمة شهد العقبة وبدر وأحد، ومات بخيبر سنة سبع من الهجرة من الأكلة التي أكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة، قيل إنه مات في المكان الذي أكل فيه، وقيل استمر وجعه سنة ثم مات. انظر: أسد الغابة (١/ ٢١٨).

(٨) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٥).

قد وصل شيء قليل جدًا من السم عن طريق لعاب النبي ﷺ إلى معدته ثم إلى جسمه وأثر هذا السم القليل على حياة رسول الله ﷺ حتى قطع أبهر قلب الرسول ﷺ وهذا بنص حديث الرسول ﷺ الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها.

والمسلمون اليوم لهم ثأر عند هؤلاء اليهود الذين قتلوا نبيهم واغتصبوا مسراه ومعراجه ودنسوا قبلته الأولى وأحرقوا المسجد الأقصى وعاثوا فيه فسادًا ولا يزالون[1].

إن ما حدث لرسول الله ﷺ يؤكد الحقيقة القرآنية، أن اليهود حاقدون على البشر عامة وعلى الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس خاصة ولا يذهب غيظ قلوبهم إلا بقتلهم وسفك دمائهم ومن الإحصائيات التي تؤكد ذلك.

أنه من يتتبع التاريخ في جميع مراحله يجد أن رذيلة القتل والاغتيال طبيعة اليهود، في كل عصورهم، وهذه بعض جرائم القتل والاغتيال التي سجلها التاريخ عليهم:

أ- جاء في الكتاب رقم ٧٨ الذي وضعه المؤرخ كساسيوس فصل ٣٢ عن حقبة القرن الثاني للميلاد ١١٧م ما ملخصه:

عمد اليهود في هذه السنوات إلى ذبح الرومان واليونان، وأكلوا من لحومهم وسلخوا جلدوهم، وقطعوا أجسام كثيرين منهم نصفين من الرأس فنازل، وألقوا بكثير منهم إلى الحيوانات حتى بلغ القتلى ٢٢٠ ألفًا.

ب- ومنذ أن وطأت أقدام اليهود أرض فلسطين وهم يقومون بجرائم تقشعر من هولها الأبدان وهذه نماذج من جرائمهم التي ارتكبوها ضد عرب فلسطين:

١- في ٨ مايو ١٩٤٨م اعتدى اليهود على قرية المجورة وقبضوا على ٦٠ شاب ثم قتلوهم أمام أعين أهليهم.

٢- وفي فبراير ١٩٥١م وضع اليهود القنابل داخل قرية شرفات فقتل عدد كبير من الرجال والنساء.

---

(١) انظر شغب اليهود على الأنبياء، د/ محمد عبد القادر أبو فارس (ص١٤٩).

٣- وفي أكتوبر ١٩٥٣م انقض اليهود على قرية قبية فنسفوا منازلها بالمدافع وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ.

وكان عدد السكان العرب سنة ١٩٤٧م داخل المنطقة التي احتلها اليهود من فلسطين ٣٠٠ ألف نسمة، أما في سنة ١٩٦٤م فقد صار عددهم ٢٢٠ ألف نسمة أي أنهم نقصوا ٨٠ ألف نسمة بسبب العدوان الصهيوني.

ولقد استعمل اليهود في القضاء على خصومهم أخس أنواع الغدر والنذالة، فهم لا يواجهون أعداءهم في وضح النهار، وإنما يرتكبون جرائمهم عن طريق الخيانة والخديعة، من ذلك أنهم في مارس سنة ١٩٦٣م أرسلوا طردًا من المتفجرات إلى ستة من الخبراء الألمان في القاهرة فقتلوهم جميعًا، هذه هي بعض مفاسد اليهود في الأرض عن طريق القتل والاغتيال والتآمر ولو استقصيناها بشيء من التفصيل لاحتاج ذلك إلى مجلد ضخم[1].

بعض صفات اليهود التي تحدث عنها القرآن:

والقرآن الكريم في حديثه عن بني إسرائيل يربط ربطًا محكمًا بين طباع وأخلاق المعاصرين منهم للنبي ﷺ وطباع وأخلاق آبائهم الأولين الذين عاصروا موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وذلك ليبين أن ما عليه الأبناء من فسوق وعصيان ومحاربة لدعوة الإسلام؛ أنما هو ميراث من الخلق السيئ توارثه الخلف عن السلف وأخذه الأبناء عن الآباء.

ومن الأدلة على صدق القرآن في حديثه عن بني إسرائيل أن ما وصفهم به من صفات نراها في كل زمان ومكان منطبقة عليهم ولم تزدهم الأيام إلا رسوخًا فيها.

ونحن المسلمين قد نالنا من اليهود أذى كثير، فهم الذين حاربوا الدعوة الإسلامية بكل سلاح وهم الذين اغتصبوا -بمعاونة دول الكفر- بقعة من أرضنا المقدسة وهي -

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن (ص٦١٣-٦١٥) باختصار وتصرف.

فلسطين- وأقاموا عليها دولة لهم في عام ١٩٤٨م[١].

وفي الصفحات القادمة إن شاء الله سوف أتعرض لبعض صفات اليهود النفسية التي طويت عليها صدورهم والتي تجسد مدى العداء الذي يضمره اليهود للمسلمين مما نتج عنه حربًا نفسية ضروسًا قادها اليهود ضد المسلمين.

وهذه الصفات النفسية منها:

أولاً: الجبن.

ثانيًا: الإجرام والقسوة.

ثالثًا: الكذب والافتراء.

أولاً: الجبن:

يقال: «جبن - جبنًا»: تهذيب الإقدام على ما لا ينبغي أن يخاف[٢].

وقيل: الجبن: ضعف القلب عما يحق أن يقوى عليه[٣].

والجبن طبع اليهود الأصيل وغريزتهم الراسخة في نفوسهم مهما حاولوا التظاهر بعكسها حيث إنهم دائمًا وأبدًا يظهرون على حقيقتهم جبناء بالفطرة، يهابون الموت، لأنهم لا يؤمنون بالله ربًا للعالمين، ولا بالدار الآخرة بعد الموت، وحين يحاربون يفضلون معارك الغدر والاحتماء بالغير واستعمال العملاء[٤].

ومن الآيات الكريمة التي تدل على تأصل هذه الصفة فيهم قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٦].

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د/ محمد سيد طنطاوي (ص٥).

(٢) المعجم الوسيط (١/ ١٠٦)، ط/ دار الدعوة.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن (ص٨٥)، ط/ دار الفكر.

(٤) نظرة حول المؤامرات الدولية اليهودية، د/ سعيد محمد أحمد باناجة، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م (ص٢٠).

والمعنى: ولتجدن يا محمد اليهود من بني إسرائيل أحرص الناس على حياة حتى من الذين أشركوا وهم لذلك يجبنون عن كل ما يعرضهم لخسارة هذه الحياة.

وإنما وصف الله جل ثناؤه اليهود أنهم أحرص الناس على الحياة لعلمهم بما قد أعد لهم في الآخرة على كفرهم مما لا يقربه أهل الشرك، فهم للموت اكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث، لأنهم يؤمنون بالبعث ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب وأن المشركين لا يصدقون بالبعث ولا العقاب لذا فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت.

﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أي وما التعمير وهو طول البقاء بمزحزحه من عذاب الله.

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ يعني محيط بجميعها ولها حافظ ذاكر حتى يذيقهم من العقاب جزاءها[1] فهم لجبنهم وخور عزائمهم يهابون الموت ويجبنون أمام مواقف الشجاعة التي قد تعرض صاحبها للخطر.

ثانيًا: الإجرام والقسوة:

يقال: «أجرم» ارتكب جرمًا، ويقال أجرم عليهم وإليهم: جنى جناية.

و«اجترم الذنب»: ارتكبه[2] وقيل أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه[3].

أما القسوة: فهي غلظ القلب وأصله من حجر قاس ومعنى قسوة القلب عدم خلوصه من قولهم درهم قسي وهو جنس من الفضة المغشوشة فيها قساوة أي صلابة[4].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام محمد بن جعفر بن جرير الطبري، ط/ دار الفكر (١/ ٤٢٨، ٤٣٠) باختصار وتصرف.

(٢) المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية (ص١٠١، ١٠٢).

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (ص٨٩).

(٤) المصدر السابق (ص٤١٩).

والإجرام والقسوة صفتان متأصلتان في اليهود حيث لم يعرف التاريخ من هم أقسى قلوبًا منهم ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك وهي صفة لازمتهم على مر الأجيال والعصور[١].

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ خطاب لأولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى أو للذين هم في زمن محمد ﷺ ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ استبعاد القسوة من بعد ما يوجب اللين والرقة، ووصف القلوب بالقسوة والغلظة لبعدها عن الاعتذار والاتعاظ، ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ مثلها في القسوة ﴿ أَوْ ﴾ هي ﴿ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ من الحجارة، وقال: أشد قسوة مع إمكان بناء أفعل التفضيل من فعل القسوة، لكونه أدل على فرط القسوة، أو لأنه لم يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة وقلبوهم أشد قسوة منها.

ثم أخذ في بيان فضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي إن منها للذي فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الغزير.

وإن منها للذي ينشق انشقاقًا طولا أو عرضًا فينبع منها الماء، وأما قلوب هؤلاء فلا تنشرح للحق ولا تتأثر بالوعظ والنصح بعد مشاهدة الآيات ومعاينة الدلائل.

﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ مجاز عن انقيادها لأمر الله وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تتأثر وقيل الكلام على الحقيقة.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد والمعنى أنه بالمرصاد لهؤلاء القاسية

---

(١) انظر: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية لعبد الله التل، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م (ص ٥٤، ٥٥).

قلوبهم[١].

ثالثًا: الكذب والافتراء:

يقال «افترى» القول: اختلقه، الفرية: الكذبة، والفرى من الأمور: المختلق والأمر العجيب[٢].

والكذب والافتراء: من طباع اليهود المتأصلة فيهم والتي استغلوها ضد أنبياء الله عز وجل ووحيه فافتروا عليهما بالكذب بهدف صد الناس عنهم وزعزعة ثقتهم فيهم فهم الذين اختلقوا على موسى عليه السلام الأكاذيب والعيوب التي ذكرتها في إيذائهم له في المبحث الخاص بسيدنا موسى عليه السلام وإلى ذلك أشار القرآن الكريم إليها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وهم الذين حاولوا الكذب والافتراء على العقيدة الإسلامية في عهد رسول الله محمد ﷺ ففضحهم الله سبحانه وخيب أملهم[٣].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١-٧٢].

يقول العلامة أبو حيان[٤] في تفسيره لهذه الآية:

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري، ط/ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، بدون تاريخ (١/ ٣٤٥-٣٤٧) باختصار.

(٢) المعجم الوجيز (ص٤٧٠).

(٣) طباع اليهود من خلال مصادرهم، د/ فرج محمد إبراهيم الوصيف (ص١٢٨).

(٤) أبو حيان هو: الإمام محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي الغرناطي، نحوي عصره ولغويه، ومفسره ومحدثه، ومقرئه، ومؤرخه، وأديبه، له يد طولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم وله مصنفات عديدة توفي سنة ٧٤٥هـ، انظر: طبقات المفسرين

﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ فسر اللبس بالخلط والتغطية، وتكلم المفسرون هنا ففسروا ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ بما يجدون في كتبهم من صفة الرسول و﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ الذي يكتبونه بأيديهم ويحرفونه، وقيل إظهار الإسلام وإبطال اليهودية والنصرانية، وقيل الإيمان بموسى وعيسى والكفر بالرسول، وقيل يتأولون الآيات التي فيها الدلالة على نبوة محمد ﷺ على خلاف تأويلها ليظهر منها للعوام خلاف ما هي عليه.

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ بطلان ما تقولون.

وقيل هو ما ذكره تعالى بعد ذلك من قوله ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ ﴾ وقيل إقرارهم ببعض أمر النبي ﷺ والباطل كتمانهم لبعض أمره، وقيل إقرارهم لنبوته ﷺ ورسالته و«الباطل» قول أحبارهم ليس رسولاً إلينا بل شريعتنا مؤبدة[1].

وهكذا مثلت اليهود دورًا خطيرًا في الحرب النفسية المثارة ضد الرسول ﷺ ودينه وأتباعه من أول لحظة، استخدموا فيها كثير من المكائد التي تعكس سوء طوية اليهود وخبث نفوسهم واعوجاج فطرتهم.

=

للداودي (٢/ ٢٨٧)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر (٤/ ٣٠٢) ط/ دار الجيل.

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٨٣م، (٢/ ٥١٥) باختصار.

ثالثًا: النصارى:

جبهة أخرى من الجبهات التي ناصبت الرسول ﷺ العداء في الحرب النفسية.

والنصارى: جمع نصراني وهو التابع لدين المسيح عليه السلام[١].

تواجد النصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام:

كانت هناك قبائل عربية ضخمة كانت متنصرة قبل الدعوة الإسلامية مثل بكر وتغلب ولخم وبهراء وجزان وكانت النصرانية واسعة في قبيلة ربيعة وكان بنو كلب كلهم من النصارى وكانت للعرب المسيحيين أسقفيات مشهورة في اليمن[٢].

والنصارى لا يقلون عن اليهود في خطرهم وحقدهم على رسول الله ﷺ فلقد كرهوا رسول الله ﷺ من أول يوم وناصبوه العداء وقتلوا سفيره الحارث بن عمر الأزدي واشتبكوا مع المسلمين في مؤتة وأخذوا يستعدون للانقضاض على الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية فجهز النبي ﷺ جيشًا قوامه ثلاثون ألف مقاتل وساروا إلى تبوك[٣] فلم تجرؤ الدولة الرومانية الصليبية أن تشتبك معه وانسحبت جيوشها إلى العمق فأخذ الجزية من الإمارات المحازية لحدود الدولة الشمالية وعاد سالمًا غانمًا[٤].

---

(١) القاموس القويم للقرآن الكريم، للأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح، مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م (٢/ ٣٦٩).

(٢) الإسلام والمسيحية، إلسكي جوسافسكي، ترجمة د/ خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (ص٤٠) جمادى الآخرة ١٤١٧هـ/ نوفمبر ١٩٩٦م.

(٣) غزوة تبوك كانت في رجب سنة ٩هـ هم الرسول ﷺ بها لما بلغه أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام لمحاربة المسلمين وكان الوقت فيها زمن عسرة ولذا سميت بغزوة العسرة، خلف الرسول ﷺ علي ﷺ على المدينة حين هم بالخروج للغزوة وأقام الرسول ﷺ بتبوك بضعة عشر ليلة صالح فيها ولاة الروم على الجزية. انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٣) ط/ دار المنار.

(٤) انظر: في ظلال السيرة النبوية، غزوة الأحزاب، د/ محمد أبو فارس (ص١٤٤-١٤٦) ط/ دار الفرقان للنشر والتوزيع.

والتاريخ يحدثنا عن جرائمهم مع المسلمين على مر العصور كلما حانت لهم الفرصة لذلك فما الحروب الصليبية إلا امتداد لحقد دفين أضمره النصارى للمسلمين على الرغم من تفرقهم فيما بينهم إلا أنهم اجتمعوا في حربهم ضد المسلمين وحققوا انتصارات عديدة ونجحوا في إسقاط الخلافة العثمانية.

ونظرًا لضعف المسلمين في الآونة الأخيرة فلقد أغروا النصارى بهم فوزعت الدول النصرانية الدول الإسلامية نهبًا لها وأمسكوا بناصية الأمور في العالم الإسلامي المترامي الجوانب، الذي ضعف حماته يوم تركوا كتابهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام(١).

والقرآن الكريم يصور في تعبير موجز واضح الدلالة حقيقة الصراع بين المسلمين وأعدائهم من اليهود والنصارى وأن هذا الصرع لن ينته ما دام المسلمون مستمسكين بدينهم، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فالآية الكريمة توضح مدى ما وصل إليه هؤلاء اليهود والنصارى من تعصب لما وضعوه من تقاليد وأهواء ثم سموها دينًا ولا يقبلون من أحد إلا أن ينضم إلى هذا الدين، فهم مستمرون في حربهم ضد المسلمين حتى يحيدوا عن إسلامهم ويتبعوا دينهم وهنا ينالون رضاهم فالخطاب في الآية الكريمة وإن كان موجهًا للرسول ﷺ فهو موجه إلى جميع أمته.

ثم يأمر الله تعالى رسوله بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ ﴾ أي أجهر بقول الحق وهو أن الهدى الصحيح هو الذي أنزله الله على أنبيائه وليس هذا الذي وضعوه بأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

---

(١) انظر الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د/ علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، (ص٨، ٩).

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم ﴾ التي أضافوها إلى كتبهم وجعلوها أصولاً وفروعًا لدينهم.

﴿ بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ اليقين، بالوحي الإلهي المبين، الذي بين ما كان منهم من تحويل القول عن معناه بالتأويل وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ونسيانهم حظًا مما ذكروا به.

﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي فإنك لن تنجح ولن تصل إلى حقك بمجاراتهم على باطلهم لأن الله لا ينصرك على ذلك إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى طريقًا إلى الهدى(١).

فالحرب إذن دائرة وسخط اليهود والنصارى على المسلمين باق لن يتزعزع ما دام المسلمون قائمين على دينهم.

والنصارى كجبهة من جبهات العداء للمسلمين ما زالوا يفعلون الأفاعيل لمحاربة المسلمين وصدهم عن دينهم، مستخدمين أقنعة مختلفة من الاستعمار والاستشراق والتنصير، ويستخدمون وسائل مختلفة من أحدثها صناعة الكوارث داخل المجتمعات الإسلامية فهم يقولون: لكي يكون هناك تحول إلى النصرانية فلا بد من وجود أزمات تدفع الناس خارج حالة التوازن التي اعتادوها، إن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمرًا مهمًا في عملية التنصير، وإن إحدى معجزات عصرنا أن أصبح كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكومتها التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى(٢).

وهكذا فالنصارى كجبهة من جبهات العداء للرسول ﷺ في الحرب النفسية لعبت

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٦٠) باختصار وتصرف.

(٢) مجلة صوت الأزهر، العدد السادس والثلاثون، الجمعة ٢٩ صفر ١٤٢١هـ/ ٢ يونيو ٢٠٠٠ مقالة بعنوان عولمة الثقافة واللغة والدين أيضا بقلم د/ محمد عمارة.

دورًا كبيرًا في هذه الحرب قديمًا وحديثًا ولعل دورهم الآن أصبح أكثر بروزًا في حربه ضد المسلمين سواء كانت تلك الحرب عسكرية أو نفسية «سياسية» وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على توارث الأجيال منهم مشاعر الحقد والعداء والكراهية للمسلمين جيلاً بعد جيل وهذا ما يجب أن يفطن إليه المسلمون ويعملون جاهدين لمكافحته.

رابعًا: المنافقون:

الجبهة الرابعة من جبهات العداء للرسول ﷺ في الحرب النفسية هم المنافقون، وأخال هذه الجبهة من أخطر الجبهات إن لم تكن أخطرها على الإطلاق؛ لأنهم يتزيون بزي الإيمان فالاحتراز منهم عسير.

والنفاق في اللغة: مصدر نافق نفاقًا ينافق نفاقًا وهو مأخوذ من النافقاء: أحد مخارج اليربوع من جحره فإنه إذا طلب من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه[(١)] وقيل هو من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه[(٢)].

والنفاق في الاصطلاح: معناه إظهار الإسلام والخير وإبطان الكفر والشر سمي بذلك لأنه يدخل في الشرع من باب ويخرج منه من باب آخر، وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[التوبة: ٦٧]. أي الخارجون من الشرع[(٣)].

فالنفاق من أخطر ما يهدد كيان أي مجتمع لأن المنافق يخادع ويناور ولا يظهر حقيقة أمره فتكون الوقاية منه والحذر أمر شاق وعصيب.

ولما كان لهم هذا الخطر توعدهم الله سبحانه بأشد أنواع العذاب فقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء: ١٤٥].

يقول العلامة ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:

أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ وهم في أسفل النار، وقيل الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم وهي مغلقة مقفلة[(٤)].

و﴿ ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ ﴾ مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا

(١) النفاق، لعبد الرحمن الدوسري (ص٨)، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢.
(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور فعل نفق (١٢/ ٢٣٥).
(٣) كتاب التوحيد، د/ صالح آل فوزان (ص١٦) مكتبة الرياض.
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥٧٠) باختصار.

ينطلقون ولا يرتفعون، ثقلة المطامع والرغائب والحرص والحذر والضعف والخور، الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين وموارة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[١].

النفاق لازمة من لوازم الدعوات:

إنه مما لا شك فيه أن النفاق لازمة من لوازم الدعوات كالظل للإنسان يرحل مع ترحالها ويسير في ركابها ويقف لوقوفها، ولو تصفحنا تاريخ الدعوات التي كافحت وكوفحت وحارب وحوربت وأوذي أهلها واضطهدوا أو انتصروا بعد شديد ظلم وطول اضطهاد لوجدنا أن لهؤلاء المنافقين مجالاً يفوق كل مجال، وإذا جاز لإنسان ما أن ينفي أن النفاق لازمة من لوازم الدعوات فهل يجوز له أن ينفي أن الناس معادن فيهم الغث والسمين والطيب والخبيث.

إن كل دعوة من الدعوات لا بد وأن يبتلى أهلوها ولا مناص من امتحان ذويها، تلك طبيعة الدعوة أن يسخر الله لها قومًا يؤمنون بها ويجاهدون من أجلها، وقومًا يحاربونها ويكفرون بها وقومًا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[٢].

بداية ظهور المنافقين كجبهة معادية للإسلام:

إن معسكر المنافقين لم يبرز حتى بدر ووجود أفراد محددين لا يصل خطره إلى أن يطلق عليه اسم معسكر أو تجمع إنما ظهر بعد الانتصار الحاسم في بدر حيث تحول كثير من المشركين منافقين يأتمرون بأمر عبد الله بن أُبي الذي كانت الخزرج تتوجه وكانت وما زالت الزعامة في دمه ولكنه لم يعد له زعامة بعد مجيء الرسول ﷺ ولم يعد قادرًا على أن يواجه الرسول ﷺ بالعداوة الواضحة فأمسك العصا من الوسط وقاد

---

(١) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٢/ ٧٨٥).

(٢) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل، باختصار وتصرف (٢/ ٧٦)، ط/ دار الفرقان، عمان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

معسكر المنافقين[١].

بعض صفات المنافقين:

لقد كشف القرآن الكريم عن صفات المنافقين ودخائل نفوسهم حتى يعرفهم المؤمنون ويحترسون منهم، ومن هذه الصفات ما يلي:

أولاً: ادعاء الإيمان.

ثانيًا: الخداع.

ثالثًا: ادعاء الصلاح.

رابعًا: السخرية من المؤمنين.

خامسًا: موالاة الكفار.

سادسًا: إثارة الفتنة والبلبلة بين المؤمنين.

سابعًا: الخوف من المستقبل.

أولاً: ادعاء الإيمان:

ومن الآيات التي توضح ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ المراد بهم المنافقون، ﴿ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ إنما يقولون ذلك إذا جاءوا إلى النبي ﷺ فقط لا في نفس الأمر وليس الأمر كذلك، ولقد كذبهم الله في شهادتهم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾، وفي اعتقادهم بقوله: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، أ/ منير الغضبان باختصار وتصرف (ص٢٤٨)، ط/ مكتبة المنار، الأردن.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤٧) باختصار وتصرف.

ثانيًا: الخداع:

والخداع هو: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه[(١)].

قال تعالى في معرض وصف المنافقين بهذه الرذيلة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٩، ١٠].

والخداع: الحيلة والمكر، والمخادع يظهر خلاف ما يبطن، وهؤلاء يخادعون رسول الله والذين آمنوا، وضرر الخداع راجع إليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٤٣] والمتمادي في الذنوب المعتاد لها، لا يشعر بنتائجها الكامنة فيه البادية في سائر أحواله، فهؤلاء أصبحوا وقد أكل الحسد قلوبهم وأحاط الجهل بها، فصار ذلك مرضًا لازمًا لها، فزادهم الله مرضًا بإعلاء شأن النبي ﷺ وتضاعف النصر وتكرر[(٢)].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ هذا توعد من الله عز وجل للمنافقين بالعذاب الأليم على حين توعد الكافرين بالعذاب العظيم والأليم أشد هولاً ونكالاً من العظيم، فقد يكون العظيم عظيمًا في شخصه، وهيئته، وليس عظيمًا في أفاعيله وسطوته... أما الأليم فهو البالغ في الإيلام، ولو ضؤل شخصه[(٣)] فهم استحقوا العذاب الأليم لسوء فعالهم وقبح دخائلهم وخطورة خداعهم.

ثالثًا: ادعاء الصلاح:

فالصلاح ضد الفساد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، أو ضد السوء كما في قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢].

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني (ص١٤٤).

(٢) تفسير الجواهر في تفسير القرآن الكريم، الشيخ الطنطاوي (١/ ٢٩) ط/ دار الفكر.

(٣) التفسير القرآن للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب (١/ ٣٢)، ط/ دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

ولقد عبر القرآن الكريم عن ادعاء المنافقين للصلاح كذبًا وافتراءًا في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، فهم يدعون أنهم أهل الصلاح وأن نفاقهم هو عين الصلاح ولكن الله سبحانه أبطل زعمهم، فهم المفسدون، ولكن جهلهم جعلهم لا يشعرون بأن هذا إفسادًا وليس إصلاحًا.

والفساد: خروج الشيء عن حد الاعتدال والصلاح ضده، والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن التي تؤدي إلى اختلال أمر المعاش والمعاد، والسفه: خفة في العقل وفساد في الرأي، ومنه قيل ثوب سفيه: أي رديء النسيج.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ المنهي عنه هنا الأسباب المؤدية إلى الفساد من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار وإغرائهم بالمؤمنين وتنفيرهم من اتباع محمد ﷺ إلى نحو ذلك من فنون الشر وصنوف الفتن ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي لا شأن لنا إلا الإصلاح، فنحن بعيدون عن شوائب الإفساد باتباعنا رؤساءنا الذين استنبطوا تعاليمهم من الأنبياء.

وهكذا شأن المفسدين في كل زمان يدعون في إفسادهم أنه هو الإصلاح بعينه، وأي إفساد في الأرض أعظم من التنفير من اتباع الحق، والسير في منهاج الباطل ومؤازرة أهله.

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ أي وحدهم هم المفسدون دون من أومأوا إليه لأن لهم سلفًا صالحًا تركوا الاقتداء بهم، وفي هذا الأسلوب مبالغة في الرد عليهم ودلالة على السخط العظيم ولكن لا يشعرون بهذا الإفساد لأنه أصبح غريزة في طباعهم.

عدد الله عز وجل في هذه الآيات بعض شناعاتهم المترتبة على كفرهم ونفاقهم، ففصل بعض طبائعهم وجناياتهم وذكر بعض هفواتهم ثم أظهر فسادهم وأبان بطلانها[1].

---

(١) تفسير المراغي، تأليف الشيخ أحمد مصطفى المراغي (١/ ٥٢، ٥٤) باختصار وتصرف، ط/ مصطفى الحلبي.

رابعًا: السخرية من المؤمنين:

لقد دأب المنافقون على السخرية والاستهزاء بالمؤمنين وقد حكى القرآن الكريم ذلك في أكثر من موضع منها: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٣، ١٤].

قال مجاهد[١]: إن أول سورة البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتان في نعت الكافرين وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين[٢].

ويقول الخازن[٣] في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني المنافقين وقيل اليهود.

﴿ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ يعني المهاجرين والأنصار، والمعنى أخلصوا في إيمانكم كما أخلص هؤلاء في إيمانهم لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان.

﴿ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ ﴾ أي الجهال فإن قلت كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقوله: أنؤمن كما آمن السفهاء، قلت كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بذلك فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

---

(١) مجاهد هو مجاهد بن جبر بن الحجاج المكي، المقرئ، المفسر، الإمام، روى عن خلق كثير روى عنه عكرمة وعطاء وقتادة وآخرون وكان عالمًا بالتفسير، قال عنه قتادة أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، توفي سنة إحدى أو اثنين أو ثلاث أو أربع ومائة وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله تعالى. انظر: طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٠٥)، تهذيب التهذيب (٤/ ٣٧٣)، صفوة البيان لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، ط/ دار المعرفة.

(٢) تفسير مجاهد (١/ ٦٩)، ط/ المنشورات العلمية، بيروت.

(٣) الخازن هو: علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيخي، سمي بالخازن لأنه كان خازن الكتب، ولد سنة ٦٧٨هـ ببغداد ومن مصنفاته: «مقبول المنقول»، و«شرح العمدة» و«السيرة النبوية» وغيرها، توفي سنة ٧٤١هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/ ٤٢٢، ٤٢٣).

ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ يعني الجهال، وإنما سمي الله المنافقين سفهاء لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء.

﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أنهم كذلك(١).

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ اللقاء المصادفة وهي الاجتماع من غير مواعدة يقال: لقيته ولاقيته إذا صادفته واستقبلته ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ أي كإيمانكم، ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ ﴾ منهم ورجعوا إلى شياطينهم أي الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم وهم يُظهرون كفرهم -وإضافتُهم إليهم للمشاركة في الكفر- أو كبار المنافقين والقائلين صغارهم.

﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي في الدين والاعتقاد، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ بأصحاب محمد ﷺ أي نسخر بهم بإظهار الإسلام لأن المستهزئ بالشيء المستخف به مصر على خلافه فهذا تأكيد لما قبله أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما قالوا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدَّعون الإيمان فأجابوا بذلك(٢).

ولقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم استهزاءهم وقال: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥].

خامسًا: موالاة الكفار:

الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد والولاية، وجعل الله عز وجل المنافقين شرًا من الكافرين قال تعالى:

---

(١) تفسير الخازن المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل» (١/ ٣٤)، ط/ دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) تفسير القرآن العظيم للشيخ الخطيب الشربيني المسمى بالسراج المنير (١/ ٣٥، ٣٦)، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥]؟

ونفى الله تعالى الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية وجعل بين الكافرين والمنافقين موالاة في الدنيا[١] قال تعالى تعبيرًا عن موالاة المنافقين للكافرين: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ يا محمد، ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي مؤلمًا هو النار وموضع بشر مكان أنذر تهكمًا بهم[٢].

ثم وصف الله عز وجل الأعمال المترتبة على تزلزل العقائد فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ أي أيتعززون بموالاتهم وموادتهم[٣].

أي أن هؤلاء المنافقون الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارًا ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، ويمالئون الكافرين عليهم، اعتقادًا منهم أن الدولة ستكون لهم، فيجعلون لهم يدًا عندهم.

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ العزة: القوة والمنعة، أي إن كانوا هم بذلك يطلبون عندهم الغلبة والمنعة، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم واتباعهم هدايته التي أرشد إليها أنبياءه[٤].

فموالاة الكفار من ديدن المنافقين لسوء فقههم في الدين واعوجاج فطرتهم.

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني (ص٥٢٣، ٥٢٤) باختصار وتصرف.
(٢) تفسير القرآن العظيم للشيخ الخطيب الشربيني المسمى بالسراج المنير (١/ ٣٣٩)، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
(٣) الجواهر في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي جوهري (٣/ ١٠٠، ١٠١).
(٤) تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي (٤/ ١٨٣).

سادسًا: إثارة الفتنة والبلبلة بين المؤمنين:

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

يقول العلامة ابن القيم[1] عند تفسيره لهذه الآية ذكر الله عز وجل الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء لهم فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾.

وقد فسر الخبال: بالفساد والاضطراب فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلال.

قال ابن عباس في تفسيره لهذه الآية ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ عجزًا وجبنًا يعني يجبنون عن لقاء العدو بتهويل أمرهم، وتعظيمهم في صدورهم ثم قال ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد، قال ابن عباس يريد أضعفوا شجاعتكم، وقيل: أوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين[2].

﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ ﴾ يعني محدثين بأحاديثكم عيون غير منافقين[3] أي وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم وقال ابن إسحاق وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، والمعنى على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو جمعهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم[4].

فالمنافقون خطر داهم على المؤمنين لأنهم يرتدون جلباب الإيمان زورًا فيتعذر

---

(١) العلامة ابن القيم هو: الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب ... أبو عبد الله بن قيم الجوزية الفقيه الأصولي، المفسر، النحوي، العارف، تفنن في علوم الإسلام، وكان عارفًا بالتفسير لا يجارى فيه، وأصول الدين وإليه فيهما المنتهى... له في كل فن من الفنون اليد الطولى وله تصانيف عديدة في أنواع العلوم، توفي سنة ٧٣١هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٩٣).

(٢) التفسير العظيم لابن القيم (ص٢٩٤) ط/ دار الكتب العلمية، حققه محمد خان الفقي.

(٣) تفسير مجاهد (١/ ٢٨١).

(٤) التفسير العظيم لابن القيم (ص٢٩٤).

التحرز منهم، ولذلك فهم يثيرون الفتن والقلاقل داخل المجتمع المسلم.

سابعًا: الخوف من المستقبل:

فالمنافقون أجبن من أن يخوضوا معامع الخطر قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ نزلت هذه الآية في المنافقين والمعنى ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ﴾ أي ظفر على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم قالوا -يعني المنافقون- لكم: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يعني في الواقعة والفتح فأعطونا من الغنيمة، وقيل معناه: ألم نكن على دينكم وفي الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبًا من الغنيمة[(١)].

﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾.

الاستحواذ: الاستيلاء على الشيء والتمكن من تسخيره أو التصرف فيه، أي وإن كان للكافرين نصيب من الظفر منوا عليهم لأنهم كانوا عونًا لهم على المؤمنين بتخذيلهم والتواني في الحرب معهم وإلقاء الكلام الذي تخور به عزائمهم عند قتالكم، فاعرفوا لنا هذا الفضل وهاتوا نصيبًا مما أصبتم[(٢)].

﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ يعني: الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين والمعنى إنما منع السيف عن المنافقين في الدنيا لا لأجل كرامتهم بل أخر عذابهم إلى يوم القيامة.

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ قيل المراد يوم القيامة، وقيل في الدنيا

---

(١) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٦١٢).

(٢) تفسير المراغي (٤/ ١٨٤، ١٨٥).

والمعنى أن حجة المؤمنين دائمًا غالبة على الكافرين في الدنيا[١].

ثامنًا: حب المال والبخل به والحرص عليه:

وهي من صفات المنافقين المتأصلة فالمال يملك قلوبهم يحرصون عليه ويغضبون إن حرموا منه قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي يتهمك[٢]، وقيل يلمزك أي يعيبك ويغتابك[٣].

﴿ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ فإن أعطوا منها أي من الصدقات.

﴿ رَضُوا۟ ﴾ أي رضوا عنك في قسمتها، ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي وإن لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا، قال أهل المعاني هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم لشدة شرههم إلى أخذ الصدقات في أنهم عابوا على النبي ﷺ قسمته فيها ونسبوه إلى الجور في القسمة مع أنه كان أبعد خلق الله عن الميل إلى الدنيا[٤].

ومن الآيات التي تدل على بخلهم بالمال وحرصهم عليه، قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

فمعنى ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ ﴾ أي عن الإنفاق ويبخلون بمالهم عن الجهاد[٥].

---

(١) تفسير الخازن (١/ ٦١٢، ٦١٣) باختصار وتصرف.

(٢) تفسير مجاهد (ص٢٨٢).

(٣) تفسير القرآن للشيخ العز بن عبد السلام (٢/ ٢٧)، ط/ دار ابن حجر.

(٤) تفسير القرآن العظيم المسمى بالسراج المنير للشيخ الخطيب الشربيني (١/ ٦٢٣) باختصار وتصرف.

(٥) في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث (١٠/ ٨٧٥).

وبعد هذا العرض أقول: ما حكم توبة المنافق؟

إن فقهاء الإسلام على رأيين هما:

أولاً: رأي يرى أنه لا تقبل توبته واستدلوا لذلك بدليل عقلي وهو تعذر معرفة توبته من عدمها لأنه مظهر للإسلام مبطن للكفر(١).

والآخر: يرى أنه تقبل توبته إذا تاب وأناب إلى الله واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦] أي إلا الذين رجعوا عن النفاق وأصلحوا ما أفسدوه من أحوالهم ونياتهم وتمسكوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأزالوا عنهم الشوائب من الرياء والسمعة والشك وتبرأوا من كل ما دون الله فأولئك مع زمرة المؤمنين وسيعطي الله المؤمنين أجرًا عظيمًا(٢).

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦] أي لا تقدموا المبررات ولا تطلبوا الأعذار الباطلة وقد خرجتم من الإسلام بعد تصديقكم به إن يغفر لجماعة منكم بسبب توبتهم النصوح نعاقب جماعة أخرى بسبب جرائمهم وإصرارهم عليها فباب التوبة مفتوح لكم أيها المنافقون فمن تاب وأخلص غفر له ومن أصر وتمادى عذب(٣).

فتوبة المنافق مقبولة كأي توبة بشرط أن تحصل قبل حصول الموت وسكراته وقبل ظهور شيء من أمارات الساعة وأشراطها الكبرى.

---

(١) المغني لابن قدامة (٨/ ١٢٧)، ط/ الرياض.

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٣٠).

(٣) المنافقون في القرآن الأستاذ محمد يوسف (ص٢٥٥)، ط/ دار التوزيع والنشر الإسلامية.

فالمنافق لا يختلف عن بقية العصاة الآخرين[١].

وهكذا فالمنافقون كجبهة من جبهات العداء للرسول ﷺ في الحرب النفسية كانت من أخطر هذه الجبهات على الكيان المسلم كذلكم فإنهم أخطر شيء على كيان أي مجتمع لأنهم من داخل هذا المجتمع يتلونون بلونه ويتزييون بزيه، ولقد فضحهم القرآن الكريم وبين صفاتهم، وحديث أنفسهم، حتى يتوقى منهم المسلمون الصادقون في كل زمان ومكان.

---

(١) المنافقون في القرآن (ص٢٨) مرجع سابق.

المبحث الثاني
أنواع الحرب النفسية

المطلب الأول: تقسيم الحرب النفسية على أساس الزمن إلى:

أولاً: حرب نفسية طويلة المدى.

ثانيًا: حرب نفسية قصيرة المدى.

ثالثًا: حرب نفسية تعزيزية.

المطلب الثاني: تقسيم الحرب النفسية على أساس قوتها إلى:

أولا: حرب نفسية دفاعية.

ثانيًا: حرب نفسية هجومية.

المطلب الثالث: تقسيم الحرب النفسية وفقًا للحالة التي توجه فيها:

أولاً: حرب نفسية وقت السلم.

ثانيًا: حرب نفسية وقت الحرب.

المطلب الرابع: تقسيم الحرب النفسية على أساس المضمون إلى:

أولاً: حرب نفسية فكرية أو حرب معتقدات.

ثانيًا: حرب نفسية إعلامية.

أنواع الحرب النفسية:

الحرب النفسية نوع من أنواع الحروب ولكنها أخطر أنواع الحروب لأنها تستهدف في المقاتل عقله وتفكيره وقلبه لكي تحطم روحه المعنوية وتقضي على إرادة القتال فيه وتقوده بالتالي نحو الهزيمة وهي أيضًا من أخطر أنواع الحروب، لأنك تستطيع بواسطتها أن تحطم خصمك دون أن تدخل حربًا، وإذا دخلتها فبأقل الخسائر[1].

ومن هنا كانت خطورة سلاح الحرب النفسية الذي أصبح في العصر الحديث يحتل مكان الصدارة بين أسلحة الحروب والذي يؤمن العسكريون بأنه قد يكون أشد أثرًا من الأسلحة الأخرى في تحقيق هدف النصر بسرعة وبأقل الخسائر وهذا هو ما عبر عنه قول الرسول القائد عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب حين نهى حسان عن الشعر «خل عنه يا عمر **فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل**»[2].

ولقد نوه القادة والزعماء المعاصرون بأهمية الحرب النفسية وأثرها في إدارة الصراع وفي نتائجه فمن ذلك قول القائد الألماني رومل: «إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم»، ويقول الجنرال ديجول: «لكي تنتصر دولة ما في حرب عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال وتظل هذه الحرب تساند هذه القوات حتى تنتهي من مهمتها»، ويقول تشرشل: «كثيرًا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ»[3].

وفيما يلي عرض لأنواع الحرب النفسية.

---

(١) دروس في العمل الإسلامي، للشيخ سعيد حوى (ص١٠٥)، ط/ دار السلام للطباعة وللنشر والتوزيع والترجمة.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي كتاب الاستئذان والأدب باب ما جاء في إنشاد الشعر برقم (٣٠٠٥)، (٤/ ٢١٧) وقال عنه أنه حديث حسن غريب صحيح.

(٣) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، محمد جمال الدين محفوظ (ص١٤٦، ١٤٧) باختصار وتصرف، ط/ دار الاعتصام.

المطلب الأول: تقسيم الحرب النفسية على أساس الزمن إلى

أولاً: الحرب النفسية طويلة المدى:

هي الحرب التي لا تقتصر على زمان محدد أو مكان محدد بل قد يطول بها الزمن وتتغير عليها العصور[(١)].

وقد استخدم أعداء الإسلام هذا النوع من الحرب كثيرًا ومن ذلك مقاطعتهم لبني هاشم وبني عبد المطلب بهدف القضاء على الإسلام لما رأوه ينتشر بين الناس.

قال ابن إسحاق: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا وأصابوا به أمنًا وقرارًا وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر بن الخطاب[(٢)] قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب[(٣)] مع رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل الإسلام يفشو بين القبائل واجتمعوا وأمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتواعدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة[(٤)].

واستمرت هذه المقاطعة ثلاث سنوات فهي حرب نفسية طويلة المدى.

---

(١) الحرب النفسية في العصر المدني (ص١٦٨، ١٦٩) باختصار وتصرف.

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي أبو حفص، أسلم في السنة السادسة من بعثته ﷺ وكان إسلامه فتحًا للإسلام والمسلمين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله وكان زاهدًا عالمًا متواضعًا، وهو الذي تولى الخلافة بعد أبي بكر ونزل نفسه منزلة الأجير للناس، حتى طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، سنة ٢٣هـ. انظر: أسد الغابة (٤/ ١٥٦، ١٩٢).

(٣) هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القريشي الهاشمي عم الرسول ﷺ وأخوه من الرضاعة، أسلم في السنة الثانية من البعثة ولازم النبي ﷺ وهاجر معه، شهد بدرًا واستشهد يوم أحد سنة ٣هـ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٣٨)، ط/ دار الفكر العربي باختصار وتصرف.

ومن استخدام أعداء الإسلام لهذا النوع أيضًا تخطيط قريش لفض الحجاج عن السماع من رسول الله ﷺ بإشاعتهم عنه أنه ساحر وشاعر ومجنون[١].

كل ذلك طبعًا بهدف التقويض من حركة الدعوة الإسلامية إن لم يكن القضاء عليها تمامًا، فقد قال الله سبحانه ردًا عليهم: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤]، وقال: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩].

فلقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة ويعرفون رجاحة عقله وصدقه وأمانته وتثبته قالوا عنه: إنه لمجنون وأن شيطانًا يتنزل عليه بما يقول، قال بعضهم هذا كيدًا له ولدعوته.

والتعبير بصاحبهم يوحي إيحاءات عظيمة بأنه منهم، ومن جلدتهم ليس بغريب عليهم أو هم جاهلون لشمائله وطباعه بل هو بينهم معروف برجاحة العقل واتزان الفكر والصدق والأمانة فكيف يتسنى لهم أن يقولوا عنه مجنون[٢].

يقول الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ ﴾ معناها أن محمدًا كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساويًا لهم في الأسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه وعجبوا أن يختص من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة وبالجملة فما كان لهذا التعجب سببًا إلا الحسد، ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وإنما لم يقل وقالوا بل قال: ﴿ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ إظهارًا للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام.

---

(١) الحرب النفسية، د/ أحمد نوفل (٢/ ٣٢)، ط/ دار الفرقان، باختصار وتصرف وانظر الرحيق المختوم (ص٩٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٨٤٢) باختصار وتصرف.

فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان، وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذي يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القدير الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التي تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذابًا؟[١].

فدلائل كذبكم فيما ادعيتموه على رسول الله ﷺ واضحة يؤكد كذبها العقل والواقع.

وهكذا تتمثل الآيتين استخدام أعداء الإسلام للحرب النفسية طويلة المدى فإن هذه الدعايات التي ادعوها لم تستغرق وقتًا قصيرًا وتنفض وإنما استمرت مدة طويلة من الزمن.

ثانيًا: الحرب النفسية قصيرة المدى:

وهي الحرب النفسية التي توجه لتشكيلات العدو أثناء المعركة وداخل ميدان القتال بمعنى أنها تكون مساندة ومؤازرة للحرب العسكرية، وهذا النوع يستهدف إضعاف مقاومة العدو وعرقلة جهوده الحربية، كما تستهدف دعوة جنود العدو إلى اليأس والاستسلام من خلال أي عمل من شأنه أن يجبر العدو على أن يحول رجاله وأسلحته من الجبهة النشطة إلى غيرها، وجعله يقيد رجاله وعتاده استعدادًا لصد هجوم لن يأت حيث قد أوحى له به كحرب نفسية له ولرجاله بما يسمى بالخداع في علاقتنا مع العدو[٢].

فالحرب النفسية قصيرة المدى تحول مجرى القتال في ميدان القتال فلها الأثر القوي على تحويل خطة القتال للجيش المعادي وتحويل معنوياته، والقائد الموجه لهذا النوع من الحرب النفسية ليس أي قائد بل لا بد أن تتوفر فيه صفات خاصة من الذكاء والمهارة

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي (١٣/ ٢٨٢، ٢٨٣) باختصار وتصرف، ط/ مكتبة الإيمان.

(٢) الحرب النفسية، صلاح نصر (١/ ٩٤).

والعلم الجيد بظروف الجيش المعادي وما الذي يؤثر في معنوياته.

ومن أشكال الحرب النفسية قصيرة المدى: خفة الحركة وسرعة الأداء أثناء المعركة حتى تتحول دفة الجيش بسرعة إذ من شأن الخفة في الحركة أن تربك الجانب المعادي وتخلخل صفوفه وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ [العاديات: ١-٥].

فخفة حركة الخيل وما تحدثه من إثارة التراب والتخلخل داخل الصفوف حربًا نفسية ميدانية أو قصيرة المدى لأنه تتم داخل حلبة القتال ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ أقسم بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو، و«الضبح» صوت أنفاسها إذا عدت ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ أي تورى النار بحوافرها، والقدح: هو الضرب لإخراج النار، ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ أي تغير على العدو في وقته.

يقال أغار على العدو إذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله وهي تهجم على العدو وقت الصباح وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ فحركن وهيجن ترابًا، وقيل: إنما ذكر إثارة الغبار للإشارة إلى شدة العد وكثرة الكر والفر.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ أي فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء ففرقناه وشتتناه[1].

فالآيات الكريمة تبين أن حركة الخير وصوتها وما ينتج عن حركتها تؤثر في صفوف العدو فتفرقه وتشتته ولا يكون ذلك إلا في ميدان القتال وهو ما يعبر عنه بالحرب النفسية الميدانية أو قصيرة المدى ونظرًا لأن حركة الخيل تؤثر في نفسيات المقاتلين وحركتهم أثرًا بالغًا فقد اهتم القرآن الكريم بها في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

---

(١) تفسير القاسمي (١٧/ ٦٢٣٧، ٦٢٣٨) باختصار وتصرف.

ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولقد استخدم أعداء الإسلام هذا النوع من أنواع الحرب النفسية بهدف خلخلة الصف المسلم وزعزعته فمن ذلك:

ما أشاعه المشركون من إشاعة مقتل النبي ﷺ في غزوة أحد[١] مما كان له أكبر الأثر على نفوس المسلمين حتى وصل ذلك الأثر أن وضع بعضهم سلاحه[٢].

وهذا يؤكد لنا مدى الأثر الخطير الذي تؤثره الحرب النفسية فهي تفعل ما لا تفعله أية قوة عسكرية.

ومن ذلك ما حاوله المنافقون من زعزعة ثقة المسلمين في النصر في غزوة الأحزاب[٣] حيث يقولون ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] فكانت هذه حربًا نفسية أثناء الحرب العسكرية كان الهدف منها إضعاف معنويات المسلمين وتشكيكهم في النصر وتوهين

---

(١) غزوة أحد: كانت في السنة الثالثة من الهجرة وكان عدد المشركين فيها ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم ثلاثمائة بعير ومئتا فرس وسبعمائة درع وكان قائدهم أبو سفيان بن حرب، وعدد جيش المسلمين ألف مقاتل معهم مائة درع وخمسون فرسًا، وانتهت بهزيمة المسلمين بعد انتصارهم أول الأمر وأحد اسم جبل. انظر الرحيق المختوم من (ص٢٩٠، ٢٣٣).

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٢).

(٣) غزوة الأحزاب: كانت في السنة الخامسة من الهجرة، تجمع فيها أعداء الإسلام على المدينة من يهود ومشركين ومنافقين، كان عدد جيش الأعداء حوالي عشرة آلاف مقاتل بتحريض من يهود بني النضير، ولكن حيلة سيدنا سلمان الفارسي بحفر الخندق حالت دون مرادهم، وكان قوام جيش المسلمين حوالي ثلاثة آلاف، حاصر المشركون فيها المدينة ولم يستطيعوا أن يقتحموا الخندق، وأرسل الله عليهم الريح والجنود فتفرقوا خائبين. انظر: المواهب اللدنية (١/ ٢٣٨).

عزائمهم وهكذا دائمًا يفعل المنافقون أصحاب العزائم الخائرة يكيدون ويمكرون ويراوغون ويحاولون أن يجعلوا لهم ستارًا يستترون خلفه حتى لا يظهرون في المواجهة.

ومن ذلك ما حاول اليهود من تشكيك المسلمين في النصر بعد غزوة بدر[١] قولهم: لا يغرنك يا محمد أنك لاقيت قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب إنك إن لاقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس[٢].

وهذه المقولة القصيرة العبارة الواسعة الدلائل تؤكد مدى الحقد الذي يكتمه هؤلاء الأعداء للإسلام ولرسول الإسلام وأتباعه فهم غاظهم النصر وحاولوا أن ينغصوا على المسلمين فرحتهم وأن يضعفوا معنوياتهم بعد نصرهم على الكفار مباشرة فنفثوا هذه الكلمات الخبيثة ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولقد استخدم النبي ﷺ وأصحابه الكرام هذا النوع من أنواع الحرب النفسية، ومن ذلك أسلوب التورية في الغزو الذي كان يستخدمه النبي ﷺ في حروبه، يقول كعب بن مالك: «ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورى بغيرها»[٣] فلقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزو منطقة معينة ورّى باتجاه آخر حتى يأتي الناس على حين غرة فيهزمهم ويضعف مقاومتهم ويقذف بهذه الوسيلة (المفاجأة) الرعب في قلوبهم فكانت هذه حربًا نفسية ميدانية أو قصيرة المدى إذ أنها تفعل قبل الغزو مباشرة أو بمدة قصيرة.

---

(١) غزوة بدر: كانت في السنة الثانية من الهجرة، وبدر اسم بئر حفرها رجل من بني غفار، وسبب الغزوة أن أبا سفيان جاء بقافلة من الشام وسمع بها النبي ﷺ فقال لأصحابه هذه عير قريش فاخرجوا لعل الله ينفلكموها، وكان عدد جيش المسلمين حوالي ثلاثمائة وبضعة عشر رجل وعدد جيش الأعداء حوالي ألف مقاتل، وقتل فيها عدد كبير من صناديد الكفر وكان النصر فيها للمسلمين. انظر الروض الأنف (٢/ ٦١، ٧١) باختصار وتصرف.

(٢) الرحيق المختوم (ص٢٧٩) باختصار وتصرف.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الجهاد، باب من أراد غزوة فورى بغيرها (٢/ ١٦٢).

وهذه الأمثلة تؤكد أن النظرية العسكرية النبوية كانت سابقة عصرها وهذا ما يؤكده الخبراء العسكريون في العصر الحديث.

ومن ذلك ما حصل في غزوة الخندق من الأخذ بمشورة سلمان الفارسي(١) ﷺ في حفر الخندق على المدينة في مواجهة الأعداء مما فاجأهم وأربك صفوفهم، حتى أنهم قالوا: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها» حيث كان الخندق أعظم خط دفاع عن المدينة فلقد استطاع النبي ﷺ بهذه المفاجأة أن يعزل قوات الأحزاب عن مكان التجمع الرئيسي للقوات المدافعة عن المدينة وأن يحول بينها وبين اقتحام المدينة من مداخلها لأن هذه المداخل أصبحت محروسة حراسة كافية وقوية بعد حفر الخندق(٢).

وهذا تخطيط فاجأ العدو وهز معنوياتهم حيث باءت محاولاتهم لغزو المدينة بالفشل وهذا المثال يؤكد استخدام النبي ﷺ لهذا النوع من الحرب النفسية كما يؤكد تأصيل مبدأ الشورى في سياسة النبي ﷺ وهو ما ينبغي أن يطبقه ولاة المسلمين في كل عصر ومصر.

ثالثًا: حرب نفسية مساندة أو تعزيزية:

وهي الحرب النفسية التي تستخدم لمساعدة وسائل أخرى يخشى موجهها أنها لا تؤتي الثمرات المرجوة، ومبدأ التعزيز مبدأ أصله الإسلام كما حدث ذلك مع المرسلين السابقين قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٤].

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾ لأن عيسى هو الذي أرسلهم بأمر الله سبحانه ويجوز أن

(١) سلمان الفارسي: هو أبو عبد الله يقال أنه مولى رسول الله ﷺ ويعرف بسلمان الخير، أصله من فارس من قرية يقال لها «جي» أول مشاهده الخندق وهو الذي أشار بحفره، وقيل أنه شهد بدرًا وأحدًا ولكنه كان رقيقًا، توفي في خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين وقيل ست وثلاثين. انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٦٣٤، ٦٣٨) باختصار وتصرف.

(٢) المدرسة النبوية العسكرية، محمد عبد القادر أبو فارس (ص١٧٣).

يكون الله أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء.

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ في الرسالة وقيل ضربوهما وسجنوهما.

﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي قوينا وشددنا أو غلبنا وقهرنا وهذه قراءة التخفيف والتشديد بمعنى قوينا وكثرنا[1] فلما كذبوا الرسولين ساندهما الله وقواهما برسول ثالث وذلك جعلهم أقدر على الغلبة والقهر وهذا ما يسمى بالتعزيز فهي نفس فكرة الحرب التعزيزية أو المساندة.

هذا وهناك معززات مهمة كانت وراء انتصارات المسلمين في حروبهم العسكرية فلم تكن الحرب العسكرية وحدها هي فاصلة القول وإنما لعبت هذه المعززات دورًا كبيرًا ومن أهل هذه المعززات ما يأتي:

أولاً المعززات الداخلية.

ثانيًا: المعززات الخارجية.

ومن المعززات الداخلية ما يأتي:

أ- الدعاء وحسن اللجوء إلى الله.

ب- الأمر بالصبر والمصابرة والتقوى.

ج- الثبات وحسن الاتباع ونبذ الخلاف.

أ- الدعاء وحسن اللجوء إلى الله:

الدعاء وحسن اللجوء إلى الله، فلقد كان الرسول ﷺ وصحابته يتضرعون إلى الله سبحانه يسألونه النصر والتأييد بكل إخلاص وضراعة وكان ذلك سببًا قويًا لتعزيز الله لهم وتأييده إياهم قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩].

سبب نزولها: ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٥٢، ٣٥٣).

إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: **«اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض أبدًا»** قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعو حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر ﷺ فأخذ رداءه ثم ألزمه من ورائه ثم قال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فغنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت الآية(١).

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ قيل تستنصرون وقيل معناها تستجيرون والفرق بينهما أن المستنصر يطلب الظفر والمستجير يطلب الخلاص، وفي المستغيثين قولان: أنه رسول الله ﷺ والمسلمون والثاني أنه رسول الله ﷺ(٢).

فلما لجأوا إلى الله وأحسنوا التضرع إليه أردفهم بالملائكة وعززهم به فكان النصر المؤزر حيث كانوا في البداية ألف ثم كانوا ثلاثة آلاف ثم عززهم بخمسة آلاف.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٣، ١٢٦] فببركة دعاءهم عززهم الله بالملائكة بألف ثم ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف ولقد بينت الآيات الكريمة أن في هذا التعزيز بشرى وطمأنينة للقلوب وهذا ما يؤكد أثر التعزيز في الحرب النفسية.

ب- الأمر بالصبر والمصابرة والتقوى:

ومن معززات الجهاد العسكري ومقوياته الأمر بالصبر والمصابرة والتقوى فهذه

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم (١٧٦٣) (٣/ ١٣٨٤).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٣٢٥).

الثلاثة مع الجهاد العسكري هي عوامل الفوز والفلاح قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ ﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ وغالبوا أعداء الله بالصبر على شدائد الحرب، ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة[(١)] فالأربع خصال يعزز بعضها بعضًا ويقوي بعضها بعضًا لإحراز النصر والفلاح فجيش قوي بلا صبر ولا مصابرة ولا تقوى لا قيمة له ولا وزن فلقد أوصى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص[(٢)] يقول له: «أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب فتقوى الله خير معزز ومعين»[(٣)].

ج- الثبات وحسن الاتباع ونبذ الخلاف:

ومن أهم المعززات الداخلية للحرب العسكرية هذه العوامل وهي الثبات وحسن اتباع القائد ونبذ الفرقة والخلاف بل الحفاظ على الصف المسلم صفًا واحدًا متماسكًا.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٩٨) باختصار وتصرف.

(٢) سعد بن أبي وقاص هو سعد بن مالك بن أهيب بن زهرة بن كلاب القريشي، سابع من اعتنق الإسلام وأول من رمى بسهم في سبيل الله فتح القادسية، وشهد الكثير من معارك الإسلام، خال رسول الله ﷺ، توفي سنة خمس وخمسين وقيل ثماني وخمسين عن بضع وسبعين سنة. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٦٠٦، ٦١٠) باختصار وتصرف.

(٣) الحرب النفسية من منظور إسلامي (٢/ ١٣٦) باختصار وتصرف.

يقول الشيخ رشيد رضا(١): «هذا هو النداء السادس للمؤمنين في هذه السورة وهو في إرشادهم إلى القوة المعنوية للمقاتلين التي هي السبب الغالب للنصر والظفر»(٢).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أي جماعة كافرة، ﴿ فَٱثْبُتُواْ ﴾ لقتالهم، ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي ادعوا الله للنصر والظفر بهم، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي كونوا على رجاء الفلاح، ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ ﴾ لا تختلفوا، ﴿ فَتَفْشَلُواْ ﴾ أي تجبنوا وتضعفوا، ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قال مجاهد: نصرتكم، وقال السدي: جراءتكم وجدتكم، وقال النضر بن شميل: قوتكم، وقال الأخفش: دولتكم(٣).

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر والطاعة لله وللرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصابة المسلمة فكان هذا شأنها حيثما واجهها عدوًا فكانت من الصابرين ولقد وعد الله الصابرين بمعيته وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلبة والفلاح(٤).

ثانيًا: المعززات الخارجية:

ومنها: أ- التعزيز بالريح والجنود.

ب- التعزيز بالنعاس والمطر.

وتتمثل فيما منحه الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين من أمور تسببت في نصرهم إن

---

(١) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني، ولد في القلمون من أعمال طرابلس الشام، سنة ١٢٨٢هـ، وانتقل إلى مصر ولازم الإمام محمد عبده وتتلمذ عليه، ومن أشهر آثاره مجلة المنار وتفسير المنار، وغيره، توفي بمصر سنة ١٣٥٤هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ١٢٦).

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩).

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٥٣).

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٥٢٨، ١٥٢٩) باختصار وتصرف.

هم أحسنوا التعامل بالمعززات الداخلية مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

والمعززات التي منحها الله لعباده منها:

أ- التعزيز بالريح والجنود:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ والمراد بهم: جنود الأحزاب الذين تحزبوا بالغزوة المسماة غزوة الخندق.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ هي الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من قوله: **«نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»**[1].

﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ فقلعت الأوتاد وأطفأت النيران وأكفأت القدور ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ أي بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب وحفر الخندق واستنصاركم به وتوكلكم عليه[2].

أي أنهم أحسنوا اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى بحسن التوكل عليه وطلب النصر منه ثم إنهم استفرغوا الجهد لديهم من الإعداد للحرب وحفر الخندق وهذا كله ما يسمى بالمعززات الداخلية فلما أحسنوا استغلالها جاءهم التعزيز من عند الله سبحانه.

ب- التعزيز بالنعاس والمطر:

قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ نصرت بالصبا (٢/ ٤١)، وأخرجه مسلم في الاستسقاء، باب في ريح الصبا رقم (٤٥٠) (ص١٢٢).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٥٧) باختصار.

بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

يقول العلامة القرطبي في تفسيره لهذه الآية ﴿ ٱلنُّعَاسَ ﴾ حالة الأمن الذي لا يخاف وكان هذا في الليلة التي كان القتال من غدها فكان النوم عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم ولكن الله ربط جأشهم.

وفي الامتنان عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم.

وقيل غشاهم في حال التقاء الصفين كما كان في غزوة أحد[1] وهو ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ من الحدث والجنابة، ﴿ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخييله أو وسوسته إياهم من العطش، روى أنهم نزلوا في كثيب أعثر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تنصرون وقد غلبتم على الماء وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكون رسوله فأشفقوا، فأنزل الله المطر فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٥/ ٢٨٠٨) باختصار.

واغتسلوا وتوضؤوا وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة.

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم، ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة(١).

فلما أحسن المسلمون استخدام المعززات الداخلية بحسن اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى بها عززهم بمعززات منحهم إياها من الريح والملائكة والمطر والنعاس فهي جنود الله يبعثها للمخلصين من عباده ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣١].

وهكذا فالحرب النفسية التعزيزية لها من الأثر الهام والخطير في تغيير دفة الحرب العسكرية وتبديل مجرياتها.

ولقد استخدم أعداء الإسلام الحرب النفسية التعزيزية في مواقف كثيرة فما من حرب عسكرية إلا وعززتها حرب نفسية على مختلف وسائلها فكثيرًا ما استخدموا وسائل الإشاعة والاستهزاء والتشكيك في النصر أثناء الحروب وبعدها فكانت هذه الأساليب من شأنها أن تعزز موقف الحرب العسكرية وتؤزر من أثرها، ولكن الله سبحانه لم يترك المسلمين أمام هذه الحروب ومعززاتها بمفردهم بل أرشدهم إلى معززات لحروبهم مع أعدائهم من شأنها ألا تجعل لهؤلاء الأعداء عند المؤمنين أي وزن.

ومن مواقف المشركين واستخدامهم للتعزيز ما عمله أبو سفيان قبل معركة بدر الكبرى وهو أنه لما بلغ أبا سفيان بن حرب(٢) مخرج الرسول ﷺ وقصده إياه أرسل إلى

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٣٧٧).

(٢) هو أبو سفيان. صخر بن حرب بن أمية الأموي القريشي والد معاوية ولد قبل عام الفيل بعشر سنين وكان من أشراف قريش في الجاهلية، وكان تاجرا ذا مال كثير أسلم يوم الفتح وشهد مع الرسول ﷺ حنين وشهد معركة اليرموك مات سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان، وهو ابن ثمان وثمانين سنة. انظر الاستيعاب (٤/ ١٦٧٧، ١٦٨٠) طبعة دار الجيل، بيروت.

مكة مستصرخًا لقريش ليمنعوه من المؤمنين ويعززوا موقفه ولما بلغ الصريخ أهل مكة نهضوا مسرعين ولم يتخلف من أشرافهم[١] أحد فهذا موقف تعزيزي لموقف أبو سفيان وحملته[٢].

---

(١) قيل لم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين. انظر: الرحيق المختوم (ص٢٤١).

(٢) الرحيق المختوم (ص٢٤١) باختصار وتصرف.

المطلب الثاني: تقسيم الحرب النفسية على أساس قوتها إلى

أولاً: حرب نفسية دفاعية. ثانيًا: حرب نفسية هجومية.

أولاً: الحرب النفسية الدفاعية:

الحرب النفسية الدفاعية هي ما تقوم به الجبهة المتصدية للحرب النفسية التي تشن عليها من أعدائها محاولة تعطيلها أو الحد من آثارها على جبهتها الداخلية بوسائل مختلفة.

ويجب أن تقوم الحرب النفسية الدفاعية على أسلوب فني صحيح حتى تنجح في مواجهة علميات العدو التي تهدف إلى محاولة التفرقة وتزييف الأمور بقصد بث الانهزامية وإضعاف المعنويات[1].

فتوجه الحرب النفسية جهودها وعملياتها ضد الأعداء وضد جنودهم لتحطيم معنوياتهم مستهدفين في ذلك عقل جند العدو للاستسلام وعدم القيام بأي عمل لصالح الجانب الذي يقاتل له أو أن يقاتل قتالاً سيئًا هذا بالإضافة إلى تهييج جماعات العدو ضد بعضها البعض مع تثبيط معنوياتهم وإخماد همة وعزم جنودهم وقادتهم[2].

كذلك فالحرب النفسية الدفاعية تهدف إلى تثبيط محاولات العدو الموجهة إلى الجبهة المستخدمة للحرب النفسية الدفاعية حتى لا تؤثر هذه المحاولات في معنويات الجنود أو أن تنال منها.

ولا بد في الحرب النفسية من أن يراعى الموجه لها نقاط الضعف في الطرف المقابل فيركز عليها في حربه الدفاعية حتى يكون لحربه أثر.

ولما كانت الحرب النفسية الموجهة إلى الإسلام والمسلمين من أعدائهم حربًا ضروسًا فكان لا بد للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ودينهم بل كان الله سبحانه هو الذي يتولى الدفاع عنهم ليطمأنهم ويخوف أعداءهم الذين يعلمون صدق الله عز وجل وصدق نبيه

---

(١) الحرب النفسية في صدر الإسلام (ص١٩٠) مرجع سابق.

(٢) الحرب النفسية، صلاح نصر (١/ ٢٤٥) باختصار وتصرف.

ﷺ حتى وإن أنكروا ذلك ظاهرًا أو تغطرسوا عن الاعتراف به، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

يقول العلامة ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: والمقام خليق بأن يطمأن الله نفوس المؤمنين بأنه كما أعد لهم نعيم الآخرة هو أيضًا يدافع عنهم في الدنيا وناصرهم.

وقرأ الجمهور ﴿ يُدَٰفِعُ ﴾ بألف بعد الدال فيفيد قوة الدفع، وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ تعليل لتفنيد الدفاع بكونه عن الذين آمنوا بأن الله لا يحب كل الكافرين الخائنين فلذلك يدفع عن المؤمنين لرد أذى الكافرين(١).

والآية عامة لرد أي أذى يتعرض له المؤمنون وللدفاع عنهم في كل حين وللتصدي لأعدائهم على مر السنين.

ومن استخدام القرآن الكريم لوسيلة الحرب النفسية الدفاعية أنه كان يدفع ويرد كل وسيلة يستخدمها أعداء الإسلام ضد الرسول أو المسلمين، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ تبين استخدامهم لوسيلة الاستهزاء كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد المؤمنين، ثم جاء رد القرآن ودفعه عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ .

يقول العلامة البيضاوي في تفسيره ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ إنما استأنف به ولم يعطف ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم وأن استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعل الله بهم(٢).

كذلك فلقد استخدم أعداء الإسلام وسيلة الإشاعة ضد شخص الرسول ﷺ وضد

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور الجزء السابع عشر (٨/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٢٩).

القرآن وضد آل بيت النبي وكان الله سبحانه وتعالى وهو الذي يدفع عن كتابه ونبيه وآل بيت نبيه ومن أمثلة ذلك أن أعداء الإسلام كانوا يقولون على رسول الله أنه أبتر فرد الله عليهم ودفع محاولتهم في التشكيك في شخص النبي ﷺ والتهوين من شأنه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

ولقد ذكر الإمام الواحدي أن سبب نزول هذه السورة قال: كان العاص بن وائل يمر بمحمد ﷺ ويقول: إني لأشنؤك وإنك لأبتر من الرجال فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ من خير الدنيا والآخرة(١).

فالسورة الكريمة فيها الرد على هؤلاء الطغاة وما قالوه عن النبي ﷺ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يا محمد وعدوك هو الأبتر أي الأقل الأذل المنقطع دابره الذي لا عقب له(٢).

وهكذا يدفع الله سبحانه عن نبيه ويرد كيد أعدائه في نحورهم، والأمثلة غير ذلك كثيرة سأذكرها إن شاء الله في رد القرآن على وسائل أعداء الإسلام في الحرب النفسية.

هذا ولقد كانت الحروب التي خاضها النبي ﷺ حروبًا نفسية دفاعية لمواجهة ما لحق بالمسلمين من أعدائهم من إيذاء نفسي وإخراج من الأرض والمال والوطن كما كانت دفاعًا عن العقيدة التي هي أسمى ما لدى الإنسان وكذلك كانت دفاعًا عن الوطن الذي كان يحاول أعداء الإسلام الهجوم عليه.

وكذلك استخدام النبي ﷺ وسيلة الدفاع تجاه الأعداء حينما أشاعوا مقتله ﷺ في أحد فوقف يرد ويدافع ويقول إلي يا فلان إلي يا فلان أنا رسول الله...(٣)، وبهذا دفع

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص٤٠٤).

(٢) معالم التنزيل للقاسمي (١٧/ ٦٢٧٧).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٢) باختصار وتصرف، الحرب النفسية، لجمال الدين محفوظ (ص٦٥)، الحرب النفسية في العصر المدني (ص١٩٦).

إشاعتهم وجعلها لا أثر لها.

ويدل على استخدام الصحابة للحرب النفسية الدفاعية ما قدم به نعيم بن مسعود ﷺ في غزوة الأحزاب[١] من تفريق لشمل الأحزاب وتفتيت لوحدتهم حيث كان موقفه هذا دفاعًا في مواجهة ما فعلوه من التحزب ضد المسلمين والتجمع عليهم من كل جانب، ولقد استغل في دفاعه نقاط الضعف في الجبهات المعادية لأنه ﷺ على علم جيد بظروفهم وما يؤثر فيهم.

وهكذا كان استخدام الحرب النفسية الدفاعية من قبل القرآن والرسول ﷺ والصحابة مشعرًا بأهميتها وضرورة أن تجيدها الأجيال المعاصرة لضراوة ما يواجهونه من حرب نفسية وعسكرية.

ثانيًا: الحرب النفسية الهجومية:

وهي المبادأة والمفاجأة بوابل من وسائل الحرب النفسية من شأنه أن يربك العدو ويفتت صفوفه ويضع فكرة الاستسلام فكرة ملحة أمام عينيه، وقد تستخدم الحرب النفسية الهجومية حربًا عسكرية كعامل مؤثر على النفوس وإرهابها والضغط المعنوي عليها.

ولقد استخدم أعداء الإسلام الحرب النفسية الهجومية فهم دائمًا كانوا البادئين بالحرب النفسية ضد المسلمين ثم يكون بعد ذلك الرد أو الدفاع الإسلامي على هذه الهجمات، فهم الذين أشاعوا على النبي ﷺ أنه شاعر ومجنون فكان الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢]، وهم الذين استخدموا وسيلة الإغراء مع المؤمنين بقولهم لهم ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ فكان رد القرآن: ﴿ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٥) باختصار وتصرف.

خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

ففي الصدر الأول من بعثة النبي ﷺ كان أعداء الإسلام هم المهاجمون دائمًا والمسلمون مدافعون أما بعد استقرار دولة الإسلام أصبح الرسول ﷺ وصحابته يستخدمون الحرب النفسية الهجومية عند الحاجة ولكن لا بغرض الاعتداء وإنما الأخذ بأيدي الناس إلى طريق الله المستقيم واتباعهم للشرع القويم وتثبيت دعائم دولة تقوم على عقيدة ثابتة راسخة.

فلقد كان الجهاد في هذه الفترة لأجل العقيدة وحمايتها من الحصار وحمايتها من الفتنة وحماية منهجها وشريعتها في الحياة وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه[(١)].

وذلك عملاً بقول الله عز وجل: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فالآية تحل المبادأة بقتال أعداء الإسلام حتى ينتهوا عن شركهم ويدينون دين الحق وهو دين الإسلام.

يقول العلامة القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ ﴾ أمر بقتال كل مشرك في كل موضع، ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ أي كفر فجعل الغاية عدم الكفر وهذا ظاهر، وقيل: الفتنة هنا الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين.

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ أي عن الكفر إما بالإسلام أو بأداء الجزية[(٢)] واتبعًا لهذه الآية واتباعًا لسنة النبي ﷺ في غزواته الأخيرة فتح مكة وما بعدها كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الصحابة والتابعين والتي لم تكن حروبًا عسكرية فحسب بل عانقتها حروبًا نفسية

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/ ١٨٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٢/ ٧٢٨) باختصار وتصرف.

آزرتها وعضدتها بل وأغنت عنها في بعض الأحيان.

فالحرب النفسية في فتح مكة[(١)] مثلاً أغنت عن الحرب العسكرية فلم تقاوم جيوش مكة المسلمين مقاومة تذكر، حيث كان للحرب النفسية دور كبير في إرهاب القوم وسلب رغبتهم القتالية حيث أمر الرسول عمه العباس أن يعرض الجيش الإسلامي على أبي سفيان حتى يرهبه ويجعله يرهب من خلفه من أهل مكة وبالفعل عندما رأى أبو سفيان قوة جيش المسلمين ذهب إلى قومه وصرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[(٢)].

ومن الحرب النفسية في فتح مكة أيضًا أن أمر الرسول ﷺ أصحابه بإشعال النيران فأشعلت عشرة آلاف شعلة مما كان له أكبر الأثر في نفوس أهل مكة مما أفزعهم وأسقط في أيديهم[(٣)].

وكذا فقد أغنت الحرب النفسية بشتى وسائلها عن الحرب العسكرية كما أنها عكست الخبرة العميقة لرسول الله ﷺ بالقوم وما يرهبهم وما يسقط في أيديهم فآتت الحرب النفسية ثمارها وأنتجت فتحًا عظيمًا من الفتوحات الإسلامية.

ومن استخدام الصحابة للحرب النفسية الهجومية وصاحبها بعض الأعمال القتالية ما فعله الصحابي الجليل أبو بصير وتتلخص في:

---

(١) فتح مكة كان في رمضان سنة ثمانية من الهجرة وكان قوام جيش المسلمين عشرة آلاف، وأحاطتها السرية الكاملة، ودخل الرسول ﷺ مكة من أعلاها وأمر ﷺ خالد بدخولها من أسفلها ولم يحدث فيها قتال يذكر إلا مناوشات طفيفة لجيش خالد، وأمن فيها الرسول ﷺ أهل مكة على أنفسهم وعفا عنهم رغم ما أذاقوه ﷺ من إيذاء. انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٢٩، ٢٣٩) باختصار وتصرف.

(٢) السير النبوية لابن هشام (٤/ ١٢) باختصار وتصرف.

(٣) الرحيق المختوم للمباركفوري (ص٤٧٥) باختصار وتصرف.

أنه بعد صلح الحديبية كان من ضمن بنود الصلح أن من ذهب إلى النبي ﷺ من أهل مكة رجعه النبي ﷺ مرة ثانية فذهب أبو بصير[١] بعد صلح الحديبية إلى النبي ﷺ في المدينة فبعثت قريش في أثره رجلين يريدان إرجاعه إلى مكة فرجعه النبي ﷺ إلى مكة معهما عملا بنص بنود المعاهدة وفي الطريق انقض أبو بصير على رجل منهم فقتله وهرب الثاني وذهب أبو بصير إلى النبي ﷺ فعندما رآه قال ﷺ ويل آمه محش حرب لو كان معه رجال فخرج أبو بصير حتى أتى العيص فنزل من ناحيته على ساحل البحر على طريق عير قريش إلى الشام والتحق به سبعون رجلاً من المسلمين الذين كانوا في مكة ممن علموا بمكانه وخروجه فاجتمعوا وأمروه عليهم وقطعوا الطريق على أهل مكة وضيقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر عير إلا اقتطعوها ومر بهم ركب يريد الشام معهم ثمانون بعيرًا فأخذوا ذلك وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين دينارًا فغاظ كفار قريش صنيع أبي بصير وشق عليهم وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم ألا أدخل أبا بصير ومن معه فلا حاجة لنا بهم[٢].

وهذا الموقف لهذا الصحابي الجليل يوحي بكثير من الاستفادات:

أولاً: أنه قد يصلح بالفرد ما لا يصلح بالجماعة.

ثانيًا: أن الكفار وما يتصفون به من صلف وعناد لا يقهرهم إلا القوة.

ولعل مراسلات النبي ﷺ للأمراء والملوك كانت من قبيل الحرب النفسية الهجومية التي استهدفت كشف مواقف الأمراء والملوك الذي راسلهم النبي ﷺ فمنهم من تأثر

(١) أبو بصير: اختلف في اسمه ونسبه فقيل عبيد الله بن أسيد بن جارية، وقيل اسمه عتبة بن أسيد بن جارية، قيل هو من قريش وقيل من ثقيف، أتى النبي ﷺ مسلما بعد صلح الحديبية، وقد طلبته قريش فسلمه الرسول ﷺ وهرب منهم وكون جماعة على ساحل البحر فاعترضوا عير قريش واستولوا عليها حتى استغاثت قريش فكتب له الرسول ﷺ أن يأتي المدينة ومن معه ولكن الكتاب وصله وهو يموت. انظر: الاستيعاب (٤/ ١٦١٢، ١٦١٤).

(٢) المنهج الحركي للسيرة النبوية (٣/ ٤٠، ٤١) باختصار وتصرف.

بأسلوبه ﷺ تأثرًا إيجابيًا فاعتنق الإسلام ومنهم من اتخذ موقفًا محايدًا من النبي ﷺ ودعوته وأظهر الود بإرسال الهدايا ومنهم من كشفت هذه المحاولة عما يحيق في صدره من بغض وعداوة للإسلام والمسلمين فرد ردًا سيئًا.

فمثال من راسله النبي ﷺ فاعتنق الإسلام النجاشي ملك الحبشة.

ومثال من أظهر موقفًا محايدًا وأرسل الهدايا للنبي ﷺ المقوقس ملك مصر وقيصر الروم.

ومثال من اتخذ موقفًا عدائيًا كسرى ملك فارس(١).

وهذه المراسلات من النبي ﷺ في أسلوبها تكشف دعوة النبي ﷺ هؤلاء الملوك إلى الإسلام بأسلوب حسن لطيف ثم هي تضمنت أسلوب الترغيب لهؤلاء ومن تبعهم إن هم اتبعوا دين الله كما تضمنت أسلوب الترهيب إن هم أعرضوا عن اتباعه.

وهذه المراسلات درس جليل يدل على شمول دعوته ﷺ لجميع الخلق فهي لا تقف عند حدود دولة ولا تنحصر في أرجاء لغة بل هي عمت جميع البشر في كل زمان ومكان مهما اختلفت لغاتهم أو لهجاتهم ثم هي درس للقادة في كل زمان ومكان إذ يتكشف أمر مواجهيه قبل أن يوجه إليهم سلوكًا إيجابيًا أو سلبيًا تجاههم.

ثم إنها درس عظيم لمخاطبة القوم بما يقع في نفوسهم وهذا يتطلب ثقافة واسعة من الداعية لأفكار مخاطبيه واتجاهاتهم.

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٨٨، ٩٣) باختصار وتصرف.

المطلب الثالث: تقسيم الحرب النفسية وفقًا للحالة التي توجه فيها

أولاً: حرب نفسية وقت السلم.

ثانيًا: حرب نفسية وقت الحرب.

أولاً: الحرب النفسية وقت السلم:

وهي التي توجه في زمن اللاحرب بهدف استمالة الأعداء وتغيير أفكارهم وإقناعهم بفكرة ما تخدم الفريق الموجه لها.

أو هي بمثابة غزو فكري بمعناه ومضمونه غايتها التعديل الفكري ببث مفاهيم مغايرة لما عند الخصم واعتناقهم مفاهيم مرغوبة من مصدر تلك الحرب النفسية وتعمل على استغلال اتجاهات الخوف من الحرب بالتهديد والوعيد وهي فرصة لكسب الأنصار ومعرفة التيارات الأساسية في مجتمع الخصم والعمل على اجتذاب قادتهم وعامتهم من خلال التأثير المستمر والدعوات والنداءات المتتالية والإغراءات الأخاذة والعمل على دراسة العدو والاستعداد لليوم الذي تظهر فيه الحاجة إلى تقديم حرب نفسية أكثر، كما تعمل الحرب النفسية في زمن السلم لتخليص الشعوب المظلومة من قادتها الظالمين بشتى الوسائل والمحاولات الجادة.

وهي تعمل أيضًا على إلزام العدو بأمور تفوق إمكانياته وبث الدعايات إلى الدول الصديقة والدول المحايدة والعمل على كسبها والعمل على بث الدعاية إلى شعوب الدول المناصرة للأعداء(١).

ويطلق عليها الحرب السياسية كما أنه يمكن تعريفها بأنها شكل من أشكال الصراع بين الدول يسعى كل جانب فيها أن يفرض إرادته على خصومه بطرق غير طريقة القوات المسلحة، ومن الناحية العملية يمكن أن نقول: إن السلاح الرئيسي للحرب

---

(١) الحرب النفسية في العصر المدني (ص٢٠٠) مرجع سابق.

السياسية هو عملية مشتركة بين الدبلوماسية والدعاية[١].

فالحرب النفسية في السلم حرب أفكار ومعتقدات في زمن غير أزمنة الحرب العسكرية تهدف إلى تغيير ميول العدو واتجاهاته وإقناعه بأفكار معينة ومحاولة حمله لاعتناق هذه الأفكار.

وقد استخدم الرسول ﷺ الحرب النفسية زمن السلم منذ مبعثه إلى هجرته إلى المدينة حيث كانت حياته ﷺ في مكة عبارة عن دعوة الناس إلى عبادة الله وحده دون جهاد فقضى عليه السلام ثلاث عشرة سنة في مكة وسنة في المدينة قبل فرض الجهاد يدعو الناس بالسلم دون المجاهدة[٢].

وكانت سياسة الإسلام السلمية مبنية على مبادئ منها:

أ- مبدأ الإنذار.

ب- دعوة الناس بالحسنى.

ج- أمر الإسلام أتباعه بالمسالمة إن اتبع أعداؤه المسالمة.

أ- مبدأ الإنذار:

يعني دعوة الناس إلى الإسلام بإنذارهم بالويل والعذاب إن هم خالفوا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١-٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أي يا أيها الذي قد تدثر بثيابه أي تغشى بها وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما والدثار هو ما يلبس فوق الشعار والشعار هو الذي يلي الجسد وقال عكرمة المعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ بالنبوة وأثقالها[٣].

---

(١) الحرب النفسية لصلاح نصر (١/ ٩٦).

(٢) الحرب النفسية في العصر المدني (ص٢٠١) نقلاً عن جيش الرسول ﷺ، محمود شيت خطاب، دار قتيبة، دمشق (ص١١).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٢١).

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ معنى قم أي قم من مضجعك وقيل قم قيام عزم وتصميم، قوله: ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ أي حذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا، قال ابن عباس: قم نذيرًا للبشر[(١)] والمعنى انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا[(٢)].

وابتدأ الأمر بالإنذار لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه، فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال لأن التخلية مقدمة على التحلية ودرأ المفاسد مقدم على جلب المصالح ولأن غالب أحوال الناس يومئذ محتاج إلى الإنذار والتحذير[(٣)].

فالآية الكريمة كانت من أوائل ما وجه للنبي ﷺ في الأمر بالدعوة وهي الخطوة الأولى التي يبدأ بها في مواجهة هذا المجتمع الذي ظل في غياهب الظلمات أحقابًا بعد أحقاب فكان لا بد وأن ينذرهم فيزلزل بإنذاره نفوسهم حتى تستيقظ ضمائرهم التي باتت السنين الطوال خامدة لا تتحرك.

ولقد سارع النبي ﷺ بتنفيذ أمر الله سبحانه له ﷺ بإنذار الناس ومما يدل على ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه» فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[(٤)].

والموقف يؤكد سرعة استجابة الرسول ﷺ لأوامر الله عز وجل كما يؤكد استخدامه ﷺ لمبدأ الإنذار.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٥/ ٨٢٤).
(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٢١).
(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الجزء التاسع والعشرون (١٤/ ٢٩٥).
(٤) أخرجه الإمام البخاري بالتفسير (٦/ ٢٢١).

ب- دعوة الناس بالحسنى:

والمبدأ الثاني في دعوة الإسلام السلمية هو دعوة الناس إلى الإسلام بالحسنى:

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالأصل في الدعوة الرفق واللين وإظهار الحق بالدلائل والبراهين فيهدي الله سبحانه لذلك من يشاء هداه ويفرغ حجة من تمسك بضلاله يقول العلامة القاسمي:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة.

﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ أي بالعبر اللطيفة والوقائع المخيفة ليحذروا بأسه تعالى.

﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ أي جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وحسن الخطاب من غير عنف فإن ذلك أبلغ في تسكين لهبهم وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي عليك بالبلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات فإنه ليس عليك هداهم، لأنه هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدي إليه فما شرعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة فإنه كافٍ في هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين[(١)].

والآية الكريمة درس عميق إلى كل داعية إلى الله في كل زمان ومكان فإنما هو كالتنطس المداوي يلتمس أمراض الناس فيعالجها برفق ولين ويتفنن في ألوان الدواء وأنواع العلاج ولا يتعجل ببرء السقام فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

يقول أ/ سيد قطب معلقًا على هذه الآية: على هذه الأسس يرسى القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ويعين وسائلها وطرائقها ويرسم المنهج للرسول الكريم وللدعاة من بعده ولدينه القويم، إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله لا لشخص الداعي ولا

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (١٠/ ٣٨٧٧).

لقومه فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله لا فضل له يتحدث به لا على الدعوة ولا على من يهتدون به وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها والطريقة التي يخاطبهم بها والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق وتتعمق المشاعر بلطف، وبالجدل بالتي هي أحسن فلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح[1].

ج- أمر الإسلام أتباعه بالمسالمة إن اتبع أعداؤه المسالمة:

فالمسالمة هي الأساس ولا يلجأ الإسلام إلى دعوة أتباعه إلى الحرب إلا إذا فشلت الطرق السليمة، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

الجنوح: الميل يقال جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه.

والسلم: الصلح والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب أو هي مؤولة بالخصلة أو الفعلة وقد اختلف أهل العلم هل الآية منسوخة أم محكمة؟ فقيل هي منسوخة بقوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥]، وقيل ليست بمنسوخة لأن المراد بها قبول الجزية وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصة بأهل الكتاب، وقيل إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [محمد: ٣٥] وقيدوا عدم الجواز بها إذا كان المسلمون

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٤/ ٢٢٠٢) باختصار وتصرف.

في عسرة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك.

والذي تميل إليه النفس أن الآية محكمة وليست منسوخة لقوة أدلة القائلين بإحكامها، ولأن إعمال الآية ولو من وجه أولى من إهمالها.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ في جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم فـ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ سبحانه ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1].

ومشاهد السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم تشهد أن السلم كان الأساس في الدعوة الإسلامية فلم يلجأ ﷺ إلى الحرب إلا إذا اضطره أعداء الإسلام إليه ثم إنه قد يخرج إلى الحرب ثم يعود بغير قتال.

ومن الغزوات التي خرج لها الرسول وعاد بغير قتال غزوة بدر الآخرة[2] وغزوة دومة الجندل[3] وغزوة تبوك[4].

وهكذا كانت الدعوة إلى الله حربًا نفسية وقت السلم لأنها تهدف إلى القضاء على معتقداتهم ونشر تعاليم الإسلام بينهم وهذا هو هدف الجهاد في سبيل الله، وكما استخدم

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٢) وغزوة بدر الآخرة كانت على إثر موعد ضربه الرسول ﷺ لأبي سفيان بعد أحد بعام وكانت في شعبان سنة أربعة هجرية وكان المسلمون ألف وخمسمائة وكان اللواء لعلي بن أبي طالب وكان المشركون ألفين وأقام الرسول ﷺ ثمانية أيام ببدر ينتظر ثم رجع إلى المدينة وقد رجعت هيبة المسلمين لهم بعد هزيمة أحد. انظر: الرحيق المختوم (ص٢٥١، ٢٥٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٥) دومة الجندل هي اسم مكان قريب من الشام جاءت الأخبار للرسول ﷺ بأن القبائل حوله تقطع الطريق وتعد العدة لغزو المدينة فخرج ﷺ في ألف من المسلمين في ربيع الأول سنة خمسة هجرية فتفرق أهل دومة الجندل فلم يصب الرسول ﷺ منهم شيء فأقام بها أياما ثم رجع إلى المدينة. انظر المواهب اللدنية (١/ ٢٣٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨٣).

المسلمون الحرب النفسية زمن السلم في مواجهة أعدائهم فقد استخدمها أعداء الإسلام ضد المسلمين.

ومن استخدامات اليهود لها أنهم كانوا يحرجون النبي ﷺ بالأسئلة التي لا يعملها إلا الله سبحانه وتعالى بهدف تهوين شأنه أمام الناس وإظهاره بصورة من لا يعلم شيئًا فينفض الناس عنه، ومن ذلك سؤالهم له ﷺ عن الروح وعن الساعة قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

سبب نزولها: قال ابن عباس: قال جبل بن أبي قشير وشموال بن زيد وهما من اليهود يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فإن نعلم متى هي فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم أي عن القيامة وهي من الأسماء الغالبة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة، أو لسرعة ما فيها من الحساب؛ أو لأنها ساعة عند الله تعالى مع طولها في نفسها، قيل إن قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها(٢).

فالآية الكريمة توضح مدى تعنت هؤلاء اليهود ومحاولتهم إحراج النبي ﷺ وتشكيك الناس فيه وفضهم عنه وإيهام الناس أنهم أعلم منه.

كذلك استخدم المشركون الحرب النفسية زمن السلم بوسائل مختلفة منها الاستهزاء منه ﷺ ومن المؤمنين وادعاءهم أن النبي ساحر وشاعر مجنون ومحاولتهم إغراء النبي ﷺ

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص١٨٧).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم (٢/ ٣٢٧).

والمؤمنين وغير ذلك من وسائلهم الخبيثة في الحرب النفسية والتي حكتها آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

وكذلك فمن أساليبهم تعنتهم في طلب الآيات ليحرجوه ﷺ ويظهروا عجزه قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨].

يقول أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: أنها شروع في حكاية الكفار في قدحهم في نبوته عليه السلام بعدما أشير قدحهم فيها ضمنا وهذه المقولة من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل(١) والآية الكريمة حلقة من حلقات الاقتراحات التي اقترحوها على رسول الله ﷺ ليعجزوه ويقدحوا في نبوته والآيات الدالة على محاولتهم في تعجيزه ﷺ كثيرة تنبئ عن عناد القوم وجحودهم وتعنتهم وأنهم لم يطلبوا الآيات للاهتداء وإنما طلبوها للحجاج والعناد.

أما المنافقون فلم يكن استخدامهم لهذا النوع من الحرب النفسية زمن السلم بأقل من جبهات العداء الأخرى فلقد استخدموها بمختلف الوسائل منها:

التثبيط للمؤمنين وتحطيم معنوياتهم وهو ما حكاه قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

فهم أرادوا بقولهم: ﴿ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ تثبيط المؤمنين ليقعدوا عن الحرب،

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٢/ ١٢٦) باختصار وتصرف.

وأرادوا تحطيم معنوياتهم في الإقبال على الجهاد بروح عالية.

يقول العلامة الشوكاني في تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ أي قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطًا لهم وكسرًا لنشاطهم وتواصيًا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله[(١)].

فهم كانوا يتفننون في أن يجعلوا من المؤمنين نموذجًا مماثلاً لهم حتى لا يظهرون كالأجرب وسط الأصحاء ولكن هيهات لهم ذلك مع قوم ذاقوا حلاوة الإيمان.

ومن مواقف المنافقين في الحرب النفسية زمن السلم: محاولتهم خداع النبي ﷺ وصحابته بحسن سريرتهم واستعانتهم على ذلك بالأيمان الكاذبة، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٢].

فهم استتروا خلف الأيمان الكاذبة ليخدعوا بها النبي ﷺ والمؤمنين.

يقول العلامة ابن عاشور في معنى كلمة ﴿ جُنَّةً ﴾ هي ما يستتر به ويتقى منه سميت الدرع جنة والمعنى جعلوا أيمانهم كالجنة يتقي بها ما يلحقه من أذى.

﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ تفريع لصدهم عن سبيل الله على الحلف الكاذب لأن اليمين الفاجرة من كبائر الإثم لما فيها من الاستخفاف بجانب الله تعالى ولأنهم لما حلفوا على الكذب ظنوا أنهم قد أمنوا اتهام المسلمين إياهم بالنفاق فاستمروا على الكفر والمكر بالمسلمين وذلك صد عن سبيل الله أي إعراض عن الأعمال التي أمر الله بسلوكها، وجملة ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ تذييل لتفظيع حالهم عند السامع[(٢)].

وذلك مثل ما حكاه القرآن عن أحد المنافقين فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

فمعنى قوله تعالى: ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ أنه يحلف على ذلك فيقول يشهد

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٠٦).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء الثامن والعشرون (١٣/ ٢٣٦) باختصار وتصرف.

الله على ما في قلبي من محبتك أو من الإسلام أو يقول الله يعلم أني أقول حقًا أو أني صادق في قولي لك والله سبحانه يعلم منه خلاف ذلك[١]، فهو يقول ذلك خداعًا ونفاقًا.

وهكذا استخدمت جبهات العداء المختلفة هذا النوع من الحرب النفسية -زمن السلم- ضد الإسلام ورسوله وأتباعه وما زالوا يستخدمونه حتى الآن وهو ما يسمونه حديثًا بالحرب السياسية فالكفر كله ملة واحدة منهجه واحد وإن اختلفت وسائل وأزمنة الاستخدام لهذا المنهج.

وسأوضح هذه الوسائل على وجه البيان والتفصيل في وسائل الأعداء في الحرب النفسية في الفصل القادم إن شاء الله.

ثانيًا: الحرب النفسية زمن الحرب:

وهي حرب هجومية يخوضها جيش بأسلحة فكرية وعاطفية من أجل تحطيم قوة المقاومة المعنوية في جيش العدو وفي السكان المدنيين وتخاض هذه الحرب للتقليل من نفوذ العدو في أعين الدول المحايدة[٢].

والحرب النفسية جزء من الحرب الشاملة تشن قبل الحرب وفي أثنائها وفي أعقابها ثم إنها لا تخضع لرقابة القانون ولا لعادات ولا تعرف على أساس وصف أو نظام المعركة[٣].

وهي استخدام مخطط من جانب الدولة وقت الحرب أو في وقت الطوارئ لإجراءات دعائية بقصد التأثير على آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة بطريقة تعين على تحقيق سياسة الدولة وأهدافها[٤].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٧٧).

(٢) الحرب النفسية، د/ أحمد نوفل (١/ ٣٤).

(٣) الحرب النفسية، صلاح نصر (ص١١٠).

(٤) المصدر السابق (ص٩٢).

فالحرب النفسية زمن الحرب هي طريقة هجومية توجه إلى العدو لإضعاف معنوياته وتشكيكه في النصر كما تقطع طريق الإمدادات إليه من الجماعات التي اعتادت إمداده كما أنها توجه لجيش مستخدمها نفسه بهدف إرشاده إلى أساليب معينة أو رفع روحه القتالية.

فهي ملازمة ومساندة للحرب العسكرية، ولقد استخدم الإسلام هذا النوع على محاور مختلفة:

أولاً: محور داخلي.

ثانيًا: محور خارجي.

والمحور الداخلي يتمثل في عدة توجيهات:

أ- تحريضهم على القتال وبث الثقة بالنصر في نفوسهم.

ب- توجيه المسلمين إلى استخدام الشدة والغلظة ضد الأعداء.

أ- تحريضهم على القتال وبث الثقة بالنصر في نفوسهم:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

يقول العلامة الألوسي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ ﴾ المعنى يا أيها النبي بالغ في حث المؤمنين على قتال الكفار.

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ ﴾ شرط في معنى الأمر بمصابرة الواحد العشرة والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأييده.

ذلك ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ متعلق بيغلبوا أي بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون احتسابًا وامتثالاً لأمر الله تعالى وإعلاء كلمته وابتغاء

رضوانه كما يفعل المؤمنون وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع الشيطان وإثارة ثائرة البغي والعدوان فلا يستحقون إلا القهر والخذلان(١).

فالآية فيها توجيه للنبي ﷺ أن يحرض المؤمنين ويحثهم على القتال ثم هي تعدهم إن أطاعوا وصبروا أن يكون النصر حليفهم والنجاح قرينهم.

ومن استخدام النبي لأسلوب التحريض على القتال:

قال ﷺ في غزوة بدر: **«والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم -يعني الأعداء- اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبل غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»**(٢).

فهذا تحريض منه ﷺ لإلهاب مشاعر القتال في نفوس أصحابه فيقبلون عليه لا يخشون موتًا فوراء الموت جنة عرضها السموات والأرض ونعيم لهم مقيم إن هم استشهدوا أرواحهم في حواصل طيور خضر في الجنة فهل يتثاقل صادق الإيمان أمام هذا الجزاء.

ب- توجيه المسلمين إلى استخدام الشدة والغلظة ضد الأعداء:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

يقول العلامة القاسمي عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ والمعنى أي يقربون منكم وهم مشركوا الجزيرة العربية.

﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ ﴾ كلمة جامعة للجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة والعنف في القتل والأسر والغلظة ضد الرقة.

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء العاشر (٦/ ٤٥) باختصار وتصرف.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٠، ١٤١).

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ بالنصرة والمعونة[١] والغلظة المطلوبة في القتال هي الخشونة في القتال والشدة فيه وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة غير المحاربين أصلاً وليست تمثيلاً بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين ولاحترام بشرية المحاربين إنما المقصود الخشونة التي لا تميع المعركة وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب بقدر ما تقتضي حالة الحرب دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل[٢].

والخطاب في الآية وجه للمؤمنين دون النبي ﷺ إيماء إلى أن النبي ﷺ لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب ولعل في قوله ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ إيماء إلى التسلية على فقدان نبيهم ﷺ وأن الله معهم، والمقصود من الآية إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين[٣].

فإن كان السمت العام في المؤمنين هو الرأفة والرحمة فمقام الحرب يخالف ذلك وإنما يقتضي الشدة والغلظة في معاملة الأعداء حتى يروا قوة المؤمنين فيرهبوها ويقلعوا عن قتالهم ولعل الغلظة تثنيهم عن القتال وتجعلهم يستمعون إلى الحق الذي طالما أعرضوا عنه وتصدوا له.

ثانيًا: المحور الخارجي ويتمثل في عدة عناصر:

أ- إلقاء الرعب في نفوس الأعداء.

ب- استخدام آلات لم يكن يعرفونها.

ج- استخدام أساليب لم يتعودوا عليها.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٣٣٠٠).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٤١).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الحادي عشر (٦/ ٦٣، ٦٤).

أ- إلقاء الرعب في نفوس الأعداء:

إلقاء الرعب في نفوسهم، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

فإلقاء الرعب من الله سبحانه في قلوب الأعداء هزمهم نفسيًا وحطمهم معنويا وزلزل الأرض من تحت أقدامهم في ساحة القتال.

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي[(١)] والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيًا إخبارًا لهم بما يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كلفهم الله به بأن الله كفاهم تخذيل الكافرين بعمل آخر غير الذي كلف الملائكة بعمله[(٢)].

وعبر بالإلقاء لما فيه من الإشعار بأنه يصب في القلوب دفعة الواحدة[(٣)].

فقذف الرعب في قلوب الأعداء هز معنوياتهم هزة عنيفة وخذلهم وأرجف قلوبهم، كذلك من تحطيم القرآن لمعنويات أعداء الإسلام إخبارهم بأنهم سيغلبون في الدنيا وسيكون مصيرهم في الآخرة جهنم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ ﴾ أي قل مشركي مكة ستغلبون يعني يوم بدر، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش فقالوا: لا يغرنك إنك أصبت أغمارًا لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فنزلت الآية وقد صدق الله وعده

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٢٩٢).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء التاسع (٥/ ٢٨٢).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٥١١)

لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عاداهم وهو من دلائل النبوة[١].

﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم[٢] فلا شك أنه من يعرف أنه يخوض المعارك ويعرض نفسه للخطر ثم يهزم ويكون مصيره النار سوف تتحطم معنوياته وتتخاذل عزيمته.

ب- استخدام آلات لم يكونوا يعرفونها:

ولقد استخدم النبي ﷺ في مواجهته أعدائه أثناء الحرب وسائل هزت معنوياتهم وأسقطت في أيديهم منها استخدام آلات لم يكونوا يعرفونها كما حدث في حصار الطائف[٣].

ج- استخدام أساليب لم يتعودوا عليها:

واستخدم النبي ﷺ وسائل لم يتعودوا عليها كوسيلة القتال في صفوف، كما استخدم وسيلة تحطيم المعنويات ضد الأعداء إذ أمر بتقطيع نخيلهم في حصاره ﷺ لبني النضير[٤].

كل هذه الأمثلة التي تمثل استخدام النبي ﷺ لوسيلة تحطيم المعنويات زمن الحرب التي أثرت في الأعداء تأثيرًا كبيرًا وهزمتهم نفسيًا قبل أن يهزموا عسكريًا وفي المقابل كان ﷺ يحفز المؤمنين ويشجعهم ويرفع من معنوياتهم حتى قال واحد منهم[٥] له ﷺ والله يا رسول الله لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد[٦].

---

(١) الرحيق المختوم (ص٢٧٩) باختصار وتصرف، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٩٤).
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ١٥٠، ١٥١).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٢).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٠).
(٥) وهو الصحابي الجليل سيدنا سعد بن معاذ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢).
(٦) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٦٢).

ولقد استخدمت جبهات العداء المختلفة الحرب النفسية ضد الرسول والمسلمين في الحرب، فلقد تحزبوا ضد المسلمين وجمعوا كلمتهم لمحاربتهم مما أسقط في أيدي المؤمنين وأربكهم لولا أن من الله عليهم بحفر الخندق وأرسل على أعدائهم الريح والملائكة فاقتعلت خيامهم وفرقت جمعهم. قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[الأحزاب: ١٠-١١].

يقول العلامة البغوي(١):

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي من فوق الوادي من قبل المشرق وهم أسد وغطفان وعليهم مالك بن عوف النصري وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان ومعجم طليحة بن خوليد الأسدي في بني الأسدي وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة.

﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب هم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب ومن تبعه وأبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي من قبل الخندق وكان السبب الذي جر غزوة الخندق فيما قيل إجلاء رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم.

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ مالت وشخصت من الرعب.

﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ زالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ اختلفت الظنون فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لهم.

---

(١) العلامة البغوي: هو الحسين بن مسعود بن محمد البغوي إمام التفسير والحديث والفقه وصاحب مصنفات متعددة منها: شرح السنة والمصابيح، والجمع بين الصحيحين وغيرها، توفي سنة ٥١٦هـ انظر: طبقات المفسرين للسيوطي، مكتبة وهبة، ١٩٧٦م، القاهرة (ص٤٩، ٥٠).

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ﴾ أي عند ذلك اختبر ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بالحصار والقتال ليتبين المخلص من المنافق.

﴿ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ حركة شديدة(١).

إنها صورة الهول الذي روع المدينة والكرب الذي شملها والذي لم ينجو منه أحد من أهلها وقد طبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقًا والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه(٢).

وكان لنقض اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ وقت حرب الأحزاب حربًا نفسية خطيرة المرمى قوية التأثير، فهم نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ ونكثوه وحالفوا قريشًا على قتال رسول الله ﷺ(٣).

فأنزل الله تعالى فيهم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٦].

﴿ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تعدد النقض وتجدده وكونهم على نيته في كل حال أي ينقضون عهدهم الذي أخذ منهم.

﴿ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ أي من مرات المعاهدة وجواز أن يكون في كل مرة من مرات المحاربة.

﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ سبة الغدر ومغبته أولاً يتقون الله تعالى فيه وقيل لا يتقون

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٥١٥، ٥١٩) باختصار.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٣٨٣٧).

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي الجزء العاشر (٦/ ٣٢) باختصار وتصرف.

نصرة المسلمين وتسلطهم عليهم[١].

فنقض العهد ديدنهم وخاصة إذا لمحوا في المسلمين ضعفًا أو حاجة، فشأنهم أنهم لا يتقون الله ومن لا يتق الله فلا تستبعد عليه أي رذيلة.

ولقد ذكر ابن هشام أن اليهود من بني النضير الذي حرضوا الأحزاب على محاربة رسول الله ﷺ وهم الذين حزبوهم وقالوا لهم: إنهم سيكونون معهم ضد الرسول ﷺ[٢] كما أن حيي بن أخطب النضري هو الذي ذهب إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعاهده وحرضه على التحزب مع الأحزاب ضد المسلمين وحرضه على نقض العهد مع الرسول ﷺ فنقضه[٣].

فلما وصل الخبر إلى الرسول ﷺ أرسل سعد بن معاذ[٤] وسعد بن عبادة[٥] وعبد الله بن رواحة[٦] ليتأكدوا من خبر نقض بني قريظة للعهد ثم لما تأكدوا ذهبوا إلى رسول الله

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء العاشر (٦/ ٣٢) باختصار وتصرف.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٦).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٠، ١١١).

(٤) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدي مصعب بن عمير شهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورمى يوم الخندق بسهم فعاش شهرًا ثم توفي وشهد جنازته سبعون ألفًا من الملائكة ما وطئوا الأرض قبل، انظر: الاستيعاب (٢/ ٦٠٢، ٦٠٥).

(٥) هو سعد بن عبادة بن دليم بن أبي حليمة الخزرجي الأنصاري الساعدي أحد النقباء شهد العقبة، واختلف في شهوده بدرًا، وكان من أعلام الأنصار، روى عن الرسول ﷺ وروى عنه من الصحابة عبد الله بن عباس وغيره، قيل مات في خلافة عمر سنة ١٥هـ وقيل مات في خلافة أبي بكر سنة إحدى عشرة هجرية. انظر: الاستيعاب (٢/ ٥٩٤، ٥٩٩).

(٦) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، أحد النقباء، شهد العقبة والمشاهد بعدها حتى مؤتة حيث استشهد بها، وهو أحد أمراء الجيش في مؤتة وأحد الشعراء المحسنين. انظر الاستيعاب (٣/ ٨٩٨).

ﷺ وأكدوا له الخبر فقال رسول الله ﷺ الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين[1] وهذا يؤكد لنا أن النبي ﷺ إذا وصله خبر كان يتثبت منه ويتلمس عليه البينة حتى يكون تصرفه تجاه هذا الخبر تصرفًا صحيحًا، وفي هذا تعليم لنا أن نتثبت من الأخبار ونتأكد منها حتى لا نصيب قومًا بجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين.

كذلك كان للمنافقين مواقفهم أثناء الحرب والتي تعتبر محاولة منهم لحرب المسلمين نفسيًا، ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن موقفهم من غزوة الأحزاب.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

فهم حاولوا تشكيك المؤمنين في وعد الله بعد أن شكوا هم فيه ولذلك وقعه الخطير في نفوس المسلمين والوضع على هذه الحالة من الشدة.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ معتب بن قشير، وقيل عبد الله بن أبي وأصحابه.

﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك وضعف اعتقاد.

﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهو قول أهل النفاق يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، وهذا والله الغرور[2].

إنها سهم مسموم أطلق في ساعة عصيبة أراد مطلقوه تشكيك المؤمنين في وعد الله، أطلقوه والخطب عصيب والساعة حاسمة.

وبهذا يواجه الصف المؤمن في هذه العزوة أحزاب تتحزب عليه من كل جهة وإذا صفه الداخلي تنشق عنه فئة فتعلن تمردها وتكون صفًا متحزبًا داخليًا.

ويخيب الله رجاء كل هؤلاء الأعداء فيفرق شمل الأحزاب ويتوعد المنافقين بالدرك الأسفل من النار وساء لهم مصيرًا.

---

(١) نفس المصدر السابق (٣/ ١١١).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٥١٦).

فالأعداء كما رأيت اليهود والمشركون والمنافقون قد شنوا حربًا نفسية هجومية شديدة ضد الرسول ﷺ والمسلمين فاليهود عملوا عملهم والمنافقون انتهزوا الفرصة وما قاموا برد الكفار من قريش وأعوانهم ولم يألوا جهدًا في زعزعة أركان الإسلام ولكن الله ناصر المؤمنين ومؤيدهم فالأعداء يستخدمون الحرب النفسية الهجومية ضد الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان ولكنها في حالة الحرب أشد حيث تتهيأ أسبابها بكثرة ولكن المسلمين واجهوا ويواجهون مثل هذه الهجمات بالإخلاص في اللقاء والعقيدة الصادقة والله ينصر من ينصره[1].

(١) كتاب الحرب النفسية في صدر الإسلام (ص٢١٥، ٢١٦) باختصار وتصرف.

المطلب الرابع: تقسيم الحرب النفسية على أساس المضمون إلى

أولاً: حرب نفسية فكرية أو حرب المعتقدات.

ثانيًا: حرب نفسية إعلامية.

أولاً: الحرب النفسية الفكرية «الأيدلوجية» أو حرب المعتقدات:

الأيدلوجية هي نسق من المعتقدات والمفاهيم أو هي نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والمفاهيم والتقاليد والمبادئ والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية.

والحرب النفسية الأيدلوجية تتمثل في الصراعات المتبادلة بين أفكار وغيرها مما يوجد نوعًا من الجدل بين وجهات نظر متعارضة تتضمن الدفاع عن هذه وهدم تلك[1].

ولقد دارت حرب المعتقدات بين الإسلام وأعدائه سجالاً فلقد واجه الإسلام أعداءه في بطلان ما هم عليه من معتقدات دينية واجتماعية وأخلاقية ولقد واجه القرآن الكريم ذلك في آياته ومن ذلك:

أ- أن واجههم القرآن ببطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام.

ب- كما عاب عليهم ادعاءهم أن الملائكة بنات الله.

ج- وعاب عليهم التفرقة بين طبقات المجتمع.

د- كما عاب عليهم التبديل والتغيير والتحريف.

أ- أن واجههم القرآن ببطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام:

لقد واجههم القرآن ببطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام وبين لهم أن هذه الأصنام عاجزة عن أن تفعل شيئًا ولا أن تخلق شيئًا ولا أن تجلب لنفسها شيئًا فهي بالنسبة لجلب

---

(١) قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م، (ص٢٣٤).

النفع أو درء المفاسد عن غيرها أعجز، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

يقول العلامة البيضاوي عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ بين لكم حال مستغربة أو قصة رائعة ولذلك سماها مثلاً، أو جعل لله مثل أي مثل في استحقاق العبادة.

﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ ﴾ للمثل أو لشأنه استماع تدبر وتفكر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يعني الأصنام، ﴿ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا ﴾ أي لا يقدرون على خلقه مع صغره لأن «لن» بما فيها من تأكيد النفي دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفى عنه، والذباب: من الذب لأنه يذب وجمعه أذبة وذبان.

﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ أي للخلق هو بجوابه المقدر في موقع حال جيء به للمبالغة أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين.

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ﴾ جهَّلهم غاية التجهيل بأن أشركوا إلهًا قادرًا على المقدورات كلها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيل هي أعجز الأشياء وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها، ولو اجتمعوا لها بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يخطفه من عندها.

﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ عابد الصنم ومعبوده[(١)] فلقد وصفت الآية الكريمة عبادة ما دون الله سبحانه بأنها عبادة باطلة لأنها عبادة لآلهة مزيفة لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعًا.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] أي أخبروني عن الآلهة التي تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها وهل

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٩٦) باختصار وتصرف.

أوحت إليكم شيئًا كما أوحى الله إلى محمد؟ أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع[١] ولقد عاب القرآن الكريم على أعداء الإسلام من المشركين ادعاءهم أن الملائكة بنات الله وهم في أنفسهم يكرهون البنات فنسبوا لله ما يكرهونه بل ويدفنونه حيًا.

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨-٩]، ولقد وبخهم الله على نسبتهم البنات إلى الله بقوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

يقول العلامة القاسمي: كانوا يقولون إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله تعالى مع وأدهم البنات فقيل لهم ألكم الذكر وله الأنثى؟ ويجوز أن يراد أن اللاة والعزى ومناة إناث وقد جعلتموهن لله شركاء، ومن شأنكم أنكم تحتقرون الإناث وتستنكفون من أن يولدن لكم وينسبن إليكم فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أولادًا لله وتسمونهن آلهة؟ وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية.

﴿ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ جائزة غير مسبوقة ناقصة غير تامة لأنكم جعلتم لربكم من الولد والند ما تكرهون لأنفسكم وآثرتم أنفسكم بما ترضونه[٢].

فالآيتان الكريمتان تبينان بطلان ما هم عليه من اعتقاد أن الملائكة بنات الله أو أن آلهتهم بنات وهم شركاء لله ثم عاب القرآن الكريم عليهم كرههم للبنات ووأدهم لهن كما ذكرت الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

ومن عاداتهم التي واجههم القرآن الكريم ببطلانها أنهم كانوا يفرقون بين طبقات المجتمع المختلفة، الغني عندهم أكرم وأفضل من الفقير حتى كانوا لا يجالسون الفقراء

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٠٧).
(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٥/ ٥٥٧٤) باختصار وتصرف.

ومما يدل على ذلك ما ذكره الإمام الواحدي عن خباب بن الأرت[١] قال: كنا ضعفاء عند النبي ﷺ بالغداة والعشي فعلمنا القرآن والخير وكان يبشرنا بالجنة ويخوفنا من النار وما ينفعنا والموت والبعث فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فقالا: إنا من أشراف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم فاطردهم إذا جالسناك، قال نعم، قال: لا نرضى حتى نكتب كتابًا، فأتى بأديم ودواة[٢] فنزلت هؤلاء الآيات: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢-٥٣].

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ يعني صلاة الصبح وصلاة العصر أو المراد الصلوات الخمس.

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي يريدون الله بطاعتهم قال ابن عباس رضي الله عنهما: يطلبون ثواب الله ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي لا تكلف أمرهم ولا يتكلفون أمرك، وقيل: ليس رزقهم عليك فتملهم، ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ جواب لقوله: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ وقوله: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ جواب لقوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ﴾ أحدهم جواب النفي والآخر جواب النهي[٣].

فالآية الكريمة هي الخطوة الأولى في إبطال عادة الجاهلية من تفضيل الناس على

(١) هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب التميمي من السابقين إلى الإسلام، قيل إنه سادس من دخل في الإسلام وأول من أظهر إسلامه وعذب كثيرًا، روى أحاديث عن الرسول ﷺ وهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وما بعدها، توفي في الكوفة وعاش ٦٣ سنة. انظر: الإصابة (١/ ٤١٦).

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص١٧٩) بتصرف.

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٩٩).

أساس الأنساب فلقد نهت النبي ﷺ على أن يطرد المؤمنين، أما الخطوة الثانية فلقد نهت النبي ﷺ عن طاعة هؤلاء الذين يتفاخرون بأنسابهم ويغفلون عن طاعة ربهم وأمرته ﷺ ألا يرتبط إلا بهؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ أي احبسها وثبتها، ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ﴾ أي مصاحبة مع الذين، ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ أي يعبدونه دائمًا، ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بذلك الدعاء، ﴿ وَجْهَهُۥ ﴾ أي رضاه سبحانه وتعالى دون الرياء والسمعة.

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا والمراد النهي عن احتقارهم وصرف النظر عنهم لرثاثة حالهم إلى غيرهم.

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الدنيا.

﴿ وَلَا تُطِعْ ﴾ في تنحيه الفقراء من مجلسك.

﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا ﴾ أي جعلنا قلبه غافلاً، ﴿ عَن ذِكْرِنَا ﴾ لبطلان استعداده للذكر بالمرة كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء فإنهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه أولئك الفقراء من الدعاء في الغداة والعشي[(١)].

ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد[(٢)].

﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ ﴾ في اتباع الهوى وترك الإيمان، ﴿ فُرُطًا ﴾ أي ضياع وهلاك[(٣)].

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء الخامس عشر (٩/ ٣٧٧، ٣٨١).
(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٨٧).
(٣) روح المعاني للألوسي الجزء الخامس عشر (٩/ ٣٨٢) باختصار.

أما الخطوة الثالثة فهي بيان أن مناط التكريم عند الله هو التقوى فلا فضل لشريف على وضيع ولا لغني على فقير، ولا للون على لون إلا بالتقوى، فالكل في الأصل سواء ثم تأتي التقوى لتأتي المفاضلة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول العلامة أبو السعود:

﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام، لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم فإن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى(١).

﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ والكريم حقًا هو الكريم عند الله وهو يزنكم عن علم عن خبرة بالقيم والموازين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع وخلقهم من أصل واحد كما يرتفع لواء واحد ليتسابق الجميع ليقفوا تحت لواء التقوى في ظل الله وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقائد العصبية للجنس والعصبية للأرض والعصبية للقبيلة والعصبية للبيت وكلها من الجاهلية وإليها تتزيا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء وكلها جاهلية عارية من الإسلام(٢).

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ليقيم نظامه

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم لأبي السعود (٥/ ٦١٥) باختصار.
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٤٨).

الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله، لا راية الوطنية ولا راية القومية ولا راية البيت ولا راية الجنس فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية: «**دعوها فإنها منتنة**»(١).

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي(٢).

كما واجه الإسلام أعداءه من أهل الكتاب ببيان بطلان ما هم عليه من معتقدات بعدما حرفوا كتبهم وبدلوا فيها، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى وأخرج ابن إسحاق وابن جرير رضي الله عنهما عن ابن عباس قال: جاء رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع حريملة فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله تعالى حق؟ فقال النبي ﷺ: «**بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس فبرئت من إحداثكم**» قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك فانزل الله تعالى فيهم: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أي دين يعتد به ويليق أن يسمى شيئًا لظهور بطلانه ووضوح فساده وفي هذا التعبير ما لا يخفى من التحقير، ومن أمثالهم: أقل من لا شيء(٣).

﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ أي تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور، التي من جملتها دلائل رسالة النبي ﷺ وشواهد نبوته.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري، كتاب التفسير سورة المنافقون (٦/ ٩٠)، طبعة دار الشعب.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٤٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٤) باختصار وتصرف.

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي القرآن المجيد وإقامته بالإيمان به[(١)].

ولقد استخدم أعداء الإسلام حرب المعتقدات ضد المسلمين، ولقد اتخذت حربهم ضد معتقدات الإسلام عدة محاور منها ما يلي:

أولاً: أنهم شككوا في شخص النبي ﷺ وفي نسبة الرسالة إليه قال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤].

وقالوا ما حكاه القرآن ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ [ص: ٨]. فقوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ تمثل التشكيك في شخص النبي ﷺ ووصفه بأنه ساحر وكذاب ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ ﴾ بشر مثلهم أو إنس من عدادهم[(٢)].

﴿ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ والمعنى أن هذا المدعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾.

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ أي القرآن[(٤)] والاستفهام للإنكار أي كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف، قال الزجاج، قالوا: كيف أنزل على محمد القرآن ونحن أكبر سنًا وأعظم شرفًا منه؟ وهذا ما ذكره الله عز وجل على لسانهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] فأنكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء[(٥)] فهم استكثروا الرسالة على النبي ﷺ وهو ليس

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء السادس (٤/ ٢٩١، ٢٩٢) باختصار.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٣٠٧).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٠٦) باختصار وتصرف.

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٤٩).

(٥) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٠٧) باختصار وتصرف.

من أكبرهم ولا أغناهم فأنكروا أنها أنزلت عليه فهو ليس جدير من وجهة نظرهم أن ينزل عليه وحي أن الوحي تشريف والتشريف حقيق بالأشراف الذين هم ذوي المال والجاه لديهم.

ثانيًا: كما واجه الإسلام من أعدائه في حربهم العقيدية له تشكيك في أن القرآن منزل من عند الله فقالوا ما حكاه القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥].

وقال تعالى أيضًا حكاية عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ يعني مشركي قريش وقال مقاتل هو قول النضر بن الحارث.

﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا، يعنون القرآن، ﴿ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ يعني كذب، ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ قال مجاهد: يعنون اليهود، وقال مقاتل: أشاروا إلى عداس مولى حويطب ويسار غلام عامر بن الحضرمي وجبر مولى لعامر أيضًا وكان الثلاثة من أهل الكتاب.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ المعنى وقالوا الذي جاء به أساطير الأولين[1].

فقد تضمنت الآيتين إيراد ما حكاه المشركون عن القرآن فقالوا إنه من اختلاق محمد ﷺ واختراعه فهو ليس وحي كما يزعم إنما هو حكايات الأولين عملها له وقرأها عليه بعض اليهود وهكذا كانت حربًا عقيدية ضد الإسلام.

ولكن القرآن لم يتركهم وقولهم بل رد عليها وبين أن قولهم افتراء وزورًا وظلمًا من عند أنفسهم.

ثالثًا: كما واجه الإسلام حربًا عقيدية ضد شعائره منها الصلاة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨].

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٧٢، ٧٣) باختصار.

يقول العلامة البغوي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ قال الكلبي كان منادى رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود: قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا، على طريق الاستهزاء، وضحكوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وقال السدي: نزلت في رجل من النصارى بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، قال: حرق الكاذب فدخل خادمه بنار وأهله ذات ليلة نيام فتطايرت منه شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله، وقال الآخرون إن الكفار لما سمعوا الآذان حسدوا المسلمين فدخلوا على رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئًا لم نسمع به فيما مضى من الأمم فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت فيما أحدثت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء، فمن أين لك صياح كصياح العير فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر[1].

فتفسير الآية كما ذكرها العلامة البغوي يوضح مدى الكيد والحقد والحسد الذي أضمره أعداء الإسلام للإسلام وأصحابه فأخذوا يشككون ويسخرون حتى من شعائر الدين وما هذا إلا لأنهم لا يعقلون وإذا كان هذا ما حكاه القرآن عن أعداء الإسلام الذين عاصروه[2].

فما زال أعداء اليوم يحملون ضده نفس المشاعر ويستخدمون ضده حرب الأفكار والمعتقدات فلقد فرض أعداء الإسلام على المجتمعات الإسلامية القوانين الوضعية التي تشكل تعارضًا شديدًا مع الإسلام فهؤلاء الأعداء أرادوا أن يكون الإسلام عقيدة دون شريعة وعبادة دون معاملة، ودينًا دون دولة وقرآنًا دون سلطان[3].

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٤٨)، وانظر أسباب النزول للواحدي (ص١٦٤، ١٦٥).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٤٨).

(٣) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د/ سعد الدين صالح (ص٢٣٤، ٢٣٥).

وهكذا فالإسلام كان وما زال يواجه حربًا شعواء من أعدائه في عقائده وتشريعاته وأفكاره فهل يعي المسلمون ذلك ويهبوا للانتصار له.

ثانيًا: الحرب النفسية الإعلامية:

هي كل ما يبثه الخصم من تضليلات لتحطيم عدوه بأية وسيلة إعلامية فالحرب النفسية الإعلامية هي الاستخدام المخطط من جانب الدولة للدعاية وغيرها من الإجراءات الإعلامية التي تستهدف جماعات محايدة أو معادية أو صديقة للتأثير على آرائها وعواطفها واتجاهاتها وسلوكها بطريقة تساعد على تحقيق سياسة وأهداف الدولة(١).

فوسائل الإعلام تقوم بالدور الرئيسي في الحرب النفسية حتى نستطيع القول أن الحرب النفسية هي حرب وسائل الإعلام(٢) فالحرب النفسية الإعلامية تعمل على تثبيط العدو وتحطيم معنوياته وتغيير أفكاره كما أنها تعمل على كسب المحايدين ورفع معنويات المؤيدين.

ولقد استخدم الرسول ﷺ وسائل إعلامية في مواجهة أعدائه منها مواجهتهم بالخطابة التي تبطل معتقداتهم، ومنها إرسال الرسل إليهم تحذرهم عاقبة العداء مع المسلمين ومنها تشجيع الشعراء المسلمين لمواجهة أعدائهم بالشعر.

من وسائل الحرب الإعلامية:

أولاً: الخطابة، ثانيًا: الشعر،

أولاً: الخطابة:

وهي من خطب الناس وفيهم وعليهم خطابة وخطبة، ألقى عليهم خطبة والخطبة

---

(١) الرسول والحرب النفسية، علي حسني الخربوطلي، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٢م (ص٧٨).
(٢) الحرب النفسية، د/ أحمد نوفل (١/ ٤٣)، ط/ دار الفرقان باختصار وتصرف.

من الكلام المنثور يخاطب به متكلم فصيح جمعًا من الناس لإقناعهم[١].

وعرفت الخطابة بأنها:

صفة راسخة في نفس المتكلم يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير على نفس السامعين وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم[٢].

وعرفت أيضًا بأنها علم يقوم على تحريك المشاعر واستثارة العواطف واستمالة القلوب وإقناع العقول نحو غاية محدودة وهدف مقصود[٣] ولذا كان لها تأثير خطير في الحرب النفسية.

وعرفت أيضًا بأنها: مجموعة قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن في أي موضوع[٤].

والخطابة من وسائل الإعلام المؤثرة التي استخدمت قديمًا وما زالت تستخدم حديثا في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والتأثير في نفوس الناس وذلك لما لها من منزلة كبيرة ومكانة عظيمة في النفوس حيث أنها تهز أوتار القلوب وتملك مفاتيح العقول.

استخدام الخطابة كوسيلة من وسائل الحرب النفسية:

والخطابة من وسائل الحرب النفسية الإعلامية استخدمت للتأثير على صفوف الأعداء والتأثير في معنوياتهم كما استخدمت لرفع الروح المعنوية لدى الجبهة الداخلية.

وكانت الخطابة تستخدم في السلم أداة للمفاخرة والمنافرة كما تستخدم في الحرب للتثبيت والتحميس وبعث الحمية في النفوس وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف وكانت الخطابة من أهم الوسائل لدى الأنبياء والمرسلين من قبل سيدنا محمد ﷺ وذلك من لدن نوح وحتى خاتم الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

---

(١) المعجم الوجيز مادة خطب (ص٢٠٢).

(٢) الخطابة نشأتها وميدانها، د/ محمود رسلان (ص١٥).

(٣) التهذيب في فقه الخطبة والخطيب، د/ محمد عبد العزيز داود (ص٩).

(٤) الخطابة الإسلامية، د/ جبر محمد حسن جبر (ص١٠).

استخدام الخطابة في الدعوة إلى الله:

وكانت الخطابة وسيلة مهمة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وإثناء المعاندين عما هم فيه من الغي والأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى، عملاً بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ حذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة.

والمراد بـ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ هو الإسلام ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ بالمقالة المحكمة الصحيحة قيل وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة المستحسنة لدى السامع ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ أي بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ ﴾ لما حث الله سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين أن الرشد والهداية ليس إلى النبي ﷺ وإنما ذلك إليه تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ أي هو العالم بمن يضل ومن يهتدي ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت وإنما شرع لك الدعوة وأمرك بها قطعًا للمعذرة وتتميمًا للحجة وإزاحة للشبهة وليس عليك غير ذلك(١).

فالدعوة تستلزم النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم واختيار القدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم، ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها والطريقة التي يخاطبهم بها والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها كما تستلزم الدعوة أن يكون الخطيب رفيقًا لطيفًا في مخاطبة مشاعر الناس فإن الرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة(٢).

ولقد عمل رسول الله ﷺ بالآية الكريمة على أفضل وجه فقد تفانى في مخاطبة الناس

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٠٨) باختصار.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٠٢) باختصار وتصرف.

وإعلامهم بتعاليم الدين وإرشادهم إلى طريق الصواب وذلك من أول لحظة أمر فيها بتبليغ الدعوة إلى الناس فكان مثالاً يحتذى به لكل داعية إلى الله.

ومن الآيات التي نزلت في أمر الرسول ﷺ لدعوة الناس، وقام ﷺ بعدها مباشرة يخطب فيهم وينذرهم من عذاب الله قول الله عز وجل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

يقول العلامة ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية عطف على قوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ فهو تخصيص بعد تعميم للاهتمام بهذا الخاص ووجه الاهتمام أنهم أولى الناس بقبول نصحه وتعزيز جانبه ولئلا يسبق إلى أذهانهم أن ما يلقيه الرسول من الغلظة في الإنذار وأهوال الوعيد لا يقع عليهم لأنهم قرابة هذا المنذر وخاصته ويدل على هذا قوله ﷺ في ندائه لهم: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**» وأن فيه تعريضًا بقلة رعي كثير منهم حق القرابة إذ آذاه كثير منهم وعصوه مثل أبي لهب فلا يحسبوا أنهم ناجون في الحالتين، وأن يعلموا أنه لا يكتفي من مؤمنهم بإيمانه حتى يضم إليه العمل الصالح، فهذا مما يدخل في النذارة ولذلك دعى النبي ﷺ عند نزول هذه الآية قرابته مؤمنين وكافرين[(١)].

ومما يدل على استعمال الرسول ﷺ الخطابة لإعلام القوم وإنذارهم وسرعة استجابته ﷺ لما ينزل عليه من آيات ما ذكره الإمام البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال ﷺ: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي**» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «**فإني**

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء التاسع عشر (٩/ ٢٠٠، ٢٠١).

نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا[1].

لما أعطي رسول الله ﷺ ما أعطي من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم لقي رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» قال: فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال: فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: «يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم» قالوا: بلى الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله ولرسول الله المن والفضل، قال ﷺ : «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك وطريدًا فآويناك وعائلاً فواسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا ثم

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في التفسير (٦/ ١٤٠).

انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[(١)].

وهكذا أنهت خطبة النبي ﷺ ما لحق بالصف المسلم من بلبلة وزعزعة في نفوس الأنصار.

فإذ بالخطبة النبوية ترجع الصف المسلم أقوى مما كان ثابت الدعائم قوي الأركان وإذا بالقوم تبكي عيونهم مؤكدين ما للخطبة التي يخلص مؤديها فيها من تأثير على النفوس والوجدان.

استخدام الأعداء للخطابة كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ورد المسلمين عليهم.

ولقد استخدم أعداء الإسلام وسيلة الخطابة في حربهم الإعلامية ضد الرسول ﷺ والمسلمين كما استخدمه الرسول ﷺ في مواجهة الأعداء ومن ذلك:

أن وفد بني تميم قدم ودخل المسجد ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد فآذى ذلك رسول الله من صياحهم فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطاء بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنن وهو أهله الذي جعلنا ملوكًا ووهب لنا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم عددًا وأيسرهم عدة فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام نحب من الإكثار فيما أعطانا وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس[(٢)] أخي بني الحارث بن الخزرج: «قم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٧٢، ٧٣) باختصار.

(٢) هو ثابت بن قيس بن شماس بن ظهير بن مالك بن كعب بن الخزرج، كان خطيب الأنصار ويقال له خطيب رسول الله ﷺ، شهد أحدًا وما بعدها وقتل يوم اليمامة شهيدًا. انظر

فأجب الرجل في خطبته»، فقام ثابت فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه ولم يك شيء قط إلا من فضله ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسبًا وأصدقه حديثًا وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابًا وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعى الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرين من قومه وذوي رحمه أكرم الناس حسبًا وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالاً ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا واستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم[1].

فلقد استخدم الفريقان الخطابة كوسيلة من وسائل الحرب النفسية الإعلامية ونظرًا لتفوق الخطيب المسلم كان لخطبته الأثر العميق على نفوس بني تميم فقد أعجبوا بها وتأثروا لها حتى قالوا: لخطيبه أخطب من خطيبنا، وانتهى الأمر بإسلامهم وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[2].

ولذلك كانت الخطابة من المؤثرات القوية على النفوس والعقول والسلوك وكان لها تأثيرًا بالغًا لدى الموجهة إليهم.

كما استخدم اليهود الخطابة ضد المسلمين ومن ذلك أن حيي بن أخطب خرج للقاء بني قريظة يحرضهم أن يقاتلوا رسول الله ﷺ مع الأحزاب وخطب فيهم وأقنعهم بنقض العهد مع الرسول ومقاتلته[3] فنقضوه، وقد كان ذهب من قبل إلى قبائل العرب يحزبهم

=

الاستيعاب (ص٢٠٠، ٢٠٣).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١١٤) باختصار وتصرف.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١١٧) باختصار وتصرف.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٠، ١١١) باختصار وتصرف.

ضد الرسول ولقوة خطابته نجح في ذلك[١]، وهذا يؤكد خطر الخطابة على النفوس وتأثيرها فيها كما يؤكد استخدام أعداء الإسلام لهذا الأسلوب ضد الرسول والمسلمين.

وهكذا فالخطابة من الفنون اللسانية التي تؤثر في النفوس في الحرب النفسية أقوى مما تؤثره الحروب العسكرية.

ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول: **«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»**[٢]. ويقول: **«إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»**[٣].

ونحن في عصرنا الحاضر والشكوك والشبهات تحيط بالإسلام من كل مكان أحوج ما يكون إلى خطباء يعرفون دينهم ويعون ما حولهم من مؤامرات على الإسلام يعكفون عليها ويفندونها ويحبكوا هذا التفنيدات في خطب عصماء ترد كيد الكائدين ولهم في كتاب الله وسنة رسوله خير زاد.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٦، ١٠٧) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو (٣/ ٢٢، ٢٣) برقم (٢٥٠٤) ط/ دار الكتب العلمية، قال الإمام النووي عنه: أن إسناده قوي وصححه ابن حبان.

(٣) أخرجه أحمد عن كعب بن مالك الأنصاري (٣/ ٣٦٠) ط/ المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت.

ثانيًا: الشعر:

كان الشعر من أهم وسائل الإعلام التي استخدمت قديمًا، ويعتبر الشعر أحد وسائل الإعلام الأولى التي عرفها العرب وغير العرب حيث كان هو الأداة الأولى للتعبير عن الآراء[١] وإذاعة الأخبار والمآثر الحقيقية منها والمفتعلة وكان الشعر يشبه الجرائد اليومية التي تتضمن آخر الأنباء والتحليلات الإخبارية ولم تختلف الدول الأخرى عن العرب في النظر إلى أهمية الشعر فقد نفى الإمبراطور الروماني أوغسطس الشاعر أوفيد بسبب قصيدة وهفوة ... بينما رفع الشاعر فرجيل إلى مرتبة المواطن الرفيع وظلله برعاية الدولة إذ كانت قصائده مدحًا ودعاية له وللإمبراطور[٢].

وكان الشعر في العصر الجاهلي من أهم الأدوات للتعبير عن رأي القبيلة وقد حفلت أسواق العرب بمنتديات الشعر والشعراء، وبعد ظهور الإسلام كانت بوادر الحرب الإعلامية قد ابتدأت منذ الهجرة غير أن ملامحها بدأت تتضح رويدًا في بعض السرايا قبيل بدر لكنها انفجرت انفجارًا ضخمًا بعد بدر لأن الجانب الإعلامي بالقبائل المجاورة كان هدفًا مهمًا من أهداف الفريقين ويظهر أن الأشعار سرعان ما تطير بها الركبان بين يثرب ومكة فيأتي الرد من الطرف الآخر لكن عند النصر تكثر أشعار الفريق المنتصر بينما تكثر المراثي عند الفريق الثاني.

لقد دخل رسول الله ﷺ المعارك العسكرية بأسلحة غير متكافئة في العدد والعدة أما في مجال الشعر فلم يكن الأمر كذلك فبالإضافة إلى المقلين من الصحابة الذين يكتفون بقطعة أو قطعتين كان هناك الشعراء المتخصصون وكان حسان بن ثابت على رأسهم رضي الله عنه وكعب بن مالك[٣] وعبد الله بن رواحة.

---

(١) الإعلام والدعاية، عبد اللطيف حمزة، دار الفكر العربي، (ص٧٨).

(٢) الدعاية السياسية في العصر الأموي، منير حجاب، مؤسسة سعيد للطباعة، طنطا (ص١٦٥).

(٣) هو كعب بن مالك بن أبي كعب الخزرجي الأنصاري السلمي شهد العقبة الثانية وآخى النبي ﷺ =

وكان أشدهم على الكفار حسان[١].

ولقد ادعى أعداء الإسلام على الرسول ﷺ بأنه شاعر فنزل القرآن يبين أن الرسول ﷺ ليس بشاعر وأن منهجه غير منهج الشعراء وأن الشعراء يتبعهم الغاوون إلا من رحمهم الله من الفئة المؤمنة الصادقة قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

يقول العلامة الألوسي في تفسيره للآية ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ مسوق لتنزيهه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون وحاشاه من الشعراء، وإبطال زعم الكفرة أن القرآن من قبيل الشعر، ومعنى الآية والشعراء يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون والضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وفيما يذرون ولا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحق[٢].

ثم بين سبحانه حقيقة منهج الشعراء من أهل الضلال فقال عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥، ٢٢٦].

أي ألم تر أنهم في كل واد من أودية الخيال يهيمون على وجوههم لا يقفون عند حد معين بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب ديدنهم الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والنسيب والنسب والابتهار ومدح من لا يستحق المدح والغلو في الثناء والهجاء.

=

بينه وبين طلحة بن عبيد الله وكان أحد شعراء رسول الله ﷺ، اختلف في شهوده بدرًا، وشهد أحدًا والمعارك بعدها، توفي سنة ثلاث وخمسين وهو ابن سبع وسبعين سنة. انظر: الاستيعاب (٣/ ١٣٢٣، ١٣٢٤).

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية لمنير الغضبان (٢/ ٣٥٨) بتصرف.

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء التاسع عشر (١١/ ٢١٨، ٢١٩).

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي مما يتبجحون به من أقوال وأفعال ولم تصدر منهم وعنهم كناية عن أنهم يكذبون غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم أي فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك من اتصف بمحاسن الصفات وتخلق بمكارم الأخلاق ﷺ[1].

ولقد روى عبد الله بن عباس أن هذه الآيات نزلت في شعراء المشركين عبد الله بن الزبعري وهبيرة بن وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه، يجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وهم الغاوون الذين يتبعونهم[2].

ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذي أغلب أحوالهم تحري الحق والصدق[3] فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

يقول العلامة الرازي في تفسيره لهذه الآية: إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بيانًا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة:

١- الإيمان وهو قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

٢- العمل الصالح وهو قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

٣- أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق ﴿ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

٤- ألا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾.

وقيل المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (١٢/ ٤٦٥٠) باختصار.

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء التاسع عشر (١١/ ٢٢٠).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١١٧).

وكعب بن زهير لأنهم كانوا يهجون قريشًا(١).

والآية الكريمة استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى والحث على الطاعة والحكمة والموعظة والزهد في الدنيا والترهيب من الركون إليها والاغترار بزخارفها والامتنان بملاذها الفانية والترغيب فيما عند الله تعالى ونشر محاسن رسوله ﷺ ومدحه وذكر معجزاته.

ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجو وقع بطريق الانتصار ممن هجاهم من غير اعتداء ولا زيادة(٢).

ولقد استخدم أعداء الإسلام الشعر للتحريض على المسلمين وشحذ الهمم ضدهم، ومن ذلك قول شاعرهم الحارث بن هشام:

فيا للؤوي ذببوا عن حريمكم وآلهة لا تتركوها لذي الفخرا(٣)

وقوله أيضًا:

على أنني واللات يا قوم فاعلموا بكم واثق ألا تقيموا على نبل(٤)

ومن ذلك قول هند تحرض زوجها أبا سفيان على قتال المسلمين فتقول:

فأبلغ أبا سفيان عني مالكًا فإن ألقه يومًا فسوف أعاتبه

فقد كان حرب يسعر الحرب إنه لكل امرئ في الناس مولى يطالبه(٥)

ولقد واجه المسلمون أعداءهم بنفس الأسلوب انتصارًا لدينهم وذبًا عنه.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٢/ ١٨٠).

(٢) روح المعاني للألوسي الجزء التاسع عشر (١١/ ٢٢٠).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٥).

(٤) نفس المصدر (٢/ ١٩٥).

(٥) نفس المصدر (٢/ ٢١٤).

ومن ذلك قول كعب ﷺ يعير المشركين لهزيمتهم يوم بدر ويسخر منهم ممن أسر أو فر أو قتل فيقول:

فلما لقيناهم وكل مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر
وقد عريت بيض خفاف كأنها مقاييس يزهيها لعينيك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا وكان يلاقي في الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعًا لوجهه وعتبة قد غادرته وهو عاثر
وشيبة والتيمي غادن في الوغى وما منهم إلا بذي العرش كافر
فأمسوا وقود النار في مستقرها وكل كفور في جهنم صائر[(١)]

هذا ولقد ذكر العلامة الألوسي في تفسيره ما يؤكد على أهمية الشعر الإسلامي وأثره في نفوس أعداء الإسلام وجزاء من يشعر شعرًا انتصارًا للعقيدة الإسلامية فقال:

واعلم أن الشعر باب من الكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح وفي الحديث: «إن من الشعر لحكمة»[(٢)] وقد سمع رسول الله ﷺ الشعر وأجاز عليه.

وعن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ إن الله تعالى أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل[(٣)] وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بنى لحسان بن ثابت منبرًا في المسجد ينشد عليه الشعر[(٤)].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٨).
(٢) أخرجه الإمام ابن ماجة، كتاب الأدب باب الشعر (٢/ ١٢٣٥) وأخرجه الإمام الترمذي كتاب الاستئذان والأدب باب ما جاء إن من الشعر حكمة (٤/ ٢١٦)، ط/ دار الفكر، وقال عنه إنه حديث غريب من هذا الوجه.
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٦٠).
(٤) أخرجه الإمام الترمذي، كتاب الاستئذان والأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر برقم (٣٠٠٣)، وقال عنه: أنه حديث حسن غريب صحيح (٤/ ٢١٦، ٢١٧).

وعن ابن مسعود ﷺ: الشعراء الذين يموتون في الإسلام يأمرهم الله تعالى يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة[١].

وهكذا يتبين لنا خطورة الشعر كوسيلة من وسائل الإعلام في الحرب النفسية فهي وسيلة قادرة على شحذ الهمم وتعبئة النفوس، كما أنها قادرة على تثبيط العزائم وتحطيم المعنويات، كما تبين لنا موقف الإسلام من الشعر وأنه يذم القبيح منه ويشجع الحسن كما أن القرآن الكريم ليس بالشعر كما ادعى أعداء الإسلام، وتبين لنا أيضًا أن معركة الشعر دارت سجالاً من أعداء الإسلام ابتداء واعتداء وواجهها المسلمون ذبًا ودفاعًا وتثبيطًا لمعنويات الأعداء وهجاء لهم على تركهم دين الحق وسلوكهم سبيل الضلال.

ثالثًا: الرسائل:

وسيلة هامة من وسائل الحرب النفسية الإعلامية استخدمت على مر العصور، فلقد استخدمت في دعوة الناس إلى الحق كما أنها استخدمت في تهديد الأعداء وتثبيط معنوياتهم كما استخدمت للرفع من الروح المعنوية لدى القواد والولاة والأمراء والحكام، ولقد أرسل الرسول ﷺ لأمراء وحكام عصره يدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم من البقاء على دينهم ويحملهم وزر أمتهم إن هم استمروا على دينهم ومن ذلك رسالته ﷺ إلى القيصر هرقل ملك الروم، وقد بعث بها عليه الصلاة والسلام سفيره دحية بن خليفة الكلبي وكان نص الرسالة هو: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»[٢].

ولقد أوهم هرقل دحية ﷺ بأنه مسلم وأعطاه كمية من الدنانير وصرفه فقال

---

(١) أخرجه الإمام الديلمي في مسنده (٢/ ٥١٨) برقم (٣٤٥٦) ط/ دار الكتاب العربي.

(٢) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الوحي (١/ ٧)، وانظر: الرحيق المختوم (ص٤٢٠-٤٢٢) باختصار وتصرف.

رسول الله ﷺ لما أعلمه دحية بما حدث: «كذب عدو الله ليس بمسلم» وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين من المسلمين، وقد اتضح من هذه الرسالة المجادلة بالتي هي أحسن من قبل رسول الله ﷺ والمكر والخديعة من قبل القيصر وكلاهما من أساليب الحرب النفسية[1].

وكان هرقل من أهل الكتاب فلقد دعاه رسول الله إلى الإسلام مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فالآية الكريمة كانت رسالة عظيمة من الرسول ﷺ يدعو فيها هرقل ومن على شاكلته إلى الإسلام وينهاهم عما هم فيه من طقوس باطلة وترك لعبادة الله عز وجل.

يقول العلامة البغوي في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«الكلمة» أي تعالوا إلى كلمة أن لا نعبد إلا الله.

﴿ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ كما فعلت اليهود والنصارى، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

وقال عكرمة: هو سجود بعضهم لبعض أي لا نسجد لغير الله، وقيل: لا نطيع أحدًا في معصية الله.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ ﴾ أي فقولوا أنتم يا أمة محمد ﷺ لهم ﴿ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ مخلصون بالتوحيد[2].

ومثلما أرسل النبي رسالة لهرقل أرسل لكسرى ملك فارس وللنجاشي ملك الحبشة

---

(١) الحرب النفسية في العصر المدني (ص ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٣١٢).

ولغيرهما من الملوك والرؤساء[١].

استخدام الرسائل كوسيلة إعلامية داخلية:

كذلك استخدمت الرسالة كوسيلة من وسائل الإعلام في الداخل:

ومن أمثلة ذلك: أن الرسول ﷺ بعث عبد الله بن جحش الأسدي[٢] إلى نخلة[٣] في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين وكتب له كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين فإذا فيه: «**إذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم**» فقال: سمعًا وطاعة وأخبر أصحابه بذلك[٤].

فمن هذه الواقعة يتضح أن:

١- أن الرسول ﷺ استخدم أسلوب الرسالة كأسلوب من أساليب الإعلام مع أصحابه رضوان الله عليهم.

٢- ما كان عليه الصحابة من حسن اتباع وطاعة لقائدهم ﷺ حيث لم ينظر عبد الله بن جحش في الكتاب إلا بعد يومين كما أمره الرسول ﷺ بذلك وبمجرد أن قرأ الكتاب نطق بكلمة «سمعًا وطاعة».

---

(١) انظر: الرحيق المختوم (ص٤١٤، ٤٢٥) باختصار وتصرف.

(٢) هو عبد الله بن جحش ب رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن أسد بن خزيمة الأسدي، أمه أمية بنت عبد المطلب، كان من المهاجرين الأولين، هاجر الهجرتين ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا واستشهد يوم أحد. انظر: الاستيعاب (٣/ ٨٧٧، ٨٨٠).

(٣) وسرية نخلة كان على رأسها سيدنا عبد الله بن جحش وقد أعطاه النبي خطابًا وأمره ألا يفتحه إلا بعد يومين ففتحه بعد يومين فإذا فيه أن النبي ﷺ يأمرهم أن ينزلوا نخلة وهو مكان بين مكة والطائف فأطاعوا أمر الرسول ﷺ ومرت بهم عير لقريش فتشاوروا فيهم وكانت آخر ليلة من رجب فهجموا عليهم فأفلت منهم واحدًا وأسروا أثنين وأخذوا ما كانت تحمله العير ورجعوا إلى المدينة.

(٤) انظر: هذا الحبيب يا محب، لأبو بكر الجزائري (ص٢٠٧) باختصار وتصرف.

ومن الأمثلة أيضًا:

كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم على عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة[(١)].

وقد بعث عمر ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ برسالة يقول فيها: الناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء يفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة[(٢)].

ومن هذين المثالين يتضح ما يأتي:

١- استخدام الصحابة رضوان الله عليهم لأسلوب الرسالة كوسيلة إعلامية ناجحة.

٢- ولنا أن نتخيل ما من شأن مثل هذه الرسائل من أثر في تقوية نفوس الصف الداخلي وإرشاده لما فيه صلاحه.

٣- كيف كان القائد الأعلى وهو أمير المؤمنين عمر ﷺ يشغل نفسه بجنده ويهتم بهم وهو حيث هو وهم حيث هم وهذا ما يعطينا الفرق الواضح بين قواد الأمس وولاة اليوم.

٤- أنه لن يصلح حال هذه الأمة إلا بالرجوع إلى منهج الله وامتثال الطاعة والتقوى ونبذ المعصية والمخالفة لأوامر الله فهما دعامة النصر.

كذلك استخدام أعداء الإسلام الرسالة كوسيلة من وسائل الحرب النفسية الإعلامية ضد المسلمين ومن أمثلة ذلك أنه بعد وقعة اليرموك اجتمع أهل فارس بعد

---

(١) الحرب النفسية، د/ أحمد محمد نوفل (٢/ ١٣٦)، نقلاً عن عظماؤنا في التاريخ (ص١٤٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٩٢).

مقتل ملكهم وابنه على تمليك شهريار بن أزدشير بن شهريار واستغنموا غيبة خالد عنهم فبعثوا إلى نائبة المثنى بن حارثة جيشًا كثيفًا نحوًا من عشرة آلاف عليهم هرمز بن حادوية، وكتب شهريار إلى المثنى: «إني قد بعثت إليك جند من أحسن أهل فارس إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم».

فهو أراد بهذه الرسالة تهديد المسلمين والسخرية منهم وإضعاف روحهم المعنوية، فإذا بالمثنى يرد فيقول: «إنما أنت أحد رجلين إما باغ لذلك شرًا لك وخيرًا لنا، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليه، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير».

فكان من أثر هذه الرسالة أن جزع أهل فارس من هذا الكتاب ولاموا شهريار على كتابه إليه واستهجنوا رأيه[1].

والمستفاد من هذا النموذج ما يلي:

١- أن استخدام الرسائل كوسيلة من وسائل الحرب النفسية الإعلامية قد استخدمت من قبل أعداء الإسلام ضد المسلمين وقد رد المسلمون بنفس الوسيلة لمواجهة أعدائهم.

٢- أن هذه الرسالة من الأعداء قد حملت طابع التهديد والسخرية ولكن القائد المسلم بفطانته قد استخدم مادة التهديد قدحًا في عدوه حيث قال له: الحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير.

٣- ثبات الصف المسلم أمام وسائل الحرب النفسية حتى وإن غاب القائد الأصلي عنهم وهو خالد بن الوليد ﷺ.

٤- أن هذه الرسالة زادت الصف المسلم قوة بينما أحدثت خلافًا في صفوف الأعداء وانتقادهم لملكهم واستهجانهم لرأيه.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٦، ١٧) باختصار وتصرف.

ومن استخدام الأعداء للرسالة كوسيلة من وسائل الحرب النفسية الإعلامية ما فعله هولاكو من قبل مغادرته سوريا إلى مصر أرسل رسولاً من رجاله وبرفقته أربعون رجلاً من الأتباع إلى قطز يحملون كتابًا من هولاكو إلى السلطان وكان مما فيها: إننا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا لغيركم وأسلموا إلينا أمركم فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى.

وكان ذلك في سنة ثماني وخمسين وستمائة هجرية أوائل سنة ١٢٦٠م فلما سمع قطز ما في الكتاب جمع الأمراء واتفقوا على قتل الرسل فقبض على الرسل واعتقوا وأمر بإعدامهم فأعدموا كل واحد أمام باب من أبواب القاهرة وعلقت رؤوسهم على باب زويلة[١].

وهنا كان القتل هو أبلغ رد على ما حاول هولاكو إحداثه في حرب نفسية ضد المسلمين فكان قتل رسلهم حربًا نفسية شديدة على هولاكو وجنوده وهم القوم الذي لا يعترفون إلا بالدماء.

وهكذا لعبت الرسالة دورًا عظيمًا كوسيلة إعلامية ناجحة من وسائل الحرب النفسية مما كان له أكبر الأثر على نفوس المرسل إليهم فأحدثت فيها ما أحدثت، فلقد أثمرت الرسالة في تغيير مجريات الأمور في كثير من الأحيان فلقد أسلم بعض من أرسل إليهم الرسائل وهو لم يكن على الإسلام ولقد استسلمت بعض الجيوش المحاربة إثر رسالة.

وهذا ما يجب أن يفطن إليه المسلمون حديثًا وعليهم أن يطوروا رسائلهم حسب مقتضيات العصر وعليهم أن يفطنوا طبيعة مواجهيهم حتى إن أرسلوا رسائلهم كانت رسائلهم صائبة مناسبة.

---

(١) بين العقيدة والقيادة، اللواء محمد شيت خطاب (ص٣٣٤، ٣٣٥) باختصار وتصرف.

وهكذا فالحرب الإعلامية تلعب دورًا كبيرًا في الحرب النفسية فلقد وجدناها تواكب الحرب العسكرية وكانت هي لسان الناطق الرسمي بنتائج الحروب والمعارك، وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم أن تخوض معركتها العسكرية وأن تعطي الجانب الإعلامي حقه خاصة وأن طبيعة الحرب العالمية اليوم حربًا إعلامية فالمعسكران يبتعدان ما استطعنا عن الصدام والمواجهة العسكرية لكن حربهم المستمرة اليومية تنطلق من وسائل الإعلام المختلفة من موعظة وخطابة ومقالة وقصة ورسالة إعلامية تبث من خلال وسائل الإعلام الحديثة المختلفة من إذاعة وتلفاز وجريدة ومجلة وكتاب وتسجيل سمعي وبصري فكلها غدت تتحكم في قلوب البشر وعقولهم وتفكيرهم وتوجه قناعتهم وتبني عقائدهم.

إن المعركة من الخطورة والدقة والأهمية ما يجعل الحكم على نجاح المعركة من خلال نجاح إعلامها والثقة به والتعامل معه.

وعلى المسلمين الصادقين أن يوجهوا طاقاتهم لتكوين المتخصصين المبدعين في هذا الفن ليحققوا القاعدة الأساسية التي يقوم عليها صرح البناء الجهادي فيكون كما قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

إنها مواصفات واضحة للكلمة الطيبة إنها من الأصالة والصدق ضاربة جذورها في الأرض فلا يزعزعها بهرج الدنيا وزخرفها وهي من جهة ثانية منتشرة في كل صقع وطالت فروعها الباسقة حتى عمت الأرض وامتدت للسماء وهي من جهة ثالثة مثمرة ترعاها عناية الله تحقق أهدافها التي قامت من أجلها كاملة ويكون ثمرها مذاقًا لكل قارئ وراء أو سامع وفقدان أي من هذه المواصفات الثلاث يعني أننا لم نصل بعد إلى

الكلمة الطيبة التي نريد[1].

وعلينا أن نعي أننا لم نصل إلى مستوى الإعلام الإسلامي المطلوب أو بتعبير آخر لم نصل إلى مستوى الكلمة الطيبة إلا بعد أن نصل إلى مستوى التفكير الطيب الذي نتحرر فيه من كل تبعية إلا لدين الله عز وجل فإذا وصلنا إلى تحرير أفكارنا فسوف تحرر كلماتنا.

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، أ/ منير الغضبان (٢/ ٣٦٨، ٣٧٠) باختصار وتصرف يسير، ط/ مكتبة المنار، الأردن.

الفصل الثالث
الحرب النفسية وسائلها وأهدافها لدى أعداء الإسلام

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: وسائل أعداء الإسلام في حربهم النفسية ضد المسلمين ورد القرآن عليها.

وهذه الوسائل هي:

أولاً: الدعاية ورد القرآن عليها.

ثانيًا: السخرية والاستهزاء ورد القرآن عليها.

ثالثًا: الإغراء ورد القرآن عليها.

رابعًا: التحدي والتعجيز ورد القرآن عليها.

خامسًا: الخداع والتمويه ورد القرآن عليها.

سادسًا: إثارة الرعب ورد القرآن عليها.

سابعًا: النفي والإبعاد ورد القرآن عليها.

ثامنًا: تحطيم المعنويات ورد القرآن عليها.

تاسعًا: الجدل ورد القرآن عليها.

عاشرًا: المقاطعة الاقتصادية ورد القرآن عليها.

الحادي عشر: الإشاعة ورد القرآن عليها.

المبحث الثاني: أهداف الأعداء من الحرب النفسية ويشتمل على:

أولاً: تفتيت وحدة الأمة.

ثانيًا: التشكيك في القيادة.

ثالثًا: التشكيك في المنهج.

رابعًا: إضعاف الروح المعنوية.

خامسًا: تدمير أخلاق المسلمين.

المبحث الأول
وسائل أعداء الإسلام في حربهم النفسية ضد المسلمين ورد القرآن عليها

مقدمة:

هذا هو الفصل الثالث من فصول بحثي الذي هو بعنوان:

الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن

وهذا الفصل خصصته لذكر وسائل الأعداء في حربهم النفسية ضد المسلمين وكيف رد القرآن الكريم عليها.

وقد آثرت أن أفراد منهج القرآن في الرد بالذكر بعد كل وسيلة محاولة مني لإبراز أن القرآن الكريم لم يكن يعالج حالات خاصة وإنما كان يؤصل العلاج في الظواهر ككل ليستفيد من العلاج كل من واجه ويواجه ظواهر مماثلة تأكيدًا على أن القرآن هو المنهج الشامل والكامل لكل مظاهر الحياة في كل زمان ومكان.

كما ذكرت في هذا الفصل أهداف الأعداء التي كانت وراء حربهم النفسية التي خاضوها ضد المسلمين حتى يتضح للمسلمين سوء خبايا أعداءهم وخبث ما طويت عليه نفوسهم من حقد وحنق وكره للمسلمين.

وقبل أن أذكر وسائل الأعداء سأعرف أولاً الوسيلة وهي: الأداة التي تحمل رسالة إلى المتلقى[1].

---

(١) الإعلام في ضوء الإسلام، د/ محمد عمارة (ص٢٠٠).

أولاً: الدعاية:

والدعاية وسيلة من وسائل الحرب النفسية والتي استخدمت كثيرًا من أعداء المسلمين ضد المسلمين بهدف النيل من ثقتهم ودينهم ولكن ما هي الدعاية؟

الدعاية هي: ورد في لسان العرب مادة «دعوة» أن الدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلال واحدهم داع ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين.

والنبي ﷺ داعي الله، وكذا المؤذن[(١)].

وورد في المعجم الوسيط في مادة دعو أن الدعاية هي الدعوة إلى مذهب معين أو رأي بالكتابة أو بالخطابة ونحوهما والداعية هو الذي يدعو إلى دين أو فكرة[(٢)].

وقد عرفت الدعاية السيئة:

هي محاولة التأثير في الأفراد والجماعات والسيطرة على سلوكهم لأغراض مشكوك فيها وذلك في مجتمع معين وزمان معين لهدف معين[(٣)].

ومن التعاريف السابقة نستخلص في معنى الدعاية التي روجها أعداء الإسلام ضد الإسلام أنها:

محاولة التأثير في الأفراد والجماعات بهدف التشويش على الإسلام والمسلمين وإلصاق التهم والافتراءات الباطلة بالنبي ﷺ والقرآن الكريم والمؤمنين.

والقرآن الكريم ذكر كثيرًا من الآيات التي تحكي دعايات أعداء الإسلام من المشركين واليهود والمنافقين فضحًا لشأنهم وبيان بطلان فكرهم.

ولقد استخدم المشركون الدعاية كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد الإسلام والمسلمين فقد حاكوا له الكثير والكثير من المكائد لصد الناس عنه وما هي إلا مكائد

---

(١) لسان العرب، لابن منظور (١٨/ ٢٨٤).

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (ص٢٨٦)، طبعة دار الدعوة، استانبول، تركيا.

(٣) الأعلام والدعاية، عبد اللطيف حمزة (ص٩١)، ط/ دار الفكر العربي.

خبيثة ماكرة لا تصمد أمام قوة الحق الذي يصد عنه خالق القوى الله رب العالمين.

ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك والتي يخبر الله تعالى فيها عن افتراء الكافرين ودعوتهم المؤمنين إلى دينهم وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم(١).

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا ﴾ أي ديننا، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ جزم ولنحمل على الأمر.

وقال الفراء والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم(٢).

﴿ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ فهذا نفي مؤكد عن سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئًا من خطاياهم التي التزموا حملها(٣).

﴿ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أي فيما قالوا من حمل خطاياهم، والقائلون لهذه المقولة هم:

قال مجاهد: هذا من قول كفار مكة لمن آمن منهم.

وقال الكلبي ومقاتل: قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش: اتبعوا سبيلنا ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم(٤).

وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على هذه الدعوة الباطلة بكذب أهلها وافترائهم لهذه الدعوة ويرد كيدهم في نحورهم ويفوت عليهم هذه الفرصة لاستغلال وسيلة الدعاية

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (٤/ ٥٣) بتصرف، ط/ دار الأوس.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي (٨/ ٥٠٤٨)، بتصرف، ط/ دار الريان.

(٣) روح المعاني للألوسي الجزء العشرون (١١/ ٢٠٩)، ط/ دار الفكر.

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٤٦٢، ٤٦٣) بتصرف، ط/ دار المعرفة.

في الحرب النفسية.

وقد شهدت السيرة النبوية حرب الدعاية ضد الرسول ﷺ ودينه من جبهات مختلفة ولقد وقع اتفاق بين كبراء قريش على استخدام حرب الدعاية ضد محمد ﷺ والحق الذي جاء به لحماية أنفسهم وأوضاعهم بين الجماهير في مكة وبصد القبائل التي كانت تفد إلى مكة في موسم الحج عن الدين الجديد وصاحبه ﷺ.

قال ابن إسحاق: إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا شأن فيهم وقال لهم أنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقل به قال: بل أنتم فقولوا أسمع قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: وما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[(١)] وإن فرعه لجناة[(٢)] وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف إنه باطل وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: هو ساحر جاء بقول سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بين الناس -حين قدموا الموسم- لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره[(٣)].

---

(١) العذق الكثير الشعب والأطراف، تفسير الظلال (٥/ ٣٠٠٩).

(٢) الجناة: فيه ثمر يجني، المرجع نفسه وانظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩١).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩١) باختصار وتصرف.

وهذا النص الذي أوردته كتب السيرة يوحي بعدة معان منها:

١- إمعان أعداء الإسلام في بث الدعايات الباطلة ضد الرسول ﷺ.

٢- وحدة رأيهم وكلمتهم في عداء الرسول على اختلافها في غير ذلك.

٣- أن مروجي الدعايات الباطلة لا ينسون حبكها حتى يقبلها عقل من تروج عنده.

٤- أن القوم على الرغم مما كان فيهم من خصال سيئة كانوا على درجة كبيرة من احترام كلمة الكبير فيهم.

ولم يكن اليهود في استخدامهم لهذه الوسيلة بأقل خطرًا من المشركين.

والقرآن الكريم ذكر كثيرًا من الآيات التي تحكي دعايات أعداء الإسلام من أهل الكتاب.

ومن هذه الدعايات الباطلة أن اليهود والنصارى أشاعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه فهم المقربون إليه المحبون لديه وفي ذلك تعريض بغيرهم ولقد حكى القرآن الكريم هذه الدعاية ورد عليها كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾ حكاية لما صدر من الفريقين من الدعوة الباطلة لأنفسهم وبيان لبطلانها(١).

﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾ أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير حيث قالوا: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا: ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ وقيل هو على حذف مضاف أي نحن أتباع أبناء الله، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوة الباطلة والأماني العاطلة فأمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما جاء في

---

(١) روح المعاني للعلامة الألوسي الجزء السادس (٤/ ١٤٨).

الآية الكريمة ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ أي إن كنتم كما تزعمون فما باله يعذبكم بما تقترفون من الذنوب بالقتل وبالمسخ وبالنار في يوم القيامة كما تعترفون بذلك لقولكم ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾.

فإن الابن من جنس أبيه لا يصدر منه ما يستحيل على الأب وأنتم تذنبون، والحبيب لا يعذب حبيبه وأنتم تعذبون، فهذا يدل على أنكم كاذبون في هذه الدعوة[١].

﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي كسائر خلقه يحاسبكم على الطاعة والمعصية ويجازي كلاً بما عمل ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ لمن تاب من اليهود، ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ من مات عليها.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فلا شريك له يعارضه ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي يئول أمر العباد إليه في الآخرة[٢].

وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم على الدعوة الباطلة حتى لا يقوم لها قيام بعد هذا البرهان الدامغ الذي فندها وردها وأبطلها حتى لا يغتر أحد بعدها بما يروجه هؤلاء من ادعاءات مجد وفضل لأنفسهم.

ومن دعايات أهل الكتاب الباطلة ما حكاه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

قيل نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى، اجتمعوا في مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود، فكذب بعضهم بعضًا[٣].

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴾ أي يهوديًا ﴿ أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ وذلك أن

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٤/ ٢١١٨) باختصار وتصرف.
(٣) معالم التنزيل للبغوي (١/ ١٠٦)، وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص٣٧).

اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ولا دين إلا دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا ولا دين إلا دين النصرانية.

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ إشارة إلى الأماني المذكورة وهي أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم(١)، وأن يردوهم كفارًا(٢)، وأن لا يدخل الجنة غيرهم.

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة(٣) ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين في تلك الأماني المجردة والدعاوي الباطلة(٤).

وهكذا يفند القرآن الكريم دعاوي أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى وقولهم: إنهم هم المهتدون وحدهم وأن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم، ويقرر في ثنايا عرض هذه الدعوى العريضة حقيقة الأمر، ويقول كلمة الفصل في العمل والجزاء وقولتهم لا تستند إلى دليل، سوى الادعاء العريض، ومن ثم يلقن الله رسوله ﷺ أن يجيبهم بالتحدي وأن يطلبهم بالدليل بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٥).

وكذا من دعايات اليهود المضللة قول أحبار بعض اليهود للرسول ﷺ عندما رأى وفد نصارى نجران عند رسول الله ﷺ فقالوا: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم، حتى تأثر بذلك بعض رجال الوفد النصاري فقالوا للرسول ﷺ: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال لهم عليه الصلاة والسلام ردًا عليهم:

---

(١) وهي ما ورد في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

(٢) وهي ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩].

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٨٢).

(٤) فتح القدير للشوكاني (١/ ١٩٤).

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/ ١٠٣) باختصار وتصرف.

«ما بذلك بعثني الله ولا أمرني»[١].

ومن مواقفهم الدعائية ضد من يتبعون الرسول ﷺ منهم[٢] قولهم: ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره[٣].

محاولين بذلك إلقاء الشك في قلوب الذين آمنوا منهم لعلهم يرتدون عن الإسلام بالإضافة إلى صد من لم يسلم بعد من اليهود الذي يوجد في قلوبهم ميلاً إلى الإسلام، وذلك إذا رأوا أن الذين أسلموا قد أصبحوا في مجتمع يهود مسلطة عليهم الألسنة الحداد من أحبار يهود، وأنهم متهمون بأنهم أشرار[٤].

ومن الدعايات التي حكاها القرآن الكريم عن المنافقين وكيف استخدموها في الحرب النفسية لصد الناس عن الرسول ﷺ وعن الطريق المستقيم ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣].

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أي لا وجه لإقامتكم مع محمد كما يقال لا إقامة على الذل والهوان أي لا وجه لها.

ويثرب اسم للبقعة التي هي المدينة[٥] والطائفة تطلق على الواحد فما فوقه وعني به هنا أوس بن قيظي ﴿ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ ﴾ أي عن محمد واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان، أو فارجعوا إلى منازلكم، أمروهم بالهروب من معسكر النبي ﷺ قال ابن

---

(١) الحرب النفسية في صدر الإسلام مرجع سابق (ص٤١٩)، نقلاً عن السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٨٠).

(٢) أي من اليهود.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٩٧).

(٤) عبد الرحمن الميداني، مكايد اليهود (ص٨٦)، ط/ دار القلم، دمشق، ١٣٩٨هـ.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي (١٢/ ٥٨٠)، ط/ دار الغد.

عباس قالت: اليهود لعبد الله بن سلول: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه ﷺ وتعللوا بأن ﴿ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه(١).

ثم بين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف(٢).

يقول أ/ سيد قطب معلقًا على هذه الآية: «والمنافقون والمرجفون قائمون في كل جماعة وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مر الزمان».

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا لا موضع لها ولا محل وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم ... وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها ثغرة الخوف على النساء والذراري والخطر محدق والهول جامع والظنون لا تثبت ولا تستقر(٣).

وهكذا دائمًا ينتهي كيد المنافقين بالفشل فقد فضح الله سبحانه وتعالى ادعاءاتهم وأبطلها وبين أن سببها الخوف والجبن والخور الداخلي وما دعواهم إلا حجة باطلة ما لبثت حتى بدا بطلانها.

وهكذا نرى أن وسيلة الدعاية استخدمت كوسيلة من وسائل الحرب النفسية من قبل أعداء الإسلام ضد الرسول ﷺ وضد دعوته وصحابته عليهم رضوان الله في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن العظيم (٨/ ٥٢٢٩، ٥٢٣٠) باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١٢/ ٥٨١).

(٣) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٥/ ٢٨٣٨) ط/ دار الشروق.

العهدين المكي والمدني ولكن استخدامها في العهد المكي أظهر، فإن الأعداء لم يكتفوا بالمجهودات الفردية الضالة في بث الدعايات الزائفة والتشويش والتدجيل وإنما استخدمت الدعاية في حملات كبيرة ومنظمة نظرًا لتعدد الأعداء وشراستهم وخلو أدمغتهم من نور الحق وامتلائها بظلام الباطل فنفوسهم مليئة بالحقد والحسد والبغضاء حين كانوا يعقدون الاجتماعات لتنظيم حملات الدعاية الباطلة ضد الإسلام ورسول الإسلام ﷺ وصحبه ساعين إلى نفث سمومهم من خلال التشويش والزيف والكذب والتضليل واختلاق الأباطيل فاستخدمت الدعاية كوسيلة من أهم وسائل الحرب النفسية من قبل أعداء الإسلام سواء كانت من قبل الكفار أو أهل الكتاب أو من قبل المنافقين(١).

وما زال أعداء الإسلام يستخدمون هذه الوسيلة ضد الإسلام والمسلمين لتشويه صورة الإسلام والمسلمين وبث الدعاية الباطلة عنهم لدى رعاياهم بل ولدى المسلمين الذين لا يعرفون عن أمر دينهم شيء فيغتروا بهذه الدعايات ومن هذه الدعايات: ما قيل عن رجال الكنيسة الذين دعوا للحروب الصليبية أنهم مهدوا لها بدعايات واسعة كلها في الطعن على الإسلام وتشويه سيرة المسلمين مما دفع رعاياهم إلى الزحف في هذه الحروب وارتكاب أبشع المجازر في حق المسلمين.

فلقد خطب أربان الثاني بابا روما بمناسبة انتهاء مجمع كلير مون في نوفمبر ١٠٩٥ داعيًا فرسان أوروبا إلى حملة صليبية لإنقاذ فلسطين من أيدي المسلمين(٢).

ومن دعايات العصر الحديث أيضًا ما روجه الحاخام عوفاديا عندما جلس بالمعبد اليهودي بالقدس مخاطبًا أتباعه قائلاً: «إن أبناء إسماعيل كلهم أشرار وإن الله يندم لأنه خلق أبناء إسماعيل وإن الله يقول في كل يوم يا ليتني لم أخلقهم وهو يعني العرب الذين

---

(١) الرسول والحرب النفسية لمنصور عويس (ص١٧)، طبعة مكتبة النجاح، ليبيا، ١٩٧٥م.
(٢) مجلة الوعي الإسلامي، عدد (٣٩٧) (ص٥١)، الكويت بتاريخ ديسمبر ١٩٩٨م.

جاءوا من نسل إسماعيل عليه السلام والسيدة هاجر المصرية، وقد وصف العرب بأنهم أفاعي»[1].

هذا مما لا شك فيه أنه لا سبيل للقضاء على هذه الدعايات إلا بالتمسك بكتاب الله وتصحيح هذه الدعايات الباطلة فلن يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله.

وهكذا كان منهج القرآن الكريم في الرد على وسيلة الدعاية التي استخدمها الأعداء أن افتضحت آيات القرآن الكريم دعايات أعداء الإسلام الباطلة وبينت بطلانها وردت عليها وبينت وجه الصواب فيها فأصبحت هذه الدعايات لا أثر لها على نفوس المسلمين.

---

(١) انظر جريدة صوت الأزهر عدد الجمعة ١١ جمادي الأول ١٤٢١هـ، ١١ أغسطس ٢٠٠٠م، عدد (٤٦) الصفحة الأولى.

ثانيًا: السخرية والاستهزاء:

وسيلة أخرى من وسائل الحرب النفسية استخدمت كثيرًا من قبل أعداء الإسلام ضد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، بل وضد كثير من الأنبياء الذين سبقوا سيدنا محمد ﷺ، كما ذكرت ذلك في الفصل الأول.

وهذه الوسيلة لها أثرها الخطير في النفس البشرية وإن كان هذا الأثر يتفاوت من إنسان لآخر حسب درجته الانفعالية تجاه استثارة السخرية والاستهزاء له.

ولفظ السخرية والاستهزاء ومثاله الهمز واللمز والتهكم.

والسخرية والاستهزاء: يتأتيان من انفعال عدواني بين خصمين الأقوى والمتسلط منهما هو الذي يستهزئ بالآخر، بغرض إضعاف روحه المعنوية وحمله على التراجع عن موقفه في الوقت الذي تقوى فيه الروح المعنوية لممارسيه[(١)].

يقال هزأ به ومنه هزءًا وهزءًا سخر به أو منه[(٢)].

فالمستهزئ يسخر من خصمه ليكسر ثباته على موقفه ويضعف أو يقتل روحه المعنوية حتى يسوقه إلى ما يريد وهنا تأتي ثمار هذا النوع من أنواع الحرب النفسية.

هذا وقد تعرض الرسول ﷺ للسخرية والاستهزاء من أقرب أقربائه وهم بنو هاشم وعمه أبو لهب، عندما كان يدعوهم إلى الإسلام فانطلقوا في الضحك والسخرية والاستهزاء بعباراته ورد عليه أبو لهب ساخرًا: تبًا لك يا محمد ألهذا جمعتنا، وكانت تشاركه زوجته في السخرية والاستهزاء بالرسول ﷺ[(٣)]، فنزلت سورة من القرآن كاملة

---

(١) أسلوب السخرية في القرآن، لعبد الحليم حفني، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨م، (ص٢٠).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة هزأ.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٣٨، ٤٥) وما بعدها، ط/ مكتبة المعارف، بيروت، وانظر: الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٢٢) باختصار وتصرف، وانظر: كنوز القرآن وبيان الفرقان، لعبد العزيز الشناوي (ص٥٣٠)، ط/ مكتبة الإيمان، المنصورة.

ترد رميته إلى نحره ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد: ١-٥].

يقول أ/ سيد قطب في تقديمه لهذه السورة:

ولقد مضى أبو لهب وزوجته أم جميل يثيران حربًا شعواء على النبي ﷺ وعلى الدعوة لا هوادة فيها ولا هدنة وكان بيت أبي لهب قريب من بيت رسول الله ﷺ فكان الأذى أشد وقد روى أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي ﷺ فنزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته وتولى الله سبحانه عن رسول الله ﷺ أمر المعركة(١).

﴿ تَبَّتْ ﴾ أي أهلكت، أو خسرت فالتباب خسران يؤدي إلى الهلاك ﴿ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ يدا تثنيه يد وأبو لهب كنيته واسمه عبد العزى ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي وهلك فهو إخبار بعد إخبار وعبر بالماضي لتحقيق الوقوع(٢).

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ ﴾ أي لم يغن عنه ماله حين حل به التباب، ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي وما أغنى عنه كسبه(٣) وقيل: وما أغنى عنه ولده لأن ولد الإنسان من كسبه(٤) كما جاء في حديث: «أطيب ما يأكل أحدكم من كسبه وإن ولده من كسبه»(٥).

---

(١) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٦/ ٣٩٩٩، ٤٠٠٠) باختصار وتصرف، ط/ دار الشروق.

(٢) تنوير الأذهان للشيخ إسماعيل حقي البروسوي، اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني (٤/ ٦٠٩) باختصار، ط/ دار العلم.

(٣) روح المعاني للعلامة الألوسي، الجزء الثلاثون (١٦/ ٤٧٠) باختصار وتصرف، ط/ المكتبة التجارية.

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٥٤٣) ط/ دار المعرفة.

(٥) رواه الإمام النسائي في كتاب البيوع، باب الحث على الكسب (٧/ ٢١٢)، ط/ مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٣هـ.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ توعده بنار تلتهب عليه ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ ﴾ أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان(١) ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ نصب على الشتم والذم وقيل على الحيالة(٢).

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ في عنقها وجمعه أجياد، ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ قيل سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعًا تدخل في فيها وتخرج من دبرها، وقيل: من مسد أي من ليف، وقيل: من شجر نبت في اليمن يقال له مسد(٣).

وهكذا يوحي إلينا سبب نزول هذه السورة الكريمة بضخامة الضغوط والحروب النفسية التي عانى منها الرسول ﷺ وخاصة النوع الذي نتحدث بصدده وهو السخرية والاستهزاء حتى من أقرب الأقربين إليه.

وكيف أن الله سبحانه وتعالى يتولى الدفاع عن هذه الدعوة وعن صاحبها ﷺ مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] هذا ويروي أن أبا لهب مات شر موتة حيث أصيب بمرض العدسة حتى أنهم لم يقدروا على تغسيله فصبوا عليه الماء من بعيد من شدة الرائحة الكريهة التي تفوح منه(٤).

ومن الآيات التي تحدثت عن استخدام أعداء الإسلام لوسيلة الاستهزاء والسخرية كوسيلة من وسائل الحرب النفسية قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾ أي أشركوا وهم: كفار قريش وخاصة صناديدهم أبي جهل

(١) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٥٤٣)، ط/ دار المعرفة.

(٢) روح المعاني للعلامة الألوسي (١٦/ ٤٧٢) باختصار وتصرف، ط/ المكتبة التجارية.

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٥٤٣، ٥٤٤) باختصار وتصرف.

(٤) هذا الحبيب يا محب، لأبي بكر الجزائري (ص١١٤)، باختصار وتصرف، ط/ مكتبة السواري للتوزيع.

والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مترفي مكة[(١)] وعبر بالموصول وهذه الصلة ﴿ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾ للتنبيه على أن ما أخبر به عنهم هو إجرام[(٢)] وتقديم الجار والمجرور ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إما للقصر إشعارًا بغاية شناعة ما فعلوه أي كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك، أو لمراعاة الفواصل[(٣)]، ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ عبر بالمضارع للدلالة على تكرار ذلك منهم وأنه ديدنهم[(٤)].

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يتفاعلون من الغمز وهو الإشارة بالجفن والحاجب ويكون الغمز بمعنى العيب، وقيل يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به، والمعنى أنهم يشيرون إليه بالأعين استهزاء ويعيبونهم، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذتها ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه[(٥)].

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ فإذا عادوا إلى أهلهم عادوا متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين وكأنهم يعدون صنيعهم ذلك من أحسن ما اكتسبوه في غيبتهم عن أهلهم، أو إلى أن له وقعًا في قلوبهم ولم يفعلوه مراعاة لأحد وإنما فعلوه لحظ أنفسهم[(٦)].

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ ومرادهم بالضلال: فساد الرأي، لأن المشركين لا يعرفون الضلال الشرعي، أي هؤلاء سيئوا الرأي إذ اتبعوا الإسلام وانسلخوا عن قومهم وفرطوا في نعيم الحياة طمعًا في نعيم بعد الموت[(٧)].

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٤٦٢).
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/ ٢١٠) الجزء الثلاثون بتصرف.
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٥/ ٨٤٩).
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء الثلاثون (١٥/ ٢١٠).
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/ ٧٠٥٨)، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٦/ ٢٨٩) باختصار وتصرف.
(٦) روح المعاني للألوسي الجزء الثلاثون (١٦/ ١٣٦).
(٧) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الثلاثون (١٥/ ٢١٣).

والمشاهد التي يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا، وسوء أدبهم معهم وتطاولهم عليهم ووصفهم بأنهم ضالون مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة، ولكنها متكررة في أجيال وفي مواطن شتى، وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها، مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور[(١)].

ومن الآيات التي تحدثنا عن استخدام اليهود لوسيلة السخرية والاستهزاء بشعائر الإسلام كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ما حكاه قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨].

يقول البغوي عند تفسيره لهذه الآية: قال الكلبي: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا، على طريق الاستهزاء، وضحكوا فنزلت الآية[(٢)].

والهزو: السخرية والاستهزاء[(٣)] ولقد رد القرآن عليهم وبين علة استهزائهم فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ أي أنهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح[(٤)].

وقيل إن السفه يؤدي إلى الجهل بمحاسن الحق والهزء به، ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترءوا على تلك العظيمة[(٥)].

فالآية الكريمة توضح مدى ما وصل إليه اليهود من استخدامهم للسخرية والاستهزاء حتى بشعائر الدين الإسلامي.

واليهود حديثًا لم يكفوا عن استخدام السخرية والاستهزاء ضد الإسلام ورسوله

---

(١) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٦/ ٣٨٦٠) باختصار وتصرف.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٤٨) ط/ دار المعرفة.

(٣) تنوير الأذهان للبروسوي، تحقيق محمد علي الصابوني (١/ ٤٣٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٢٢٣٠).

(٥) روح المعاني للألوسي الجزء السادس (٤/ ٢٥٢) باختصار وتصرف.

وشعائره وأتباعه وهذا ما يؤكده ما يلي:

أولاً: نشرت صحيفة الأسبوع المصرية أن فتاة يهودية تصاحبها مجموعة من جنود الاحتلال الإسرائيلي قامت بوضع ملصق على الحوائط وأبواب المحلات في فلسطين بصور الرسول ﷺ على هيئة خنزير كتب عليها اسم محمد بالعربية والإنجليزية، ويضع الخنزير إحدى رجليه الأماميتين على كتاب مفتوح ويمسك بالرجل الأخرى قلمًا يكتب به كلمة القرآن على الكتاب، وفي نفس الصفحة جاء أن شركة لإنتاج الأحذية في الولايات المتحدة الأمريكية طرحت إنتاجًا جديدًا في الأسواق يحمل رسمًا يطابق للفظ الجلالة «الله» باللغة العربية، مما أحدث أزمة بين الشركة والمسلمين هناك(١).

ثانيًا: وفي قبرص والصين وضع اليهود الملاحدة عليهم اللعنة اسم الجلالة على نعال الأحذية ويطلقون في جلاسكو في بريطانيا على بيوت الدعارة مكة.

وفي محلات مارك سبنسر بلندن كانت تعرض ملابس داخلية مطبوع عليها لا إله إلا الله وعلى موضع السوأة بالذات(٢).

ومن الآيات التي دلت على استخدام المنافقين لوسيلة الاستهزاء والسخرية ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

أي لئن سألتهم عما قالوه من الطعن في الدين وسب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ويطلعك الله عليه ليقولون إنما كنا نخوض ونلعب.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بأن يجيبهم بقوله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم، لأنهم كانوا

---

(١) انظر: صحيفة الأسبوع العدد العشرون، بتاريخ ١٠/ ٦/ ١٩٩٧م.

(٢) مجلة الوعي الإسلامي، عدد (٣٦)، شوال ١٩٩٦م، (ص٨٥).

كاذبين في الإنكار بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم[١].

فالآية الكريمة فضحت أمر المنافقين وبينت أنهم جمعوا بين رذيلتين: الأولى: الاستهزاء والسخرية بالله وآياته.

والثانية: الكذب والإنكار لفعلتهم الشنيعة من الاستهزاء بدين الله.

وهكذا يتبين لنا كيف تفنن أعداء الإسلام في استخدام وسيلة السخرية والاستهزاء كوسيلة من وسائل الحرب النفسية وكان غرضهم النيل من الروح المعنوية للرسول والمسلمين ولكن هيهات أن يتسنى لهم ذلك وهم يوجهونه لقوم تعلقت قلوبهم بالله وتمسكوا بكتابه وصبروا واحتسبوا ابتغاء لوجهه فكانت هذه أسباب جعلت كل محاولات أعداء الإسلام تبوء بالفشل الذريع.

يقول الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة:

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ونيلهم منهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعي الله وظنوا أن وسائل السخرية والتهكم التي جنحوا إليها ستهدم قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم غير أن ظنونهم سقطت جميعًا فإن أحدًا من المسلمين لم يرتد عن الحق الذي شرفه الله به، بل كان المسلمون يتزايدون ولم تفلح طرق الاستهزاء في الصد عن سبيل الله أو تشويه معالمها[٢]، إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرات ومخاز تستحق الفضيحة والاستئصال[٣].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٩٦) باختصار.

(٢) أي معالم التشريع الإسلامي.

(٣) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي (ص١١٤)، ط/ دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، بتصرف.

منهج القرآن في الرد على وسيلة السخرية والاستهزاء:

لقد كانت السخرية والاستهزاء أحد وسائل أعداء الإسلام في الحرب النفسية والذي من شأنها أن تنال من الروح المعنوية وتضعفها وتهزها ولكن استقبال الفئة المؤمنة لهذه الوسيلة كان على العكس من ذلك فقد قابلوها بالصبر والثبات والاحتساب لوجه الله سبحانه وتعالى، وكان القرآن الكريم يقف بجانبهم يقويهم ويثبتهم ويتعهد بالرد عنهم ويتوعد أعداءهم مما كان له أكبر الأثر في رفع معنويات المسلمين وتثبيط آمال أعدائهم في النيل منهم ولقد قاد القرآن الكريم حملة شديدة على أعداء الإسلام في مواجهة هذه الوسيلة تمثلت فيما يلي:

أولاً: أفرد القرآن الكريم سورة من سوره تتوعد المستهزئين.

ثانيًا: ذكر الله سبحانه لنبيه ﷺ أن استهزاء الأقوام من أنبيائهم سنة من سنن الله في خلقه.

ثالثًا: أمر الله سبحانه نبيه بعدم الاكتراث بالمستهزئين.

رابعًا: عامل الله سبحانه المستهزئين بالمثل.

خامسًا: نهى الله سبحانه المؤمنين عن اتخاذ المستهزئين أولياء.

أولاً: أفرد القرآن الكريم سورة من سوره تتوعد المستهزئين:

فلقد أفرد الله عز وجل سورة من سور القرآن تتحدث عن الاستهزاء وتتوعد المستهزئين وتهددهم، قال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ [الهمزة: ١-٩].

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ الهمزة: الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ واللمزة: الذي يومض بعينيه ويشير برأسه ووصفه ﴿ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ أي ادخره وجعله عتادًا

له ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ في الدنيا يظن أنه لا يموت مع يساره ﴿ كَلَّا ﴾ رد عليه أن لا يخلده ماله ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ ﴾ ليطرحن ﴿ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴾ في جهنم ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مطبقة مغلقة، ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمها وحرها فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم ريح(١).

فالسورة الكريمة تبين مدى فظاعة العذاب الذي ينتظر المستهزئين وفي هذا تخويف لهم وتطمين للمؤمنين الذين هم محط استهزاء أعدائهم.

ثانيًا: ذكر الله سبحانه لنبيه أن استهزاء الأقوام من أنبيائهم سنة من سنن الله في خلقه:

فلقد ذكر الله سبحانه لنبيه الكريم أن الاستهزاء قد مورس مع الأنبياء من أقوامهم فانتقم الله من المستهزئين منهم وفي ذلك وعدًا ضمنيًا للانتقام من المستهزئين من النبي ﷺ كما أن فيه تثبيت وتسلية وتطمين لقلب النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ كما استهزئ بك يا محمد ﴿ فَحَاقَ ﴾ قال الربيع بن أنس: تنزل وقال عطاء: حل، وقال الضحاك: أحاط ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة(٢)، أي وسنفعل بمن استهزءوا منك مثل ما فعلنا مع من استهزءوا بالرسل من قبلك فهي سنة الله في أنبيائه وسنن الله لا تتبدل ولا تتغير.

(١) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٥٢٣، ٥٢٤) باختصار.
(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٨٦).

ثالثًا: أمر الله سبحانه نبيه بعدم الاكتراث بالمستهزئين:

فلقد نزل القرآن الكريم يأمر النبي ﷺ إلى المضي في دعوته ولا يلتفت لاستهزاء أعدائه ووعده بأن الله سيكفيه إياهم وينتقم منهم ويدير الدائرة عليهم، قال تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

يقول العلامة الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ اظهر ما تؤمر به، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي لا تبالي بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة.

ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله ﷺ بقوله ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ مع كونهم كانوا من أكابر الكفار وأهل الشوكة فيهم فإذا أكفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى[(1)].

ولقد ذكر الإمام القرطبي أسماء هؤلاء المستهزئين فقال وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة وهم: الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة، أهلكهم الله جميعًا يوم بدر وقيل يوم أحد لاستهزائهم بالنبي ﷺ[(2)].

هذا والآية وإن كانت تسرية وتطمينًا لقلب النبي ﷺ فهي تسرية وتطمين للسائرين على طريق الحق في كل زمان ومكان.

رابعًا: عامل الله سبحانه وتعالى المستهزئين بالمثل:

كذلك كان ضمن حملة القرآن لمواجهة أسلوب الاستهزاء أن عاملهم بالمثل:

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ١٤٦) باختصار.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٦/ ٣٦٧٨).

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ بمحمد وأصحابه بما نظهر من الإسلام[(١)].

وهو تأكيد لما قبله لأن المستهزئ بالشيء مستخف به مصر على خلافه، أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما قالوا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك[(٢)].

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ يجازيهم على استهزائهم سمي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء، أو الغرض منه أن يعاملهم معاملة المستهزئ، أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم، واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة فبأن يفتح لهم وهم في النار بابًا إلى الجنة فيسارعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب.

وإنما استؤنف به ولم يعطف في قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأن استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعل الله بهم ولعله لم يقل: الله مستهزئ بهم ليطابق قولهم، إيماء بأن الاستهزاء يحدث حالاً فحالاً ويتجدد حينًا بعد حين[(٣)].

وما أبأس من يستهزئ به جبار السموات والأرض وما أشقاه وإن الخيال ليمتد إلى خيال مفزع رعيب وإلى مصير تقشعر من هوله القلوب وهو يقرأ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فيدعهم يتخبطون في طريق لا يعرفون غايته ويد الجبار تتلقفهم في نهايته كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ غافلة عن القبض المكين وهذا هو

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٥١).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٢٨).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٢٩).

الاستهزاء الرعيب لا كاستهزائهم الهزيل الصغير [١].

والقرآن الكريم قطع على الأعداء سخريتهم فشلها وأبطل مفعولها بما صبه عليهم من سخرية، وما رصد لكل سخرية معادية من سخرية جارفة لا تبقى أمامها السخرية المضادة ولا أصحابها، فكان القرآن لهم بالمرصاد يرد كل سهم يطلقونه إلى نحورهم ويرد على كل سخرية لهم بسخرية أشد وأنكى [٢].

خامسًا: نهى الله سبحانه المؤمنين عن اتخاذ المستهزئين أولياء:

كما أن القرآن الكريم ضمن حملته ضد الاستهزاء فنهى أتباعه أن يتخذوا المستهزئين أولياء بل الصحيح مقاطعتهم وعدم مصادقتهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

فالآية نهي صريح للموصوفين بالإيمان أن يوالوا الكفار وأهل الكتاب ممن اتخذوا الدين الإسلامي هزوًا ولعبًا كما أن الآية أمر بتقوى الله وطاعته فذلك شرط الإيمان.

يقول العلامة ابن عاشور مبينًا مكانة الدين لدى الإنسان ولماذا كان النهي عن اتخاذ هؤلاء أولياء فقال: «والدين هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة فهو عنوان عقل المتدين ورائد آماله وباعث أعماله فالذي يتخذ دين امرئ هزوًا فقد اتخذ ذلك المتدين هزوا ورمقه بعين الاحتقار إذ عد أعظم شيء عنده سخرية فما دون ذلك أولى، والذي يرمق بهذا الاعتبار ليس جديرًا بالموالاة لأن شرط الموالاة التماثل في التفكير ولأن الاستهزاء والاستخفاف احتقار والمودة تستدعي تعظيم المودود» [٣].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/ ٤٥).

(٢) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د/ عبد الحليم حفني (ص٦٦)، وانظر: الحرب النفسية في صدر الإسلام (ص٤٠٧) باختصار وتصرف.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء السادس (٤/ ٢٤١).

فالسخرية لا تمثل خلقًا أو نهجًا منفصلاً في الإسلام وإنما هي نمط يسير على وتيرة الإسلام في خلقه ومبادئه التي لا تختلف ولا تتباين في أي لون من ألوان السلوك أو التشريع في الإسلام فسخرية القرآن الكريم من حيث السمو الإنساني فيها نجد أنها تضرب المثل الأعلى للسخرية من العدو مهما تكن عداوته، فحين تنظر إلى الصور الواردة في القرآن الكريم في مواطن السخرية نجد أنها تستهدف قوة التصوير والتأثير من الناحية الفنية والأدبية بالإضافة إلى تحطيم الجانب الذي يقف عقبة أمام انتشار الإسلام(١).

وهذا السمو في أسلوب القرآن في السخرية جعل له أكبر الأثر في تحطيم الروح المعنوية لدى أعدائه بينما استخدم أعداء الإسلام لأسلوب السخرية لم يزد المؤمنين إلا ثباتًا وصبرًا واحتسابًا.

---

(١) السخرية في القرآن، د/ عبد الحليم حنفي (ص١٢٤) باختصار وتصرف.

ثالثًا: الإغراء:

الإغراء: وسيلة الإغراء أحد وسائل الحرب النفسية المؤثرة ولكن ما هو الإغراء؟

يقال: غر فلانًا غرًا وغرورًا أقنعه بالباطل، والغرور كل ما غر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو إنسان أو شيطان فجعله في غفلة وجرأة على ما لم ينبغ التجرؤ عليه ليعرضه للهلكة(١).

وقيل: هو التأثير بأي أسلوب أو أي وسيلة على الخصم بالتأثير على العواطف أو إثارة مشاعر الخوف(٢).

وقيل: هي كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة لما يعرضه الخصم من مبادئ والثبات عليها(٣).

وقيل: إن الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والثواب والعقاب وسيلة من وسائل الاستمالة وتغيير الاتجاه(٤).

هذا ولقد تنوعت الجهات التي استخدمت وسيلة الإغراء في القرآن الكريم، فلقد استخدمه الأنبياء عليهم السلام ترغيبًا لأقوامهم في الإيمان وترهيبهم من المعصية واستخدمه أعدائهم ضدهم إما إغراء بالمال أو السلطة أو الجاه أو تهديدًا من الاستمرار في أمر دعوتهم.

والذي يعنينا في هذا المقام ما تعرض له النبي ﷺ وأصحابه من إغراء أعدائهم.

وفيما يلي سنعرض لبعض الآيات التي تحدثت عن ذلك:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

---

(١) المعجم الوسيط، مادة غرر (ص٦٤٩).

(٢) الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، جيهان رشتى (ص٥٦)، ط/ دار الفكر ١٩٨٥م.

(٣) الحرب النفسية في صدر الإسلام، مرجع سابق (ص٥١٥).

(٤) الحرب النفسية، صلاح نصر (١/ ٤٢٩)، ط/ القاهرة للطباعة والنشر، ١٩٦٧م.

عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١].

يروى في سبب نزول هذه الآيات أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه ﷺ في زمان الموادعة التي كانت بينه ﷺ وبينهم وكان معهم عبد الله بن أُبيّ ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله ﷺ ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك، فشق ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين، وهموا بقتلهم فنزلت[1].

وذكر العلامة الألوسي سببًا آخر قال: نزلت في ناس من ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فطلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يمتعهم باللات والعزى سنة، قالوا: لتعلم قريش منزلتنا منك.

وذكر أيضًا: أن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم.

وخوفه اليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فنزلت[2].

وسبب النزول كما ذكره الألوسي يوحي لنا بأن أعداء الإسلام استخدموا وسيلة الإغراء بالترهيب والرغيب كوسيلة من وسائل الحرب النفسية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي دم على التقوى.

قال الضحاك: اتق الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينه[3].

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي المجاهرين بالكفر، ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ المضمرين لذلك فيما يريدون من الباطل[4] وهم أمثال عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد[5].

---

(١) أسباب النزول للعلامة الواحدي (ص٢٩٤).
(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء الحادي والعشرين (١٢/ ٢١٨)، ط/ دار الفكر.
(٣) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٥٠٥).
(٤) روح المعاني للعلامة الألوسي، الجزء الحادي والعشرون (١٢/ ٢١٨)، ط/ دار الفكر.
(٥) تفسير فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٥٣).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ مبالغًا في العلم والحكمة، فيعلم الأشياء من المصالح والمفاسد، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة، ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة.

فالجملة تعليل للأمر والنهي مؤكد لوجوب الامتثال بها[١].

والآية الكريمة اشتملت على توجيه النبي ﷺ إلى عدم طاعة الكافرين والمنافقين وعدم اتباع توجيههم واقتراحهم ولقد قدَّم هذا التوجيه على الأمر باتباع وحي الله وهذا يوحي بأن ضغط الكافرين والمنافقين في المدينة وما حولها في ذلك الوقت كان عنيفًا فاقتضى ذلك النهي عن اتباع آرائهم وتوجيهاتهم، والخضوع لدفعهم وضغطهم ثم يبقى ذلك النهي قائمًا في كل بيئة وكل زمان، يحذر المؤمنين أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقًا، وفي أمر العقيدة وأمر التشريع وأمر التنظيم الاجتماعي بصفة خاصة، ليبقى منهجهم خالصًا لله غير مشوب بتوجيه مَنْ سواه[٢].

هذا وقد ذكرت كتب السيرة الكثير من المواقف التي تجسد ما تعرض له الرسول ﷺ وصحابته الكرام من محاولات الإغراء سواء بالترغيب أو الترهيب وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مبالغة أعداء الإسلام في استخدام وسيلة الإغراء كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد الرسول ﷺ والمسلمين.

ومن أمثلة ما تعرض له الرسول ﷺ من إغراء بالترهيب والترغيب من قَبِل المشركين ما حدث.

إن سادة قريش ذهبوا إلى عمه أبا طالب فاستعملوا معه وسيلة الإغراء بالترغيب فقالوا له: «يا أبا طالب إن لك سِنًا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى

(١) روح المعاني للألوسي (١٢/ ٢١٨) ط/ دار الفكر.
(٢) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٥/ ٢٨٢٢) بتصرف.

تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين».

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن الرسول ﷺ أن عمه قد خذله وأنه ضعف عن نصرته، فقال: «**والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر -حتى يظهره الله أو أهلك فيه- ما تركته**» ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا(١).

ومن مواقف السيرة التي تجسد استخدام المشركين لوسيلة الإغراء بالترغيب: ما دار بين المشركين وعم النبي ﷺ أبا طالب عندما عرضوا عليه عمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفّه أحلامهم، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تساومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدًا(٢).

وقد استعمل المشركون وسيلة الإغراء بالترغيب مع شخص النبي ﷺ فتحكي كتب السيرة أنه بعد إسلام البطلين الجليلين حمزة بن عبد المطلب، وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بعثت قريش برؤسائهم إلى النبي ﷺ ليعرضوا عليه بعض المغريات لعله يرجع عن هذا الدين.

فلقد كان من ضمن ما قالوه للنبي ﷺ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك المال حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا

---

(١) الرحيق المختوم (ص١١٤)، السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٨٩) باختصار وتصرف.

تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

فماذا كان رد النبي ﷺ على هذه المغريات: قال لهم رسول الله ﷺ: «**ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**»[1].

ولما يئس المؤتمرون لما رأوه من صمود النبي ﷺ على المبدأ، ورفضه جميع ما عرضوه عليه من المغريات لأنها لا تنسجم مع مخططه المرسوم لإقامة الدولة الإسلامية قرروا الرجوع إلى شن الحرب النفسية، لعلهم يتوصلون بذلك إلى تحطيمه نفسيًا[2].

وهذه الأمثلة تؤكد أن:

١- تفنن أعداء الإسلام في استخدام الإغراء بالترهيب والترغيب ضد الرسول ﷺ

٢- أن من يعتنق الحق ويقتنع به لا يغريه وعد ولا يثنيه وعيد فالنتيجة في كلتا الحالتين واحدة.

٣- أن الله يجند لهذا الدين من يناصره حتى من الكفرة فأبو طالب فعل في نصرة الدين الإسلامي ما لم يفعله كثير من المسلمين الآن.

هذا وإن كانت هذه الآية مثلت مرحلة استخدام الكفار والمنافقين لحرب الإغراء.

فقد كان استخدام اليهود له أشد ضراوة؛ ذلك لما يحملونه في طيات صدورهم من حنق وكره للإسلام ورسوله وأتباعه.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٠٧) باختصار وتصرف.

(٢) قراءة سياسية للسيرة النبوية، أ. د/ محمد رواس قلعه جي (ص٥٢).

إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود، وأنا إن اتبعناك اتبعَنَا اليهودُ كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ(١).

فأمر الدين لا يقبل المساومة، والثبات على الحق واجب مهما كانت المغريات فنزل قول الله عز وجل: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٤٩].

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ من الكتاب والسنة أي احكم بذلك إن حكمت واخترت الحكم(٢).

وقيل أي وأنزلنا إليك أن احكم بينهم بما أنزل الله أي بحكم الله الذي أنزله في كتابه.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم بينهم حكم بينهم بالقسط المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ الذي مادته ما شرعه الله من الأحكام المشتملة على غاية العدل وما خالف ذلك فهو جور وظلم(٣).

﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ ﴾ أصل الفتنة، الاختبار ولكن معناه هنا يصدوك ويردوك، وقيل المراد بالفتنة، الميل عن الحق والوقوع في الباطل(٤).

وقيل في معنى: ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة(٥).

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص١٦٢)، وانظر في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٣).
(٢) الجامع لأحكم القرآن الكريم للقرطبي (٤/ ٢٢١٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١/ ٥٥٠).
(٤) تنوير الأذهان للبروسوي (١/ ٤٢٩)، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦/ ٤٥).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧)، ط/ دار الفكر.

وإياك والاغترار بهم وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك[١]، ولو كان بأقل القليل وهو تصوير الباطل حق[٢] فهي فتنة يجب أن تحذر[٣].

وهكذا يتبين لنا كيف استخدم اليهود وسيلة الإغراء كوسيلة من وسائل الحرب النفسية لقد عرضوا كما وضحت الآية عرضًا مغريًا جدًا على رسول الله ﷺ يؤمنون به ومن ورائهم معظم اليهود إنه عرض مغر ماكر خبيث، ولكن موقف الرسول ﷺ في الرد عليهم واضح، فرفض وأبى ألا يحكم بينهم إلا بالحق إذا تحاكموا إليه[٤].

ومن مواقف السيرة التي تجسد استخدام اليهود لوسيلة الإغراء مع النبي ﷺ أنهم حاولوا استمالة الرسول ﷺ واستدراجه إلى اليهودية واقتصار دعوته على المشركين، وأن يعتبرهم على الحق فلا يدعوهم إلى الإسلام ويتركهم وشأنهم يحرفون دين الله وينشرون الفساد[٥].

وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ رهط من اليهود فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من عند الله؟ قال: «**بلى، ولكنكم أخذتم وجحدتم ما فيها وكتمتم منها ما أُمرتم أن تبينوه للناس فبرأت من أحداثكم**»[٦].

ومن مواقف النصارى التي تجسد لنا استخدامهم لهذه الوسيلة وهي وسيلة الإغراء ما حدث في معركة مؤتة بين المسلمين والروم، حيث أخذ الناس بعد المعركة يفكرون في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١/ ٥٥١)، ط/ دار الأوس.

(٢) روح المعاني للألوسي (٤/ ٢٢٧).

(٣) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٢/ ٩٠٤) ط/ دار الشروق.

(٤) الحرب النفسية في العصر المدني (ص٥٢٣)، مرجع سابق.

(٥) المعوقات للدعوة الإسلامية، سميرة جمجوم (ص٢٢١)، دار المجتمع، جدة، ١٤٠٧هـ.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٤) باختصار وتصرف.

أمر هذا الدين الذي انتصر على قوة الروم العظيمة، وقد آمن لذلك ناس كثيرون مما أزعج القيادات الرومانية، فكان الترغيب والترهيب وسيلة الروم في مواجهتهم هذا الاتجاه، وقد أسلم فروة بن عمرو الجذامي مع من أسلم وكان قائدًا لإحدى الفرق الرومانية، فضاق الرومان بإسلامه واتهموه بالخيانة، وعرض عليه هرقل إغراءات واستمالات كثيرة في سبيل عودته إلى المسيحية كما وعده بالعفو عنه، ولكنه رفض كافة الإغراءات وأبي أن يرتد عن الإسلام(١).

ويؤخذ من هذا الموقف دروسًا عديدة منها:

١ - قوة الدين الإسلامي وما جعل الله فيه من تأثيرات تصل إلى القلوب الحية.

٢ - أن أعداء الإسلام دائمًا يقفون لمعتنقيه بالمرصاد.

٣- على من يعرف الحق ويعتنقه أن يتمسك به مهما كانت الإغراءات والتضحيات.

هذا وقد أشار القرآن إلى أثر مثل هذه الإغراءات على نفس رسول الله ﷺ وبين فضل الله عز وجل عليه حيث عصمه وثبته.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[الإسراء: ٧٣-٧٥].

فهذه الآيات تفيد أن الرسول ﷺ قد هم بملاينتهم والميل إليهم وهذا الهم كما يقول ابن عطية إنما كان خطرة مما لا يمكن دفعه ولذا قال: ﴿ كِدتَّ ﴾ وهي تعطي أنه لم يقع ركون ثم قال ﴿ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ .

وإذا كانت المقاربة التي تضمنها ﴿ كِدتَّ ﴾ قليلة خطرة لم تتأكد في النفس(٢) فإنما كان

---

(١) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، محمد فرج (ص٦٣٦) باختصار وتصرف.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٤٧٥).

ذلك خاطر قلب ولم يكن عزمًا وقد عفا الله عز وجل عن حديث النفس[١].

﴿ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أي صديقًا ووليًا وكنت لهم وليًا خرجت من ولايتي[٢].

وقيل: لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم[٣].

﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل لقرابة أن تميل إلى اتباع مرادهم شيئًا يسيرًا لقوة خداعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب إلى أدنى مراتب الركون إليهم مع قوة الداعي إليها[٤].

هذا: ووسيلة الإغراء لم يقتصر استخدامه تجاه الأنبياء فحسب وإنما مورست ضد صحابة النبي ﷺ بل وضد الدعاة المخلصين في كل عصر ومصر.

ومن أمثال ذلك ما تعرض له سيدنا كعب ﷺ في الموقف الذي يحكيه عن نفسه فيقول: «فبينما أنا أمشي بسوق المدينة وإذا نبط من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه في المدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى إذا جاءني، دفع إليّ كتابًا من ملك غسان وكتب كتابًا في سرقة من حرير فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها وهذا من البلاء أيضًا، قد بلغت ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك فعدت بها إلى التنور فسجرته بها»[٥].

ومن أمثلة ذلك أيضًا: أن ملك الروم عرض على سيدنا عبد الله بن حذافة السهمي

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ١٢٧).
(٢) تنوير الأذهان للبروسوي (٢/ ٣٥٧).
(٣) مفاتيح الغيب للرازي (١٠/ ١٥١).
(٤) تنوير الأذهان (٢/ ٣٥٧).
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٩٥) باختصار وتصرف.

ﷺ حين أسره مع بعض المسلمين أن ينخلع عن الإسلام ويعتنق النصرانية ويكون شريكًا له في ملكه حيث قال: أنا ملك الروم أعرض عليك أن تتنصر وأطلق سراحك.

عبد الله: هيهات أن الموت لأحب إليَّ ألف مرة مما تدعوني إليه.

ملك الروم: إني لأراك شهمًا فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك أشركتك في أمري وقاسمتك سلطاني.

عبد الله: والله لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت، قال ملك الروم إذن أقتلك، قال: أنت وما تريد.

فلما رآه ملك الروم متمسكًا بالإسلام قال له: قَبِّل رأسي وأطلق سراحك وسراح من معك، ففعل، وأطلق سراحه وسراح من معه[1].

وهكذا يحاول دائمًا أعداء الإسلام استخدام وسيلة الإغراء في حربهم النفسية محاولين تشبيط همم المسلمين وبث روح الانهزام فيهم ولكن هيهات أن ينالوا ممن تمكن الإيمان من قلبه.

---

(١) صور من حياة الصحابة، د/ عبد الرحمن رأفت الباشا (ص٣٠، ٣١)، ط/ دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، باختصار وتصرف.

رد القرآن الكريم على وسيلة الإغراء.

وإذا كان أعداء الإسلام استخدموا وسيلة الإغراء كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد المسلمين فقد كشفهم الله سبحانه ورد عليهم وفي ذلك وقاية لنفوس الفئة المؤمنين من أن تؤثر فيها هذه الوسيلة الخطيرة.

ويمكن تلخيص منهج القرآن في الرد على هذا الأسلوب في العناصر الآتية:

أولاً: بيان أن الدين الإسلامي لا يقبل المساومة.

ثانيًا: فضح محاولات أعداء الإسلام لإغراء المؤمنين وبيان كذبهم.

ثالثًا: أن القرآن استخدم وسيلة الإغراء مع اختلاف الغرض.

أولاً: بيان أن الدين الإسلامي لا يقبل المساومة:

فلعل من أكثر ما يوضح أن الدين الإسلامي لا يساوم عليه وأن أعداء الإسلام لم يفلحوا في إغراء النبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١-٦].

قيل في سبب نزول هذه السورة الكريمة: أنها نزلت في رهط من قريش حاولوا إغراء النبي ﷺ بأن قالوا له: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت خيرا مما بأيدينا «كنا» قد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يدك «كنت» قد شاركتنا فيه وأخذت بحظك فقال: «معاذ الله أن أشرك به غيره»، فأنزل الله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إلى نهاية السورة.

فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا منه عند ذلك(١).

فالسورة الكريمة تقطع الطريق أمام هؤلاء الأعداء وتفصل فصلا حاسما بين عبادة

---

(١) أسباب النزول للإمام أبو حدي (ص٤٠٥)

وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، ولذا جاءت السورة الكريمة بهذا الجزم وبهذا التأكيد وبهذا التكرار لتنهي كل قول وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيًا بين التوحيد والشرك وتقيم المعالم واضحة لا تقبل المساومة في قليل أو كثير[1].

ثانيًا: فضح محاولات أعداء الإسلام لإغراء المؤمنين وبيان كذبهم:

من الآيات التي فضحت محاولات الإغراء من أعداء الإسلام وبينت كذبها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا ﴾ أي اسلكوا طريقنا وادخلوا في ديننا.

﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ أي إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم فنؤاخذ به دونكم.

﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي وما هم بحاملين شيئًا من خطيئاتهم التي التزموا بها، وضمنوا لهم حملها ثم وصفهم الله بالكذب في هذا التحمل.

﴿ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم وهذا تكذيب لهم من الله عز وجل.

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أي أوزارهم التي يحملوها والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة.

﴿ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ أي أوزارًا مع أوزارهم، وهي أوزار من احتملوهم وأخرجوهم عن الهدى إلى الضلال مثله قوله ﷺ: «**من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر**

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩١) باختصار وتصرف يسير.

من عمل بها»[١].

﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ تقريعا وتوبيخا عما كانوا يفترون أي يختلقونه من الأكاذيب التي كانوا يأتون بها في الدنيا.

وقال مقاتل: يعني قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله[٢].

وهكذا فقد بينت الآية الكريمة محاولة أعداء الإسلام لإغراء المؤمنين كما بينت كذبهم فيما قالوه وهي بذلك تقطع أمامهم الأمل وتسد أمامهم الطريق في أن يؤثر أسلوبهم هذا في نفوس المؤمنين.

ثالثًا: أن القرآن استخدم وسيلة الإغراء مع اختلاف الغرض:

والقرآن الكريم استخدم وسيلة الإغراء مع اختلاف الغرض الذي استخدمها من أجله عن غرض أعداء الإسلام في استخدامها فقد أغرى بعضهم بالمال وبعضهم بالجاه بغرض صرفهم عن الباطل وترغيبهم في اعتناق الحق فقد جعل الله من الأصناف المستحقة للصدقات المؤلفة قلوبهم وهم الكفار الذين كان النبي ﷺ يتألفهم ليسلموا، وقيل هم قوم أسلموا ولم يحسن إسلامهم وقيل أنهم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبي ﷺ ليتألف أتباعهم على الإسلام[٣].

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا، فقال

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلال برقم (٢٦٧٤) (٤/ ٢٠٦٠)، ط/ عيسى البابي الحلبي.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٨٨) باختصار وتصرف.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٩٢، ٣٩٣).

بعضهم: انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره، وقال آخرون: سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام وهو الصحيح[(١)].

وقد استخدم النبي ﷺ هذه الوسيلة مع أعدائه فقد أغرى الرسول ﷺ عيينة بن حصن بن حذيفة والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان بثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن أصحابه في غزوة الأحزاب فوافقا على ذلك[(٢)].

وقد استخدم النبي وسيلة الإغراء مع أبي سفيان يوم فتح مكة حين قال له عمه العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا فقال ﷺ: «من دخل دار أبا سفيان فهو آمن»[(٣)].

ولقد أعطاه النبي يوم حنين عطاء جزيلاً حتى قيل أنه أعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة، وأعطى الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وكذا أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة وأعطى الآخرين خمسين خمسين، وأربعين أربعين، حتى شاع في الناس أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر[(٤)].

وهكذا يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد أرشد المسلمين إلى استخدام الإغراء لكسب أعدائهم ولكسب ضعاف النفوس فيهم.

ولقد طبق الرسول ﷺ الآية الكريمة كما وضحت كتب السيرة فأغرى المؤلفة قلوبهم بالمال الوفير وأغرى بعضهم بالجاه والمنزلة إن كانت تؤثر فيه.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٨/ ٦٨، ٦٩) باختصار وتصرف.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١١) باختصار وتصرف.

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٢٨٩) باختصار وتصرف.

(٤) الرحيق المختوم (ص٤٩٨) باختصار وتصرف.

والقرآن الكريم والرسول ﷺ عند استخدامهم لوسيلة الإغراء كان غرضهم تشجيع الناس وتحفيزهم على اتباع طريق الحق طريق الله المستقيم.

أما أعداء الإسلام فكان غرضهم على العكس من ذلك كان غرضهم إبعاد الناس عن طريق الله والسعي بهم إلى طريق الضلال.

رابعًا: التعجيز والتحدي:

يقال عجز فلان عن الشيء عجزا وعجزانًا: معناه ضعف ولم يقدر عليه فهو عاجز(١).

والتعجيز: هو محاولة إخراج الخصم بطلب شيء يتعذر تحقيقه أو هو فوق طاقته وقدراته وذلك لإظهار الخصم بموقف العاجز أو الكاذب سعيًا من الخصم في تأليب أنصار عدوه عليه.

أما التحدي فهو تحقيق إعجاز عظيم لا يستطيع الخصم الإتيان بمثله أو تكذيبه أو إبطاله(٢).

وتعتبر وسيلة التعجيز واحدة من وسائل الحرب النفسية التي استخدمت كثيرًا ضد الرسول ﷺ فقد كان القرشيون في حربهم النفسية يبتدعون كل يوم لونًا جديدًا بهدف الحد من سعة انتشار الإسلام.

ومن هذه المبتدعات: مطالبتهم الرسول ﷺ بمعجزات حسية ملموسة وكان قصدهم من مطالبهم إحراج الرسول ﷺ فطلبوا أن يزحزح الرسول بطلب من ربه الجبال التي تحيط بمكة والتي ضيقت عيشهم وطلبوا أن يفجر عيون الماء ليحل مشكلة المياه وأن يحول القفار إلى جنان من نخيل وأعناب، وطلبوا كتابًا ينزل من السماء يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم وطلبوا أن يبعث آباءهم من موتهم حتى يصدقوا بالبعث، ثم طلبوا ملكًا ينزل مع الرسول ﷺ يشهد له ويؤيده(٣).

ومن الآيات التي تحكي ما حاوله المشركون من تعجيز وتيئيس وتحد للرسول ﷺ قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ

---

(١) المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية، مادة عجز (ص٤٠٧).

(٢) الحرب النفسية في العصر المدني، مرجع سابق (ص٤٨٨).

(٣) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٢٨، ٣٠).

تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٤].

سبب النزول:

روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث وأبا البختري والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم سريعًا وهو يظن أنهم بدا لهم في أمرهم بداء، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نعلم رجل من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت قد تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الرئي الذي يأتيك تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي- بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أن نعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتم بما جئتم به لطلب أموالكم، ولا لشرف فيكم، ولا للملك عليكم، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم» قالوا له: يا محمد، فإن

كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلادًا ولا أقل مالاً ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك لما بعثك فليسر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا، ويجر فيها أنهارًا، كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسأله عما تقول، أحق هو أم باطل؟، فإن صنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال رسول الله ﷺ : **«ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر لأمر الله»** قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك، وسله فليجعل لنا جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي.

فإنك تقوم في الأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال رسول الله ﷺ : **«ما أنا بفاعل ولا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله تعالى بعثني بشيرًا ونذيرًا»** قالوا: فأسقط علينا كسفًا من السماء كما زعمت، أن ربك إن شاء فعل، فقال رسول الله ﷺ : **«ذلك إلى الله إن شاء فعل»**، فقال قائل منهم: «لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا»، وقال عبد الله بن أمية المخزومي، وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب ابن عمة النبي ﷺ : «لا أؤمن أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا وترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول»، فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا لما فاته من متابعة قومه، ولما رأى من مباعدتهم منه فأنزل الله تعالى الآيات السابقة[1].

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص٢٤٦، ٢٤٧)، وانظر: كنوز القرآن وبيان الفرقان للشيخ عبد العزيز الشناوي (ص٢٣٠، ٢٣٢).

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ لن نصدقك[(١)] ولن نعترف لك يا محمد بنبوتك ورسالتك[(٢)] وقد بين العلامة الشوكاني القائلون فقال: والقائلون هم رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث[(٣)].

وقد فسر الإمام القرطبي قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ ﴿ تَفْجُرَ ﴾ مخففة لأن الينبوع واحد و﴿ يَنۢبُوعًا ﴾ يعني: العيون[(٤)].

﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾ مشددة لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد والثانية بعدها الأنهار وهو جمع.

وأجيب عنه بأن الينبوع وإن كان واحدًا في اللفظ فالمراد به الجمع، فإن الينبوع العيون التي لا تنضب ويرد بأن الينبوع: عين الماء والجمع ينابيع وإنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع، والياء زائدة كيعبوب من عب الماء[(٥)].

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ أي بستان تستر أشجاره أرضه والمعنى: هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة من نخيل وعنب ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾ تجريها بقوة، ﴿ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي وسطها تفجيرًا كثيرًا[(٦)].

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ أي قطعًا من العذاب[(٧)]، ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿ قَبِيلًا ﴾ فقيل معناه: كفيلاً، وقيل: شهيدًا.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ١٣٦).
(٢) تنوير الأذهان للبروسوي (٢/ ٣٦٤).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٣) بتصرف.
(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم (٦/ ٣٩٤٦) باختصار وتصرف.
(٥) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٣).
(٦) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٣).
(٧) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (٣/ ١٤٧).

وقيل: هو جمع القبيلة أي تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، وقيل ضمنًا.

وقيل: مقابلاً كالعشير والمعاشر[١].

﴿ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ ﴾ أي من ذهب وأصله الزينة والمزخرف المزين[٢].

والمعنى: أي نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى.

﴿ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي تصعد في السماء، يقال: رقيت في السلم أرقى رقيًا ورقيا إذا صعدت وارتقيت مثله[٣].

﴿ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي لأجل رقيك وهو مصدر نحو مضي: يمضي مضيا وهوى يهوى هويًا[٤].

﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥ ﴾ فيه تصديقك، قال عبد الله بن أمية: لن نؤمن حتى تضع على السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول.

ولما حكى الله سبحانه وتعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد ﷺ: ﴿ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[٥] أي من البشر لا ملكًا حتى أصعد السماء.

﴿ رَّسُولاً ﴾ رسولاً مأمورًا من الله سبحانه بإبلاغكم فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشرًا قدر على شيء منها[٦].

قال الإمام الرازي: اعلم أنهم اقترحوا على رسول الله ﷺ أنواعًا من المعجزات أولها قولهم: ﴿ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴾، ثانيها قولهم: ﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٤) باختصار وتصرف.
(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٤) باختصار.
(٣) الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي (٦/ ٣٩٤٧).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٤).
(٥) مفاتيح الغيب للرازي (١٠/ ٢٠٨).
(٦) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٦٤) باختصار.

نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ ، ثالثها: قولهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾[(١)].

والواضح أن المشركين كانوا يقصدون مثل هذه الاقتراحات اللجاج والعناد ولو كان مرادهم الاسترشاد لكفاهم ما شاهدوا من المعجزات[(٢)].

فالآيات الكريمة دلالة واضحة على مبالغة أعداء الإسلام في تحديهم وتعجيزهم للرسول ﷺ بطلبهم أمورًا متعددة يعجز الرسول ﷺ عن إجابتهم إليها.

وهذا شأن المعاندين الجاحدين لا من أراد الهداية والاسترشاد ولكن الرسول ﷺ يرد عليهم في محاولتهم هذه أن إجابتهم لتلك الأمور ليس من شأنه فما هو إلا بشر أرسله الله إليهم ليبلغهم شرع الله عز وجل..

ومن المواقف التي ذكرت في كتب السيرة والتي تدل على استخدام المشركين لوسيلة التعجيز والتحدي للرسول ﷺ كوسيلة من وسائل الحرب النفسية:

أنهم طالبوا النبي ﷺ بأن يبعث لهم قصي بن كلاب مؤسس قبيلة قريش والذي نجح في توحيد بطونها حتى إذا بعث قصي سألوه عن محمد وهل هو حقيقة رسول الله[(٣)] فأبدى الرسول ﷺ حكمة عالية وثباتًا ورباط الجأش وكان مع هؤلاء المشركين حليمًا فلم يعبأ بهذا الهراء واللجاج والعناد الذي يصور عقليات هؤلاء الوثنيين الجاهلين ومدى ضيق أفقهم[(٤)].

فقال الرسول ﷺ : «ما بهذا بعثت إليكم إنما جئت من الله بما بعثني وقد بلغتكم بما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦) بتصرف.

(٢) تنوير الأذهان (٢/ ٣٦٤)، ط/ دار القلم.

(٣) الرسول والحرب النفسية، د/ علي حسن الخربوطلي (ص٣٣).

(٤) الحرب النفسية في صدر الإسلام، د/ مخلف بن محمد (ص٤٩٧).

يحكم الله بيني وبينكم»(١). ولولا أنهم كانوا معاندين متعنتين لكفت إجابته ﷺ لهم إذا كانوا يريدون الهداية والرشاد.

أما اليهود فقد كان لهم باع طويل في استخدامهم لهذه الوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد الرسول ﷺ ولا غرابة في ذلك فهم أشد الناس عداوة للرسول وأتباعه وهم أقسى الناس قلوبًا وأخبثهم نفوسًا.

ومن الآيات التي ذكرها القرآن الكريم التي تبين استخدام اليهود لوسيلة التعجيز والتحدي للنبي ﷺ قول الله عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٥٣].

سبب نزول هذه الآية:

نزلت في اليهود قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبيًا فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به موسى فأنزل الله تعالى هذه الآية(٢).

قوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي اليهود ﴿ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ أي أن يصعد وهم يرونه فينزل عليهم كتابًا فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة كما أتى موسى بالتوراة؛ تعنتًا له ﷺ فأعلم الله عز وجل أن آباءهم قد عنتوا موسى عليه السلام بأكبر من هذا ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي عيانًا(٣).

وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكم واقتراح لا سؤال انقياد، والله تعالى لا ينزل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٠٨) باختصار وتصرف.

(٢) أسباب النزول للإمام الواحدي (ص١٥٣)، ط/ دار الحديث.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٠٠٢) باختصار وتصرف.

الآيات على اقتراح العباد[١].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ ﴾ هي النار التي نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم[٢].

﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾ بطغيانهم وبغيهم وعتوهم[٣] ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ﴾ أي عما كان منهم من التعنت وعبادة العجل، ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ أي حجة بينة وهي الآيات التي جاء بها[٤].

لقد وقف اليهود في الجزيرة من الإسلام ونبي الإسلام ذلك الموقف العدائي المتعنت المكشوف وكادوا له الكيد المستمر العنيد.

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء كتاب مخطوط ينزل عليهم من السماء مجسمًا يلمسونه بأيديهم.

إن هذه الجبلة ليست جديدة عليهم، وليست طابعًا عند هذا الجيل وحده منهم، إنما هي حيلتهم من قديم، إنهم هم من عهد موسى -نبيهم ومنقذهم- إنهم هُم هم غلظ الحس فلا يدركون إلا المحسوسات، وهم هم أكثر تعنتًا وإعناتًا فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط وهم هم أشد كفرًا وغدرًا، فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك، وهم هم قحة وافتراء فلا يعنيهم أن يثبتوا من قول ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالمنكر، وهم هم طمعًا في عرض الدنيا، وأكلاً لأموال الناس بالباطل وإعراضًا عن أمر الله وما عنده من ثواب.

إنها جملة تفضحهم وتكشفهم وتدل قوتها وتنزع اتجاهاتها على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خبث الكيد اليهودي بالإسلام، ونبي الإسلام في ذلك الأوان.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٤٩٥) باختصار.

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٢٥) باختصار.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤٥٤).

(٤) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٢٥).

وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن[١].

ولقد كان استخدام المنافقين لوسيلة التعجيز والتحدي ظاهرًا في كل عمل يعمله الكفار أو اليهود لأنهم هم الشر المستطير والعدو الخفي للإسلام والمسلمين لأنهم يعرفون أسرار المسلمين وخفاياهم لأنهم يعيشون بينهم ويتصفون بجلدتهم كما أن معظمهم من اليهود والكفار الذين اندسوا بين صفوف المسلمين مظهرين الإسلام ومبطنين الخبث والكيد له كما كانوا مطايا يمتطيهم اليهود ويمتطيهم الكفار في تنفيذ أغراضهم لكشف أسرار المسلمين والتخطيط لأعدائهم[٢].

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢/ ٧٩٩، ٨٠٠).
(٢) الحرب النفسية في العهد المدني، مرجع سابق (ص٥٠٢).

منهج القرآن في الرد على وسيلة التعجيز والتحدي:

لقد فضح القرآن الكريم استخدام أعداء الإسلام لوسيلة التعجيز والتحدي ورد عليها أبلغ رد فأسقطها وأبطل مفعولها فلم يعد لها أثر في نفس النبي ﷺ ولا في نفس أصحابه.

ولقد استخدم القرآن وسيلتين في الرد على تحدي أعداء الإسلام وتعجيزهم:

الأول: أنه أورد المسائل التي حاولوا بها تعجيز النبي ﷺ ورد عليها.

الثاني: استخدام القرآن معهم نفس الوسيلة وهي التحدي والتعجيز.

الأول: أنه أورد المسائل التي حاولوا بها تعجيز النبي ﷺ ورد عليها:

فلقد أورد القرآن الكريم المسائل التي حاولوا بها تعجيز النبي ﷺ ورد عليها، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

يقول العلامة القرطبي في تفسيره لآيات الإسراء مبينًا أن في رد القرآن في قوله: ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ الرد الكافي على ما اقترحوا من طلب للمعجزات فقال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يعترض عليه في فعل، وقيل هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم أو هو أمر للنبي أي قل لهم يا محمد ﴿ هَلْ كُنتُ ﴾ أي ما أنا ﴿ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أتبع ما يوحى إلي من ربي ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر فهل سمعتم أحدًا من البشر أتى بهذه الآيات؟ وقال بعض الملحدين: ليس هذا جوابًا مقنعًا وغلطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتموني، وليس علي أن أتخير على ربي ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكل ما

يريدونه ويبغونه وسبيلي سبيلهم وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أؤمن حتى أوتي بآية خلاف ما طلب غيري وهذا يئول إلى أن يكون التدبير إلى الناس وإنما التدبير إلى الله تعالى(١).

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧-١١].

فقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه قادر على أن يفعل للرسول أفضل مما اقترحوا وأن علة تحديهم وتعجيزهم للنبي إنما هي تكذيبهم للساعة وسينتظرهم فيها العذاب الأليم.

وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وقد رد الله سبحانه وتعالى ببيان أن قدرته لا تتحدى ولا تعجز أمام أي شيء.

إن الرد المنهجي على هذه القائمة المطولة من المطالب والاقتراحات هو ما علمه الله سبحانه لنبيه الكريم وهو أنه لا استجابة للضغوط ولا سماح للنبي ﷺ أن يستخفه الذين لا يؤمنون بمطالبهم أو يظن أنه هو الطريق لإسلامهم، إنه لا حيدة عن المنهج الفكري في الإيمان أما منهج لي الأعناق بالآيات الخارقة والمعجزات الحسية كما يطالبون في تحكم

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٦/ ٣٩٤٧) باختصار وتصرف.

متغطرس فلا(١).

ولا شك أن القرآن برده على تحدي وتعجيز أعداء الإسلام فيه من التهوين من شأن هؤلاء الأعداء ما فيه وفيه من تقوية قلب النبي ﷺ وأتباعه ما فيه كما فيه تفويت لغرضهم أن يكون لتحديهم وتعجيزهم للرسول ﷺ وللمسلمين أي أثر على نفوسهم.

ثانيًا: استخدام القرآن معهم نفس الوسيلة:

إن القرآن استخدم مع الأعداء نفس الوسيلة وهو وسيلة التحدي والتعجيز ولكنهم عجزوا عن الرد أو الصمود.

قال الإمام الرازي: اعلم أن التحدي بالقرآن جاء على وجوه أحدها قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩].

والثاني: قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وثالثها: قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣].

ونظير هذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول: ائتني بنصفه، ائتني بربعه، ائتني بمسألة منه، فإن هذا هو النهاية في التحدي وإزالة العذر(٢).

وإذا كان القرآن الكريم قد استخدم وسيلة التعجيز والتحدي فلقد كان غرضه من استخدامها هداية الناس وإرجاعهم إلى خالقهم عز وجل وتخليهم عن العناد والكفر.

أما غرض أعداء الإسلام من استخدامها فلقد كان التعنت والجحود والوقوف ضد الأنبياء وإضعاف موقفهم وشتان ما بين الغرضين.

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ

---

(١) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٣٣، ٣٤) باختصار وتصرف.
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١/ ٥١٤).

أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد أي لتسببه عنه وترتبه عليه، كأنه قيل: فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه فإنه مستوجب للعقاب بالنار لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبينة على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة في تهويل شأنه وتفظيع أمره وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه وتنفيرهم عنه وحثهم على الجد في تحقيق المنهي عنه وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى حيث كان الأصل: فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الإيمان به سببًا لاستحقاقكم العقاب بالنار فاحترزوا منه واتقوا النار[1].

وهكذا يتبين لنا أن رد القرآن على وسيلة التعجيز والتحدي التي استخدمها أعداء الإسلام قد أبطلها وأدحضها وجعلها لا أثر لها في نفس الفئة المؤمنة ففي رد القرآن على هذه الوسيلة ما جعل أعداء الإسلام هم الذين في موقف العجزة بعدما كانوا يريدون العكس.

وهكذا تبين من الآيات التي ذكرتها كيف أن التحدي والتعجيز قد استخدم ضد الرسول ﷺ من جبهات مختلفة مما يدل على قوة تحمله ﷺ وصبره على أعباء الطريق في سبيل نشر دعوته، وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد تولى الرد على كل ما تعرض له الرسول الكريم من تحد وتعجيز، وفي ذلك رباط لجأش النبي ﷺ وتقوية لعزمه وبشيرًا لكل من يؤذى في سبيل الله بأن الله معه وسيدافع عنه وينصره.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (١/ ٨٢) باختصار وتصرف.

خامسًا: الخداع والتمويه:

تعتبر وسيلة الخداع من الوسائل المتأصلة في الحرب النفسية والتي استخدمت على مر العصور ولا سيما ضد الرسول ﷺ والمؤمنين، وقبل أن أتعرض لتفسير بعض الآيات التي وردت في القرآن الكريم والتي تتحدث عن استخدام أعداء الإسلام لهذه الوسيلة سأعرف الخداع أولاً.

الخداع لغة: خدع خدعا: تغير من حال إلى حال، يقال: خدع فلان: تخلق بغير خلقه ويقال: هو خادع الرأي، متلون لا يثبت على رأي وفلانًا خدعا وخدعة وخديعة: أظهر له خلاف ما يخفيه وأراد به المكروه من حيث لا يعلم(١).

وترجع أهمية هذه الوسيلة من وسائل الحرب النفسية إلى أنها عامل أساسي تعتمد عليه الدول في القديم وفي العصر الحاضر للتمويه على الخصوم وإرهاب أعدائهم وتحطيم أنفسهم والتأثير على أعصابهم بما قد يغير الموقف بين المتخاصمين أو المتحاربين(٢).

ويعرف الخداع في الحرب: بأنه خداع القائد للأعداء بأن يوهمهم بأن عدد جنوده كثرة كاثرة وعتاده قوة لا تقهر(٣).

ولقد استخدم هذه الوسيلة كل من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

ومن استخدام المشركين لها محاولتهم خداع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين من أجل أن يثنوهم عن دينهم:

يقول ابن هشام في ذلك: اعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة زعماء قريش فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر فإن كان الذي تعبد خيرًا

---

(١) المعجم الوجيز، مادة: خدع (ص١٨٧).

(٢) الجهاد والفدائية في الإسلام، حسن أيوب (ص١٤٣)، ط/ دار الندوة، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(٣) الحرب النفسية في صدر الإسلام، مرجع سابق (ص٤٥٢، ٤٥٣) باختصار وتصرف.

مما نعبد كنا أخذنا بحظنا منه وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه[(١)].

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ... ﴾ السورة، والسورة الكريمة تمثل نموذجًا واضحًا لما تعرض له الرسول ﷺ من محاولات للخداع فقد احتالوا عليه بكونهم يعبدون إلهه ويعبد إلههم فجاءت السورة الكريمة قولاً فاصلاً في أن الإسلام لا يقبل الشرك وأن تعاليمه لا يساوم عليها وفي ذلك تيئيس لهم عن ابتاع هذه الوسيلة وقطع لآمالهم أن يخدعوا النبي ﷺ أو أن يستميلوه.

يقول العلامة ابن عاشور عند تفسيره لهذه السورة موضحًا لغرضها:

وبهذا يعلم الغرض الذي اشتملت عليه وأنه تيئيسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال وأن دين الإسلام لا يخالط شيئًا من دين الشرك[(٢)].

ومن الآيات الواردة في القرآن الكريم التي توضح محاولات المشركين لخداع المؤمنين بإغوائهم وإغرائهم كما توضح فساد تصور المشركين لقضية التبعة قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

فكفار قريش قالوا لمن آمن برسول الله ﷺ لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا فإن كان عليكم شيء فهو علينا[(٣)].

والآية الكريمة كما توضح الخديعة التي حيكت كذلك افتضحت أمرهم وبينت كذبهم فما هم إلا مخادعون كاذبون محتالون عليكم أيها المؤمنون ليثنوكم عن دينكم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٤٤) باختصار وتصرف.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء الثلاثون (١٥/ ٥٨٠) باختصار وتصرف.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٢٦٠) بتصرف.

فانتبهوا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ القائلون هم طائفة منهم وهم أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب قبل أن يسلم، قالوا للمسلمين ومنهم عمر بن الخطاب[(١)].

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا ﴾ اسلكوا طريقتنا وادخلوا في ديننا، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ أي إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم[(٢)].

ثم يؤكد نفي صدق هذه الخديعة فيقول: ﴿ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ فهذا نفي مؤكد عن سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئًا من خطاياهم التي التزموا حملها[(٣)].

ثم بينت الآية كذبهم في ادعائهم حمل خطايا المؤمنين وأنهم مخادعون فيها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ فيما ضمنوا به من حمل على المعنى، لأن المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكذيب[(٤)] كما يوقع على الخبر[(٥)].

ولقد بين العلامة ابن عاشور الغرض من محاولة المشركين فقال: هذا غرض آخر من أغراض مخالطة المشركين مع المؤمنين وهو محاولة المشركين ارتداد المسلمين بمحاولات فتنتهم بالشك والمغالطة للذين لم يقدروا على فتنتهم بالأذى والعذاب، إما لعزتهم

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء العشرون (١٠/ ٢١٩) باختصار وتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٨٨).

(٣) روح المعاني للألوسي الجزء العشرون (١١/ ٢٠٩).

(٤) وحمل التكذيب على المعنى ولم يحمل على اللفظ لأن اللفظ جملة إنشائية وهي الأمر والجملة الإنشائية لا تحتمل الصدق والكذب.

(٥) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٨٨).

وخشية بأسهم مثل عمر بن الخطاب فقد قيل: إن هذه المقالة قيلت له، وإما لكثرتهم حين كثر المسلمون وأعيت المشركين حيل الصد عن الإسلام[١].

ومن مواقف المشركين في خداع المسلمين ما حدث غزوة حنين حين وضع قائد هوازن مالك بن عوف عددًا كبيرًا من الكمائن في الشعاب والمضايق وضعها في طريق المسلمين أثناء الليل وقد نجحت تلك الخدعة ونزلت بالمسلمين الهزيمة في أول الأمر من المعركة[٢].

ومن مواقفهم في الخداع أيضًا ما حدث في فاجعة بئر معونة حيث قتل أعيان بني عامر في وديان نجد سبعين رجلاً من المسلمين بعدما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يرسل وفدًا إلى ديارهم يدعون أهلها إلى الإسلام فذهب الوفد معهم ولكن ذلك كان خدعة من بني عامر حيث استصرخوا عليهم قبائل بني عمار فقضوا على جميع أعضاء الوفد، وكذلك مثلها حادثة الرجيع من قبل القبائل الحجازية بني خزيمة الذي طلبوا خداعًا وفدًا يعلمهم الإسلام بعدما تظاهروا بالإسلام فاستجاب النبي ﷺ لطلبهم فأرسل معهم وفدًا من عشرة من كبار الصحابة، ولما وصلوا إلى الرجيع استصرخوا عليهم قبيلة هزيل فقتلوا منهم سبعة واستسلم ثلاثة منهم[٣].

ثم ماذا عن خداع الجبهة الثانية المعادية للرسول ﷺ وهم المنافقون: لقد تخصص المنافقون في مجال النفاق وقد مردوا عليه فاستخدموا هذه الوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد الإسلام والمسلمين بكل خبث وغباء حتى إنهم قد خدعوا أنفسهم بمخادعتهم لله رب العالمين قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء العشرون (١٠/ ٢١٩).

(٢) محمد أحمد باشمل، غزوة حنين (ص١٣٥) باختصار وتصرف.

(٣) السيرة النبوية، غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل (ص١٦-١٨)، وانظر: القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات، أ/ حسن فتح الباب (ص١٠٤، ١١٠) باختصار وتصرف، ط/ مجمع البحوث الإسلامية.

إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩].

يقول العلامة البيضاوي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الخداع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتنزله عما هو فيه وعما هو بصدده من قولهم خدع الضب إذا توارى في جحره والمخادعة تكون بين اثنين(١).

ثم بين العلامة الشوكاني طبيعة كل من خداع الله سبحانه وخداع المؤمنين وخداع المنافقين، فقال: والمراد من مخادعتهم لله أنهم صنعوا معه صنع المخادعين وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم.

والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم لذلك كما خدعوه بإظهار الإسلام وإبطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم.

والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهرًا(٢).

﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ والمعنى أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضررها يحيق بهم أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لما غروها بذلك وخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأماني الفارغة وحملتهم على مخادعة من لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ لا يحسون بذلك لتمادي غفلتهم(٣) فوبال الخداع راجع إليهم ومحيط بهم فما هم إلا خلق ضعيف يحاول خداع منهج الله سبحانه ومطبقيه وأنى لهم ذلك أنى كانوا ومتى كانوا.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٢٥) باختصار وتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٩٧) باختصار وتصرف.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٢٥، ٢٦) باختصار وتصرف.

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا تعليقًا على هذه الآية: فإن كان مات من كانوا سبب النزول فالقرآن حي لا يموت ينطبق حكمه ويحكم سلطانه على الناس في كل زمان، فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته، فاعتقاده إنما هو خيال، لا يعدو عن لفظ في مقال، ودعوى عند جدال، فإذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه، مخادع لربه يظن أن علام الغيوب لا ينظر إلى ما في القلوب[١].

ومن مواقف المنافقين المخادعة التستر وراء أعمال تخفي وراءها ما ليس في ظاهرها ومن ذلك قصة مسجد الضرار الذي أقامه فريقًا من المنافقين في المدينة والذي كان ظاهرها إظهار فرط تقواهم أما باطنه فكان التآمر ضد المسلمين واستقبال جنود الروم الذي سيأتون لغزو المدينة[٢].

ولكن الله سبحانه وتعالى دائمًا يخيب كيدهم ويفضح أمرهم فنزلت الآيات تبين حقيقة النية التي بنى المنافقون المسجد من أجلها، وحذر النبي ﷺ وأتباعه عن الانخداع بهم والوقوع في حبالهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

يقول العلامة الواحدي في سبب نزول هذه الآية: إن المنافقين عرضوا بمسجد يبنونه ليضاهئو به مسجد قباء وهو قريب منه لأبي عامر الراهب يرصدونه إذا قدم ليكون إمامهم فيه فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا بنينا مسجدًا فصل فيه

---

(١) تفسير المنار، أ/ رشيد رضا (١/ ١٣٠).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص٢١٤)، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٩٢).

حتى نتخذه مصلى فقام معهم فنزلت ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾[(١)].

ومعنى ﴿ ضِرَارًا ﴾ مضرة للإسلام ورسوله وأتباعه، ﴿ وَكُفْرًا ﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه، ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين كانوا يجتمعون في مسجد قباء فإنهم أرادوا ببنائهم المسجد صرف بعض الجماعة إليه وتفريق كلمتهم[(٢)].

﴿ وَإِرْصَادًا ﴾ ترقبًا وانتظارًا، ﴿ لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ يقول العلامة الألوسي: هو أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة ﷺ وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبي ﷺ: قال له أبو عامر ما هذا الذي جئت به؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: «إنك لست عليها» فقال: بلى ولكنك أنت أدخلت فيها ما ليس منها، فقال النبي ﷺ: «ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية»، فقال أبو عامر: أمات الله تعالى الكاذب منا طريدًا وحيدًا فأمن النبي ﷺ فسماه الناس أبا عامر الكذاب، وسماه النبي ﷺ الفاسق، فلما كان يوم أحد قال للنبي ﷺ: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربًا إلى الشام وأرسل المنافقين يحثهم على بناء مسجد فبنوه وبقوا فيه منتظرين قدومه ليصلي فيه ويظهر على رسول الله ﷺ فهدم المسجد ومات أبو عامر وحيدًا بقنسرين[(٣)] وبقي ما أضمروه حسرة في قلوبهم[(٤)].

يقول الأستاذ رشيد رضا في قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أخبار مؤكد بالقسم أنهم سيحلفون أنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن وهي الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص٢١٥).

(٢) تنوير الأذهان للبروسوي (٢/ ١٠٤).

(٣) اسم بلدة في الشام، روح المعاني للألوسي (٧/ ٢٧) الجزء الحادي عشر.

(٤) روح المعاني للعلامة الألوسي الجزء الحادي عشر (٧/ ٢٧).

يحبسه المطر منهم ليصدقهم الرسول ﷺ ويصلي لهم فيه.

﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في قولهم حانثون بيمينهم[(١)].

وكذلك سقطت خدعتهم وبطلت حيلتهم فهم مخادعون مراوغون كاذبون فلم يفتهم أن يستخدموا وسيلة الخداع ضد الرسول ﷺ ولم لا والخداع من أبرز سماتهم فهو يجري فيهم مجرى الدم في العروق.

ومن المواقف التي حكاها القرآن توضح استخدام أهل الكتاب لهذه الوسيلة قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

يقول الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية: تواطأ اثنى عشر حبرًا من يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد واكفروا به آخر النهار، وقولوا إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدًا ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم! وذهبوا إلى دينكم فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبرنا بها نبيه محمد ﷺ والمؤمنين[(٢)].

والآية الكريمة توضح مدى محاولات الخداع التي وصل إليها اليهود للمؤمنين وكيف أن الله سبحانه وتعالى يفضحهم دائمًا لكي لا ينخدع بهم المؤمنون.

يقول العلامة الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:

وكيف أن الغرض من قولهم هو الخداع: هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض أي قال الرؤساء للسفلة لا تصدقوا تصديقًا صحيحًا إلا لمن تبع دينكم من أهل الملة التي أنتم عليها وأما غيرهم ممن قد أسلم أظهروا لهم بذلك خداعًا[(٣)].

---

(١) تفسير المنار، أ/ رشيد رضا (١١/ ٣٢) باختصار وتصرف.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص٩٤).

(٣) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٣١) بتصرف واختصار.

يقول صاحب المنار تعليقًا على هذه الآية: هذا النوع الذي تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبني على قاعدة طبيعية في البشر وهي أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه.

وقد فقه هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام «هل يرجع عنه من دخل في دينه؟» قال أبو سفيان: «لا».

وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه واطلعوا على بواطنه وخوافيه إذا لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب[١].

وفي العصر الحالي يزاول أعداء الإسلام هذه الوسيلة مع المسلمين وإن اختلفت الأشكال وتطورت بتطور العصور، ومن أمثلة ذلك:

ما فعلته الولايات المتحدة من إغراء وخداع للعراق على خوض حربها مع إيران بهدف القضاء على قوة الدولتين العسكرية والاقتصادية، كما خدعت العراق بدخولها لغزو الكويت مما تسنى لأمريكا وغيرها من الدول الكبرى التدخل في المنطقة والسيطرة على القوى الطبيعية فيها وخاصة النفط وإضعاف اقتصاد الدول الإسلامية الأخرى القائمة على تصدير النفط.

والأخطر من ذلك خداع أعداء الإسلام للمسلمين بغزوهم الفكري لهم ومحاولتهم لتهميش الفكر الإسلامي وتمييع الشخصية المسلمة.

وهكذا يتبين استخدام أعداء الإسلام للخداع قديمًا وحديثًا كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد المسلمين والتي لم يكن لها تأثير يذكر عند المؤمنين الأوائل؛ لما فيهم من صدق إيمان وصحة عقيدة، أما المسلمين اليوم فهم ينخدعون بمحاولات أعدائهم ويقعون في حبائلهم؛ لبعدهم عن منهج الله سبحانه الذي هو سبب عزتهم ورفعتهم.

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٧٥).

منهج القرآن في مواجهة وسيلة الخداع:

ولقد واجه القرآن الكريم وسيلة الخداع حتى لا تؤثر في معنويات المؤمنين بعدة أمور منها:

أولاً: أنه أخبر النبي والمؤمنين بمخادعة أعدائهم لهم وأمرهم بأن يلجئوا إلى الله فهو حاميهم وكافيهم.

ثانيًا: أن الله سبحانه وتعالى واجههم بنفس الوسيلة.

أولاً: أنه أخبر النبي ﷺ باستخدام أعدائه للخداع وأمره بأن يلجأ إلى الله فهو حسبه وكافيه:

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢] فلا تعبأ بهم ولا تكترث بهم فليس بعد تأييد الله سبحانه وتعالى بنصره وتأليفه بين قلوب المؤمنين ما يبقى أثر لخداع الأعداء ومكرهم.

يقول العلامة ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: إن كانوا يريدون من إظهار ميلهم إلى المسالمة خديعة فإن الله كافيك شرهم.

فجملة ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ دلت على تكفل كفايته وقد أريد منه أيضًا الكناية عن عدم معاملتهم بهذا الاحتمال وألا يتوجس منه خيفة وأن ذلك لا يضره، وجملة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ ﴾ دليل على أنه حسبه، والمعنى أن الله قد نصرك من قبل وقد كنت يومئذ أضعف منك اليوم فنصرك على العدو هو مجاهر بعدوانه فنصره إياك عليهم مع مخاتلتهم ومع كونك في قوة من المؤمنين أولى وأقرب[1].

ثانيًا: استخدام القرآن الكريم معهم نفس الوسيلة:

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء العاشر (٦/ ٦٢) باختصار وتصرف.

وإن كانت الآية تدل على استخدام المنافقين لهذه والوسيلة فهم كانوا إحدى جبهات العداء للمسلمين والتي كانت تربطهم بالجبهات الأخرى اتحاد الهدف والوسيلة بمعنى أن الجبهات الأخرى قد استخدمت وسيلة الخداع فالقرآن يتوعدهم كما يتوعد المنافقين.

يقول العلامة الشوكاني في تفسيره: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين، ومخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

ومعنى كون الله خادعهم: أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه وذلك أن تركهم على ما هم عليه من التظاهر بالإسلام في الدنيا فعصم به دماءهم وأموالهم، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار.

والكسالى: جمع كسلان والمراد أنهم يصلون وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، والرياء: هو إظهار الجميل ليراه الناس لا لاتباع أمر الله.

﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي لا يذكرونه سبحانه إلا قليلاً أو لا يصلون إلا قليلاً، ووصف الذكر بالقلة لعدم الإخلاص أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلاً في نفسه لأن الذي يفعل الطاعة لقصد الرياء إنما يفعلها في المجامع ولا يفعلها خاليًا كالمخلص[1].

والله عز وجل بين أنه ﴿ خَٰدِعُهُمْ ﴾ أي مستدركهم وتاركهم في غيهم لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم، تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا، وذلك هو خداع الله -سبحانه- لهم فالقوارع والمنح كثيرًا ما تكون رحمة من الله، تصيب البعاد فتردهم سريعًا عن الخطأ، أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون وكثيرًا ما تكون العافية والنعمة استدراكًا من الله للمذنبين الغاوين لأنهم بلغوا من الإثم والغواية

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٢١) باختصار وتصرف.

ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير، حتى ينتهوا إلى شر مصير[١].

ولقد استعمل النبي ﷺ هذه الوسيلة مع الأعداء وهي وسيلة الخداع، فالإسلام أجاز الخداع في الحرب فقط لتضليل العدو ما دام ذلك لم يشتمل على نقض عهد أو إخلال بأمان فالنبي ﷺ قال: **«الحرب خدعة»**[٢].

ومن مواقف النبي ﷺ في خداع الأعداء، عندما أراد أن يغزو خيبر أوهم غطفان وأوهم أحلاف يهود خيبر أنه يريدهم فشل حركتهم ولزموا أرضهم للدفاع عليها بدل أن يهبوا لنجدة أحلافهم اليهود، وأنزل في روعهم الرعب، ولقن اليهود درسًا في وجوب المحافظة على العهود وعدم الطعن في الحلف والغدر عند الشدة[٣].

ومن باب الخدعة والتمويه والتورية في الحرب يجوز الكذب لمغالطة العدو وإشاعة البلبلة والارتباك في معلوماته وتخطيطاته.

فعن أسماء بنت يزيد مرفوعًا: **«لا يحل الكذب إلا في ثلاث يحدث الرجل امرأته ليرضها، والكذب في الحرب، وفي الإصلاح بين الناس»**[٤].

وفي غزوة الأحزاب أمر نعيم بن مسعود بعد إسلامه أن يخذل ويخدع العدو بهذا الأسلوب فقال له: **«إنما أنت رجل واحد فلو خرجت خذلت لنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقاءك معنا فاخرج إن الحرب خدعة»**، فخرج نعيم بن مسعود فخذل وخادع قريشًا وبني قريظة وغطفان ونجحت طريقته وتفرق الأحزاب وانتصر المسلمون.

فكان لمخادعته الأعداء الذين تحزبوا لحرب الرسول ﷺ والمسلمين أكبر الأثر في

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢/ ٧٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الحرب خدعة (٤/ ٧٧).

(٣) دروس في الكتمان، لمحمود شيت خطاب (ص١٣٠)، ط/ دار الإرشاد، بيروت، طبعة أولى، ١٩٦٩م.

(٤) أخرجه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٤/ ٢٠١١).

إرهابهم وزرع عدم الثقة بينهم حتى اختلف أمرهم وفرق الله جمعهم وانتصر المسلمون عليهم[١].

ومن المواقف التي تجسد استخدام الصحابة للخداع في مواجهة أعدائهم أن عمر بن الخطاب ﷺ بعث عمرو بن العاص لقتال الروم وكان عليهم إرطبون وكان هذا الرجل يعرف بالدهاء والمخادعة وكان عمرو كلما أرسل له رسولاً يتجسس عليه رجع الرسول ولم يعرف شيئًا فتنكر عمرو وذهب إليه بنفسه، فدبر إرطبون لقتله، ولكن عمرو فطن الأمر، وقال لإرطبون: إن مثلي عشر مع عمرو لا يتصرف إلا بمشورتهم فدعني آتي لك بهم فأرسل إرطبون إلى الرجل الذي قد كان وكله بقتل عمرو ألا تفعل فاستطاع عمرو الفرار من قتل إرطبون له، ولما فر وعلم إرطبون إنه عمرو قال: خدعني الرجل هذا، والله إنه أدهى العرب[٢].

وهكذا كان القرآن الكريم وتصرفات النبي ﷺ وأصحابه أمضى سلاح في القضاء على خداع الأعداء ورد كيدهم في نحورهم وإبطال أثر خداعهم في نفوس المؤمنين.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٥، ١١٦) باختصار وتصرف.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٥٤) باختصار وتصرف.

سادسًا: إثارة الرعب:

وإثارة الرعب وسيلة من وسائل الأعداء في الحرب النفسية التي استخدمت كثيرًا ضد الصف المؤمن ممثلاً في الرسول ﷺ وأصحابه، استخدمت من جبهات العداء المختلفة من كفار ومنافقين وأهل كتاب.

والرعب هو الخوف والفزع، يقال: رعب رعبًا خاف وفزع وأرعب فلانًا فلانًا خوفه وأفزعه(١).

فوسيلة إثارة الرعب عبارة عن إيقاع الاضطراب والخلخلة وإلقاء الرعب في صفوف العدو وفي قلوب القادة والجنود والشعب أي في الجبهة الداخلية والجبهة المقاتلة معًا وذلك بوسائل كثيرة ومتنوعة تؤدي في النهاية إلى هدف واحد هو خلخلة صفوف العدو وإلقاء الرعب في قلوب أفراده لأن الرصاصة من يد الجبان لا تقتل ولا تصيب فإذا ألقى الرعب في قلوب الجندي فالسلاح في يده لا خوف منه بل إنه يعتبر غنيمة وهذا يبرز دور الحرب النفسية وأهميتها(٢).

ولقد كان لليهود والمشركين والمنافقين تأثير مشترك على الجبهة الإسلامية في غزوة الأحزاب محاولين إثارة الرعب في نفس المسلمين فاليهود والمشركون تآمروا واتفقوا على تحزيب الأحزاب من الخارج أما المنافقون فقد كانوا معول هدم داخلي في الصف المسلم.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى أثر ذلك التحزب على المسلمين بقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢].

والآية الكريمة خير وصف لمدى الحالة التي لحقت المسلمين نتيجة تحزب الأحزاب

---

(١) المعجم الوجيز، مادة رعب (ص٢٦٨).

(٢) الحرب النفسية في العصر المدني (ص٤٢٧) باختصار، مرجع سابق.

من الداخل ومن الخارج ضدهم فالأبصار زائغة من شدة الحيرة والقلوب بلغت الحناجر من شدة الخوف والرعب وكان الابتلاء شديدًا أظهر المؤمن الحق من المنافق فثبت المؤمن على إيمانه وقال المنافق ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا.

يقول العلامة البيضاوي في تصوير الآية لزيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصًا ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ رعبًا فإن الرئة تنتفخ من شدة الروع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهي منتهى الحلقوم مدخل الطعام والشراب[1].

يقول العلامة أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ هُنَالِكَ ﴾ ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أي في ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض.

﴿ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل، ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من الهول والفزع ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ عطف على ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ﴾ وصيغة المضارع للدلالة على استمرار القول واستحضار صورته.

﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي في قلوبهم ضعف اعتقاد ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ من إعلاء الدين والظفر ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وعد غرور، وقيل قولاً باطلاً والقائل: معتب بن قشير، وأضرابه راضون به، قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقًا[2] ما هذا إلا وعد غرور[3].

فالآية الكريمة تجسد صورة الهول الذي روع المدينة والكرب الذي شملها والذي لم

---

(١) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٢٤٠).
(٢) كناية عن شدة خوفهم وفزعهم.
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٤/ ٣١١)، وانظر: البداية والنهاية (٤/ ١٥٠) باختصار وتصرف.

ينج منه أحد من أهلها وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله وسلوكها في الشدة وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقًا والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه(١).

وما زال أعداء الإسلام يستخدمون وسيلة من إثارة الرعب وبكل شراسة كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد المسلمين في هذا العصر ولكن بصورة أكثر تطورًا من ذلك تسجيلات الرعب التي استخدمها اليهود لإجبار أهل فلسطين على الرحيل عنها وقد تضمنت هذه التسجيلات الصراخ والعويل والأنين المكروب للمسلمات وزعيق صفارات الإنذار ورنين أجراس سيارات الإطفاء وغير ذلك(٢).

هذا وتطالعنا الأخبار اليومية بسيناريوهات متكررة للتهويل والتعظيم من شأن قوة أعداء الإسلام وإبراز إيجابياتهم والتهوين من شأن قوة المسلمين وإبراز لبياتها، وما ذلك إلا لإحداث الانهزام النفسي في نفوس المسلمين وإثارة الرعب فيما بينهم إذ ذكر أعداؤهم.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٨٣٧) باختصار وتصرف.

(٢) الإرهاب والعنف في الفكر الصهيوني، لإسماعيل ياغي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، والرياض، (ص٩٢-٩٧).

منهج القرآن في مواجهة وسيلة إثارة الرعب:

من الوسائل التي استخدمها الأعداء ورد عليها القرآن حتى لم يعد لها أثر في نفوس المؤمنين وقد واجه القرآن الكريم هذه الوسيلة في عدة خطوات:

أولاً: دعا القرآن الكريم أتباعه بالتحصن من أي قوة بالصبر والمصابرة وتقوى الله.

ثانيًا: وضح للمؤمنين حقيقة أعدائهم وأنهم منهزمون داخليًا فهم أوهن من أن يهابوا.

ثالثًا: أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بإعداد القوة لأعدائهم حتى يكونوا مرهوبين الجانب.

رابعًا: استخدم الله سبحانه نفس الوسيلة في مواجهة الأعداء.

أولاً: دعا القرآن الكريم أتباعه بالتحصن من أي قوة بالصبر والمصابرة وتقوى الله.

لقد دعا القرآن المؤمنين بالتحصن من أي قوة بالصبر والمصابرة وتقوى الله تعالى فإنها عدة النصر على الأعداء، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أي اصبروا على ما يلحقكم من الأذى وصابروا الأعداء الذين يقاومونكم ليغلبوكم على أمركم ويخذلون الحق الذي في أيديكم ورابطوا الخيل كما يرابطونها استعدادًا للجهاد[1] فعليكم أيها المؤمنون أن تحققوا في أنفسكم الصبر والمصابرة والرباط وتقوى الله إن أردتم أن تكونوا من المفلحين.

ثانيًا: وضح القرآن للمؤمنين حقيقة أعدائهم وأنهم منهزمون داخليًا فهم أوهن من أن يهابوا:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤].

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٥٨).

يقول العلامة الألوسي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي واقعة عليهم ضارة لهم لجبنهم وهلعهم فهم كانوا كما قال مقاتل متى سمعوا بنشدان ضالة أو صياحًا بأي وجه كان طارت عقولهم وظنوا ذلك إيقاعًا بهم(١).

فهم لضعف نفوسهم يحسبون كل صيحة عليهم فهل من كانت هذه حالهم يستحقون أن يرهبهم المؤمنون.

ومن الآيات الدالة على خور قلوبهم وسوء فهمهم قوله تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر: ١٣].

فهم الذين يهابون المؤمنين من داخلهم ولكنهم يتظاهرون بالقوة ليرهبوا المؤمنين ففضح الله أمرهم ليجعل المؤمنين لا يكترثون بهم.

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي أشد مرهوبية على أن ﴿ رَهْبَةً ﴾ مصدر من المبني للمفعول لأن المخاطبين وهم المؤمنين مرهوب منهم لا راهبون.

﴿ فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي رهبتهم منكم في السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله عز وجل ويجوز أن يراد أنهم يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله تعالى.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون شيئًا عن عظمة الله عز وجل فيخشونه حق خشيته سبحانه وتعالى والمراد بهؤلاء قيل اليهود وقيل المنافقون وقيل الفريقان(٢).

ثالثًا: أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بإعداد القوة لأعدائهم حتى يكونوا مرهوبي الجانب:

ففي إعداد القوة إرهاب للأعداء وتخويف لهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي

---

(١) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن والعشرون (١٥/ ١٦٤).

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن والعشرون (١٥/ ٨٢، ٨٣) باختصار وتصرف.

سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فإعداد القوة ترهب جانب المؤمنين في نفوس أعدائهم وترعبهم كما أنها تهون من أي محاولة للأعداء في إثارة الرعب في نفوس المؤمنين.

والإرهاب جعل الغير راهبًا أي خائفا فإن العدو إذا علم استعداد عدوه لقتاله خافه ولم يجرؤ عليه فكان ذلك هناء للمسلمين وأمنا من أن يغزوهم أعداءهم[١].

رابعًا: استخدام القرآن الكريم نفس الوسيلة في مواجهة الأعداء:

وإذا كان الأعداء يستخدمون هذه الوسيلة فإن الله سبحانه وتعالى استخدم معهم هذه الوسيلة أيضا لكن هناك فرق كبير بين قذف الرعب من الله في قلوب الأعداء وبين محاولة الأعداء استخدامهم لهذه الوسيلة قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

يقول العلامة الشوكاني عند تفسيره هذه الآية: ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ ﴾ فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير والرعب هو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه، وقذفه إثباته فيه[٢].

والمراد بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم والذي ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[٣].

لقد آتاهم الله عز وجل من داخل أنفسهم لا من داخل حصونهم آتاهم من قلوبهم

---

(١) التحرير والتنوير، الجزء العاشر (٦/ ٥٦).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٣) باختصار وتصرف.

(٣) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الجهاد، باب قول النبي ﷺ نصرت بالرعب مسيرة شهر (٤/ ٦٥).

فقذف فيها الرعب ففتح حصونهم بأيديهم وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم فضلاً على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم(١).

وهكذا لم يعد لأعداء الإسلام داخل نفوس المؤمنين الصادقين أية قيمة يرهبون من أجلها إن هم عاشوا معاني القرآن وعايشوها.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/ ٣٥٢١) بتصرف.

سابعًا: النفي الإبعاد:

ومن وسائل الأعداء في الحرب النفسية التي استخدموها ضد الرسول ﷺ والمسلمين وسيلة النفي والإبعاد ولا شك أن هذه الوسيلة لها من الأثر الكبير على نفس المنفي ومعنوياته مما قد لا يحدث هذا الأثر خوض المعارك الجسام فإيلام النفس أقوى من إيلام الجسد.

والنفي في اللغة: من نفى الشيء نفيًا نحاه وأبعده، والمنفي مكان النفي(١).

وليس معنى النفي والإبعاد انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة إنما هو إكراه رجل آمن في سربه ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه والنجاة بشخصه فحسب، مع إشعاره وهو يصفي مركزه بأنه مستباح منهوب وقد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان(٢).

وقد دلت آيات القرآن الكريم على ممارسة الأعداء لهذه الوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد الرسول ﷺ ذاته ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ تحذير للمؤمنين وتبيين لهم أنهم إن تخلوا عن الرسول ﷺ ونصرته فقد نصره الله وليس معه سوى أبا بكر وحده.

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ من مكة حين مكروا به وأرادوا إخراجه وهموا

---

(١) المعجم الوجيز، مادة نفى (ص٦٢٩).

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي (ص١٦٦) بتصرف.

بقتله[١].

يقول العلامة القرطبي: ﴿ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهو خرج بنفسه فارًا لكن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله فنسب الفعل إليهم ورتب الحكم فيه عليهم[٢].

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضًا قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾[الأنفال: ٣٠].

يقول الشيخ رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي واذكر أيها الرسول في نفسك ما نقصه في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك لأنها حجة لك على صدق دعوتك، ووعد ربك بنصرك اذكر ذلك الزمن القريب الذي يمكر بك الذين كفروا من قومك في وطنك بما يدبرون فيما بينهم بالسر من وسائل الإيقاع بك.

﴿ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ ﴾ فأما الإثبات فالمراد به الشد بالوثاق والإرهاق بالقيد والحبس المانع من لقاء الناس، ودعوتهم إلى الإسلام، وأما القتل فالمكر فيه طريقته وصفته الممكنة التي لا يكون ضررها فيهم عظيمًا، وأما الإخراج فهو النفي من الوطن[٣].

وأسند الإخراج إلى ضمير العدو كلهم لأن جميعهم كانوا راضين بما يصدر من بعضهم من أذى المسلمين وربما أغروا به سفهاءهم[٤].

﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ عبر بالمضارع لما فيه من معنى الاستمرار أي ليس الأمر قاصر على عهد النبي ﷺ فقط بل هو ديدن أعداء الحق ضد

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٩٢) باختصار وتصرف.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٢٩٨٣).
(٣) تفسير المنار، أ/ رشيد رضا (٩/ ٥٤٢، ٥٤٣).
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

أتباع الحق في كل زمان ومكان ولكن الله سبحانه كما أبطل مكرهم ضد رسوله الكريم ﷺ من قبل ورد كيدهم في نحورهم فهو يبطل مكرهم ضد عبادة الصالحين في كل زمان ومكان.

يقول أ/ رشيد رضا: فهو بيان لحالتهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشر ما كان منها بمكة ولذلك لم يقل ويمكرون «بك» أي وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك وكما أحبط الله مكرهم معك فسيحبطه مع من اتبعك[1].

ومن أمثلة السيرة النبوية التي تتحدث عن ذلك:

أن المشركين قد استخدموا شتى الوسائل لإبعاد المسلمين عن أوطانهم وعن دينهم ففي أواسط السنة الرابعة من النبوة، بدأت الاضطهادات ضد المسلمين في مكة ضعيفة، ثم لم تزل يومًا فيومًا وشهرًا فشهرًا حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة حتى ضاق بهم المقام في مكة، وأوعزتهم أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الساعة الضنكة الحالكة نزلت سورة الكهف، ردودًا على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ ولكنها اشتملت على ثلاث قصص، منها إشارات بليغة من الله إلى عباده المؤمنين، فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين متوكلاً على الله.

فكانت الهجرة إلى الحبشة الأولى وإن شئت فقل الطرد والإبعاد إلى الحبشة لأن أهل مكة هم الذين أرغموا المسلمين على ترك أموالهم والفرار بدينهم.

ثم كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة لنفس الأسباب فلقد اشتد على المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، وأذاقوهم سوء العذاب، فكانت الهجرة

---

(١) تفسير المنار، أ/ رشيد رضا (٩/ ٥٤٣) باختصار وتصرف.

الثانية إلى الحبشة وكانت أشد من الأولى في التعب لأن قريشًا كانت قد تيقظت لذلك[١].

وهكذا أرغمت سياسة أعداء الإسلام المضطهدة للمسلمين على ترك أوطانهم وأموالهم وإبعادهم عنها مرتين للحبشة فرارًا بدينهم كما كان لها الأثر الكبير في هجرة الرسول ﷺ وصحابته إلى المدينة.

ولما لوسيلة النفي والإبعاد من أثر عظيم فقد حرص أعداء الإسلام أن يذيقوها للمسلمين على مر العصور ومن ذلك:

أنه في مصر أسندت رياسة الحكومة المصرية إلى رجلين من النصارى نوبار باشا، وبطرس غالي باشا فالأول مكن للأجانب ورسخ امتيازاتهم على حساب أهل مصر، والثاني سلم السودان للإنجليز وعمل على مد امتياز قناة السويس ومضى في سياسة ملأ الوظائف بالنصارى دون المسلمين[٢].

كذلك في فلسطين: نفى اليهود مليون ونصف فلسطيني من أرضهم لكي يتسنى لليهود امتلاك ٩٣٪ من مساحة فلسطين بعد ما كانوا لا يملكون سوى ٦.٥٪[٣].

وفي غرناطة: بعد استيلاء الصليبيين عليها أصدر الملك فرديناد سنة ١٥٠١م ثم أمرًا بحظر وجود المسلمين في غرناطة فإذا كان بها بعضهم يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم من المسلمين خوفًا من أن يتأخر تنصيرهم أو بأولئك الذين نصروا لئلا يفسد إيمانهم ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال ثم أصدر تشريعًا يلزم المسلمين بالسكن في أحياء خاصة بهم[٤].

وهكذا وبعد الاستعراض للصور الماضية والصور المعاصرة لاستخدام أعداء

---

(١) الرحيق المختوم (ص١١٠) باختصار وتصرف.

(٢) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، لمحمد الغزالي (ص٣٥٥).

(٣) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية لرجاء جارودي (ص١٦٠، ١٦٣).

(٤) انظر: انتشار الإسلام وقائع وملاحظات لعماد الدين خليل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، الرياض، (ص٦٢).

الإسلام لوسيلة النفي والإبعاد ضد المسلمين يظهر لنا جليًا، واضحًا إعجاز القرآن الكريم في إخباره بالغيب في قوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ فمكرهم مستمر على اختلاف الأمكنة والأزمنة استمرار جبهتي الحق والباطل ولكن رد الله سبحانه وتعالى لمكرهم في نحورهم مستمر أيضًا.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

منهج القرآن الكريم في الرد على وسيلة النفي والإبعاد:

لقد كان استخدام الأعداء لوسيلة النفي والإبعاد له من الأثر الكبير على نفوس المسلمين لولا أن الله عز وجل وضع لهم منهجًا فأصبح لا قيمة له في نفوسهم وبذلك فشلت خطة الأعداء من النيل من معنويات المؤمنين ولقد تركزت خطوات القرآن للوقاية من هذه الوسيلة فيما يلي:

أولاً: بين القرآن الكريم أن الله مع الفئة المؤمنة وأنه ناصرها فلا أثر لنفي أعدائها لها على نفوسها.

ثانيًا: وعد الله سبحانه وتعالى في آيات القرآن من أخرجوا في سبيله بالعطاء الجزيل.

ثالثًا: إن القرآن الكريم قد هدد أعداءه باستخدام نفس الوسيلة إن هم استمروا على استخدامها.

أولاً: بين القرآن الكريم أن الله مع الفئة المؤمنة وأنه ناصرها فلا أثر لنفي أعدائها لها على نفوسها:

ومن الآيات القرآنية التي توضح أن الله مع الفئة المؤمنة التي تمارس وسيلة النفي ضدها قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] فالله سبحانه وتعالى هو المتعهد بنصرتك والرد على مكرهم فلا تبتئس بهم.

كذلك قول الله عز وجل: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

أي إن تركتم نصره فالله متكفل به فقد نصره قبل ذلك في موضع القلة ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ أي دع الحزن فإن الله بنصره وعونه وتأييده معنا ومن كان الله معه فلن

يغلب(١).

ثانيًا: وعد الله سبحانه وتعالى في آيات القرآن من أخرجوا في سبيله بالعطاء الجزيل:

ولقد وعد الله سبحانه من أخرجوا في سبيله بالعطاء الجزيل قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ ﴾ أي إلى طلبهم، ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ جملة معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ هجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين ﴿ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى ﴾ بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿ وَقَـٰتَلُوا۟ ﴾ الكفار، ﴿ وَقُتِلُوا۟ ﴾ في الجهاد أو قتل منهم قوم وقاتل الباقون ولم يضعفوا ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ لأمحونها ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي أثيبهم بذلك إثابة من عند الله وتفضلاً ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾(٢).

ثالثًا: إن القرآن الكريم قد هدد أعداءه باستخدام نفس الوسيلة إن هم استمروا على استخدامها:

وقد هدد الله سبحانه وتعالى من يستخدمون هذه الوسيلة ضد الرسول ﷺ والمؤمنين بأنه سيستخدمها معهم إن هم استمروا عليها كما استخدمها مع الأمم السابقة قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦-٧٧].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٨١) باختصار.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٩٦، ١٩٧) باختصار وتصرف.

فهم إن أخرجوك فسوف يخرجهم الله كما أخرج من فعل ذلك مع أنبيائه السابقين فهي سنة الله لن تتبدل.

ولقد امتن الله سبحانه على نبيه وعلى المؤمنين باستخدامه للنفي لأعدائهم من بني النضير وهو ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

قال ابن كثير: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه فأحل الله بأسه الذي لا يرد وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئًا وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أزرعات من أعالي الشام وهي أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر[(١)].

فالله سبحانه هو الذي أخرجهم وهو القادر على هزيمتهم، وهزيمتهم النفسية أعظم لإخراجهم من ديارهم صاغرين مرعوبين.

وهكذا واجه القرآن الكريم وسيلة النفي والإبعاد فلم يعد لها أثر على نفوس المسلمين.

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن كثير (٤/ ٣٣٠)، وانظر: البداية والنهاية (٤/ ٧٤، ٨٠) باختصار وتصرف.

ثامنًا: تحطيم الروح المعنوية:

وسيلة تحطيم الروح المعنوية:

إن الروح المعنوية من أهم العوامل التي تؤدي إلى النصر أو الهزيمة فالعامل النفسي يترتب عليه الروح والهمة والعزيمة التي إن كانت على درجة عالية كان الأداء على درجة عالية.

ولقد فطن أعداء الإسلام إلى هذا العامل من أول لحظة فأخذوا يستغلونه لصالحهم وضد الإسلام ورسوله وأتباعه، ولقد حكى القرآن الكريم مواقف كلاً من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب في تحطيم الروح المعنوية لدى المسلمين.

ومن هذه المواقف التي حدثت من المشركين:

ما حاوله المشركون من زعزعة نفوس المسلمين وبلبلتهم وتحطيم معنوياتهم بعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة فأذاع المشركون أن محمد وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، مما كان له أكبر الأثر في نفوس أصحاب النبي ﷺ حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

يقول الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش ومعه نفر من المهاجرين فقتل عبد الله بن واقد الليثي عمرو بن الحضرمي في آخر يوم من رجب وأسروا رجلين واستلقوا العير فوقف على ذلك النبي ﷺ وقال: «**لم آمركم بالقتال في الشهر الحرام**» فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام، فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ

عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [(١)].

ويقول صاحب تفسير الكشاف أن ما حدث من قتل وأسر إنما كان في أول يوم من رجب وقد ظن عبد الله بن جحش وأصحابه أنه كان آخر يوم من جمادي الآخر فإنما فعلوا ما فعلوا لا استحلالا منهم للشهر الحرام وإنما بناء على الظن [(٢)].

والآية الكريمة توضح أنه وإن كان القتال في الشهر الحرام كبيرًا إلا أن القتال داخل الحرم وإخراج أهله والمراد بهم النبي ﷺ وأصحابه منه اكبر عند الله سبحانه وتعالى وأن الفتنة أكبر من القتل: وقد فسر العلامة الشوكاني الفتنة: بأنها الكفر أي كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ وقيل الفتنة الإخراج لأهل الحرم منه وقيل فتنة المستضعفين من المؤمنين عن دينهم، وقيل: أو نفس الفتنة التي عليها الكفار [(٣)].

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ ﴾ فالعلة من قتالهم هو ارتدادكم عن دينكم فهو الحقد الدفين الذي يضمرونه لكم لأنكم مسلمون مستمسكون بالطريق المستقيم وهو الحقد الدفين الذي تطوى عليه قلوب أعداء المسلمين في كل عصر ومصر، وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾ إفادة للشك في استطاعتهم.

يقول أ/ رشيد رضا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾ يفيد الشك في استطاعتهم وعدم الثقة بها لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة، وهو الحق الصريح، لا يرجع عنه إلى الكفر، وهو الباطل المفضوح، وهكذا كان وهكذا يكون فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا، ولم يستطيعوا [(٤)].

ثم تخبرنا الآية الكريمة أن من ارتد عن دينه ومات وهو على الكفر حرم جزاء أعماله

(١) أسباب النزول للإمام الواحدي (ص٦١، ٦٢) باختصار وتصرف.
(٢) تفسير الكشاف للزمخشري (١/ ٣٥٦) بتصرف.
(٣) فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٨٧) بتصرف.
(٤) تفسير المنار (٢/ ٢٥٦) باختصار وتصرف.

الصالحة وهو في الآخرة من أصحاب النار مخلدًا فيها.

يقول العلامة ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ وحبط الأعمال زوال آثارها المجعولة مرتبة عليها شرعًا فيشمل آثارها في الدنيا والثواب في الآخرة وهو سر قوله: ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[1].

وهكذا أفسدت الآية الكريمة خطة المشركين للنيل من معنويات المسلمين وبينت أن الجرم الحقيقي هو حرب المؤمنين وفتنتهم وإخراجهم من أرضهم.

أما المنافقون فكانوا ذوي الباع الطويل في استخدامهم لوسيلة تحطيم المعنويات لدى المسلمين ولما لا وهم قوم مرضى القلوب وضعاف النفوس جرثومة في المجتمع تحاول أن تضعف كل من يقترب إليها ولكن هيهات لهم أن ينالوا من أقوام قويت قلوبهم بمعرفة الله وقويت أجسادهم بطاعته والعمل في سبيله، ومن مواقف المنافقين هذه ما حولوه في غزوة تبوك من النيل من معنويات المسلمين وتثبيط عزيمتهم في الخروج للغزوة، فقالوا: لا تنفروا في الحر، واستعظموا للمسلمين مشقة الطريق ومرارته وقوة الروم، فنزلت آيات كريمة تبين ما قالوه وترد عليهم ردًا دامغًا يخزيهم ويرد كيدهم في نحورهم هذه الآية هي قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢].

فنتيجة مكرهم وتثبيطهم من همم المسلمين وتخلفهم عن رسول الله هو البكاء الكثير نتيجة لشدة ما يلاقونه يوم القيامة جزاء كسبهم.

يقول العلامة الشوكاني في معنى ﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ المخلفون: المتروكون وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك.

---

(١) التحرير والتنوير للعلامة ابن عاشور الجزء الثاني (٢/ ٣٣٢).

﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ أي بقعودهم ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي خلفه أو مخالفة له[١]، ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إيثارًا للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج[٢].

ثم توضح الآية ما قاله المنافقون للمؤمنين لتثبيط هممهم ومعنوياتهم بقوله تعالى: ﴿ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾.

يقول العلامة الشوكاني أي قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطًا لهم كسرًا لنشاطهم وتواصيًا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله[٣].

أو أنهم قال بعضهم لبعض ذلك أو قالوه للمؤمنين تثبيطًا[٤].

ثم يأمر الله سبحانه رسوله الكريم بأن يخبرهم بأن نار جهنم أشد حرًا فحرارتها شديدة وعذابها مستديم فلو كان لديهم عقل لفطنوا إلى ذلك وما خالفوا أوامر رسول الله وما قعدوا عن الجهاد، ثم تخبر الآية الكريمة أن مصيرهم الضحك القليل والبكاء الكثير بكاء في الدنيا بعد افتضاح أمرهم وبكاء في الآخرة جزاءًا وفاقًا لما كسبوه.

يقول الشيخ رشيد رضا: فليكونوا بقدرتنا وتقديرنا قليلي الضحك كثيري البكاء، لأن سبب سرورهم بتخلفهم وقعودهم زال وأعقبهم الفضيحة والنكال[٥].

يقول أ/ سيد قطب تعليقًا على موقف المنافقين هذا وكيف أن ثقله الحرص على الراحة وضعف الهمة أدركتهم فقال: إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة وطراوة الإرادة وكثيرا هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياء

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٠٦) باختصار وتصرف.
(٢) تفسير الطبري (١/ ٤١٥) باختصار وتصرف.
(٣) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٠٦).
(٤) تفسير الطبري (١/ ٤١٥) باختصار وتصرف.
(٥) تفسير المنار (١٠/ ٤٩٥) باختصار وتصرف.

خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات، ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال(١).

أما اليهود فقد كان استخدامهم لوسيلة تحطيم المعنويات ضد الرسول الكريم ﷺ وصحبه بكل شراسة فما من فرصة سنحت لهم إلا واستغلوها من خلال تشكيك المسلمين في أمرهم وإذاعة البلبلة فيما بينهم فتضعف معنوياتهم ومن ذلك ما حاولوا إثارته أثناء تغيير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ومن ذاك قولهم للرسول ﷺ من بعد نصر الله له في بدر: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأن لم تلق مثلنا(٢).

كل ذلك بهدف النيل من معنويات الصف المؤمن ومن الآيات التي توضح تشكيك اليهود للمؤمنين في أمور دينهم بهدف النيل من معنوياتهم قول الله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

يقول الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى آخر الآية فقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٣/ ١٦٨٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٩٤) باختصار.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ إلى آخر الآية(١).

والسفهاء: هم اليهود أو المنافقون أو المشركون وإن كان الإمام الواحدي ذكر أنهم هم اليهود.

ويفسر الإمام القرطبي السفهاء فيقول: السفهاء جمع واحده سفيه وهو الخفيف العقل من قولهم ثوب سفيه أي خفيف النسج(٢).

وهؤلاء السفهاء من اليهود قصدوا من استفهامهم عن تحويل القبلة التعريض بالمؤمنين والتشكيك لهم فهم قوم جبناء النفوس مرضى القلوب.

يقول العلامة ابن عاشور: والاستفهام في قوله: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾ مستعمل في التعريض بالتخطئة واضطراب العقل(٣).

ثم تأتي الآية الكريمة تدحض شكوك السفهاء وتبين لهم سوء فهمهم فالكون كله لله والخلق كله لله يوجهه كيف يشاء في ملكه حتى وإن وجهه في اليوم الواحد لأكثر من جهة والذي يفطن إلى هذه المسألة فقد هداه الله إلى صراطه المستقيم.

يقول أ/ رشيد رضا تعليقًا على هذه الآية: فاعلم أن نسبة الجهات كلها إلى الله واحدة وإن العبرة في التوجه إليه سبحانه بالقلوب واتباع وحيه في توجه الوجوه(٤).

وهكذا استخدم اليهود وسيلة تحطيم المعنويات كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ضد الرسول ﷺ ولقد تولى القرآن الكريم محاربتهم والرد عليهم كما حارب إخوانهم من أعداء المسلمين من كفار ومنافقين.

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

---

(١) أسباب النزول للإمام الواحدي (ص٤٢) باختصار وتصرف.
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (١/ ٥٣١) باختصار.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء الثاني (٢/ ٨).
(٤) تفسير المنار (٢/ ٤).

منهج القرآن الكريم في الرد على وسيلة تحطيم المعنويات:

ومن الوسائل التي استخدمها أعداء الإسلام والتي رد عليها القرآن بعدما كشفها وبين حقيقة أمرها وحصن المسلمين ووقاهم منها وسيلة تحطيم المعنويات ويمكن تلخيص منهج القرآن في مواجهة وسيلة تحطيم المعنويات في العناصر التالية:

أولاً: أنه أورد محاولات أعداء الإسلام لتحطيم معنويات المسلمين ورد عليهم.

ثانيًا: أمر المؤمنين بالثبات وعدم الالتفات لما يحاوله أعداءهم من النيل من روحهم المعنوية.

ثالثًا: وعد هؤلاء الراسخين الذين لا يلتفتون لأي محاولة للتثبيط بالجزاء العظيم.

رابعًا: استعمل القرآن الكريم نفس الوسيلة ضد الأعداء.

أولاً: أورد محاولات أعداء الإسلام لتحطيم معنويات المسلمين ورد عليها:

ولقد أورد القرآن الكريم محاولات أعداء الإسلام لتحطيم معنويات المؤمنين ورد عليهم حتى لم يعد لها أثر في نفس المؤمنين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ﴾ منصوب على الذم أو الوصف للذين نافقوا ﴿ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أي لأجلهم يريد من قتل يوم أحد من أقاربهم أو من جنسهم ﴿ وَقَعَدُواْ ﴾ حال مقدرة أي: قالوا قاعدين عن القتال ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ في القعود بالمدينة ما قتلوا كما لم نقتل.

فهذه هي محاولتهم لتثبيط المؤمنين وتحطيم معنوياتهم فكان الرد من الله عليهم بفساد تصورهم وإبطال قولهم ودفعه.

﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إنه كنتم صادقين أنكم تقدرون عن دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه فإنه أحرى بكم.

والمعنى أن القعود غير مغني عن الموت فإن أسباب الموت كثيرة كما أن القتال يكون سببًا في الهلاك والقعود يكون سببًا للنجاة فقد يكون الأمر بالعكس(١).

ومن الآيات كذلك: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

فهم أرادوا بمقولتهم هذه أن يحطموا الروح المعنوية عند المؤمنين ولكن الله عز وجل رد عليهم بأبلغ رد حتى لم يعد لهذه المقولة أثر في نفوس المؤمنين.

ثانيًا: أمر الله سبحانه المؤمنين بالثبات وعدم الالتفات لما يحاوله أعداءهم من النيل من روحهم المعنوية:

فلا يكترثون بهم وعليهم أن يوثقوا علاقتهم بالله سبحانه فهو مصدر كل قوة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] فالثبات وذكر الله سبحانه وهو عدة الفلاح مع أي لقاء مع الأعداء.

يقول العلامة الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفار واللقاء اسم للقتال غالب ﴿ فَٱثْبُتُواْ ﴾ لقتالهم ولا تفروا ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره منتصرين به داعين على عدوكم ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة(٢).

ثالثًا: وعد الله من لا يلتفت لأي محاولة لتحطيم روحه المعنوية بالجزاء الوفير:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٨٩).

(٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٦١، ١٦٢) باختصار.

سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ الناس هم نعيم بن مسعود أو جماعة من المنافقين أو ناس من هذيل.

﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ الناس هنا أبو سفيان وأصحابه ﴿ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ ﴾ أي جموعًا كثيرة، ﴿ فَٱخۡشَوۡهُمۡ ﴾ فخافوهم واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا ﴾ تصديقًا ويقينًا في دينهم وإقامة على نصرتهم له وقوة وجرأة واستعدادًا ﴿ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ كافينا ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ لما فوضوا أمورهم لله واعتمدوا بقلوبهم عليه ولم يؤثر في نفوسهم أية تثبيط أو تهديد أعطاهم الله من الجزاء أربعة معان: النعمة والفضل وصرف السوء واتباع الرضا فرضاهم عنه ورضي عنهم[1] وأي جزاء أعظم من هذه الأربعة.

رابعًا: استخدام القرآن الكريم نفس الوسيلة ضد الأعداء:

استخدم الله سبحانه وتعالى نفس الوسيلة مع أعداء الإسلام وهو وسيلة تحطيم الروح المعنوية وفي ذلك أبلغ رد عليهم وكأنه يقول لهم حاولتم تحطيم معنويات المؤمنين ففشلتم وسيحطمون هم معنوياتكم ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥].

وكما في تقطيع الأشجار وخاصة النخيل الأثر الكبير في تحطيم معنويات أعداء الإسلام.

يقول العلامة أبو السعود عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ أي شيء قطعتم من نخلة واللينة هي النخلة الكريمة ﴿ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أي قطعها وتركها بأمر الله تعالى ﴿ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أي وليذل اليهود ويغيظهم أذن في قطعها وتركها لأنهم إذا

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٣/ ١٥٢٢، ١٥٢٤) باختصار وتصرف.

رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف أحبوا ويتصرفون فيها حسبما شاءوا من القطع والترك يزدادون غيظًا ويتضاعفون حسرة وتخصيص اللينة بالقطع إن كانت من الألوان لاستيفاء العجوة والرنية اللتين هما كرام النخيل؛ وإن كانت هي الكرام يكون غيظهم أشد[١].

ومن المواقف التي وردت في السيرة في تحطيم معنويات الأعداء ما فعله النبي ﷺ من حصار الطائف بعد انتصاره على قبيلتي ثقيف وهوازن في موقعة حنين رمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ومحاولتهم اقتحام الأسوار بالإضافة إلى تقطيع وتحريق كرومهم مما كان له الأثر الكبير في نفوس بني ثقيف حتى أدركوا أنهم في عزلة نفسية قاتلة فبعثوا وفد يفاوضه عليه السلام فأسلم الوفد ودخل أهل الطائف الإسلام[٢].

وهذا يدل على استخدام الرسول ﷺ لوسيلة تحطيم المعنويات ضد أعدائه.

وهكذا واجه القرآن الكريم وسيلة تحطيم المعنويات حتى أصبحت ليس لها أثر في نفوس المؤمنين بل على العكس كان لها أكبر الأثر على معنويات أعدائهم.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٥/ ٧٠٣) باختصار وتصرف.

(٢) الرسول والحرب النفسية، د/ علي حسن الخربوطلي (ص١٤٨).

تاسعًا: الجدل:

الجدل لغة: اللدد في الخصومة والقدرة عليها ومراجعة الكلام(١).

وهو المناقشة والمخاصمة(٢).

وفي الاصطلاح: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم(٣) والجدل يكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال(٤).

والجدل منه ما هو ممدوح ومنه ما هو مذموم فالممدوح جدل أيد الحق أو أفضى إليه، والمذموم كل جدل أيد الباطل أو أفضى إليه، والنوعان موجودان في القرآن الكريم.

فمن الجدل الممدوح ومنه ما هو مذموم فالممدوح جدل أيد الحق أو أفضى إليه والمذموم كل جدل أيد الباطل أو أفضى إليه، والنوعان موجودان في القرآن الكريم.

فمن الجدل الممدوح قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومخاطبًا الدعاة المصلحين: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما الجدل المذموم فمنه ما حكاه قول الله سبحانه: ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

والجدل لو خطير من ألوان الحرب النفسية الذي استخدم كثيرًا ضد الرسول عليه الصلاة والسلام ودعوته، وقد استخدم الجدل في جميع الأزمان والعصور كوسيلة من

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١١/ ١٠٥)، ط/ الدار المصرية للتأليف، القاهرة.

(٢) المعجم الوجيز، لفظ جدل (ص٩٥).

(٣) مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان (ص٢٩٨) باختصار وتصرف، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٤) تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهرة (ص٥٠)، ط/ دار الفكر العربي، الكويت.

وسائل الحرب النفسية والتأثير(١).

وقد مورست وسيلة الجدل ضد الرسول ﷺ من كل الجبهات المعادية له وكان غرضهم من ذلك فض الناس عنه وتشكيكهم فيه قصدًا منهم حقدًا وحسدًا لما رأوا من نجاح دعوته وازدياد أتباعه.

استخدام المشركون لوسيلة الجدل:

ولقد استخدم المشركون الجدل مع الرسول ﷺ من أول لحظة حين دعاهم إلى الله وحده ونبذ أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر فقالوا ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ أي قومك(٢)، ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ أي آلهتنا خير عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فلتكن آلهتنا معه أو آلهتنا الملائكة خير أم عيسى عليه السلام فإذا أجاز أن يعبد ويكون ابن الله كانت آلهتنا أولى بذلك أو آلهتنا خير أم محمد ﷺ فنعبده وندع آلهتنا.

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ ﴾ أي ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة لا لتمييز الحق من الباطل ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ شداد الخصومة حراص على اللجاج(٣).

يقول أ/ سيد قطب: ويتضح مما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ أنهم لدد في الخصومة ومهارة فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن وما يقصد إليه الرسول ﷺ فيلوونه عن استقامته ويتلمسون شبهة في عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحكات الجدلية التي يغرم بمثلها كل من عدم الإخلاص وفقد الاستقامة(٤).

---

(١) تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهرة (ص٧) باختصار وتصرف.

(٢) تنوير الأذهان للبروسوي، تحقيق الشيخ الصابوني (٤/ ١).

(٣) تفسير البيضاوي (٢/ ٣٧٥، ٣٧٦) ط/ دار الكتب العلمية.

(٤) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٥/ ٣١٩٧)، ط/ دار الشروق، باختصار وتصرف.

وهكذا نرى استخدام المشركين للجدل كوسيلة من وسائل الحرب النفسية.

أما استخدام اليهود لوسيلة الجدل فقد اشتهر عنهم ذلك فمن المعروف عنهم أنهم أهل جدل فقد اتبعوا أنبياءهم بالتوائهم ومجادلتهم وقصصهم مع موسى عليه السلام أشهر من أن يشار إليها.

والعقلية والطبيعة نفسها ما تزحزحت عما تركها موسى إلا إلى مزيد من التعقيد والالتواء وقد بدأت حرب الجدل بين النبي وبين اليهود مبكرة نستطيع أن نقول بحلوله المدينة بل وقبل إتيان النبي ﷺ للمدينة فقد كانوا يلقنون المشركين مسائل يجادلون حولها ولكن الجدل المباشر مع النبي ﷺ اشتد بعد دخول بعض أحبار اليهود في الإسلام[1].

وقد كثرت المسائل التي جادل اليهود الرسول ﷺ حولها من جدالهم له حول الساعة وحول الروح وحول احتجاجهم بعدم إيمانهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة وحول عزير وادعاؤهم أنه ابن الله إلى غير ذلك.

ومن الآيات التي أوردها القرآن الكريم والتي تصور صورة من جدليات اليهود قول الله عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

يقول الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية:

قال ابن عباس: قال جبل بن أبي قشير وشموال بن زيد وهما من اليهود: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فإنا نعلم متى هي، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

والآية الكريمة تبين سؤال اليهود وقيل المشركين عن الساعة ووقتها وما أرادوا بذلك الاهتداء وإنما أرادوا الجدال لأن وقتها لا يعني من أراد الاهتداء فالأخرى به أن

---

(١) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٥٥، ٥٦)، باختصار وتصرف.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص١٨٧).

يتوجه لما ينفعه من قول وعمل ولا يضيع وقته فيما لا طائل من ورائه ثم يجيبهم النبي ﷺ أن علمها عند الله فهي من الأشياء التي لم يطلع الله أحدًا من خلقه عليه وذلك لا يقدح في مكانة النبي ﷺ ثم تخبر الآية الكريمة أن الساعة لن تأتي إلا فجأة فالأولى صرف الهمم للعمل الصالح والقول السديد.

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ السائلون هم اليهود وقيل قريش والساعة القيامة وهي من الأسماء الغالبة وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها ﴿ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ مُرْسَىٰهَا ﴾ وقت إرساؤها[1] ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ استأثر به لم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً، ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ لا يظهر أمرها في وقتها إلا الله سبحانه وتعالى، ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ فجأة على غير توقع وانتظار.

يقول أ/ رشيد رضا: فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق ويتحروا فيها الخير ويتقوا الشرور والمعاصي ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال والقيل والقال[2].

﴿ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ عالم بها، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحدًا من خلقه[3].

يقول العلامة ابن عاشور:

وفي الآية إشارة إلى أن الرسول ﷺ لا تتعلق همته بتعيين وقت الساعة إذ لا فائدة له في ذلك ولأنه لو اهتم بذلك لكان اهتمامه تطلبًا لإبطال الحكمة في إخفائها وفي هذا إشارة إلى أن انتفاء علمه بوقتها لا ينافي كرامته على الله تعالى[4].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٨٧) باختصار.
(٢) تفسير المنار (٩/ ٣٨٧).
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٣٧٠) باختصار.
(٤) التحرير والتنوير الجزء التاسع (٥/ ٢٠٥).

وهكذا فقد أكثر اليهود مجادلة النبي ﷺ والمؤمنين بغرض إضعاف شأنهم وزعزعة ثقتهم في أنفسهم ولكن الله هو الذي تولى محاجتهم فالله يدافع عن الذين آمنوا.

كذلك كان للنصارى جدال مع رسول الله ﷺ فقد كان جدال النصارى متمثلاً في وفد نجران حيث جادلوا النبي الكريم ﷺ في شأن عيسى عليه السلام فلقد كلم النبي ﷺ ثلاثة منهم هم أبو حارثة، والعاقب، والسيد، وهم مع اختلافهم في أمرهم يقولون في المسيح هو الله ويقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة.

فلما كلموا الرسول ﷺ قال لهم: «أسلموا» فقالوا: قد أسلمنا فقال لهم النبي ﷺ: «إنكم لم تسلموا فأسلموا» قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: «كذبتم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله ولدًا، وعبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير» قالوا: فمن أبوه يا محمد فصمت عنهم رسول الله ﷺ فلم يجبهم فأنزل الله نيف وثلاثين آية من أول سورة آل عمران في شأن عيسى فحدثهم عنه بالتفصيل وبدأ الحديث بولادة جدته حنة لأمه مريم في حديث عجيب يدل دلالة قاطعة على عبودية عيسى عليه السلام ونبوة محمد ﷺ فقد جاء في هذه الآيات قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] ثم دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة وخرج ﷺ ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها فخافوا ولم يباهلوا(١).

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

والآية الكريمة تدل على أن كثرة محاجة النصارى وجدالهم لم يكن لإحقاق الحق

---

(١) انظر: هذا الحبيب يا محمد، لأبي بكر الجزائري (ص٢٠٠) باختصار وتصرف، وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص٩٠).

وإثباته وإنما كان لمجرد المكابرة والعناد ولذلك دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة بالملاعنة المذكورة في الآية.

يقول العلامة ابن عاشور:

الآية تفريع على قوله: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ لما فيه من إيماء إلى ان وفد نجران ممترون في هذا الذي بين الله لهم في هذه الآيات، أي: فإن استمروا على محاجتهم إياك مكابرة في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة والملاعنة ذلك أن تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم وبينت لهم فلم يبق أوضح مما حاججتهم به فعلمت أنهم يحاجوك عن مكابرة وقلة يقين فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة هنا[١].

وقد فسر العلامة الألوسي المحاجة بالمجادلة والمخاصمة فقال في تفسيره:

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ ﴾ أي جادلك وخاصمك من وفد نصارى نجران، ﴿ فِيهِ ﴾ أي في شأن عيسى عليه السلام لأنه المحدث عنه وصاحب القصة[٢]، ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ هو اليقين الذي يفيد أن عيسى عبد الله ورسوله ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ فدعا النبي الحسن والحسين وفاطمة وعلي ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ نتضرع في الدعاء ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ منا ومنكم في أمر عيسى[٣].

وقد علق أ/ رشيد رضا على هذه الآية بما يشير إلى إعزاز الإسلام لكرامة المرأة وإعلائه لها فلا بأس من خروجها المؤتمرات العامة والدفاع عن الدين في معركة الكلمة وقد عاب على من عزل نساءه عن تعلم الدين ومسائله كما عاب على موجة تقليد الغرب

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الثالث (٣/ ٢٦٤).

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء الثالث (٣/ ٢٩٩).

(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي (١/ ٣١٠) باختصار وتصرف.

وعاداتهم والغناء والعزف وما إلى ذلك وهذا من عوامل الانقلاب الاجتماعي الذي لا تعلم عاقبته(١).

أما المنافقون فكان دورهم في استخدام هذه الوسيلة من وسائل الحرب النفسية كبير حيث كانوا يتولون الترويج للخلافات والمجادلات في داخل الصف المسلم فشكلوا بما يعرف حديثًا طابورًا خامسًا في داخل المجتمع المسلم كما أنهم كانوا عينًا للأعداء على خبايا وخفايا وأسرار المجتمع المسلم(٢).

فكانت معظم المجادلات التي يثيرها المشركون والنصارى واليهود مشعلة من قبل المنافقون الذين هم منهم.

ولعل من أبرز مواقف المنافقين الجدلية هو ما أحدثه عبد الله بن أبي بن سلول من مجادلات شديدة حول خروج النبي ﷺ في غزوة أحد لملاقاة قريش ومن حالفت من المشركين وذلك أنه عندما سار رسول الله ﷺ في ألف مقاتل ليقاتل قريشًا ومن حالفها انسحب عبد الله بن أبي مع ثلث الجيش في الطريق وعندما حاول المسلمون أن يثنوه ومن معه عن التزامهم وأخذوا يذكرونهم بالله ووجوب الطاعة ولزوم الجماعة ولكن عبد الله ومن معه احتجوا بحجج واهية ساقطة وهي انه لن يحدث قتال فلا داعي للخروج وقد أحدث ذلك انقسام في صفوف المسلمين كما أدى ذلك إلى انقسام الباقين بموقفهم تجاه المنافقين إلى قسمين، قسم يرى قتالهم وقسم لا يرى قتالهم(٣).

قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٨٨].

---

(١) انظر: تفسير المنار (٣/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٥٧).

(٣) غزوة أحد، د/ محمد عبد القادر أبو فارس (ص٤٥).

يقول العلامة القاسمي عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ أي فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين ﴿ فِئَتَيْنِ ﴾ أي فريقين ولم تتفقوا على التبرأ منهم، والاستفهام للإنكار والنفي والخطاب لجميع المؤمنين.

لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجهًا إلى بعض المؤمنين وذلك أن فرقة من المؤمنين كانت تميل إليهم وتذب عنهم وتواليهم، وفرقة منهم تباينهم وتعاديهم فأمروا أن يكون على منهج واحد في التباين والتبرؤ منهم لأن دلائل نفاقهم وكفرهم واضحة، فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم، قيل أن المراد بالمنافقين هنا عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه الذين خذلوا الرسول ﷺ يوم أحد ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا[(١)].

كما ورد أن النبي ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا هم من المؤمنين فأنزل الله ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾[(٢)].

والآية الكريمة إرشاد للمؤمنين عامة في كل زمان ومكان إلى وحدة كلمتهم ووحدة صفهم وطاعة قائدهم ما دام على الحق كما أنها توجيه للمؤمنين بعدم مداهنة وملاينة العناصر المريضة في المجتمع المسلم والتي من الممكن أن يستشري خطرها.

وإذا كان النبي ﷺ تعرض لمعارك شديدة من المجادلة من جبهات العداء المختلفة وإذا كان الحق وأتباعه يتعرضون لمثل هذه المعارك من أتباع الباطل فما الدافع لهؤلاء - أتباع الباطل - لخوض هذه المعارك، إنه ولا شك الكبر والغرور اللذان يمنعان صاحبهما من التسليم بالحق والإذعان له.

إن هذا المخلوق الإنسان ينسى نفسه في أحيان كثيرة ينسى أنه كائن ضعيف يستمد القوة لا من ذاته ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول من الله فيقطع اتصاله هذا ثم

---

(١) تفسير محاسن التأويل للقاسمي (٥/ ١٤٣٥، ١٤٣٦) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه الإمام البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ (٦/ ٥٩).

يروح ينتفخ ويورم ويتشامخ ويتعالى يحيك في صدره الكبر يستمده من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر ثم سلط على الإنسان فآتاه من قبله.

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر ثم يحاول أنه يقنع الناس أنه يجادل لأنه غير مقتنع ولكن الله العالم بالسرائر يفضح أمره ويقرر أنه ما دعاه إلى الجدال إلا الكبر والتطاول والغرور(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وهكذا يتبين أن القرآن الكريم تولى الرد على جدال أعداء الإسلام فكلما أوردوا مجالاً للجدل رد القرآن عليه وأبطل حججهم.

---

(١) في ظلال القرآن، أ/ سيد قطب (٥/ ٣٠٨٨، ٣٠٨٩).

منهج القرآن الكريم في مجادلة الخصوم:

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أنها احتوت على طرق كثيرة من طرق الجدل استخدمت مع المخالفين للحق المعاندين له، كان من ضمن أهدافها توضيح الحق لهم إن كانوا طالبين له ورد كيدهم في نحورهم إن كانوا معاندين مستكبرين.

وقد ذكر العلماء طرقًا من الجدل القرآني منها:

أولاً: الأقيسة الإضمارية.

ثانيًا: القصص.

ثالثًا: قياس الخلف.

رابعًا: مجاراة الخصم في دعواه وإثبات كذبه بإبطال مدعاه.

أولاً: الأقيسة الإضمارية:

وهي الأقيسة التي تحذف فيها إحدى المقدمات[1].

ولقد وردت كثير من أدلة القرآن قد حذفت فيها إحدى المقدمات ومنه ما ورد في رد الله سبحانه وتعالى على النصارى في زعمهم أن عيسى ابن الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠].

أي إن كان خلق عيسى من غير أب مبرر لكونه إله فخلق آدم من غير أم وأب أولى أن يكون إله ولا أحد يقول ذلك.

يقول العلامة البيضاوي عند تفسيره هذه الآيات:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشبه وهو أنه خلق بلا أب

---

(١) حولية كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد ١٣ لسنة ١٩٩٦م (ص١٥٢)، باختصار، وانظر: تاريخ الجدل، أ/ محمد أبو زهرة (ص٩٤).

كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم شبه حاله بما هو أعذب منه إفحامًا للخصم وقطعًا لمواد الشبهة والمعنى خلق قالبه من التراب ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ أي أنشأه بشرا، ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي الحق المذكور من الله تعالى والخطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع(١).

وهكذا رد القرآن الكريم على مسألة كثيرًا ما جادل فيها النصارى فرد على جدالهم بمنتهى الاختصار مع وضح الحجة.

ثانيًا: القصص:

من الوسائل التي اتخذها القرآن للرد على مجادلة الخصوم وسيلة القصة وتضمينها إبطال ما يزعمه أعداء الإسلام أو يجادلون حوله ومنه قول الله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤١-٤٢] فالقصة تضمنت إبطال عبادة الأصنام والأدلة على كونها لا تصلح أن تكون آلهة وهي أنها لا تسمع ولا تبصر.

يقول العلامة أبي السعود عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ أي اتل على الناس قصته وبلغها إياهم فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ بيان لدواعي ذكره عليه السلام، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ ﴾ مستميلاً له متلطفًا في دعوته، ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾ ثناؤك عليه عند عبادتك له وجوارك إليه، ﴿ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه وهو لا يسمع ولا يبصر شيئًا من المسموعات والمبصرات ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ في جلب نفع أو دفع ضر(٢).

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٦٢، ١٦٣) باختصار وتصرف.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٣/ ٤٢٨) باختصار.

ثالثًا: قياس الخلف:

وسيلة أخرى من وسائل مجادلة القرآن الكريم لخصومه ومعناها إثبات المطلوب بإبطال نقيضه فقد أثبت القرآن الكريم وحدانية الله سبحانه وتعالى بإبطال إمكان كون وجود إلهين قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

يقول العلامة الشوكاني: ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدد الآلهة فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ أي لو كان في السموات والأرض معبودون غير الله لفسدتا أي لبطلتا بما فيهما من المخلوقات ووجه الفساد أن يكون مع الله إلهًا آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادر على الاستبداد بالتصرف فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزه عز وجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له[1].

رابعًا: مجاراة الخصم في دعواه وإثبات كذبه بإبطال مدعاه:

ومن أمثلة ذلك ما سجله القرآن الكريم مصورًا دعوة اليهود بأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات فذكر القرآن دعواهم وأبطلها بكونها أمر لا بد فيه من وعد من الله وإلا تكون تقولاً باطلاً على الله ولما كانت من غير وعد من الله فهي دعوى باطلة لا أصل لها.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

قوله: ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ جوابًا لكلامهم ولذلك فصل ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ﴾ أي فإن كان ذلك فلكم العذر في قولكم لأن الله لا يخلف عهده.

وقوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾ إبطال لقولهم ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ ﴾ أي بلى أنتم

---

(١) تفسير الشوكاني (٣/ ٤٠٢، ٤٠٣) باختصار وتصرف.

تمسكم النار مدة طويلة لأنكم ما أنتم إلا ممن كسب سيئة ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فأنتم فيها لا محالة، والقصر المستفاد من التعريف في قولهم ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ قصر إضافي لقلب اعتقادهم[1].

وهكذا يبطل القرآن الكريم دعوى الخصوم ويثبت كذبها.

والقرآن الكريم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين العقلية والسمعية وما من برهان ولا استدلال ولا تقسيم إلا وكتاب الله قد نطق به إلا أنه أورده على عادة العرب من الوضوح والجلاء دون دقائق المتكلمين وطرق المناطقة ذلك لأنه نزل بلسان العرب يبين لهم عن الحقائق ويثبت أصول الشرائع ودعائم الحياة السليمة ولأن الذي أنزله هو الذي يعلم السر في السموات والأرض وهو القادر المستقدر فالقرآن الكريم بعيد عن الغموض في المحاجة والجدل واستلزام النتيجة من المقدمات إذ أن العاجز عن إقامة الحجة بالجلي المتضح في أجلى صورة وأنصع عبارة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم ويلزمهم بالحجة وتفهم الخواص من ثنايا ذلك ما يزيد على ما أدركته العامة والدهماء وقد بقى هذا التأثير والإقناع إلى يومنا هذا في نفوس العامة والخاصة[2].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٨٠، ٥٨١) باختصار.

(٢) صفوة البيان في مباحث من علوم القرآن، أ. د/ عزت محمد حسن (ص٢٣٤، ٢٣٥) دار أبو الفضل.

عاشرًا: المقاطعة والحصار الاقتصادي:

من وسائل الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين من جبهات العداء المختلفة ظنًا منهم أنهم بالقضاء على اقتصاد المسلمين سيضعفون تمسكهم بدينهم ويقضون على شموخهم وعزتهم التي تنبعث من الإيمان الصادق بالله.

ولكن كالعادة كل هذه السفاسف تتحطم على صخرة الإيمان القوية.

استخدام المشركين لهذه الوسيلة:

رأت قريش أن تنتقل بالحرب النفسية التي أعلنتها منذ ظهور الإسلام إلى مرحلة أخرى أكثر إيجابية وأشد على المسلمين فكانت مرحلة المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية من أجل تحقيق الضغط النفسي على الجماعة الإسلامية حتى تخضع وتستسلم وقد خطر هذا التدبير لشياطين قريش حين أرادوا أن يتخذوا إجراءًا حاسمًا ظنوا أنه يبيد خضراء المسلمين فاتفقوا على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات حتى نقضها بعض ذوي النخوة فيهم وقد خرج المسلمون منها أصلب عودًا وأعظم تجربة وقد كسبوا عطف كثير من الناس وتأييدهم وإعجابهم[(١)].

وقد وردت آيات القرآن تدل على أن أعداء الإسلام من المشركين وغيرهم صادروا أموال المسلمين وأخرجوهم من ديارهم.

والقرآن الكريم يحكي عن مصادرة المشركين لأموال المسلمين وإخراجهم من ديارهم، قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ الفيء والغنائم للفقراء والمهاجرين هنا من هاجر إلى النبي ﷺ حبًا فيه

---

(١) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٣٦، ٣٧) باختصار وتصرف، وانظر: فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي (ص١٢٦)، وانظر: الروض الأنف للسهيلي (٢/ ١٢٧، ١٢٨) باختصار وتصرف.

ونصرة له(١)، ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أخرجهم كفار مكة أي أحوجوهم إلى الخروج فهم الذين أخرجوهم(٢).

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا وبالرضوان في الآخرة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ أي الكاملون في الصدق الراسخون فيه(٣).

فالصبر على الخروج وترك الديار والأموال وقبول المحاصرة الاقتصادية برضا نفس ابتغاء مرضاة الله ورجاء لثوابه لا يتسنى إلا لراسخي الإيمان صادقي القلوب مع الله سبحانه وتعالى.

فالآية الكريمة تبين لنا حصار المشركين للمسلمين وإخراجهم من ديارهم وإرغامهم على ترك الأوطان.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى استخدام المنافقين لهذه الوسيلة أيضًا، قال الله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

يقول العلامة الألوسي عند تفسيره لهذه الآية: عبر بـ﴿ هُمُ ﴾ مع أن القائل كما دلت بعض الروايات ابن أبي سلول لرضا سائر المنافقين بما قاله و﴿ حَتَّىٰ ﴾ للتعليل أي لا تنفقوا عليهم كي يتفرقوا عنه ﷺ ولا يصحبوه.

وقولهم: ﴿ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ إما أن يكون للتهكم أو لغلبته عليه حتى صار كالعلم، أو أنهم قالوا ذلك حسب ما يظهرونه من اعتقاد ذلك ويحتمل أن يكون قد عبروا بغير هذه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي (٩/ ٦٤٩٨).
(٢) المرجع السابق وانظر: مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٧٧).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٨) باختصار.

العبارة فغيرها الله عز وجل إجلالاً لنبيه عليه السلام وإكرامًا[١].

وقد أبطل الله عز وجل ما زعموه من أن عدم إنفاقهم على من عند رسول الله سيؤدي إلى انفضاضهم لأن خزائن الأرزاق بيده سبحانه وتعالى يعطي منها ما يشاء ويمنع من يشاء، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

يقول العلامة الشوكاني تعليقًا على هذه الآية:

بين الله عز وجل في هذه الآية أنه هو الرازق لهؤلاء المهاجرين لأن خزائن الرزق له فيعطي من شاء ما شاء ويمنع من شاء ما شاء، وليعلم هؤلاء المنافقين ذلك ولكنهم لا يعلمون هذه الحقيقة وهي أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل وأنه القابض الباسط المعطي المانع[٢]، قيل في سبب نزول هذه الآية أنه: حدثت مشاجرة بين أجير لعمر بن الخطاب يسمى جهجاه وسنان الجهني، حليف بني عوف من الخزرج على الماء وأعان جهجاه رجلاً من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيرًا، فقال عبد الله بن أبي وإنك لهناك! فقال: وما يعني أن أفعل ذلك؟ واشتد لسان جعال على عبد الله فقال عبد الله: والذي يحلف به لأذرنك ويهمك غير هذا شيء؟ وغضب عبد الله، فقال: والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك إنا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم قال أقبل على من حضره من قومه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم على جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد.

قال زيد بن أرقم: وكان حاضرًا -يسمع ذلك- فقال: أنت والله الذليل القليل

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء الثامن والعشرون (١٥/ ١٦٨، ١٦٩)، باختصار وتصرف.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٢٩) باختصار وتصرف.

المبغض في قومك ومحمد في عز من الرحمن ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هذا[١].

وهكذا يتضح من الآية الكريمة وسبب نزولها أن المنافقين قد حاولوا محاصرة المسلمين اقتصاديًا بمنع النفقة عنهم وكانوا يستهدفون من ذلك فض الناس عن رسول الله ﷺ وتخليهم عنه فيا لها من وسيلة خطيرة حاولوا استخدامها في غرض خبيث ولكن هيهات لهم ذلك والله هو الرازق ذو القوة المتين بيده ملكوت كل شيء، وما محاولتهم هذه إلا دلالة على جهلهم وقصور فهمهم.

ومن وسائل الحرب النفسية التي استخدمها اليهود ضد المسلمين الحصار الاقتصادي أيضًا فقد قام بعض اليهود بمؤامرة بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وذلك بمقاطعتهم اقتصاديًا وامتناعهم عن دفع ما يجب عليهم دفعة من ديون وبيوع وأمانات لمن اعتنق الإسلام مدعين أن ما كان لهم من حق إنما كان قبل الإسلام وأن دخولهم في هذا الدين أبطل حقهم فيه وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

هذه الآية شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد خيانتهم في الدين[٢]، ﴿ وَمِنْ ﴾ تدل على أن فيهم الخائن والأمين، ووصفهم بأن فيهم خائنًا وأمينًا والخلق كلهم كذلك، ولكنهم يخونون المسلمين استحلالاً لذلك[٣]، ﴿ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ وهي معطوفة على ما

(١) أسباب النزول للإمام الواحدي (ص٣٦٧) باختصار وتصرف، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٥٤).
(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٣٣).
(٣) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٤٠٩) بتصرف.

قبله من بعض صفات اليهود من ادعائهم أنهم شعب الله المختار وأن الدين الحق خاص بهم، وهنا بين الله عز وجل أن منهم طائفة تكيد للمسلمين ومنهم من يستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم(١).

والمراد من ذكر القنطار والدينار العدد الكثير والعدد القليل يعني أن منهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو اؤتمن على الشيء القليل فإنه يجوز فيه الخيانة(٢).

ومعنى ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ قال الزمخشري: أي مدة دوامك عليه يا صاحب الحق على رأسه متوكل عليه بالمطالبة والتعنيف، أو الرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه(٣).

وتقديم المجرور على متلعقه في ﴿ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ للاهتمام بمعنى المجرور لأن في تقديمه معنى الإلحاح، أي إذا لم يكن قيامك عليه لا يرجع لك أمانتك(٤).

وقد ذكر الله عز وجل حجتهم التي يستحلون بها مصادرة أموال المسلمين وبين كذبهم فيها بقولهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ أي أن حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب، لأن الله قد أحلها لنا فكذبهم الله عز وجل في ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي اختلقوا هذه المقالة وتناقلوها بهذه الضلالة، لأن الله قد حرم عليهم أكل الأموال إلا بالحق، وإنما هم قوم بهت(٥).

وأيا كان كما قال العلامة ابن عاشور فقد أنبأنا هذا عن خلق عجيب فيهم، وهو

---

(١) محمد رشيد رضا (٣/ ٢٧٩)، باختصار وتصرف.
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٤/ ٢٨٤) بتصرف.
(٣) الكشاف للزمخشري (١/ ٤٣٨).
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الثالث (٣/ ٢٨٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٧٤).

استخفافهم بحقوق المخالفين لهم في الدين واستباحة ظلمهم[١].

وهكذا فقد بين القرآن الكريم استخدام كلاً من المشركين والمنافقين واليهود لهذه الوسيلة كوسيلة من وسائل الحرب النفسية.

وهكذا فوسيلة المقاطعة الاقتصادية التي استخدمها كل من المشركين والمنافقين واليهود يتجلى فيها خبث الطبع ولؤم السريرة، وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين، إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين.

وهي خطة المنافقين كما تحكيها الآية التي تحدثت فيها عن المنافقين لينفض أصحاب رسول الله ﷺ تحت وطأة الضيق والجوع وهي خطة اليهود والشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم ليموتوا جوعًا أو يكفروا بالله.

وهي خطة غيرهم ممن يحارون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق وهكذا يتلاقى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان إلى هذا الزمان[٢].

وأيضًا تأخذ مصادرة أموال المسلمين أشكالاً متعددة الآن منها ما فعلته بريطانيا أثناء احتلالها فلسطين لصالح اليهود فقد عمد المندوب السامي البريطاني إلى إفقار الفلاحين بتشجيعهم على الاستدانة من اليهود من أجل زراعة أراضيهم ومن ثم جمع المحصول وحين تم جمع المحصول أصدر أمرًا يمنع تصديره للخارج فكسدت الأثمار وعجز الفلاحون الصغار عن سداد الديون فأقيمت الحجوزات وبيعت المحاصيل ثم

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الثالث (٣/ ٢٨٨).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٦/ ٣٥٧٩) بتصرف.

الأراضي سدادًا لتلك الديون، بالإضافة إلى ذلك صدر قانون عزز بقانون نزع الملكية يقضي بمنح أصحاب المشاريع الاقتصادية وأغلبهم من اليهود أو الأجانب حق نزع ملكية الأراضي التي يرون أنها نافعة للمشروع، وبموجب هذا القانون اغتصب اليهود أراضي كثيرة[1].

كما يتم مصادرة الأموال أحيانًا بصورة لا تلفت النظر، وذلك عن طريق فوائد الديون التي تقترضها بلدان العالم الإسلامي من دول غير إسلامية وعن طريق ترويج السلع الاستهلاكية غير الضرورية والكماليات باهظة الثمن وعن طريق بيع أسلحة للمسلمين لا تؤثر في ضبط ميزان القوة بينهم وبين أعدائهم رغم الأموال الباهظة التي تدفع فيها.

كذلك يتم استخدام هذه الوسيلة من ضرب بعض الدول الحصار الاقتصادي على بعض الدول الإسلامية بأي حجة ما يختلقها هذا النظام الجديد من أجل تجويع العالم الإسلامي وإفقاره.

تصادر أموال المسلمين بإثارة الحروب بين البلدان الإسلامية بحيث يتم استنزاف أموال المسلمين في سداد احتياجات هذه الحروب في الوقت الذي تدمر فيه ثرواتهم، وتستهلك فيه قوتهم وهذا ما تحقق في حرب الخليج بين العراق وإيران والثانية بين العراق والكويت.

وهو ما صرحت به مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا سابقًا حيث قالت تعليقًا على أطروحة تقضي بانسحاب العراق من الكويت تجنبًا للحرب وويلاتها: «إن انسحاب القوات العراقية من الكويت لا يكفي، لأنه من الضروري توجيه ضربة ساحقة إلى العراق وتحطيم العمود الفقري لصدام حسين وهدم البنية العسكرية وإن أمكن البنية

---

(١) انظر: الإرهاب والعنف في الفكر الصهيوني، لإسماعيل ياغي (ص٨٧١).

الصناعية لهذا البلد»[١].

ويكفي أن نعلم أنا ما أنفق في حرب الخليج بشقيها العراقي الإيراني والعراقي الكويتي كان يكفي لسداد ديون العالم الإسلامي كله، كما كان يكفي إلى إعادة بناء العالم وانتشاله من قبضة الفقر وذله[٢].

وهكذا توحدت كلمة أعداء الإسلام قديمًا وحديثًا على استخدام هذه الوسيلة في حربهم ضد المسلمين فهي وسيلة متأصلة فيهم وإن تباينت أجناسهم وأزمانهم.

---

(١) أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد، لمارسيل بريل، ترجمة من مطبعة مركز ابن خلدون، ودار سعاد الصباح، ط/ أولى، القاهرة، بدون تاريخ (ص١٢٠، ١٢١).
(٢) عرب ومسلمون للبيع، لعبد الودود شلبي (ص٥٩).

منهج القرآن في الرد على وسيلة المقاطعة الاقتصادية:

ولقد واجه القرآن الكريم هذه الوسيلة بمنهج يجعلها لا قيمة لها ولا أثر لها في نفوس المسلمين ويمكن تلخيص منهج القرآن فيما يلي:

أولاً: أن القرآن الكريم أخبر أتباعه بأن ما يحدث لهم من جوع وفقر أو ما إلى ذلك فهو ابتلاء من الله.

ثانيًا: أن القرآن الكريم عامل الأعداء بنفس الوسيلة.

أولاً: أن القرآن الكريم أخبر أتباعه بأن ما يحدث لهم من جوع وفقر أو ما إلى ذلك فهو ابتلاء من الله:

ولقد أخبر القرآن الكريم أتباعه بأن ما يحدث لهم من جوع وفقر أو ما إلى ذلك فهو ابتلاء من الله فعليهم الصبر والاحتساب ومن فعل فعليه صلوات من ربه ورحمة وأولئك هم المهتدون، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ أصل البلاء المحنة[(١)] ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء[(٢)] والحكمة من الابتلاء ما يلي:

أ- حتى توطن الفئة المؤمنة نفسها على الصبر على الابتلاء إذا ورد فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع وأسهل عليهم بعد الورود.

ب- أنهم إذا علموا أنهم ستصل إليهم تلك المحن اشتد خوفهم فيصير ذلك الخوف تعجيلاً للابتلاء فيستحقون له مزيد الثواب.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٢٤).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٩٥).

ج- أن الكفار إذا شاهدوا محمدًا وأصحابه مقيمين على دينه مستقرين عليه مع ما كان عليه من نهاية الضر والمحنة والجوع يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته فيدعوهم ذلك إلى مزيد التأمل في دلائله وعلى أن يتبعوه[(١)] فإذا ما صبرت الفئة المؤمنة على ما يبتليها الله من فقر وضيق وجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات فسيكون لها جزاء عظيمًا من الله عز وجل، إنها صلوات الله ورحمته، والصلوات هنا هي المغفرة والثناء الحسن والرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة[(٢)].

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى[(٣)].

فلا بد من تربية النفوس بالبلاء ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة كي تعز على نفوسهم بمقدار ما قدموا في سبيلها من تكاليف[(٤)]، وحينها يوقنون بحسن العاقبة والمصير فسيهون عليهم كل ما يلاقون في سبيلها وسيندفعون لها باذلين كل غال ورخيص ناسين ومتجاهلين كل ما يلاقونه من أجلها.

ثانيًا: أن القرآن الكريم عامل الأعداء بنفس الوسيلة:

والخطوة الثانية في مواجهة القرآن لوسيلة الحصر الاقتصادي أن عاملهم بنفس الوسيلة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢/ ٥٤٢، ٥٤٣) باختصار وتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٢٤).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٩٦).

(٤) في ظلال القرآن (١/ ١٤٥) بتصرف.

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ انسلخ، انقضى وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابسه، ومنه سلخ الشاة، ﴿ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها هي رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يعني الناكثين، ﴿ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ من حل أو حرم[١]، ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ الأخذ هو الأسر والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المن على ما يراه الإمام[٢] ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ ضيقوا عليهم فالحصر: التضييق[٣].

ولقد فسر صاحب المنار الحصار فقال: هو حبس العدو حيث يعتصمون من معقل وحصن بأن يحاط بهم ويمنعوا من الخروج والانقلاب إذا كان في مهاجمتهم فيه خسارة كبيرة فاحصروهم إلى أن يسلموا وينزلوا على حكمكم بشرط ترضونه أو بغير شرط.

والمرصد أي الرصد العام وهو مراقبة العدو بالقعود لهم في كل مكان يمكن الإشراف عليه ورؤية تجوالهم وتقلبهم في البلاد[٤].

ومن الآيات الدالة على أن القرآن أدحض هذه الوسيلة بمثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥-٧٧].

فلقد فسر مجاهد العذاب بالقحط والجوع الذي أصابهم الله عز وجل به حتى أكلوا العلهز[٥] من الجوع.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٣٩٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٢٩١٢).
(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (ص١١٩).
(٤) تفسير المنار (١٠/ ١٦١).
(٥) العلهز: كانوا يبلون الصوف بالدم ويشونه ويأكلونه، انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٧/ ٤٥٣٥).

ولقد ذكر العلامة القرطبي أن من شدة ما حدث للمشركين من قحط وجوع قال أبو سفيان للرسول ﷺ : أنشدك الله والرحم! أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال: «بلى» قال: فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف وقتلت الأبناء بالجوع[١].

فالآيات الكريمة تدل على أن الله سبحانه قد واجه حصار الأعداء للمؤمنين بأن حاصرهم بحصار أقوى من حصارهم وأمر المؤمنين بحصارهم.

ولقد استخدم الرسول ﷺ هذه الوسيلة ضد أعداء الإسلام في مواقف كثيرة منها ما ذكره اللواء محمود شيت خطاب في كتابه «الرسول القائد» تحت عنوان «الحصار الاقتصادي» فقال: هدد المسلمون أهم طريق تجارية بين مكة والشام فأصبحت قوافل قريش غير آمنة حين تسلك الطريق مما أثر أسوأ الأثر على تجارة قريش التي تعيش عليها وهدد مكة بالحصار الاقتصادي بمحاولة حرمانها من سلوك طريق مكة - الشام بأمان[٢].

ولقد حاصر النبي ﷺ بني قينقاع وكان لحصارهم أسباب مباشرة وغير مباشرة.

فالأسباب الغير مباشرة هي:

أ- تجسس اليهود على المسلمين لصالح المشركين ونقلهم المعلومات عن نيات المسلمين وتحركاتهم إلى قريش وإظهار عداوتهم بوضوح للمسلمين.

ب- نبذ يهود العهد الذي كانوا قطعوه على أنفسهم للمسلمين بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وأظهروا البغي.

أما الأسباب المباشرة فهي:

تعرض يهود لامرأة مسلمة تبيع حليها في سوق بني قينقاع فاستغاثت المرأة فوثب أحد المسلمين على الصائغ اليهودي فشدت يهود على المسلم فقتلوه ثم لجأ يهود إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٤٥٣٥) باختصار وتصرف.
(٢) الرسول القائد، لمحمود شيت خطاب (ص٩٤).

حصونهم يحتمون بها(١).

وحاصر النبي ﷺ بني النضير في شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليال.

قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها(٢).

وهكذا كان منهج القرآن الكريم والذي اتبعه الرسول ﷺ في مواجهة الحصار الاقتصادي كوسيلة استخدمها الأعداء في حربهم النفسية ضد المسلمين منهجًا ناجحًا في القضاء على أثرها بل وردها في نحور الأعداء وجعلهم هم المحصورون وبقاء الفئة المؤمنة عالية الرأس قوية العزيمة.

(١) الرسول القائد، لمحمود شيت خطاب (ص١٥٣)، بتصرف، وانظر: الرحيق المختوم (ص٢٨٠) باختصار وتصرف.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٠) باختصار وتصرف.

الحادي عشر: الإشاعة:

الإشاعة وسيلة خطيرة المرمى قوية التأثير من وسائل الحرب النفسية التي استخدمت على مر العصور.

والإشاعة في اللغة: الانتشار يقال في هذا العقار سهم شائع إذا كان في الجميع ولم يكن منفصلاً[(١)].

وهي أيضًا من شاع وانتشر والإشاعات الأخبار المنتشرة، والرجل المشياع هو الذي لا يكتم سرًا[(٢)]، ويقال شاع الخبر إذا قوي وكثر[(٣)].

ويقصد بالشائعات نقل خبر غير صحيح وترويجه مع ربطه بواقعة أو رأي أو صفة حتى يكون أقرب إلى الصدق وأدعى إلى التأثير.

والشائعات سلاح رهيب من أسلحة الحرب النفسية التي تفتك بمعنويات الشعوب وتهدف إلى شل فكر الإنسان وجعله ينقاد كقطيع الغنم الذي يهيئه له راعيه إلى المستقبل المجهول أو ينطق نطق الببغاء الذي يردد ما لا يعقله ويحكي ما لا يفهمه[(٤)].

وحرب الإشاعة جزء من الحرب النفسية، والعدو يشيع شائعات بين المسلمين كثيرة بهدف نشر الرذيلة بينهم وتثبيط المجاهدين وزرع الخوف في قلوب المقاتلين والتلقي عن القيادة الراشدة هو الذي يفوت على العدو هدفه وهذا شأن المؤمنين لا يقعون في أسر شائعات العدو[(٥)].

لقد استخدمت الشائعات في كل العصور قديمًا وحديثًا لتقويض الروح المعنوية أو

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١١/ ٥٠٤)، دار الغد العربي.

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٥٦).

(٣) معجم ألفاظ مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني (ص٢٧٩)، ط/ دار الفكر.

(٤) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية (ص٧٣) باختصار وتصرف.

(٥) دروس في العمل الإسلامي للشيخ سعيد حوى (ص١٠٦) باختصار وتصرف، ط/ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

لإضعاف الثقة في النفس أو لإذاعة البلبلة والقلق بين الناس حيث وظفت الإشاعة لغرض الحرب النفسية في كل الأزمان فمن خلال الإشاعة تمارس على الخصوم الحرب النفسية بالتلاعب بأعصاب الناس فجنكيز خان المغولي مثلاً كان يوظف الإشاعة بما يغنيه عن نصف جيشه لأنها كانت تمهد له في نفوس خصومه؛ لأن الشائعات تضعف العزائم وتشل القوى وتغتال المعنويات[(١)].

هذا ولقد كثر استخدام أعداء الإسلام لوسيلة الشائعات ضد القرآن والرسول ﷺ وأصحابه، منذ اللحظة الأولى ولقد تنوعت الجهة التي وجهت إليها هذه الإشاعات فمنها ما وجه لشخص الرسول، ومنها ما وجه للقرآن ومنها ما وجه لأهل بيت النبي ﷺ ومنها ما وجه لأصحابه، ولقد تولى الله عز وجل الرد على هذه الشائعات في القرآن الكريم.

ومن الآيات التي تجسد لنا ما أشاعه أعداء الإسلام ضد الرسول ﷺ ما حكاه القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤].

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عزة وشقاق[(٢)]، ﴿ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر، وأن وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي من أن جاءهم وهو كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم.

﴿ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به[(٣)] من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر أي هذا المدعي للرسالة ساحر فيما يظهره من

---

(١) الحرب النفسية في صدر الإسلام، مرجع سابق (ص٣٥٣) باختصار وتصرف.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾.

(٣) أي النبي ﷺ.

المعجزات، كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله، قيل: ووضع الظاهر موضع المضمر[١] لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر[٢] والفسوق[٣].

ولقد أشاعوا عن القرآن والرسول ﷺ إشاعات كثيرة لتشكيك الناس فيهما وفضهم عنهما وإيجاد الحجة لأنفسهم في توليهم عن الهداية ومن أمثلة ذلك ما حكاه قول الله عز وجل عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

يقول العلامة ابن كثير يقول الله تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ أي كذب، ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ يعنون النبي ﷺ[٤].

و﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ اختلقه، ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ أي على الاختلاق، ﴿ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ يعنون اليهود، قيل: وهم أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي وعداس مولى حويطب بن عبد العزى وجبر مولى ابن عامر.

وتولى الله سبحانه وتعالى الرد على هذه الفرية فقال: ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أي قالوا ظلمًا هائلاً عظيمًا وكذبًا ظاهرًا، وظلمًا منصوبة بـ﴿ جَآءُو ﴾ لأن جاء قد يستعمل استعمال أتى ويعد تعديته.

وقيل: إنه منصوب بنزع الخافض والأصل جاءوا بظلم وقيل هو منتصب على الحال[٥].

ومنه ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا

(١) في قوله ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ بدل «وقالوا».
(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٠٦) ط/ دار الوفاء.
(٣) روح المعاني للعلامة الألوسي، الجز الثالث والعشرون (١٣/ ٢٢٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٣٢١)، ط/ المجموعة المتحدة للنشر والتوزيع، القاهرة.
(٥) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٦١)، ط/ دار الوفاء، باختصار وتصرف.

فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٥-٦].

﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أحاديث الأولين وما سطروه من الأخبار، وواحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحدوثة، وقد قيل: أساطير جمع أسطار مثل أقاويل وأقوال، ﴿ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ استكتبها أو كتبها لنفسه ومحل اكتتبها النصب على الحال من أساطير على أنها خبر ثان لأن أساطير خبر أول(١)، ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ يعني تقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها(٢) ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ غدوة وعشية.

قال الله عز وجل ردًا عليهم: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ﴾ يعني القرآن، ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ يعني الغيب(٣)، ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وهكذا يتولى الله سبحانه وتعالى الدفاع عن كتابه، وما له وجه من الأعداء ويتولى الرد فيما أنزله على نبيه ﷺ حتى تفند الإشاعة ولم يعد لها أي قيمة فالقرآن هو كتاب الله عز وجل وهو الذي تولى حفظه والدفاع عنه قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

يقول أ/ سيد قطب(٤) في تعليقه على هذه الآيات: وأكذب شيء أن يقول كفار قريش هذه المقالة وهم يوقنون في أنفسهم أنها الفرية التي لا تقوم على أساس فيما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذي يلقنونهم هذا القول أن القرآن الذي يتلوه عليهم محمد ﷺ

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٦١، ٦٢) باختصار وتصرف.

(٢) لأنه ﷺ كان أميًا.

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٣٦١).

(٤) سيد قطب هو سيد قطب إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد بأسيوط سنة ١٣٢٤هـ وتخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة، وعمل في جريدة الأهرام مراقبًا فنيًا بوزارة المعارف، وأوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم في أمريكا، ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يرى أنها من وضع الإنجليز وطالب ببرامج تتمشى والدين الإسلامي، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وسجن معهم حتى أعدم سنة ١٩٦٥م.

شيء آخر غير كلام البشر وهم كانوا يحسون هذا بذوقهم في الكلام وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لا يكذب ولا يخون فكيف به يكذب على الله وينسب إليه قولاً لم يقله[١].

كما كان للمنافقين واليهود النصيب الأكبر في إحاكة الشائعات وترويجها بين المسلمين حسدًا وحنقًا ولعل من أخطر الشائعات التي روجوها لطعن المسلمين في الصميم، شائعة الإفك التي حاك أطرافها كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ضد شخص النبي عليه السلام ممثلاً في زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قاصدين من وراء هذه الوسيلة من وسائل الحرب النفسية أن يدمروا على الرسول حياته العائلية وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال إليه[٢] وأن يدعوا المسلمين يضطربون في عماية من الأسى والغم تلك الشائعة التي تعتبر حدث الأحداث في تاريخه ﷺ فلم يمكر بالمسلمين مكر أشد من إشاعة هذه الفرية التي مكث مجتمع المدينة بأكمله شهرًا كاملاً وهو يصطلي نارها[٣].

قصة حادثة الإفك:

طريقة الرسول ﷺ مع نسائه في السفر:

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كان غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ.

---

(١) في ظلال القرآن الأستاذ سيد قطب (٥/ ٢٥٥١).

(٢) سيدنا أبو بكر الصديق.

(٣) الحرب النفسية في صدر الإسلام، د/ محمد بن مخلف (ص٣٥٨) باختصار وتصرف.

تخلف عائشة للبحث عن عقدها:

قالت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق[١] لم يهجن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به، قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلاً حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفار[٢] فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فألتمسه حتى وجدته وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يرحلون لي البعير وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب؛ قد انطلق الناس.

مرور ابن المعطل:

قالت: فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلي، قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليَّ وقد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ظعينة رسول الله ﷺ ! وأنا متلففة في ثيابي قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب

---

(١) العلق: جمع علقة، وهي ما يتعلق به الإنسان قبل الوجبة. انظر السيرة النبوية لابن هشام (١٥٨/٢).

(٢) الجزع: الخرز. الظفار: مدينة باليمن ينسب إليها هذه الخرز. المرجع السابق.

البعير، فقال: اركبي واستأخر عني، قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعًا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتعج[1] العسكر، والله ما أعلم بشيء من ذلك.

هجر الرسول لها:

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولم يبلغني من ذلك شيء وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيرًا، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه لي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك: فأنكرت ذلك منه وكان إذا دخل عليّ وعندي أمي تمرضني.

قال ابن هشام: وهي أم رومان: واسمها زينب بنت عبد دهمان، فراس بن كنانة، قال: كيف تيكم، لا يزيد على ذلك.

مغادرة بيت الرسول إلى بيت والدها:

قال ابن إسحاق قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت يا رسول الله -حين رأيت ما رأيت من جفائه لي-: لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي، فمرضتني، قال: لا عليك، قالت: فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قومًا عربا لا نتخذ في بيوتنا هذا الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رهم بنت عبد المطلب بن عبد مناف وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم خالة أبي

---

(١) اضطرب، انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٥٩).

بكر الصديق ﷺ، قالت: فوالله إنها لتمشي معي إذا عثرت في مرطها[1] فقالت: تعس مسطح؟ ومسطح لقب واسمه عوف، قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا، قالت: أوما بلغك خبر يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قلت: أوقد كان هذا؟ قالت: نعم والله فقد كان.

قالت: فوالله ما قدرت أن أقضي حاجتي، ورجعت فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، قالت: وقلت لأمي يغفر الله لك، تحدث الناس بها تحدثوا به، ولا تذكرون لي من ذلك شيئًا! قالت: أي بنية خفضي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

خطبة الرسول في الناس:

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**».

ابن أُبيّ ينشر حديث الإفك:

قالت: وكان كِبْر ذلك[2] عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيرًا وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فشقيت بذلك.

---

(١) مرطها: كساؤها، السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٦٠).

(٢) الكبر: الإثم، المرجع السابق.

أثر الخطبة:

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم قالت: فقال سعد بن عبادة وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحًا: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم أما والله ما قلت هذه المقالة إلا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: وتساور[1] الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ونزل رسول الله ﷺ فدخل علي.

الرسول عليه الصلاة والسلام يستشير الصحابة:

قالت: فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى علي خيرًا، وقاله، ثم قال يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل، وأما علي فإنه قال يا رسول الله: إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها ستصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب، فضربها ضربًا شديدًا، ويقول اصدقي رسول الله ﷺ فتقول والله ما أعلم إلا خيرًا وما كنت أعيب على عائشة إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

نزول براءة عائشة:

قالت: ثم دخل علي رسول الله ﷺ وعندي أبواي وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله فإن كنت قد قارفتي سوءًا[2] مما يقول الناس فتوبي**

(١) تساور: قام بعضهم إلى البعض، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٦١).

(٢) أي دخلتي فيه، المرجع السابق.

إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده» قالت: فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك، فقلص دمعي[١] حتى ما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبويّ أن يجيبا عني رسول الله ﷺ ، فلم يتكلما، قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأنا من أن ينزل الله فيّ قرآنا يقرأ به في المساجد ويصلى به، ولكنني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئًا يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي أو يخبر خبرًا، فأما قرآن ينزل فيّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك، قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان، قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ ؟ قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه، قالت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام، قالت: فلما أن استعجما علي، استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقون، قالت: التمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعته ولا باليت قد عرفت أني منه بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي، وأما أبوي فوالذي نفس عائشة بيده، ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر منه مثل الجمان[٢] في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك» قالت: قلت: بحمد الله ثم خرج إلى الناس، فخطبهم وتلى عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة

---

(١) أي ارتفعت دموعي، المرجع السابق.

(٢) حب من فضة وقيل اللؤلؤ: انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٦٢).

فضربوا حدهم.

أبو أيوب وقصته مع زوجته:

قال أبو إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن بعض رجال بني النجار: أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك(١).

ما نزل من القرآن:

وقد أنزل الله عز وجل آيات من القرآن في براءة السيدة عائشة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ [النور: ١١-١٩].

و﴿ بِٱلْإِفْكِ ﴾: الكذب(٢).

وقيل الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل هو: البهتان وهو الأمر الذي لا تشعر به حتى يفاجأك وأصله الإفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه(٣).

وقيل الإفك: الكذب وهو أسوأ الكذب سمي إفكًا لكونه مصروفًا عن الحق من قولهم أفك الشيء الذي قلبه عن وجهه وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه(٤).

﴿ عُصْبَةٌ ﴾ العصبة الفرقة المتعصبة قَلَّت أو كثرت وكثر إطلاقها على العشرة فما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٥٨، ١٦٢) باختصار وتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٧/ ٤٥٩٠)، ط/ دار الريان.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (١١/ ٤٨٩)

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٣٣١).

فوقها وتطلق على الأقل من ذلك[١]، ﴿ مِّنكُمْ ﴾ من أهل ملتكم وممن ينتمي إلى الإسلام سواء كان كذلك في نفس الأمر أم لا فيشمل ابن أبي لأنه ممن ينتمي إلى الإسلام ظاهرًا وإن كان كافرًا في نفس الأمر، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ مِّنكُمْ ﴾ خارج مخرج الأغلب وأغلب أولئك العصبة كانوا مؤمنين مخلصين[٢].

﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي يا آل أبا بكر ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم[٣].

وقيل: خير عظيم لكم لنيلكم بالصبر عليه الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بإنزال ما فيه تعظيم بشأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم بها أحزنكم[٤].

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم ﴾ أي من الذين جاءوا بالإفك ﴿ مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي جزاء ما اكتسب وذلك بقدر ما خاض فيه فإن بعضهم تكلم وبعضهم ضحك كالمعجب الراضي بما سمع وبعضهم أكثر وبعضهم أقل[٥]، ﴿ كِبْرَهُۥ ﴾ بكسر الكاف وضمها مصدران لكبر الشيء أي عظم[٦] لأن العرب تقول فلان تولى عظم كذا وكذا أي كبره[٧]، وقيل: ابتدأ به وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ويشيعه.

﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك عبد الله بن أبي

---

(١) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن عشر (١٠/ ١٦٩) باختصار.
(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن عشر (١٠/ ١٧٠).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٠).
(٤) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن عشر (١٠/ ١٧٠)، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي (١١/ ٤٩١).
(٥) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن عشر (١٠/ ١٧١).
(٦) السابق ذاته.
(٧) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٧/ ٤٥٩٢).

ابن سلول قبحه الله ولعنه وقيل المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان من إيراده كبير فائدة فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر وأحسن مآثره أنه كان يذب عن الرسول ﷺ بشعره[1].

وقيل الوعيد بأن له عذابًا عظيمًا يقتضي بأنه عبد الله بن أبي سلول وفيه إنباء بأنه يموت على الكفر فيعذب العذاب العظيم في الآخرة وهو عذاب الدرك الأسفل من النار وأما بقية العصبة فلم من الإثم بمقدار ذنبهم وفيه إيماء بأن الله يتوب عليهم إن تابوا كما هو الشأن في هذا الدين[2].

أثر هذه الإشاعة وخطرها:

إن الذي يقرأ حديث الإفك يشعر بأثر الإشاعة وخطرها على وحدة الصف المسلم بداية من النبي ﷺ ومرورًا بزوجه عائشة ووالديها رضي الله عنهم جميعًا وشمولاً للمجتمع المسلم بأسره.

فالمسلمون تعطلت أنشطتهم وتوقفت سراياهم شهرًا بأكمله وانشغلوا بهذه الإشاعة فهم بين قليل مصدق لها لعب المنافقون بعقله وبين كثير مكذب لها ورافضًا وبين ساكن جمدت الكلمات على لسانه، بل وتطور أثر هذه الإشاعة أن حصلت مشاتمة بين زعيمي الأوس والخزرج وانتقلت إلى القبيلتين لولا أن حكمة الرسول ﷺ تداركت الفتنة وأخمدتها بالإصلاح بينهم.

أما عائشة فقد وصل خطر الإشاعة بها أن فكرت في الانتحار[3] وأصابتها حمى

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٠) بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/ ١٧٣).

(٣) كما ورد عند الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٢١/ ١٥٧)، والأوسط (٥٨٢) أنها قالت: «لما بلغني ما تكلموا به هممت أن آتي قليبًا فأطرح نفسي فيه». وقال في الأوسط: تفرد به خالد بن خداش. اهـ. وخالد ضعفه غير واحد.

شديدة أهزت أوصالها وأما والداها فلقد انفطرت قلوبهم لما أشيع ضد ابنتهم ولما يرونه عليها من تدهور صحتها وبكائها الذي لا يجف.

ولقد أثرت هذه الإشاعة على نفس النبي ﷺ فلقد تغيرت معاملته لعائشة وخاصة في مرضها(١).

والسيرة النبوية للرسول ﷺ فيها الكثير والكثير من الإشاعات التي روجها أعداؤه والتي كانت لها الأثر في الصف المسلم منها:

أنه لما قتل سيدنا مصعب بن عمير ﷺ في غزوة أحد على يد ابن قمئة ظن ابن قمئة أنه قتل الرسول ﷺ فانصرف إلى المشركين وصاح إن محمدًا قد قتل وشاع الخبر في صفوف المسلمين فخارت عزائمهم وانهارت معنوياتهم وارتبكت صفوفهم وعمهم الاضطراب والفوضى وألقى رجال سلاحهم من أيديهم ووقفوا حيارى مدهوشين وكان هذا هو أثر الإشاعة في الصف المسلمين أما وقعها عند المشركين فلقد أثلجت صدورهم لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم(٢).

ولولا أن رحمة الله تداركت الصف المسلم واستطاع الرسول ﷺ أن يصل إلى جمع الجيش المسلم ويعلمهم "أنه حي لكن لنا أن تصور الهزيمة الساحقة التي كادت تلحق المسلمين من جراء هذه الإشاعة.

ومن الإشاعات التي روجها اليهود وتلقفها المنافقون ليعلونها والتي تجسد سواد قلوبهم تجاه الرسول ﷺ وأصحابه أنه لما تم انتصار الرسول ﷺ في بدر أرسل بشيرين إلى أهل المدينة ليعجل لهم البشرى أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية وأرسل

---

(١) في ظلال السيرة النبوية، غزوة الأحزاب، د/ محمد عبد القادر أبو فارس (ص٦١)، وما بعدها باختصار وتصرف.

(٢) هذا الحبيب يا محب لأبي بكر الجزائري (ص٢٦٥)، باختصار وتصرف، ط/ مكتبة السواري للتوزيع، وانظر: الرحيق المختوم (ص٣٢٠) باختصار وتصرف، ط/ دار الوفاء.

زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ فلما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبًا القصواء ناقة رسول الله ﷺ قال: لقد قتل محمد وهذه ناقته أعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب وجاء فارًا -أي منهزمًا- فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون وأخذوا يسمعون منهم الخبر وتأكدوا من نصر المسلمين فعمهم الفرح والسرور(١).

ومن أمثلة ما أشاعوه عن الصحابة رضوان الله عليهم تلك الإشاعة التي روجها المشركون في مكة في عمرة القضاء حيث أشاعوا أن المسلمين يعانون عسرة وجهدًا وحاجة واصطفوا عند الندوة ليتشفوا من المسلمين ويروا ما بهم من الجهد والمشقة والضعف والهزال الذي شاعه المرجفون بينهم.

ولكن الرسول ﷺ واجه هذه الشائعة بدحضها وتفويت الفرصة على مروجيها، وذلك أنه ﷺ لما دخل بيت الله الحرام اضطبع بردائه فأخرجه عضده اليمنى ثم قال: «رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة» ثم استلم الركن وأخذ يهرول ويهرول أصحابه معه. وبهذا أرى المشركين عكس ما توقعوا فقضى على الشائعة بالأفعال لا بالأقوال(٢).

هذا هو الموقف السديد تجاه الشائعات التي يحاول أعداء الإسلام ترويجها داخل الصف المسلم هو قتلها في مهدها وعدم ترويجها ونقلها حتى على سبيل الإخبار لأن في لوكها بالألسنة خدمة لأعداء الإسلام وتحقيقًا لأغراضهم الخبيثة وهي إشاعة الفاحشة في الصف المسلم.

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري (ص٢٦٦) وما بعدها، ط/ دار الوفاء.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ (٢/ ١٥٣) وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٢).

منهج القرآن في الرد على وسيلة الشائعات:

ولقد استخدم أعداء الإسلام وسيلة الشائعات فقاومها القرآن الكريم وأدحضها وأسقطها وسن منهجًا يسد الباب أمام أي شائعة تحاول أن تأخذ طريقها لتفت في الصف المسلم ويمكن تلخيص هذا المنهج في العناصر التالية:

أولاً: الأمر بالتثبت أمر الله سبحانه وتعالى بالتثبت.

ثانيًا: النهي عن التجسس.

ثالثًا: أمر القرآن الكريم بدحض الشائعة ووأدها في مهدها.

رابعًا: توعد سبحانه الذين يروجون الشائعات.

خامسًا: أمر القرآن بزجر مروِّج الشائعة.

أولاً: الأمر بالتثبت: أمر الله سبحانه وتعالى بالتثبت:

أمر الله سبحانه وتعالى بالتثبت من الأخبار قبل ترويجها ومطالبة من ينقل الخبر بالبينة على صدقه فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

أي فتعرفوا وتفحصوا، روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة مصدقًا إلى بني المصطلق وكان بينه وبينهم إحنة فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع، وقال لرسول الله ﷺ قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم بقتالهم فنزلت، وقيل بعث خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه فرجع، وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم وتعميم الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي بجواز قبول خبر العدل من حيث أنه معلق على شيء ينعدم عند عدمه، وأن خبر الواحد وجب تبيينه من حيث هو كذلك(١).

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٤٥١)، وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص٣٣٢، ٣٣٣).

وهذا النص سبب لنزول الآية ومنه يظهر أن عدم التثبت يؤدي إلى كارثة يعقبها ندم حيث يصعب تصحيح ما وقع، ويثبت كذلك أن الصف المؤمن حين يربى على التثبت من الأخبار يقضي على الشائعات ويسد الباب أما شرورها.

ومن ضمن التثبت أمر الله سبحانه وتعالى من يأتي بخبر يخص أعراض الناس أن يأتي بأربعة شهود على هذا الخبر وإلا أقيم عليه الحد وحكم بكذبه وفسقه.

وقد جاءت آيات القرآن تحكم على من أشاع شائعة في عرض الناس ولم يأت بأربعة شهداء بأن يجلد ثمانين جلدة ويحكم بفسقه، وترد شهادته، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

ولا شك أن من علم أن من أشاع إشاعة ولم يأت ببينة عوقب بهذه الثلاثة الجلد والحكم بالفسق ورد الشهادة انتهى عن ترويج أي إشاعة أو أي خبر ما دام لا يجد عليه بينة.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم تحكم على مروج الإشاعة بغير بينة بالكذب، قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣].

يقول العلامة البغوي في تفسيره قوله: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ على ما زعموا، ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ كاذبين إذ لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أم لم يأت؟ قيل عند الله أي في حكم الله وقيل معناه كذبوهم بأمر الله وقيل هذا في حق عائشة ومعناه أولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي[١].

ثانيًا: نهي القرآن الكريم أتباعه عن التجسس:

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٣٢).

لقد نهى القرآن الكريم أتباعه عن التجسس وسوء الظن بالناس وحذرهم من عاقبة ذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

يقول العلامة الشوكاني: والظن هنا مجرد التهمة التي لا سبب لها كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظن يظنه حتى يعلم وجهه[(١)].

وحكى القرطبي عن أكثر العلماء أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز وأن لا حرج في الظن القبيح لمن ظاهره القبيح[(٢)].

﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ التجسس البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم[(٣)].

ثالثًا: أمر القرآن الكريم بدحض الشائعة ووأدها في مهدها:

فلقد أمر الله عز وجل المؤمنين بعدم تناقل الشائعات حتى لا تضر بالصف المسلم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦].

فالأولى أن يستقبل الصف المسلم الشائعة بثبات ويقين وأنها عامل هدم فيه فيجب ألا تلوكها الألسنة وتتناقلها الأفواه فإذا فعلوا ذلك فلن تقوم لهذه الشائعة قائمة ولن يكون لها قيمة.

يقول العلامة ابن عاشور: وإنما قال تعالى: ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ دون

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٥-٦٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٩/ ٦١٥٢).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٦).

ليس لنا أن نتكلم بهذا للتنبيه على أن الكلام في هذا وكينونة الخوض فيه حقيق بالانتفاء فهي أشد في نفس الفعل وهذا مسوق للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب وتوجيه الخطاب إلى الله في قوله: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ للإشعار بأن الله غاضب على من يخوض في ذلك فعليهم أن يتوجهوا لله بالتوبة منه لمن خاضوا فيه، وبالاحتراز من المشاركة فيه لمن لم يخوضوا فيه(١).

رابعًا: توعد الله سبحانه وتعالى الذين يروجون الإشاعات الكاذبة بالعذاب العظيم:

ولقد توعد الله عز وجل الذين يروجون الشائعات بالعذاب الأليم؛ لأن الذين يروجون الشائعات في المجتمع المسلم هدفهم هدم بنيان المجتمع ونشر الرذيلة فيه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

فالآية الكريمة فيها تهديد ووعيد للقاذفين البرءاء بالزنا والذين يحبون أن يفشوا القذف بالفاحشة وهي الزنا في الذين آمنوا فتوعدهم بعذابين الأول في الدنيا وهو الجلد والثاني في الآخرة وهو عذاب النار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ ﴾ أي يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر(٢)، والله يعلم شر ما خضتم فيه وما يتضمن من سخط الله ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك.

أو والله يعلم كذب الذين جاءوا بالإفك من صدقهم وأنتم لا تعلمون ذلك لأنكم لا تعلمون الغيب على أهل الإيمان بالله ولا سيما حلائل رسول الله فتهلكوا(٣).

وهكذا فالآية الكريمة تهدد وتتوعد من يشيع الشائعات الكاذبة في المجتمع المسلم وخاصة التي تمس أعراض الناس بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة وتحذرهم من الهلاك

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٦).
(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٦/ ٢٢) باختصار وتصرف.
(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٦).

من سخط الله عليه.

قال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١].

يقول العلامة الألوسي: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم ﴾ أي لكل الذين جاءوا بالإفك ﴿ مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ أي جزاء ما اكتسب وذلك الجزاء بقدر ما خاض فيه فإن بعضهم تكلم وبعضهم ضحك كالمعجب الراضي بما سمع وبعضهم أكثر وبعضهم أقل.

﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ أي تحمل معظمه، ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط، وفي التعبير بالموصول وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى(١).

ولا شك أن بهذه الخطوات التي اتخذها القرآن الكريم في علاج الإشاعة قد سد الباب أمام أي شائعة تأخذ بطريقها لتخلخل داخل الوسط المؤمن فعلى المسلمين أن يعودوا راشدين لمنهج القرآن ويسيروا عليه ليسعدوا بخيري الدنيا والآخرة.

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء الثامن عشر (١٠/ ١٧١) باختصار.

المبحث الثاني
أهداف الأعداء من الحرب النفسية

أهداف الأعداء في الحرب النفسية:

كان لأعداء الإسلام أهدافًا دفعتهم لاستخدام الحرب النفسية ضد المسلمين، وقبل أن أذكر هذه الأهداف سأعرف الهدف أولاً:

يقال هدف إليه هدفًا: دخل.

وهدف إلى الشيء هدفًا: قصد وأسرع.

وهدف إلى الأمر: جعله هدفًا له[١].

والهدف: هو القصد والمراد من الشيء يقال سدد الهدف: أوصله إلى مرماه، والهدف هو نية الوصول إلى الشيء المعين[٢].

والنية في اللغة: القصد.

وفي الشرع: قصد الشيء مقترنًا بفعله[٣].

وقد تمثلت أهداف الأعداء في الحرب النفسية في العناصر التالية:

أولاً: تفتيت وحدة الأمة.

ثانيًا: التشكيك في القيادة.

ثالثًا: التشكيك في المنهج.

رابعًا: إضعاف الروح المعنوية.

خامسًا: تدمير أخلاق المسلمين.

---

(١) المعجم الوجيز، مادة هدف (ص٦٤٦).

(٢) المخصص لابن سيده (٤/ ٩١)، ط/ المكتب التجاري للطباعة، بيروت.

(٣) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٩٢)، ط/ الدار المصرية للتأليف، القاهرة.

أولاً: تفتيت وحدة الأمة:

كان وما زال تفتيت وحدة الأمة الإسلامية على رأس أهداف أعداء الإسلام في حربهم النفسية ضد المسلمين.

فهم يريدون المسلمين فِرَقًا وجماعات مفتتة حتى يسهل عليهم افتراسهم والقضاء عليهم.

ولكن المسلمين الأوائل خيبوا محاولات أعدائهم لتفتيت وحدتهم، لقوة دينهم وتمسكهم بالقرآن الذي كان يتنزل عليهم يثبتهم ويقوي عزائمهم.

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

سبب نزول هذه الآية:

قال ابن عباس: نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد واقعة أحد: ألم ترو ما أصابكم؟ ولو كنتم على حق ما هُزِمْتُم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم[١].

يقول العلامة أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ حكاية لودادتهم ﴿ مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ متعلق بإيمانكم، ﴿ كُفَّارًا ﴾ أي يصيرونكم كفارًا ﴿ حَسَدًا ﴾ علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أي حاسدين لكم، والحسد الأسف على من له خير بخيره ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ متعلق بود أي ودوا ذلك من أجل تشهيهم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدين ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ بما عاينوا في التوراة من الدلائل وزعموا أنهم متمسكون به، وهم منهمكون في الباطل، ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ ﴾ العفو ترك العقوبة والمؤاخذة، والصفح: ترك التثريب والتأنيب،

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص٣٦).

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ بقتال بني قريظة وإجلاء بني النضير أو بالأمر بالقتال(١).

فالآية الكريمة تصور محاولة أعداء الإسلام خاصة اليهود إلى تفتيت وحدة الأمة باستمالة بعض عناصرها وإرجاعهم عن دينهم حتى تتفرق الأمة ويتشتت شملها وما تلك المحاولة منهم إلا لمرض نفوسهم واعوجاج فطرتهم.

ومن الآيات القرآنية المطهرة التي نزلت تكشف عن محاولات بعض الأعداء لتفتيت وحدة الأمة وتحذر المسلمين من الانخداع لتلك المحاولات قول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

وكانت تلك المحاولة: هي ما حاوله شاس بن قيس أحد أحبار اليهود حين رأى الأوس والخزرج مجتمعين في الإسلام بعد فرقتهم وحروبهم في الجاهلية، فغاظه ما رأى فذكرهم بيوم بعاث(٢).

وكادت أن تنشب الحرب بينهم فسمع الرسول ﷺ بذلك فعالج الموقف بسرعة حيث وقف فيهم وقال: أبدعوى الجاهلية تدعون وأنا بين أظهركم، وتلا الآية الكريمة، فعادوا راشدين، وفشلت محاولة شاس بن قيس في تفريق كلمتهم وتفتيت شملهم(٣).

فالآية الكريمة تتعجب من حال المؤمنين إن هم تأثروا بمحاولة أعدائهم في تخليتهم عن دينهم.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للعلامة أبي السعود (١/ ١٧٤، ١٧٥) باختصار وتصرف.

(٢) يوم بعاث: كان يوم بعاث يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، وأبو أسيد حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياض فقتلوا [illegible]. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٩٦).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٩٥، ٩٦) باختصار وتصرف.

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ يعني: ولم تكفرون.

﴿ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ أي القرآن، ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ محمد ﷺ.

قال قتادة: في الآية علمان: بيان كتاب الله ونبي الله، أما نبي الله فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة من الله ونعمة فلا يليق بكم وهو فيكم التفرق والتناحر[1].

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ ﴾ وبكتابه يكون الاعتصام إذ أنه حبله الممدود ورسوله هو الوسيلة إليه وهو ورده المورود[2] ﴿ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الصراط المستقيم هو: الطريق الواضح[3] الذي من شأنه أن من استمسك به وسلك فيه لا يضل ولا يخشى عليه من المهالك، فلا تروج عنده الشبهات ولا تروق في عينه التراهات وقد جاء جواب الشرط بصيغة الماضي المحقق للإشعار بأن من يلتجئ إليه تعالى ويعتصم بحبله فقد تحققت هدايته وثبتت استقامته[4].

فالآية الكريمة توضح كيف أن أعداء الإسلام يحاولون إيقاع الفرقة والشتات بين صفوف المؤمنين ولا ينبغي لهم أن ينجحوا في ذلك؛ لأنه بين صفوف المسلمين أقوى العوامل على ثباتهم ووحدتهم وهي كتاب الله وسنة رسوله.

ومن أمثلة السيرة التي تبين محاولات أعداء الإسلام لتفريق الأمة الإسلامية باستقطاب بعض عناصرها ما يحكيه كعب بن مالك عما حدث له بعد تخلفه عن غزوة تبوك إذ يقول: بينما أنا أمشي في السوق إذا نبطي[5] يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم

---

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (١/ ٣٣٢).

(٢) تفسير المنار، أ/ محمد رشيد رضا (٤/ ١٦).

(٣) انظر: معالم التنزيل للبغوي (١/ ٣٣٢).

(٤) تفسير المنار، أ/ محمد رشيد رضا (٤/ ١٦).

(٥) النبطي واحد النبط، قوم من العجم كانوا يسكنون بين العراق والأردن، عاصمتهم البطراء. السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٩٥).

بالطعام يبيعه في المدينة، يقول: من يدلني على كعب بن مالك قال: فجعل الناس يشيرون له إليّ، حتى جاءني فدفع إلي كتابًا من ملك غسان وكتب كتابه في سرقة[(١)] من حرير، فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فألحق بنا نواسك، قال: قلت حين قرأتها، وهذا من البلاء أيضًا قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك، فعمدت إلى تنور فسجرته[(٢)] بها[(٣)].

فهذه كانت محاولة لتفتيت وحدة الأمة بفتنة أحد عناصرها وهي تصور مدى كون أعداء الإسلام مهتمين بأخبار المسلمين ليستغلوا كل فرصة يجدونها سانحة أمامهم فهلا وعى المسلمون ذلك.

ومن مواقف السيرة أيضًا والتي تعكس محاولات أعداء الإسلام لتفريق شمل المسلمين: أن جهجاه بن مسعود أجير عمر بن الخطاب ازدحم على ماء هو وسنان بن وبر الجهني حليف الأنصار فصرخ الجهني يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين وغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا[(٤)] والله ما عندنا وجلاليب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[(٥)]، ثم أقبل على من حضر من قومه محاولاً تحريضهم ضد المهاجرين وتفريق شمل المسلمين قائلاً: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ووصل نبأ ما قاله للنبي ﷺ وأشار عليه عمر بن الخطاب

---

(١) السرقة: الشقة من الحرير. المرجع السابق.
(٢) سجرته أحرقته بلهت النار، المرجع السابق.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٩٥).
(٤) يقصد المهاجرين.
(٥) يقصد بالأعز نفسه وبالأذل الرسول ﷺ.

بأن يؤمر به فيقتل، ولكن النبي ﷺ رفض خشية أن يقال أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه[١].

فهذه محاولة خبيثة لتحريض الأنصار على المهاجرين من عبد الله بن أبي والتي كان من شأنها لو نجحت أن توقع الفرقة بين الأمة وتفتت شملها ولولا حكمة الرسول ﷺ واستيعابه للموقف لنجحت هذه المحاولة.

وفي العصر الحديث اتبع أعداء الإسلام مع المسلمين نفس المنهج تحقيقًا لنفس الهدف ونجحوا فيه للأسف فقسموا الأمة الإسلامية إلى دويلات متصارعة مطبقين لمبدأ «فرق تسد» وما زالوا يغرون الدول الإسلامية بعضها ببعض حتى يظلوا مسيطرين على الموقف، وتقسمت الدول الإسلامية إلى شعوب وقوميات تعتز كل دويلة بقوميتها بعيدًا عن أن يجمع بين الجميع إسلامهم.

كما وضع الاستعمار حديثًا حدودًا مصطنعة بين الدول الإسلامية ثم أدار رحى الفتنة للإيقاع بين الدول بعضها وبعض على هذه الحدود وقامت حروب كثيرة كان المسلمون هم الطرف الخاسر وأعداءهم هم المستفيدون الوحيدون.

فحرب إيران والعراق، والكويت والعراق ما هي إلا نتاج هذه المحاولات الخبيثة.

ومن الخلافات على الحدود الخلاف بين الإمارات وإيران على جزر أبي موسى وطنب الصغرى، وبين مصر والسودان على حلايب، وبين السعودية واليمن على الحدود الجنوبية أيضًا، وغيرها الكثير الذي يجسد محاولة أعداء الإسلام لتشتيت الأمة وتمزيق وحدتها وإثارة الفتنة فيما بينها[٢].

ولقد أدرك الغرب النصراني أن وحدة المسلمين وتماسكهم كانت وراء انتصاراتهم على الغرب، لذلك حاولوا عن طريق التبشير إثارة الفتن والاضطرابات داخل العالم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٥٤)، باختصار وتصرف.

(٢) الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية، رسالة ماجستير للباحث حنفي بكر (ص٥٢٣) باختصار وتصرف.

الإسلامي، ولذلك قال القس «سيمون» إن للتبشير عاملاً مهمًا في كسر شوكة الوحدة الإسلامية، ويجب أن نجول بالتبشير مجاري التفكير في هذه الوحدة حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين.

لذلك قام المبشرون ببث الفتن داخل المجتمعات الإسلامي حتى أن المبشر «زويمر» قد اندس بين أبناء الأزهر في زي طلبة العلم، ثم راح يوزع منشورات توقع الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط، وقد أثارت هذه الحادثة ضجة كبرى في الصحافة المصرية سنة ١٩١٩م، وكذلك كان المبشر «هنري لامنس» يقوم بأعمال مماثلة في الشام(١).

وهكذا فالأمثلة قديمًا وحديثًا تؤكد أن:

١- وحدة منهج أعداء الإسلام ضد المسلمين على مر العصور وإن اختلفت الطرق والأساليب.

٢- مدى الحقد والكره الذي يضمره أعداء الإسلام للمسلمين لولا ذلك ما استهدفوهم بتفريق أمتهم وتفتيت وحدتهم سواء بمحاولاتهم زعزعة المسلمين عن دينهم أو بإحياء قوميات غير إسلامية فيهم.

٣- أن المسلمين قديمًا كانوا فطناء لما يحاول ضدهم أما اليوم فهم أذيال ما يملي عليهم ويخدعون به من أعدائهم.

فهم أتباع اقتصاديًا وبالتالي فهم أتباع فكريًا فقديمًا قالوا: من كانت أكلته من فأسه كانت كلمته من رأسه.

---

(١) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د/ سعد الدين السيد صالح، ط/ مكتبة التابعين، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

ثانيًا: التشكيك في القيادة:

كان ومازال التشكيك في القيادة من أهم أهداف أعداء الإسلام في حربهم النفسية ضد المسلمين وإذا كان الكلام على الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن الكريم فالقائد كان حين نزول القرآن هو رسول الله ﷺ ولقد اتخذ الأعداء في التشكيك به الكثير من وسائل التشكيك منها وسيلة الاستهزاء بشخصه ﷺ وإثارة الإشاعات حوله ﷺ وحول أهل بيته وهذا ما بينته في وسائل الأعداء في الحرب النفسية في الصفحات السابقة.

ومن الآيات الكريمة التي صورت بعض مظاهر التشكيك فيه ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ يعيبك ويطعن عليك[١] ﴿ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ في قسمها، ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ قيل نزلت في أبي الجواظ المنافق فقال: ألا ترون إلى صاحبكم، إنما صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل[٢].

فهذه كانت محاولة مسمومة في التشكيك في عدالة الرسول ﷺ في قسم الصدقات، وما دفع هذا المنافق إليها الدفاع عن حق أو رد مظلمة وإنما دفعه الحقد الدفين والثأر لنفسه لأنه لم يعط منها.

ومن آيات القرآن الكريم التي حكت تشكيك أعداء الإسلام في شخص القائد الرسول ﷺ أيضًا قول الله عز وجل: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

---

(١) تفسير كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف، دار الإمام النووي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، (ص١٩٦).

(٢) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٤٠٩) باختصار وتصرف.

نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون الرسول ﷺ ويقولون فيه ما لا ينبغي، قال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما يقولون فيقع بنا، فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأته فيصدقنا بما نقول، فإنما محمد أذن سامعة، فنزلت هذه الآية[١].

والآية الكريمة تمثل نوعًا من أنواع النفاق وآثاره وهو إيذاء الرسول ﷺ بالطعن في أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة وناهيك بكفر من يصغرون من عظمة رب العالمين بقوله لرسوله[٢] ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

﴿يُؤْذُونَ﴾ الأذى ما يؤلم الحس المدرك في بدنه أو في نفسه ولو ألمًا خفيفًا[٣]، ﴿أُذُنٌ﴾ يقال رجل أذن إذا سمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع ومرادهم لعنهم الله أنهم إذا آذوا النبي ﷺ بسطوا فيه ألسنتهم وبلغه ذلك اعتذروا له وقيل ذلك منه لأنه يسمع ما يقال له فيصدقه لا يفرق بين الصحيح والباطل[٤].

فهم أرادوا لعنهم الله التشكيك في شخصه ﷺ بوصفه أنه لا يستطيع التفريق بين القول الحق والقول الباطل فهو يصدق كل أحد فردت الآية الكريمة عليهم وتوعدتهم بالعذاب الأليم ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومن محاولات أعداء الإسلام التي تمثل تشكيكهم في القائد رسول الله ﷺ ما حكاه قول الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص٢٠٥، ٢٠٦).
(٢) انظر: تفسير المنار، أ/ محمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٠)، باختصار وتصرف.
(٣) انظر: تفسير المنار، أ/ محمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٠).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٩٤) باختصار.

ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

روى أن أعرابيًا نازع أنصاريًا في بعض الغزوات على ماء فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكى إلى ابن أبي، فقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وإذا رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، عنى بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ [(١)]، والقائل عبد الله بن أبي وحده وأسند القول إلى المنافقين مع كون القائل فرد من أفرادهم وهو عبد الله بن أبي لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده لا لغيرهم اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزة للعادلين من عبادك، وأنزل الذل على الجائرين الظالمين.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه، وبما فيه الضر فيجتنبونه، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم والطبع على قلوبهم [(٢)].

فهم لجهلهم وسوء فهمهم زعموا أنهم هم الأعزاء على رسول الله ﷺ وفي ذلك تشكيك في شخصه ﷺ وتهوين من شأنه والتهوين من شأنه أمام الناس فنزلت الآية الكريمة ردًا دامغًا عليهم يصحح المفاهيم ويدحض الأباطيل.

ومن مواقف السيرة التي تدل على تشكيك أعداء الإسلام في القيادة الإسلامية المتمثلة في شخص النبي ﷺ.

أنه لما ضلت ناقة النبي ﷺ قال رجل من المنافقين: إن محمدًا يزعم أنه نبي وأنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.

وهنا يظهر الرد الدافع عن رسول الله ﷺ ليبطل هذه المحاولة ويزيل كل الشكوك

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ٤٩٦).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٢٩).

التي يحتمل أن تتغلغل إلى ضعاف النفوس حيث قال ﷺ : **«إن رجلاً ليقول كذا وكذا وإنه والله لا أعلم إلا ما علمني الله، إنها في شعب كذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها»** فذهبوا فوجدوها كما قال ﷺ وجاءوا بها(١).

ولقد أثار أعداء الإسلام حديثًا شبهات حول الرسول ﷺ بهدف تشويه صورته والتشكيك فيه وبثوا هذه الشبهات داخل المجتمعات الإسلامية بل والغربية أيضًا.

ويركز هؤلاء الأعداء المزورون على قضية تعدد الزوجات في حياة النبي ﷺ ليظهره شهوانيًا مزواجًا يبحث عن المرأة ليقضي وطره ويغفلون الأسباب التي دعته ﷺ لذلك سواء ما كان تأليفًا للقلوب أو إكرامًا لزوج شهيد أو حادثًا لسن تشريع مما أوضحه العلماء وأدرك سره الحكماء، وإن بعض أزواجه كن في سن الشيخوخة التي لا يرجى معها شهوة، ولا يبحث عندها رغبة في جسد، وأنه ﷺ بقى مع السيدة خديجة وحدها أكثر من خمسة وعشرين عامًا دون أن يفكر في غيرها وهو في أوج شبابه(٢).

وهكذا فإن هدف الأعداء من التشكيك في القيادة من أخطر الأهداف على الصف فهو يزلزل الثقة بالقائد وأوامره ثم قد يأتي بنتائج تؤدي إلى تصدع الصف وانهياره.

ونظرًا لخطورة هذا الهدف فقد أمعن أعداء الإسلام في استخدامه قديمًا وحديثًا فهلا بمن يذب عن نبيه وقائده وحامل مشعل هدايته للناس أجمعين!!!

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٧).

(٢) تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظم، دار القلم (ص١٦٢).

ثالثًا: إضعاف الروح المعنوية:

الروح المعنوية هي أهم عوامل النصر، فهي تفعل ما لا تفعله الأسلحة والمعدات، فالمسلمون في بدر مثلاً لم ينتصروا بعدة ولا عتاد وإنما انتصروا بروح مرتفعة معنوياتها بالإيمان ماضية لإرضاء الرحمن.

ولقد فطن أعداء الإسلام لخطر الروح المعنوية منذ اللحظة الأولى فهدفوا لإضعافها، واتخذوا لذلك محاولات شتى منها ما حاوله المنافقون لإضعاف معنويات المسلمين في الخندق بقولهم الذي حكاه القرآن ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٢-١٣]، وتلك محاولات خبيثة منهم لإضعاف الروح المعنوية لدى جنود المسلمين ومحاولة إرجاعهم من القتال.

فالآيتان تعرضان محاولات هؤلاء الأعداء من المنافقين لزعزعة وإضعاف روح القتال من المسلمين.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ صيغة المضارع تدل على استمرار القول واستحضار صورته.

﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ظاهر القول أنهم قوم لم يكونوا منافقين، فقيل أنهم قوم كان المنافقون يستميلونهم[(١)]، ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ من إعلاء الدين والظفر[(٢)]، ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي وعد غرور وقيل أي قولاً باطلاً أو أمر يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به[(٣)].

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ الطائفة: تقع على الواحد فما فوقه وعنى به هنا أوس بن

---

(١) روح المعاني للألوسي، الجزء الحادي والعشرون (١٢/ ٢٤٠) باختصار وتصرف.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٤/ ٣١١) باختصار وتصرف.
(٣) روح المعاني للألوسي، الجزء الحادي والعشرون (١٢/ ٢٤٠) باختصار وتصرف.

قيظي والد عرابة بن أوس[١]، وقيل الطائفة التي قالت الكلام كانت من المنافقين وقيل هم بنو سالم وقال السدي هم عبد الله بن أبي وأصحابه[٢].

﴿ يَٰأَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ هو اسم المدينة المطهرة، وقيل اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها وقد نهى النبي ﷺ أن تسمى بها كراهة لها وقيل هي طيبة أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام ونداؤهم إياهم بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعده من الأمر بالرجوع إليها[٣].

﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أي لا ينبغي أو لا يمكن الإقامة هاهنا[٤]، ﴿ فَٱرْجِعُواْ ﴾ إلى منازلكم هاربين، وقيل المعنى لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وسلموا لتسلموا، أو لا مقام لكم بيثرب فارجعوا كفارًا ليمكنكم المقام بها[٥].

والطائفة من المنافقين لم تكتف بالرجوع فقط بل حاولت أن تضعف من الروح المعنوية للآخرين، فأمروا غيرهم بالهروب من معسكر النبي ﷺ وقالوا ليس الموضع هنا موضع إقامة[٦].

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ أي في الرجوع، قيل هو بنو حارثة، وقيل هم بنو سلمة بن جشم، قاله مقاتل، ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ قال ابن قتيبة: أي خالية فقد أمكن من أراد دخولها وأصل العورة ما ذهب عنه الستر والحفظ فكأن الرجال ستر وحفظ للبيوت، فإذا ذهبوا عورت البيوت ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ لأن الله يحفظها، ولكن يريدون الفرار، وقيل: قالوا بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق، وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٨/ ٥٢٢٩).
(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٥٨) باختصار وتصرف.
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود (٤/ ٣١١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٨/ ٥٢٣٠).
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٢٤١) باختصار وتصرف.
(٦) انظر: فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٥٩).

العدو، ولا نأمن على أهلنا، فكذبهم الله وأعلم أن قصدهم الفرار[١].

والآية الكريمة وإن كانت تدل في دلالتها المباشرة على موقف هؤلاء المنافقين المتخاذل في غزوة الأحزاب فهي تدل أيضًا على أنهم لا يكتفون بتخاذلهم وحدهم بل يحاولون إضعاف وتخذيل من حولهم حتى لا يظهرون كالأجرب وسط الأصحاء كما تدل الآية على أن الشدائد تظهر معادن الرجال ففي الرخاء الكل سواء أما في الشدة فيظهر المعدن الطيب من المعدن الخبيث.

ومن مواقف السيرة التي تؤكد تركيز أعداء الإسلام على إضعاف الروح المعنوية للمسلمين كهدف من أهدافهم:

أ- قتل الدعاة.

ب- حادثة الإفك.

ج- إشاعة مقتل النبي ﷺ.

أ- قتل الدعاة:

حاول المشركون والمنافقون أن ينالوا من معنويات المسلمين وأن يؤثروا عليها كي لا يطمئنوا إلى إرسال دعاتهم خارج المدينة وبذلك يحصرون الدعوة في محيط ضيق لا يتسع لآمالها القريبة والبعيدة.

فلقد قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل القارة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفر من أصحابك يفقهوننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام فبعث معهم عشرة رهط وأمر عليهم عاصم بن ثابت فخرجوا حتى إذا بلغوا الرجيع[٢]

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٣٦٠، ٣٦١) باختصار.

(٢) الرجيع: ماء لهذيل بناحية الحجاز يقع قريبًا مما بين مكة وعسفان. انظر: هذا الحبيب (ص٢٨٠).

غدروا بهم فقتلوا منهم ستة[1].

كذلك غدر ابن الطفيل من بني عامر مع بعض الأعراب بأربعين داعيًا من دعاة الإسلام في بئر معونة بنجد فقضوا عليهم إلا رجلاً واحدًا عاد إلى المدينة يحمل أخبار الشهداء[2].

ب- حادثة الإفك[3]:

ومن النماذج أيضًا في السيرة المطهرة التي تدل على محاولة أعداء الإسلام لتدمير الروح المعنوية عند المسلمين.

وقد حاول المنافقون وغيرهم من أعداء الإسلام التأثير على معنويات المسلمين بوسيلة أخرى وهي وسيلة اختلاق الأكاذيب فاختلقوا حديث الإفك بعد غزوة بني المصطلق وكانت تلك الفرية إيذاء للرسول ﷺ في نفسه وأهله وكادت تقوم بسببها فتنة لولا حكمة الرسول ﷺ وحسن مداخلته.

وللإنسان أن يتخيل مدى التأثير النفسي الذي عانى منه رسول الله ﷺ والمسلمون مدة من الزمن حتى تعطلت غزواتهم ومصالحهم.

أيضًا من المواقف التي تدل على محاولة أعداء الإسلام لتدمير الروح المعنوية عند المسلمين.

ج- إشاعة مقتل النبي ﷺ:

ففي غزوة أحد شاع خبر مقتل الرسول ﷺ في المشركين والمسلمين، وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة الذين كانوا مع الرسول ﷺ وانهارت معنوياتهم حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد وعمتهم الفوضى والاضطراب إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين

---

(١) انظر: الروض الأنف (٢/ ١٦٧)، ط/ الجمالية مصر، ١٩١٤م.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧١، ٧٤)، باختصار وتصرف.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٥٩، ١٦٥) باختصار وتصرف.

لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرادهم واشتغل كثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين[١].

أيضًا من الأمثلة:

ما كانت تفعله هند بنت عتبة في غزوة أحد بالضرب بالدف بهدف رفع معنويات المشركين وتدمير معنويات المسلمين[٢].

والأمثلة غير ذلك كثيرة وهي تنطق بمحاولات هؤلاء الأعداء للنيل من معنويات المسلمين بشتى الطرق والوسائل سواء كان ذلك يتمثل في قتل الدعاة وكان هدفهم من قتلهم إضعاف الروح المعنوية عند المسلمين وهو يدل على مدى الحقد الذي يضمره أعداء الإسلام للمسلمين فهم يحاولون إضعاف الروح المعنوية عند المسلمين وزرع الخوف في نفوسهم، فلا يأمن أحد منهم أن يخرج داعيًا إلى الله.

ولكن هيهات أن ينال ذلك من روح المؤمنين الصادقين والدليل على ذلك أن ملأ الإسلام ربوع الأرض على يد هؤلاء المسلمين الأوائل ولو تخاذلوا وتأثروا بأسلوب أعدائهم هذا ما خرجوا عن المدينة شبرًا واحدًا أو كان هذا يتمثل في إشاعة الأخبار الكاذبة وإلصاق التهم بالأبرياء وخصوصًا القيادة ومحاولتهم محاربة القيادة بإلصاق التهم الكاذبة حتى تنعدم فيها الثقة.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٩)، باختصار وتصرف.

(٢) الرحيق المختوم، مرجع سابق (ص٣٠٢) باختصار وتصرف.

رابعًا: التشكيك في المنهج:

كذلك كان من أهداف أعداء الإسلام تشكيك المسلمين في منهجهم الذي يتبعونه ودستورهم الذي يعملون به وهو القرآن الكريم وجريا وراء هذا الهدف كانت لهم محاولات عديدة حكاها القرآن الكريم منها:

١- ما أشاعوه عن القرآن الكريم بهدف التشكيك فيه حيث أشاعوا عنه أنه ليس من عند الله وإنما تلقاه محمد ﷺ وتعلمه من بشر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ الجملة جواب عن كلامهم فهي مستأنفة استئنافًا بيانيًا بأن قولهم ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ يتضمن أنه ليس منزل من عند الله فيسأل سائل: ماذا جواب قولهم؟ فيقال: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

ولقد كشف القرآن هذا اللبس بأوضح كشف إذ قال قولاً فاصلاً دون طول جدال ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي كيف يعلمه وهو أعجمي لا يكاد يبين وهذا القرآن فصيح عربي معجز[(١)].

فالآية الكريمة حجة دامغة على إبطال دعواهم في التشكيك في القرآن فكيف يتعلم الرسول من رجل أعجمي ويكون على هذه الدرجة المعجزة من الفصاحة والبيان.

ومن الآيات الكريمة التي مثلت محاولة من محاولات أعداء الإسلام في التشكيك في القرآن قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الرابع عشر (٧/ ٢٨٧) باختصار.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٤-٦].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معًا وإبطالها(١)، ﴿ إِفْكٌ ﴾ كذب، ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ اختلقه محمد ﷺ والإشارة بقوله ﴿ هَٰذَآ ﴾ إلى القرآن، ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ أي على الاختلاق، ﴿ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ يعنون من اليهود، قيل: وهم أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب ابن عبد العزى، وجبر مولى ابن عامر(٢).

﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا ﴾ التنوين للتفخيم أي ظلمًا هائلاً عظيمًا حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكًا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مجاراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والأمور الغيبية بحيث لا يناله عقول البشر وسمي الكذب زورًا لازوراره أي ميله عن جهة الحق(٣).

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: أنها ما سطر من أخبارهم وأحاديثهم، قال ابن عباس ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ كذبهم وأحاديثهم في دهرهم.

الثاني: معنى ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الترهات ومعناها عند العرب: طرق غامضة ومسالك مشكلة(٤).

﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ اكتتبها لنفسه أو استكتبها ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٤/ ١٢٠).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٦١).

(٣) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن والعشرون (١٠/ ٣٤٤) باختصار وتصرف.

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٢٠) باختصار وتصرف.

﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[١] وهي تلقى عليه دائمًا ليحفظها.

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لأنه أعجزكم عن أمره بفصاحته وتضمنه أخبارًا عن مغيبات مستقبلية وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار فكيف تجعلونه أساطير الأولين.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولونه مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صبًا[٢].

ولما أورد القرآن ما شكك أعداء الإسلام فيه ورد عليهم أصبح تشكيكهم لا قيمة له ولا طائل من ورائه فهو ناطق بالحق والصدق وهو النبراس المضيء لمن استضاء به وهو المنهاج الصالح لكل زمان ومكان.

ومن ضمن محاولات الأعداء للتشكيك أيضًا تشويههم للتاريخ الإسلامي وتشويههم للفتح الإسلامي بأنه غزو همجي، وأن الإسلام انتشر بحد السيف وبالعنف والإكراه وأن الإسلام دين دموي يحث على سفك الدماء وعن طريق قطع يد السارق وقتل القاتل وغير ذلك[٣].

وهذه المحاولات للتشكيك في الإسلام والقرآن وتعاليم الإسلام قديمًا وحديثًا تؤكد لنا ما يلي:

١- أن الإسلام هو الدين الحق والشريعة الصادقة على سائر أديان الأرض وشرائعها ولذلك فقد كان محل عداء من طوائف الأرض المختلفة قديمًا وحديثًا.

٢- أن المنهج الإسلامي وجد قديمًا من يرد ما أثير حوله، ووجد أناسًا صادقين أحسنوا إفهامه للناس ولكنه الآن يفتقد من يذب عنه فالتيار المعادي له المشوه لتعاليمه

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ١٣٥) باختصار وتصرف.

(٢) نفس المرجع (٢/ ١٣٥).

(٣) انظر: الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية (ص٥٤٠، ٥٤١).

تيار قوي يحتاج إلى مسلمين أقوى منه يعون دينهم ومسئوليتهم ولديهم الحماسة للقيام بواجبهم تجاه دينهم.

٣- أن ما أثاره أعداء الإسلام ضد الإسلام ويثيرونه دائمًا يؤكد عظم هذا الدين، فهو الصامد أمام كل هذه الشكوك ويذهل أعداءه لكثرة أتباعه يومًا بعد يوم رغم كل ما يحاولونه من التشكيك فيه.

خامسًا: تدمير أخلاق المسلمين وعقولهم وصلاتهم بالله وإطلاق شهواتهم:

وهذا الهدف يعتبر من أهم الأهداف للحرب النفسية لدى الأعداء إذ أن الهدف الرئيسي منها السيطرة على عقل الغير وتفكيره، فإذا تم ذلك كان جسدًا بلا روح وبهذا تؤتي الحرب النفسية ثمارها.

ولذلك نجد اللواء جمال الدين محفوظ يقول: والحرب النفسية أخطر أنواع الحروب لأنها تستهدف من المقاتل عقله وتفكيره وقلبه لكي تحطم روحه المعنوية وتقضي على إرادته القتالية وتقوده بالتالي نحو الهزيمة.

يقول القائد الألماني روممل: إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم[1].

ولقد حاول أعداء الإسلام منذ اللحظة الأولى التخطيط والتنفيذ لهذا الهدف في المجتمع المسلم وهو ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧].

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ والمعنى يريد توبتكم أي يقبلها فيتجاوز عن ذنوبكم ويريد التخفيف عنكم في جميع أحكام الشرع.

﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ ﴾ أي عن الحق، ﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ بإتيانكم ما حرم عليكم.

واختلفوا في الموصوفين باتباع الشهوات:

قال السدي: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم هم المجوس لأنهم يحلون نكاح الأخوات وبنات الأخ والأخت.

وقال مجاهد: هم الزناة يريدون أن تميلوا عن الحق فتزنون كما يزنون وقيل هم جميع

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، لواء جمال الدين محفوظ (ص١٤٦) باختصار وتصرف.

أهل الباطل[١].

فهم يريدون منكم أن تميلوا عن صراط الفطرة فتؤثروا داعية الشهوة الحيوانية على كل داعية فلا تبالوا أن تقطعوا لإرضائها وشائج الأرحام، وتزيلوا أواصر القرابة، وتكونوا مثلهم إمامكم المتبع هو الشهوة، وغرضكم من الحياة التمتع باللذات[٢].

فالآية تدل دلالة واضحة على هدف أعداء الإسلام من تدمير أخلاق المسلمين وإطلاق شهواتهم لأنهم هم المتبعون للشهوات يريدون من المسلمين أن يكونوا مثلهم في اتباع الشهوات.

ولقد عرف أعداء الإسلام أنهم لن يستطيعوا أن يسيطروا على العالم الإسلامي إلا بإبعاد المسلمين عن الإسلام ولن يبعدوهم عن الإسلام إلا بتدمير أخلاقهم أولاً، وأقوالهم قديمًا وحديثًا تدل على ذلك وها هو المبشر «نرويمر» رئيس جمعيات التبشير في الشرق الأوسط يقول في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥م: «إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية فإن هذا هداية لهم وتكريمًا، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبالتالي يجيء النشئ الإسلامي مطابقًا لما أراده الاستعمار لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل ويسعى للحصول على الشهوات بأي أسلوب حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة»[٣].

واليهود لهم الباع الطويل في إفساد أخلاق الأمم عن طريق الانحلال وبث الزنا والفجور قد بسطوا أيديهم على أهم وسيلة من وسائل هدم أخلاق الآخرين ألا وهي

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٤١٧) باختصار وتصرف، وانظر، زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٦٠).
(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا، (٥/ ٣١) باختصار وتصرف.
(٣) جلال العالم دمروا الإسلام أبيدوا أهله (ص٥٢).

الورق والصحف والتلفاز التي ينشرون من خلالها ما يريدون[١].

فالكلمات المسمومة التي يقولها زويمر المبشر وغيره والمواقف التي يفعلها أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم لتدل دلالة واضحة على استهداف أعداء الإسلام لتدمير أخلاق المسلمين وقطع صلتهم بالله وإغراقهم في الشهوات وبذلك تتم هزيمتهم نفسيًا بغير حرب عسكرية.

وهكذا كان وما زال أعداء الإسلام يحيكون المكائد ويحكمون المؤامرات ضد المجتمع الإسلامي ليحققوا أهدافهم من هذه المؤامرات والمكائد وأن ينفذوها من خلال الحرب النفسية أو الحرب الباردة أو السياسية كما يسمونها حديثًا.

فهم حريصون على تفتيت وحدة الأمة وتشكيك شبابها وخاصة الذين ليس لديهم الدراية الكافية بدينهم في رسولهم ﷺ وفي دستورهم وهو القرآن الكريم فهم دائمًا حريصين على تحطيم معنويات المسلمين وإحداث الهزيمة النفسية بداخلهم وإشعارهم بأنهم جنس أقل من جنس البشر على عكس ما يريده الإسلام منهم فالإسلام أرادهم سادة البشر وحملة لواء هدايتهم.

كما حرص أعداء الإسلام على تدمير أخلاق المسلمين لأنهم يعون جيدًا أن مسلمين بلا أخلاق لا قيمة لهم ولا وزن.

ولقد فشل الأعداء قديمًا في تحقيق هذه الأهداف لكن النتيجة الآن على عكس ذلك فما أحوجنا إلى جيل يعي دينه ويعي ما يحاك ضده وينهض للغاية التي أرادها الله عز وجل منه وتنفيذ مهمته التي خلقه الله عز وجل من أجلها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

(١) طباع اليهود من خلال مصادرهم، د/ فرج محمد الوصيف (ص١٥٣).

الفصل الرابع
الحرب النفسية وسائلها وأهدافها لدى المسلمين

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الوسائل الإسلامية في الحرب النفسية.

المبحث الثاني: أهداف الحرب النفسية من المسلمين في مواجهة أعدائهم.

هذا هو الفصل الرابع من فصول بحثي وهو بعنوان «الحرب النفسية وسائلها وأهدافها لدى المسلمين»، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الوسائل الإسلامية في الحرب النفسية.

المبحث الثاني: أهداف الحرب النفسية من المسلمين في مواجهة أعدائهم.

وقصدت في هذا الفصل أن ألقي الضوء على بعض الوسائل التي انفرد بها المسلمون مثل الصدق في القول، أو تميزوا بها عن غيرهم مثل قتل الأسرى واستخدام العملاء السريين، فعلى الرغم من أن هذه الوسائل استخدمها غير المسلمين إلا أن المسلمين قد استخدموها وما يتوافق مع أهدافهم الإسلامية والتي منها تشجيع الناس على الاستسلام والدخول في الإسلام.

كما قصدت أن ألقي الضوء على بعض أهداف المسلمين من حربهم النفسية في مواجهة أعدائهم، وكيف أن وراءها غايات نبيلة ومشاعر طيبة تهدف إلى حمل مشعل النور إلى الناس أجمعين.

المبحث الأول
الوسائل الإسلامية في الحرب النفسية

أولاً: الاستعلاء بالإيمان وإظهار العزة على الكافرين.

ثانيًا: المباغتة.

ثالثًا: الإعداد الدائم المتطور.

رابعًا: الجهاد باللسان.

خامسًا: حرمان العدو من المرافق الأساسية.

سادسًا: الظهور أمام الخصم بالمظهر الذي يدخل الرهبة في نفسه.

سابعًا: قتل الأسرى.

ثامنًا: الإفادة من التناقضات والخصومات الموجودة في صفوف العدو.

تاسعًا: الصدق في القول.

عاشرًا: استخدام العملاء السريين.

الوسائل الإسلامية في الحرب النفسية:

لقد استخدم المسلمون منذ بداية عصورهم الحرب النفسية مع أعدائهم وقد كانت هذه الحرب إلى جوار الحرب العسكرية تعضدها وتؤازر من نجاحها وتحسن من نتائجها ولكن استخدام المسلمين لهذه الحرب ليس كاستخدام أعدائهم لها فهم اعتمدوا على الصدق في الوعد والوعيد وإنفاذ العهد إلا على من يخونهم، بينما أعداؤهم اعتمدوا على الغدر والخداع والخيانة والكذب فشتان ما بين الأسلوبين.

والحروب النفسية التي شنها الأعداء لم تقتصر على النبي ﷺ فقط بل امتدت لتشمل الدعوة الإسلامية والمسلمين، ولم تقتصر على فترات الحروب بل شملت أوقات السلم أيضًا واستخدمت في ذلك كافة الوسائل والأشكال المتاحة ولم يأخذ المسلمون موقف الدفاع ضد هذه الحروب فقط وإنما كان للمسلمين وسائلهم وخططهم في توجيه الحرب النفسية ضد قوى البغي والضلال التي حاربت الإسلام وحاولت القضاء عليه(١).

كما أتقن قادة المسلمين وسائل الحرب النفسية وكان استخدامهم لهذه الوسائل بمهارة فائقة حتى إنهم استطاعوا الحفاظ على مضاء هذا السلاح وقوته استمرار أعمالهم القتالية كلها وكانت حروبهم النفسية رديفًا لقواتهم المسلحة ولم تكن بديلاً لها بمعنى أن الحرب النفسية كانت لديهم وسيلة وليست غاية.

ومن الأمثلة التي تبرز استخدام قواد المسلمين للحرب النفسية بوضوح تامة ما فعله عبد الله بن سعد بن أبي السرح لجرجير ملك أفريقيا في معركة «عقوبة» حيث أعلن جرجير أن من يقتل عبد الله بن سعد سيمنحه مائة ألف دينار، ويزوجه ابنته، فكان الرد الحاسم: إعلان عبد الله: من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده حتى صار جرجير أكثر خوفًا من عبد الله(٢).

---

(١) الدعاية السياسية في العصر الأموي، منير حجاب (ص١٣١).

(٢) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ١٩٣) بتصرف.

ولقد كان للمسلمين وسائلهم في الحرب النفسية والتي تميزوا بها منها:

أولاً: الاستعلاء بالإيمان وإظهار العزة على الأعداء:

وذلك أن الاستعلاء بالإيمان يعطي صاحبه قوة وصرامة وثباتًا تهز أفئدة معانديه فتخلق في نفوسهم الضعف والانهزام النفسي.

ولقد استخدم المسلمون هذه الوسيلة تطبيقًا لآيات القرآن التي تحدوهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

فالمؤمنون يكسبهم الإيمان عزة واستعلاء وهي لهم وليست لغيرهم وإنما لأعدائهم الذلة والهوان يقول الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ﴾ أي الغلبة والقوة لمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وعزهم بنصرته إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان وأعلم رسوله بذلك.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ولو علموه ما قالوا مقالتهم هذه[(١)].

ويقول صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين[(٢)].

وأي تكريم أن يضم الله رسوله والمؤمنين إلى جانبه ويضفي عليهم من عزته، إنه تكريم هائل لا يكرمه إلا الله، وأي تكريم بعد أن يوقف الله -سبحانه وتعالى- رسوله والمؤمنين معه إلى جواره ويقول هانحن أولاء هذا لواء الأعزاء وهذا هو الصف العزيز وصدق فجعل العزة ضوء الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن ولا تنحني ولا تلين، ولا تزيد القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٥/ ٥٤٩).

(٢) الكشاف للزمخشري (٤/ ١١١)

أن يتضعضع فيه الإيمان فإذا استقر ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة(١).

ومن الآيات التي تحمل صفات المؤمنين وأن من صفاتهم أنهم أعزة على الكافرين بإيمانهم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالمستمسكون بدينهم المؤمنون حقًا الذين أكسبهم إيمانهم أن أحبهم الله وأحبوا الله فهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وهذا يدفعهم إلى أن يجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد ولا يلتفتوا إلى أي شيء فهم المستعلون بإيمانهم المتميزون بعقيدتهم.

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ والأذلة جمع ذليل أي أرقاء رحماء متذللين ومتواضعين لهم(٢)، لا أنهم أذلاء(٣).

واستعماله بعلى إما لتضمين معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على لمؤمنين خافضون لهم أجنحتهم(٤) والأعزة جمع عزيز أي أنهم كما يظهرون العطف والحنو والتواضع للمسلمين يظهرون الشدة والغلظة والترفع عن الكافرين ويجمعون بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الازدراء بأهل الدين وقلب محاسنهم مساوئ ومناقبهم مثالب حسدًا وبغضًا وكراهية للحق(٥).

فالمؤمنون أعزة على الكافرين ففيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء وهذه العزة ليست للذات وهذا الاستعلاء ليس للنفس إنما هي العزة للعقيدة والاستعلاء

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/ ٣٥٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٢/ ٥٧).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٨٢).

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢/ ٥٧، ٥٨).

(٥) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٤).

للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين.

إنها الثقة أن ما معهم هو الخير وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين.

ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى، وبغلبة قوة الله على تلك القوى وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك أثناء الطريق الطويل(١) مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولقد تشرب الرعيل الأول معنى العزة الذي أكسبهم الإيمان إياها فنضجت عليها نفوسهم وتحركت على أساسها أركانهم.

ومن المواقف التي تجسد هذا المعنى موقف سعد بن عبادة رضي الله عنهما في غزوة الأحزاب، لما طال الحصار بالمسلمين واشتد الكرب وبلغت القلوب الحناجر أراد الرسول ﷺ أن يكسر هذا الحصار بمصالحة قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن تنصرف غطفان.

وجرت المراودة على ذلك فاستشار النبي ﷺ السعدين(٢) في ذلك، فقالا: يا رسول الله إن كان الله قد أمرك بهذا فسمعًا وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى(٣) أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك نعطهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم(٤).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ٩١٩) بتصرف يسير.

(٢) المراد بهما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما.

(٣) ما يضع للضيف من طعام.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٢) باختصار.

لقد كان لهذا الموقف من العزة بالإسلام والرسول ﷺ أثره القوي في نفوس قادة غطفان حين رأوا إصرارًا عجيبًا على القتال من الأنصار وأن غطفان لن تأكل حبة ثمر إلا على أجساد أهل المدينة الذين عرفوا بقوة البأس وشدة الشكيمة صبر عند الحرب صدق عند اللقاء وهذا ما لا قوة لغطفان به.

نعم كان هذا الموقف حرب نفسيه أتت أكلها جعلت وفد غطفان يعود يائسًا من إحراز أي كسب مادي أو معنوي.

وهذه المعنويات العالية التي كان يتمتع بها الصحابة كانت نتيجة طبيعية للعقيدة التي اعتنقوها والتي ربت فيهم العزة والرجولة والشهامة إن هذا الدين يأبى الضيم والخنوع ولا يرضى لأهله الاستكانة والخضوع لأهل الخنوع، إن هذا الدين يرضع معتنقيه لبان العزة والكرامة من أول يوم إنهم ولدوا أحرارًا وليس لأحد أن يستعبدهم[١].

ومن الأمثلة على ذلك أيضًا:

أنه في معركة القادسية ذهب الربعى بن عامر يفاوض رستم قائد الفرس، والتاريخ يصور لنا موقف كل من الطرفين وكيف مارس كل منهما على الآخر ألوانًا من الحرب النفسية وكيف تجلت العزة بالإيمان في تصرفات الربعى بن عامر رضي الله عنه.

أما رستم فقد فرش الأرض بالسجاد العجمى الفاخر ووزع الوسائد والزرابي وجلس على سرير الملك وعلى رأسه تاج نادر به جواهر من أندر ما عرفه الإنسان وفي يده أسورة الذهب والحاشية مصطفة بين يده والساقون يديرون الخمر والعسل.

ومظاهر الأبهة والنعيم والبذخ تدير الرءوس وتذهب بالأبصار، كل هذه المظاهر كان المقصود منها أن تمارس حربًا نفسية على ربعى وتجعله في موقف داخلي حرج وشعور بالهوان أمام هذه الأبهة وهو البدوي المحروم كما يتصورون، ولكن أنى لهم ذلك.

---

(١) السيرة النبوية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس: غزوة الأحزاب.

وبدأ ربعي في شن حربه النفسية عليهم فدخل عليهم ومعه سيف وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتيكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعد الله، قالوا: وما موعد الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى[1].

فربعي ﷺ أظهر مظاهر عزته وأنها من عند الله وهذا الموقف وسيلة من وسائل الحرب النفسية التي لها أثرها على العدو حيث أنه لم يكن بين جنود من عوام الأعداء وإنما هو أمام قائد من كبار القواد وحوله مستشاروه العسكريون وقواد الكتائب والألوية مما يؤكد أهمية هذه الوسيلة في زعزعة قلب القائد وهيئته الحربية وقد اعتمد ربعي ﷺ على وسيلة إظهار العزة حيث فعل ما يلي:

أ- ما يدور في ذهن رستم ومن حوله عن دونية العرب وفقرهم وأن الجزيرة القاحلة المجدبة ضربتهم بالجوع فخرجوا يأكلون الناس فكانت عبارته «نحن قوم ابتعثنا الله» سهمًا نفسيًا نافذًا إلى قلب رستم ومن حوله يزيل هذا الإحساس ويضع مكانه حقائق أخرى.

ب- إعلان الهدف الأسمى الذي تحرك له المسلمون من القضاء على الشرك وعبودية الإنسان للإنسان إلى العزة بعبادة الله وحده ومن العيش الضيق في دنيا حيوانية مادية لا تعرف خالقها إلى حياة رحبة فسيحة لمعرفة الله والعبودية له والخروج من الظلم

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٩) باختصار وتصرف.

والعنت إلى سعة يملأ الإيمان أركانها وترفرف الطمأنينة على ربوعها.

ج- ولعل ربعيًا ﷺ أدرك بفطنة المؤمن أن سؤالاً يدور في نفس رستم ومن حوله إذا كنت تريدون أن تخرجوا الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها فنحن لسنا في ضيق وكأنه في هذه الحرب النفسية قدم تعريفًا جديدًا للدنيا يهزم به هذا الكبر ويبين أن دنياهم زائفة وأنهم لم يتذوقوا سعة الحياة إلا تحت ظلال الإيمان وفي هذا انعكاس نفسي رهيب يؤدي إلى زعزعة نفس العدو وكسر غروره الزائف.

وهكذا فقد أكسب الإيمان المؤمنين عزة ورفعة وشموخًا فأظهروها على أعدائهم مما أذل نفوس أعدائهم في حين كانوا أذلاء بعضهم مع بعض.

ثانيًا: المفاجئة «المباغتة»:

يعني بوسيلة المباغتة أن يفاجئ قائد الجيش، الجيش المعادي بأسلوب أو بمكان لم يتوقعه ويصعب ملاحقته فيه، أو بزمان لم يتوقعه أو بأعداد لم يتوقعها، أو بأسلحة لا يعرفها[(١)].

وقيل هي أيضًا الظهور أمام العدو في وقت لا يقدره وبصورة لا يتوقعها، وهي بهذه الصورة تؤدي إلى ارتباك خطير في صفوف العدو فوق أنها تثير الرعب بين جنوده فيفقدون اتزانهم وتهتز أعصابهم بصورة تجعلهم غير قادرين على المواجهة والقتال وهنا تحل بهم الهزيمة.

والقائد الذكي الماهر هو الذي يجتهد في أن يضع خصمه في الموضع الذي يصبح فيه مسلوب الإرادة مقيد التفكير لا حول له ولا قوة، ضعيف لا يملك القدرة على المقاومة والتحمل، ويكون همه الأول هو وقاية نفسه[(٢)].

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بالعاديات وهي الخيول التي تغير على عدوها بسرعة فتباغته وفي ذلك دلالة على أثر المباغتة في نفس المغار عليه.

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ أقسم الله بـ«العاديات» جمع العادية وهي اسم فاعل من العدو وهو السير السريع ويطلق على سير الخيل والإبل خاصة[(٣)] وقيل المراد بها الخيل التي تعدو في سبيل الله فتضبح والضبح أنفاس الخيل إذا عدون[(٤)].

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ أي التي تغير على العدو وقت الصبح، يقال أغار يغير إغارة: إذا باغت عدوه بقتل أو أسر أو نهب وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها

---

(١) المدرسة النبوية العسكرية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، (ص١٧١) باختصار وتصرف.

(٢) فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية، تأليف محمد فرج (ص١٦٥)، ط/ مجمع البحوث الإسلامية.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء الثلاثون (١٥/ ٤٦٨) باختصار وتصرف.

(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (١٠/ ٧٢٤٣، ٧٢٤٤) باختصار.

عمدتهم في إغارتهم[١].

وقد أقسم الله بها فدل على عظم أثرها لأن القسم لا يكون إلا على عظيم.

وكان الرسول ﷺ في حملاته العسكرية يحرص على مباغتة عدوه ليشل تفكيره وقدرته على القتال، لأنه لا يتوقع من أي جانب يؤتي وفي أي وقت يضرب[٢].

وقد طبق الرسول ﷺ معظم صور المباغتة إن لم يكن كلها.

ففي غزوة بدر باغت أعداءه بعد مشورة أصحابه باختياره موقعًا استرتيجيًا إذ عسكر وجعل مياه العيون خلفه وفي حوزته وبهذا ضمن لجنده الماء وجعل المشركين في حاجة إلى الماء وتحت سيطرة المسلمين وهذا لم يكن في حسبان قادة المشركين[٣].

كما باغتهم بوسيلة القتال في صفوف والذي لم يكن معهودًا لديهم.

وفي غزوة بني لحيان تحرك النبي ﷺ شمالاً باتجاه الشام حتى لا يعرف بنو لحيان وقريش اتجاه حركته الحقيقية وبذلك باغتهم بالمكان[٤].

وفي غزوة الأحزاب باغت الأعداء بوسيلة جديدة لم يعرفوه من ذي قبل وهو حفر الخندق[٥].

وفي غزوة بني قريظة باغتهم بالزمان حيث تحرك إليهم بسرعة ما كانوا ليتوقعوها

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٨٤).

(٢) في ظلال السيرة النبوية: غزوة الأحزاب، د/ محمد عبد القادر أبو فارس (ص٢٨)، ط/ دار الفرقان.

(٣) المدرسة النبوية العسكرية محمد أبو فارس (ص١٧٢) بتصرف وانظر ابن هشام (٢/ ١٣١، ١٣٢).

(٤) الرسول القائد، للواء محمود شيت خطاب (ص٢٥٩)، ط/ دار الفكر، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٨١، ٨٢).

(٥) انظر ابن هشام (٣/ ١٠٦) باختصار وتصرف.

فشل معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة[١].

وهكذا فإن المباغتة من أهم مبادئ الحرب قديمًا وحديثًا وقد حرص المسلمون على تطبيق هذه الوسيلة في أكثر غزواتهم مما ساعدهم على النصر.

والقائد العبقري هو الذي يحاول أن يباغت خصمه حتى يقضي عليه ماديًا ومعنويًا؛ لأن المباغتة الناجحة تشل حركة العدو وتقضي عليه كليًا[٢].

وهكذا فإن وسيلة المباغتة التي استخدمها الرسول ﷺ كان لها من الأثر على معنويات الجيش المعادي ما لا تفعله الأسلحة والمعدات ولقد كان ذلك سبقًا فكريًا منه ﷺ أصبح يدرس بعد ذلك في النظريات العسكرية وهي تبين لنا كيف أن النبي ﷺ كان قائدًا ناجحًا مجددًا في أفكاره وخططه كما يؤكد قيمة التخطيط في إنجاح المهمات فكل هذه المباغتات لم تكن عبثًا أو اتفاقًا وإنما كانت عن تخطيط سابق جعل المباغتة تؤتي ثمارها.

---

(١) الرسول القائد للواء محمود شيت خطاب (ص٢٥٩)، ط/ دار الفكر، وانظر البداية والنهاية (٤/ ١١٦) وما بعدها.

(٢) الرسول القائد، مرجع سابق (ص٢٥٩) باختصار وتصرف.

ثالثًا: الإعداد الدائم والمتطور:

إن الإسلام لم يشأ أن يدخل المسلمين معركة دون الإعداد لها ماديًا ومعنويًا فقد اهتم بإعداد المقاتلين لكي يكونوا على درجة من الكفاءة القتالية.

فعلمهم ودربهم على أصول القتال ومواجهة العدو، واهتم بهم بدنيا وعقليًا وغرس فيهم روح المقاتل الصادق المؤمن(١).

وحثهم على الإعداد الدائم والمتطور لملاقاة أي عدو كما حثهم على مسايرة التطورات الحديثة المعاصرة لأسلحة وطرق القتال.

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم ﴾ هذا خطاب لكافة المؤمنين لما أن المأمور به من وظائف الكل بأن يعدوا لقتال الذين نبذوا إليهم العهد وهيئوا لحرابهم كما يقتضيه السياق أو لقتال الكفار على الإطلاق(٢).

والإعداد تهيئة الشيء للمستقبل(٣) واتخاذ الشيء لوقت الحاجة(٤) والإعداد يشمل كل قادر عليه سواء كان رجلاً أم امرأة، شابًا أم شيخًا غنيًا أم فقيرًا، فالإعداد هنا مهمة الجميع ومسئولية المجتمع الإسلامي كله كل يبذل ما يستطيعه من ماله أو جهد يده أو عقله في سبيل الإعداد، وما دام المسلمون أصحاب حق فيجب أن يكون لهذا الحق قوة تحميه وتصونه وتدافع عنه(٥).

---

(١) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٢٠٢).

(٢) روح المعاني للألوسي الجزء العاشر (٦/ ٣٥) بتصرف.

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٥١).

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٥٨).

(٥) المدرسة العسكرية لمحمد فرج (٢/ ٢٤٠، ٢٤١) ط/ دار الفكر

﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي كل ما يتقوى به في الحرب كائنًا ما كان وأطلق عليه القوة مبالغة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر القوة: بأنواع الأسلحة[١].

والله عز وجل أمرنا بإعداد القوة للأعداء وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ إلا إن القوة الرمي» قالها ثلاث مرات[٢].

﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ربطها واقتناؤها للغزو[٣].

والآية تدل على وجوب إعداد القوة الحربية اتقاء بأس العدو وهجومه.

ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزًا عظيمًا أبى الضيم جليل الجاه وفير السنا إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخفض شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستبعاد وعاش بنوه أحقابًا متتالية وهم سادة الأمم وقادة الشعوب لا يستكينون لقوة ولا يرهبون لسطوة، وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ومالوا إلى النعيم والترف فطمع فيهم عدوهم[٤].

والدارس للسيرة النبوية يجد أن الرسول ﷺ طبق مبدأ الإعداد الدائم والمتطور للجيش المسلم من حيث العدد ومن حيث العدة فمن حيث العدد:

كان عدد المسلمين في بدر (٣١٥) مقاتلاً ثلثمائة وخمسة عشر[٥].

وفي غزوة دومة الجندل ألف مقاتل[١].

---

(١) روح المعاني للألوسي، الجزء العاشر (٦/ ٣٥).

(٢) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٧) (٢/ ١٥٢٢)، ط/ إحياء الكتب العربية.

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٥٩).

(٤) محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٣٠٢٥) باختصار.

(٥) انظر زاد المعاد (٢/ ١٢٣).

وفي غزوة الأحزاب كان عدد المقاتلين ثلاثة آلاف مقاتل[٢]

وفي فتح مكة كان عدد المقاتلين عشرة آلاف مقاتل[٣].

وفي غزوة حنين كان عدد المقاتلين اثنى عشر ألف مقاتل[٤].

وفي غزوة تبوك كان عدد المقاتلين ثلاثين ألف مقاتل[٥].

وأما تطوير الأسلحة فقد حرص النبي ﷺ على أن يحصل على أحدث الأسلحة التي لا تقل عن أسلحة الأعداء بل تفوقها وأرسل نفرًا من الجيش إلى جرش باليمن ليتعلموا صناعة الدبابات والمنجنيق والضبور ثم عادوا وصنعوها واستخدموا بعضها في حصار الطائف[٦].

فكل هذه الإحصائيات تدل على:

١ - إعداد النبي ﷺ للجيش وحرصه الشديد على أن يكون إعداد متطورًا في العدد والعدة.

٢- أنه أحرى بالمسلمين الآن أن يكونوا أكثر حرصًا على هذا الإعداد الدائم والمتطور لجيوشهم لأنهم لا يملكون قوة الإيمان الذي كان يملكه الرعيل الأول.

وعليهم ألا يغفلوا قيمة الإعداد الإيماني الذي هو أهم سبب للنصر على الأعداء.

=

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٩٢).

(٢) انظر زاد المعاد (٢/ ١٦٨).

(٣) الرحيق المختوم (ص٤٧٣).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٥)

(٥) البداية والنهاية (٥/ ٢)

(٦) المدرسة النبوية العسكرية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس (ص٢١٩)، وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٩)

رابعًا: الجهاد باللسان:

والجهاد باللسان بإقامة الحجة على الأعداء ودعائهم إلى اتباع طريق الله سبحانه وتعالى ورفع الأصوات عند اللقاء وبزجرهم ونحو ذلك مما فيه نكاية للعدو والنيل منه وجزاء ذلك عند الله عظيم قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ مصدر كالقتل والأسر والنهب أو مفعول أي شيء ينال من قبلهم(١).

﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم ﴾ أي بأي عمل يعملونه ﴿ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي على إحسانهم والتنبيه على أن تحمل المشاق إحسان لأن القصد به إعلاء كلمة الله تعالى(٢).

والجهاد باللسان بلغة العصر ينطوي على كل أشكال الكلمة المسموعة والمقروءة والمرئية مما يسمى الآن بالدعاية التي تستهدف التأثير على العواطف والأفكار والسلوك.

ومن صور الجهاد باللسان في صدر الإسلام استخدام الشعارات والصيحات في القتال التي ترهب العدو مثل «الله أكبر»، «أحد أحد» وما تزال الجيوش في عصرنا تتخذ لرجالها صيحات للقتال لإثارة الحماسة في قلوبهم والرعب في قلوب أعدائهم.

وكان الشعر في صدر الإسلام من صور الجهاد باللسان للأعداء فقد كان تأثير هجاء

---

(١) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢/ ٤٥٧).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٣٢٩٧).

حسان بن ثابت للأعداء أوقع من تأثير الحروب العسكرية[١].

ولقد كان القرآن الكريم أوقع وأفضل شيء في جهاد الأعداء على لسان الرسول ﷺ وأصحابه، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

فجهادك به هو أقوى وأكبر وأصعب جهاد إنه جهاد دائم ومستمر لا في وقت وينقطع كالحروب العسكرية.

﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ أي بالقرآن[٢]، بتلاوة ما في تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ والتذكير بأحوال الأمم المكذبة[٣].

﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لا يخالطه فتور[٤].

فإن دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفًا[٥].

وقد جاهد الرسول ﷺ بالقرآن جهادًا كبيرًا تنفيذًا لأمر الله سبحانه وتعالى فكان لا يضيع فرصة يحذرهم به وينذرهم بآياته ويرغبهم بمرغباته ويرهبهم بمرهباته إلا واستغلها أفضل استغلال.

كما كان ﷺ يحرض أصحابه على أن يقارعوا أعداءهم بالكلمة فها هو ذا ﷺ يقول لحسان بن ثابت «**اهجهم أو هاجهم وجبريل معك إذا حارب أصحابي بالسلاح فحاربهم أنت باللسان**»[٦].

---

(١) غزوات الرسول، اللواء جمال الدين محفوظ (ص٤١٣)، ط/ دار الاعتصام.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٦٥).

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٤/ ١٤٤)، ط/ دار الفكر.

(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي (٧/ ٤٧٧٤).

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٤/ ١٤٥).

(٦) أخرجه الإمام مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه برقم (٢٤٨٦)، (٤/ ١٩٣٣).

فالجهاد بالكلمة لا يقل قدرًا ولا أثرًا عن الجهاد بالسيف فها هو ذا ﷺ يقول لأصحابه: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل**»(١).

أي الرمي بالسهام، ومن تحريض النبي ﷺ لأصحابه على الجهاد باللسان أيضًا قوله ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»(٢).

وكان عبد الله بن رواحة يلقي شعرًا بين يدي النبي ﷺ ولم يستنكر النبي ﷺ عليه بل دافع عنه.

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول شعرًا فقال عمر: يا ابن رواحة أبين يدي رسول الله وفي حرم الله عز وجل تقول شعرًا؟ فقال النبي ﷺ: «**خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل**»(٣).

فالشعر الذي كان يقرضه عبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ على مرأى ومسمع من المشركين وكان حربًا نفسية شديدة وفيه إغاظة للمشركين ومكايدتهم(٤).

ومن الأمثلة أيضًا التي تدل على أهمية الشعر واستخدامه كوسيلة من وسائل الحرب النفسية ما حدث لأبي سفيان في غزوة حمراء الأسد عندما أراد أبو سفيان أن يرجع إلى المسلمين ويقاتلهم فقابله معبد الخزاعي وخزاعة مسلمها ومشركها كانت عيبة نصح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن كعب بن مالك الأنصاري (٣/ ٤٠٦)، ط/ المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود، كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو (٣/ ٢٢، ٢٣)، ط/ دار الكتب العلمية.

(٣) أخرجه الإمام النسائي، كتاب مناسك الحج، باب (١٠٩)، رقم الحديث (٢٨٧٣)، (٥/ ١٦٠)، ط/ لطفي البابي الحلبي وأولاده.

(٤) في ظلال السيرة، محمد عبد القادر أبو فارس (غزوة الحديبية) (ص٢٨٢).

رسول الله ﷺ أي موضع سره وثقته لا تخفى عليه شيئًا من الناس فلما رآى أبو سفيان معبدًا ما وراءك يا معبد؟ قال: خرج محمد وأصحابه يطلبونكم في جمع لم أر مثله أبدًا، فقال أبو سفيان: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترحل حتى أرى نواصي الخيل، فقال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال معبد: إني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من الشعر، قال أبو سفيان وما قلت، قال: قلت:

كادت تهد من الأصوات راحلتي ... إذا سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردي بأسد كرام لا تنابله ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظلت عدوا أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تعطمطت[1] البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البسل[2] ضاحية ... لكل ذي إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش[3] تنابله ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فأوقع هذا الشعر في نفس أبي سفيان هزيمة نفسية ولذا أمر بالرحيل والعودة إلى مكة[4].

وفيه تأكيد على قيمة الجهاد باللسان وأثره في النيل من الأعداء ونفسياتهم، فالقران الكريم والأحاديث الشريفة تبين لنا كيف ينال الجهاد باللسان من الأعداء مثل ما يناله منهم الجهاد بالسيف بل قد يكون أشد.

---

(١) أي اهتزت له، انظر: هذا الحبيب (ص٢٧٦).
(٢) المراد بهم قريش، المرجع السابق.
(٣) وهو أراذل الناس، المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق (ص٢٧٥، ٢٧٦) باختصار.

خامسًا: حرمان العدو من المرافق الأساسية:

كان حرمان العدو من المرافق الأساسية أحد وسائل المسلمين المهمة التي استخدموها في حربهم النفسية لمواجهة أعدائهم.

وكان لهذه الوسيلة تأثير شديد على نفوس الأعداء وذلك ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥].

و«اللينة» هي: النخلة الكريمة(١)، وكان قطعها فيه من التنكيل بهم ما فيه لأنها من مرافقهم الاقتصادية الحيوية لما تدره عليهم من أموال.

﴿ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي ليذل الخارجين عن الطاعة وهم اليهود(٢) وليعز بذلك المؤمنين(٣).

ويغيظ اليهود في قطعها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاءوا من القطع والترك ازدادوا غيظًا(٤).

والمعنى: أن الله سبحانه إنما أذن في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أخص أموالهم(٥).

ولا شك أن الخزي والغيظ والحسرة مما يصيب نفوس الكفار كلها من التأثيرات النفسية البالغة التي تلحق بهم من جراء حرمانهم من مورد مهم من مواردهم الاقتصادية ومرافقهم الحيوية.

والسيرة المباركة على صاحبها أفضل الصلوات والتسليم تطالعنا باستخدام

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٥/ ٦٢) الجزء الثامن والعشرون.
(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٤).
(٣) روح المعاني للألوسي (١٥/ ٦٢) الجزء الثامن والعشرون.
(٤) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٤).
(٥) مفاتيح الغيب للرازي (١٥/ ٤٧٣).

الرسول ﷺ لوسيلة حرمان العدو من المرافق الأساسية كوسيلة من وسائل الحرب النفسية نتج عنها نتائج فائقة من جراء استخدامها.

ومن ذلك: ما حكاه ابن هشام في غزوة بدر تحت عنوان «مشورة الحباب على رسول الله ﷺ» إذ يقول: إن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزل أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة، قال ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس منزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننـزله ثم نغور ما وراءه من القلب[(١)]، ثم نبني عليه حوضًا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس حتى إذا بلغ أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه فملأ ماء ثم قذفوا فيه الآنية[(٢)].

وتحت باب قطع الماء عن أهل الحرب وتحريق حصونهم ونصب المجانيق عليها جاء في شرح السير الكبير: ولا بأس بالمسلمين أن يحرقوا حصون المشركين بالنار أو يغرقوها بالماء، وأن ينصبوا عليها المجانيق وأن يقطعوا عنهم الماء وأن يجعلوا في مائهم الدم والقذرة والسم حتى يفسدوه عليهم.

لأنا أمرنا بقهرهم وكسر شوكتهم وجميع ما ذكرنا من تدبير الحروب مما يحصل به كسر شوكتهم فكان راجعًا إلى الامتثال لا إلى خلاف المأمور، ثم في هذا كله نيل من العدو وهو سبب اكتساب الثواب[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

---

(١) القلب: جمع قليب وهو البئر القديم. انظر: السيرة لابن هشام (٢/ ١٣٦).

(٢) السيرة النبوية (٢/ ١٣٦).

(٣) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني (٤/ ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩).

وأشار سلمان ﷺ على رسول الله ﷺ أن ينصب المجانيق على حصن الطائف فنصبها رسول الله ﷺ وأمر عمر أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما وهو محاصر أهل تستر أن ينصب المنجنيق عليها فنصبها أبو موسى.

ونصب عمرو بن العاص المجانيق على الإسكندرية حين حاصرها.

وقطع رسول الله ﷺ الماء على أهل حصن من حصون النطاة بخيبر حين أخبر أن لهم ذيولاً تحت الأرض يشربون منها عادية فقطعها عنهم حتى عطشوا فخرجوا وقاتلوا حتى ظفر الله ورسوله بهم.

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: ركبنا البحر زمن معاوية ﷺ، ولقينا العدو فرميناهم بالمحرقات[1].

فكل هذه الأمثلة تؤكد لنا ما يلي:

١- أثر هذه الوسيلة وهي وسيلة الحرمان من المرافق الأساسية على نفوس الأعداء وكيف أنه يضعف معنوياتهم ويعجل من هزيمتهم.

٢- أن هذه الوسيلة توفر الكثير من الوقت والجهد في المعارك الحربية.

٣- كما يدل على تأصيل مبدأ الشورى في سياسة النبي ﷺ مع أصحابه وهو ما لا يفعله أكثر القواد زعمًا للديمقراطية.

سادسًا: الظهور أمام الخصم بالمظهر الذي يدخل الرهبة في نفسه:

من وسائل المسلمين في الحرب النفسية أنهم كانوا يظهرون أمام خصومهم بالمظهر الذي يرهب أعداءهم فكان ظهورهم مثلاً أمام أعدائهم متجهزين للحرب معدين لها كان ذلك يرهب الأعداء.

---

(١) شرح السير الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني (٤/ ١٤٦٧، ١٤٦٩)، ط/ القاهرة، معهد المخطوطات، بجامعة الدول العربية، ١٩٧١م، طبع مطبعة شركة الإعلانات الشرقية.

مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالإعداد للحرب من قبل المسلمين كان يرهب أعداءهم.

ومن علامات الإعداد للحرب أيضًا تنظيم الجيوش في صفوف لأن فيه دلالة على أن الحرب منظمة ومرتبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

فالبنيان المرصوص دلالة على أنه قوي وقوة المؤمنين ترهب أعداءهم.

يقول العلامة القرطبي ومعنى الآية: إن الله يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء(١).

وذلك مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

أي فاثبتوا ولا تتولوا ولا تعطوا للأعداء ظهوركم فذلك أدعى إلى ظهوركم أمام عدوكم بالمظهر القوي ويخذل نفوسهم ويرهبهم منكم لأن من علم أن عدوه قوي وثابت خاف منه ورهب جانبه.

يقول العلامة الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم وقد دب بعضهم إلى بعض للقتال فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمان وفي كل حال إلا في حالة التحرف أو التحيز(٢).

ولقد كان الثبات أمام الخصم والظهور أمامه في صفوف من العوامل التي أرهبت صفه وأرعدت فرائصه يوم بدر إذ كانوا لا يألفون هذا النمط وهو القتال في صفوف، إنما كان دأبهم القتال بالكر والفر، فكان الجندي منهم يوم بدر يواجه صفًا مرصوصًا من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٩/ ٥٦٠).
(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣١١) باختصار وتصرف.

رجال أشاوس فيطير قلبه وينخلع لبه ويولي هاربًا[(١)].

ومن مواقف السيرة التي تجسد استخدام الرسول ﷺ وأصحابه لهذه الوسيلة:

١- أنه في غزوة أحد يأذن الرسول لأبي دجانة سماك بن خرشة أن يمشي متبخترًا أمام المشركين، فقال رسول الله ﷺ: **«إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن»**[(٢)] ولماذا لأنها تثير الرهبة والذعر في نفوس الأعداء.

وهذه وسيلة من وسائل الحرب النفسية فأبو دجانة بعصابته الحمراء التي تدل على الدم نموذجًا يرعب الكفار، والعصابة الحمراء تقول الويل لمن يقابل صاحبي هذا فمصيره الموت والهلاك[(٣)]، وهو بذلك يظهر عزة المؤمنين على المشركين ويزيد من غيظ المشركين.

٢- وها هو ذا ﷺ يأمر أصحابه في عمرة القضاء بإظهار التجلد والهرولة والقوة أمام العدو ليقع الرعب في قلوبهم ويقول لأصحابه: **«رحم الله امرء أراهم اليوم من نفسه قوة»**[(٤)].

وكان ذلك حربًا نفسية يشنها الرسول ﷺ حتى لا تقوم لهم قائمة ولا يطمعون في المسلمين ولا يقوى لهم جناح بل يبقى جناحهم مهينًا وهذا يؤكد أن للحرب النفسية من الآثار ما لا تقدر عليه جيوش جرارة بأسلحتها الثقيلة المتطورة[(٥)].

فالظهور أمام العدو بمظهر القوة يرهبه ويخوفه ويقضي على ما بداخله من أمل في النصر أو الظهور.

---

(١) المدرسة النبوية العسكرية، د/ محمد أبو فارس (ص١٧٢) بتصرف.

(٢) أسد الغابة (٢/ ٤٥١) ترجمة سماك بن خرشة.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٢٧) باختصار وتصرف.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٢).

(٥) غزوة الحديبية، د/ محمد أبو فارس (ص٢٨٢).

سابعًا: قتل الأسرى:

من وسائل الحرب النفسية لدى المسلمين قتل الأسرى في وقت الحرب لإرهاب الأعداء وتخذيلهم عن مواصلة الحرب ضد المسلمين.

وفي ذلك حقنًا للدماء ودعوة إلى لغة الحوار فلقد عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ﷺ على عدم قتل الأسرى يوم بدر وإنما كان الأولى أن يقتلهم لأن قتل الكفار في ذلك الحين كان أولى من تركهم وأنكى بهم، وكسرًا لشوكتهم وإضعافًا لقوتهم، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾ ما صح وما استقام والمراد نبينا محمد ﷺ وإنما عبر بذلك تلطفًا به ﷺ حتى لا يواجه بالعتاب(١).

﴿ أَسْرَىٰ ﴾ جمع أسير مثل قتيل وقتلى وجريح وجرحي ويقال في جمع أسير أسارى، وكانوا يشددون الأسير بالقد وهو الأسار، فسمي كل أخيذ وأن لم يؤسر أسيرًا(٢).

﴿ يُثْخِنَ ﴾ الإثخان كثرة القتل والمبالغة فيه، والمعنى ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك.

فلقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم(٣).

أما إذا ظهر الإسلام وكثر أتباعه فلا بأس من الفداء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ

---

(١) روح المعاني للعلامة الألوسي، الجزء العاشر (٦/ ٤٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي (٥/ ٢٨٨٤، ٢٨٨٨)، وانظر: محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٣٠٣٨).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٤٥) باختصار.

تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٤].

يقول العلامة الألوسي في تفسيره لهذه الآية:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في المحارب.

﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ مجاز مرسل عن القتل وعبر به إشعارًا بأنه ينبغي بأن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن وتصويرًا له بأشنع صورة، لأن ضرب الرقبة فيه إطارة الرأس الذي هو أشرف أعضاء البدن ومجمع حواسه[(١)].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أكثرتم قتلهم وبالغتم فيه وأثخنتموهم مأخوذ من الشيء الثخيم[(٢)].

﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ أي إذا أسرتموهم، والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرًا، وإنما أمر بشد الوثاق حتى لا ينفلتوا[(٣)].

﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ أي فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا، أو تفدوا فداء، والمن: الإطلاق بغير عوض، والفداء: ما يفدي به الأسير نفسه من الأسر[(٤)].

وفي حكم الأسارى خلاف فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا لأنه ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث.

وإن شاء قبل فيهم الفدية كما فعل النبي ﷺ في أسرى بدر، وإن شاء منّ عليهم بالفداء بدليل الآية[(٥)].

فالمسألة بيد الإمام يحكم فيها حسبما اقتضت الظروف فالنبي ﷺ نفسه كان أحيانًا

---

(١) روح المعاني للعلامة الألوسي (١٤/ ٦٠، ٦١) الجزء السادس والعشرون.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٩/ ٦٠٤٦).

(٤) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣١).

(٥) روح المعاني للعلامة الألوسي (١٤/ ٦٢، ٦٣) الجزء السادس والعشرون.

يقتل وأحيانًا يفدي وأحيانًا يمنّ حسب الأحوال.

وكان أول من استخدم وسيلة قتل الأسرى على نطاق واسع سيدنا خالد بن الوليد وكان يستهدف الحصول على القادة بالدرجة الأولى أو من كان لهم مكانة مرموقة وسمعة قتالية جيدة في صفوف أعدائه حتى يقع ذلك في صفوف الأعداء موقع مؤثر في قلوبهم فإذا قتل القائد أو من له سمعة قتالية عالية فإن الجنود يدب الخوف إلى نفوسهم ويتأكدوا أنهم سيقتلون لا محالة فينهزمون نفسيًا ويؤدي ذلك إلى هزيمتهم بالكلية(١).

ومن أقوال سيدنا أبي بكر لخالد بن الوليد يقول له: لا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكلت به جهرة، وفي رواية نكلت به غيره، ومن أصبت ممن حاد الله أو ضاده، ممن ترى أن في ذلك صلاح فاقتله(٢).

وقد جاء في شرح السير الكبير تحت عنوان باب قتل الأسارى والمن عليهم قال: الإمام بالخيار في الرجال من أسارى المشركين ثم قال: وكان الحسن ﷺ يكره قتل الأسير إلا في الحرب ليهيب به العدو(٣).

وهكذا كان استخدام الرسول ﷺ والمسلمين لوسيلة قتل الأسرى حتى يخيفوا أعداءهم ويثنوهم عن موقفهم العدائي للإسلام وترهيبهم من الإصرار على مخالفته.

ونلحظ في استخدام الرسول ﷺ وقادة المسلمين من بعده لهذه الوسيلة أنه استخدام يتماشى مع الأهداف العامة للحرب في الإسلام وهي الدفاع عن العقيدة وحمل الناس على اتباع دين الله أو على الأقل المهادنة مع المسلمين بدفع الجزية، فلا يليق لأحد بعد ذلك أن يقول: أن استخدام المسلمين لهذه الوسيلة كان وحشية منهم.

---

(١) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ١٩٥).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٦٣)، ط/ دار المعارف، ط/ الثالثة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم.

(٣) شرح السير الكبير (٣/ ١٠٢٤، ١٠٢٥) تحقيق صلاح الدين المنجد.

ثامنًا: الإفادة من التناقضات والخصومات الموجودة في صفوف العدو:

ولقد أخبر القرآن الكريم النبي ﷺ وأصحابه أن أعداءهم يتظاهرون بأنهم صف واحد أمامهم لكنهم في حقيقة الأمر وواقعه أشتاتًا وأحزابًا متنافرة فعليكم أيها المسلمون أن تعوا ذلك وأن تستفيدوا منه.

قال تعالى: ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

فلا يغرنكم أمرهم ولا ترهبكم حصونهم فإنها يبنونها ليقاتلوكم من خلفها لأنهم أجبن من أن يقاتلوكم وجهًا لوجه ولا يستطيعون جمع كلمتهم ليكونوا صفًا وجيشًا يقاتلونكم به.

﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا ﴾ قيل هم اليهود، قال الأكثرون: أنهم اليهود والمنافقون، والمعنى: أنهم لا يبرزون لحربكم، إنما يقاتلون متحصنين[(١)].

﴿ إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ أي بالحصون، فلا يبرزون إلا البراز[(٢)]، لأنهم لا يقاتلونكم إلا في أماكن محاطة بالحيطان والدور ويظنون أنها تحميهم منكم[(٣)].

﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ أي من خلف حيطان يستترون بها لجبنهم ورهبتهم ولقذف الله تعالى الرعب في قلوبهم[(٤)].

﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض، أي بعضهم غليظ فظ على بعض، وقلوبهم مختلفة، ونياتهم متباينة، قال السدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد[(٥)].

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٨/ ٢١٨).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٦/ ٥٧٤٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٩/ ٦٥١٤).

(٤) روح المعاني للألوسي، الجزء الثامن والعشرين (١٥/ ٨٣) باختصار وتصرف.

(٥) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٠٢).

وقيل أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله[(١)].

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أي أعداء الإسلام من يهود ومنافقين وأهل كتاب.

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي مجتمعين على أمر ورأي، ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ متفرقة فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهاداتهم وهم يجتمعون على عداوة أهل الحق.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ذلك التشتيت والكفر لأنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله[(٢)].

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في تشخيص حال المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان، بشكل واضح للعيان.

ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين والفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة.

فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء وسبحانه الله العليم[(٣)].

ولقد فطن المسلمون الأوائل لهذه القضية الخطيرة فاستغلوها أحسن استغلال.

ومن ذلك موقف نعيم بن مسعود من الأحزاب حيث استطاع تخذيلهم وتفريق جمعهم، وتشتيت شملهم مما أضعف أثرهم وعجل بهزيمتهم[(٤)].

ولقد استغل صلاح الدين الخصومات الموجودة بين طوائف عدوه فجعلها من

---

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٨٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٩/ ٦٥١٥) باختصار.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/ ٣٥٢٩).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٥، ١١٦) باختصار وتصرف.

خطته لجلب النصر، في ذلك وفهم كما حدث في حرب دمياط فقد أخذ يتصل بجماعة من عسكر كل طائفة على مرأى من الآخر فزادت الخصومات بين الملك «إمري» والبيزنطيين، وظن بعضهم الظنون ببعض فسهل عقد الصلح وقبلت فيهم شروط صلاح الدين.

وأكثر من هذا أن صلاح الدين استطاع بسياسته أن يستميل المركيز صاحب صور حتى عرض المركيز محالفة صلاح الدين على أن يقاتلا الفرنجة معًا فما يأخذه منفردًا يصير له وما يأخذه المسلمون منفردين يصير لهم وما يأخذانه معًا يقتسمونه بينهم فيكون البلد للمركيز والأموال والأسرى للمسلمين[1].

وهذه الأمثلة تدلنا على:

١- وعي المسلمين الأوائل بمعاني القرآن الكريم ومغازيه وتحويله إلى واقع عملي استفادوا منه حين طبقوه فنالوا النصر على أعدائهم.

٢- إعجاز القرآن الكريم بإخباره عن أحوال هؤلاء الأعداء التي تسرها قلوبهم وتكتمها أنفسهم فلا يحبون إبداءها.

٣- إن المنهج الصحيح وهو الإسلام هو القادر وحده أن يصنع أمة متآلفة القلوب متماسكة الأركان فإذا كان المسلمون الأوائل قد وعوا ما أخبرهم القرآن به واستفادوا منه أحسن استفادة فما شأن المسلمين اليوم؟

إنه على العكس تمامًا أصبحوا يرهبون جانب أعدائهم بل لا يعادونهم وإنما يمشون في ظلهم ظانين أنهم هم الذين بأيديهم أمرهم وحادوا عن منهج ربهم فما زادهم هذا وذاك إلا ذلة وهوانًا وضعفًا وفرقة على عكس ما أراد الله منهم وعلى عكس ما حققه أسلافهم فلا حول ولا قول إلا بالله.

---

(١) أيام صلاح الدين لعبد العزيز سيد الأهل (ص١٤٩)، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة التعريف بالإسلام، رقم (١٠)، ط١، سنة ١٩٦٤م.

تاسعًا: الصدق في القول:

إن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض بالحق وطلب من الناس أن يبنوا حياتهم على الحق فلا يقولوا إلا حقًا ولا يعملوا إلا حقًا، وحيرة البشرية وشقوتهم ترجع إلى ذهولهم عن هذا الأصل الواضح وإلى تسلط أكاذيب وأوهام على أنفسهم وأفكارهم أبعدتهم عن الصراط المستقيم وشردت بهم عن الحقائق التي لا بد من التزامها[(١)].

ولقد فطن المسلمون الأوائل إلى هذه الحقيقة فعاشوا بها وكانت من أميز سماتهم، فهم إذا قالوا لا يقولون إلا حقًا وصدقًا، وإذا وعدوا فلا بد أن ينفذوا وعدهم.

ولذلك كانت لكلماتهم أثر ووقع في نفوس أعدائهم، فهم لا يخاطبون هراء ولا يتحدثون عبثًا، فلقد أصل في نفوسهم قول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ باتباع ما أمر به بقدر الاستطاعة وترك ما نهى عنه[(٢)].

﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في إيمانهم وعهودهم أو في دين الله نية وقولاً وعملاً[(٣)].

فكان الرعيل الأول رعيلاً صادقًا في إيمانهم وعهودهم ووعودهم ووعيدهم.

ولقد استخدمت هذه الوسيلة كوسيلة إسلامية من وسائل الحرب النفسية وكان لها أكبر الأثر على نفوس الأعداء لأنهم لما علموا صدق النبي ﷺ وصدق أتباعه كان إذا توعدهم ارتعدت فرائصهم واضطربت نفوسهم لأنهم يعلمون تمامًا أنهم سيصدقون في تنفيذ وعيدهم.

ولقد شهد أعداء الإسلام بصدق النبي ﷺ حتى قبل بعثته فكانوا يطلقون عليه

---

(١) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي (ص٣٤)، ط/ دار الريان.

(٢) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (١١/ ٥٧).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٤٢٤).

الصادق الأمين وهم كانوا إذا تلى ﷺ عليهم آية وعيد أو تهديد نديت لها جبهتهم وخشعت لها نفوسهم ولكن ما كانوا يلبثون حتى تأخذهم العزة بالإثم فيعودون لجحودهم ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ قال السدي التقي الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد بن عبد الله أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمدًا لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله تعالى هذه الآية[(١)].

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ إلغاء للتعليل في تسلية الله عز وجل له ﷺ بأن التكذيب في الحقيقة لي وأنا الحليم الصبور فتخلق بأخلاقي[(٢)].

وهذا يفيد بلوغه ﷺ في جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله عز وجل إلى حيث لا غاية وراءه، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه ﷺ تكذيبًا لآياته سبحانه وتعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

بل نفى تكذيبهم عنه وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠] إيذانًا بكمال القرب واضمحلال شئونه ﷺ في شأن الله عز وجل وفيه استعظام لجنايتهم مبني على عظم عقوبتهم[(٣)].

فها هو عتبة بن ربيعة يذهب إلى النبي ﷺ يريد أن يساومه على ترك دعوته بالمال وبالمنصب وعندما انتهى من كلامه تلى عليه الرسول ﷺ بداية سورة فصلت حتى وصل

---

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٩٤).

(٢) تفسير محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ٢٢٩٠).

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٢/ ١٤٢).

إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

فأمسك عتبة بفم النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن القراءة وذلك خوفًا مما تضمنته الآية من تهديد.

فلما رجع إلى أصحابه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: لقد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني وخلو بين الرجل وبين ما هو عليه فاعتزلوه والله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم[1].

ولولا علم هذا الرجل بصدق القرآن فيما يبلغه النبي ﷺ من وعيد لما طلب من رسول الله ﷺ أن يكف عن الكلام وما كان هذا الجواب الذي رجع إلى قومه به.

وكان لصدق النبي ﷺ وعلم أعدائه بذلك أكبر الأثر إذا دعا عليهم والدليل على ذلك: ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه به جلوس إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلا جذور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم وهو عقبة بن أبي معيط فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي لله وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئًا، لو كانت لي منعة قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض -أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا- ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعد السابع فلم يحفظه فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذي

---

(١) فقه السيرة للبوطي (ص٨٣-٨٨) باختصار وتصرف.

عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر[(١)].

ولولا علمهم بصدقه لما خافوا وما ارتعدوا وما شق ذلك عليهم.

ومن المواقف التي تدل على أثر صدق النبي ﷺ في نفوس أعدائه:

أن النبي ﷺ تلى قول الله عز وجل: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١].

قال عتبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم، فقال النبي ﷺ: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**» يعني الأسد، فخرج عتبة مع أصحابه في غير إلى الشام، حتى إذا كانوا في طريقهم رأى الأسد فجعلت فرائص عتبة ترتعد فقال له أصحابه: من أي شيء ترتعد فوالله ما نحن وأنت إلا سواء؟ فقال: إن محمدًا دعى علي وما ترد له دعوة ولا أصدق منه لهجة فوضعوا العشاء فلم يدخل فيه، وحاط القوم أنفسهم بمتاعهم وجعلوه وسطهم وناموا فجعل الأسد يشتم رؤوسهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه، هشمه هشمة فقال وهو بآخر رمق: ألم أقل لكم أن محمدًا أصدق الناس لهجة[(٢)].

ومن المواقف أيضًا التي تبين صدق الصحابة كما تبين أثر هذا الصدق في نفوس الأعداء أنه في غزوة القادسية خرج قائد من قواد الروم وقال لخالد بن الوليد ﷺ: يا خالد أخبرني فاصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاه لك فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا! قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعًا، ثم أن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا كذبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه، فقال لي: إني سيف

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب إذا ألقى على المصلي قذرًا أو جيفة (١/ ٦٩)، ط/ دار مطابع الشعب.

(٢) الرحيق المختوم (ص١١٦)، وانظر: مختصر سيرة الرسول لشيخ عبد الله النجدي (ص١٣٥) طبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، وانظر: تفهيم القرآن (٦/ ٥٢٢).

من سيوف الله سله على المشركين، ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجة: يا خالد إلى ما تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل، قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم، قال فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله، قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا، قال جرجة: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل، قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا، فقال جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال: تالله لقد صدقتك وإن الله ولي ما سألت عنه، فعند ذلك قلب جرجة الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فصب عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين(١).

لا شك أن هذه القصة فيها إفادات عديدة:

١ - قيمة الصدق وأنه ببركته قد ينقلب العدو خليلاً والكافر مسلمًا في لحظة واحدة.

٢ - أن الله لم ينصر المسلمين بسيوف من السماء وإنما جعل فيهم قوة الإيمان أمضى من السيوف في مقاتلة الأعداء.

٣- فطنة الصحابة واقتناعهم بعدالة حربهم ضد أعدائهم ووفقههم بأمور دينهم.

٤ - أهمية الصدق كوسيلة إسلامية من وسائل الحرب النفسية.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٢، ١٣).

ومما يؤكد قيمة الصدق وأهميته في التأثير على نفوس الغير أن أكثر البلاد الإسلامية دخلها الإسلام عن طريق صدق أصحاب الإسلام ومواقفهم الصادقة مع غيرهم.

فمثلاً أندونيسيا تلك البقاع الإسلامية النائية لم يدخل أهلها الإسلام إلا عبر صدق حديث وأمانة تعامل دفعت بمئات الألوف ثم الملايين أن تدخل في دين الله أفواجًا[(١)].

---

(١) تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء (ص١٦٩)، ليوسف العظم.

عاشرًا: استخدام العملاء السريين:

كان من وسائل المسلمين في الحرب النفسية استخدام العملاء السريين أو الجواسيس، والهدف من استخدام هذه الوسيلة نشر أفكار معينة أو تحقيق أهدافها التي لا تريد أن يعرف العدو عنها شيئًا أو لا تستطيع الإفصاح عنها، وبذلك تستخدم الترويج الخفي أو المستتر لما تريد إيصاله إلى الدولة أو الجمهور المستهدف من حربها النفسية أو لمعرفة أخبار العدو وأسراره وخططه[١].

ولقد استخدم النبي ﷺ هذه الوسيلة مع أعدائه فلقد جند من أصحابه عملاء سريين يحققون أهدافًا نفسية في جموع العدو أو ينقلون له ﷺ أخبارهم.

وكان هؤلاء العملاء مطيعين حق الطاعة له ﷺ ولم لا وفيهم يتلى قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠].

ومن يطع الرسول فقد أطاع الله فإن طاعة الرسول طاعة لله، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لم يقادر قدره ولا يبلغ مداه ووجهه أن رسول الله لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه[٢].

ولعل من أبرز العملاء الذين اتخذهم رسول الله ﷺ ليحققوا أهدافًا نفسية في جموع الأعداء دون علم الأعداء به هو الصحابي الجليل نعيم بن مسعود ﷺ في غزوة الأحزاب والذي كان له الأثر الكبير في تفريق شملهم وتشتيت كلمتهم[٣].

وفي غزوة بني المصطلق وصلت الأخبار للنبي ﷺ بأن الحارث بن ضرار سار مع خونة بني المصطلق ومن جمعهم من قبائل العرب لحرب الرسول ﷺ في المدينة فأرسل النبي ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلي ليستوثق له من صحة الخبر ويستطلع أخباره فلقي

---

(١) الدعاية الإسلامية في العصر الأموي، منير حجاب (ص١٤٩).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٨٠).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٥) باختصار وتصرف.

الحارث وكلمه وخالط جيشه فعلم منه الإصرار على القتال.

فعاد إلى الرسول ﷺ فأخبره بما وجده عند الحارث[١].

وفي غزوة الأحزاب أرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ليستطلع أخبار جيش الأعداء.

روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه بإسناده عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت[٢]، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك.

لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر[٣]، فقال رسول الله ﷺ : «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «**قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم**» فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «**اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم**[٤] **علي**» فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام، يعني أنه لم يجد الذي يجده الناس من تلك الريح الشديدة شيئًا بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ ودعاء النبي ﷺ له، فلما عاد عاد إليه البرد مرة ثانية، ولفظ الحمام عربية وهو مذكر مشتق من الحميم وهو الماء البارد، حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره[٥] بالنار فوضعت سهمًا في كبد القوس[٦] فأردت أن أرميه فذكرت قول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٥٤) باختصار وتصرف.

(٢) أبليت أي بالغت في نصرته كأنه أراد الزيادة على نصرة الصحابة.

(٣) القر هو البرد.

(٤) «ولا تذعرهم علي» أي لا تفزعهم علي ولا تحركهم علي، وقيل معناه لا تنفرهم، والمراد لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك، كان ذلك ضررًا علي، لأنك رسولي وصاحبي.

(٥) يصلي ظهره: أي يدفأه ويدنيه منها.

(٦) كبد القوس هو مقبضها، وكبد كل شيء وسطه.

الرسول ﷺ: «لا تذعرهم علي» ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت[١]، فألبسني ﷺ من فضل عباءة[٢] كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت[٣] فلما أصبحت قال: «قم يا نومان»[٤][٥].

ومن ذلك أن النبي ﷺ بعث عشرة أعين في غزوة بدر يأتون له بالأخبار[٦].

وكان للرسول ﷺ عيون في المدينة وعيون في مكة يطلعونه على كل صغيرة وكبيرة قد تضر بالمصلحة العامة بالمسلمين فكان بمكة عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب يأتيه بالأخبار وقد كان العباس يرغب في الهجرة إلا أن الرسول ﷺ كتب إليه إن مقامك في مكة خير، فكان عين للنبي ﷺ في مكة، ففي غزوة أحد وعندما استعد جيش مكة لحرب النبي ﷺ بعث العباس إلى النبي ﷺ برسالة يشرح له فيها جميع تفاصيل الجيش وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجد في السير حتى أنه قطع الطريق بين مكة والمدينة التي تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كيلو مترًا في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء[٧].

وكان للنبي ﷺ عيون في القبائل الأخرى من ذلك أن عبد الله بن حدرد الأسلمي من قبيلة هوازن كان عينًا له ﷺ في حنين فكان يزوده بالأخبار عن تحركات هوازن

---

(١) قررت أي بردت

(٢) «عباءة»: العباءة كساء مفتوح من قدام يلبس فوق الثياب.

(٣) «أصبحت» أي طلع علي الصبح.

(٤) «يا نومان» أي كثير النوم.

(٥) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، حديث رقم (١٧٨٨)، (٣/ ١٤١٤)، ط/ إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، سنة ١٩٥٥م.

(٦) البخاري بشرح فتح الباري (٨/ ٣٨٢)، طبعة المكتب الإسلامي استانبول، ١٩٧٩م، وانظر الحرب النفسية في صدر الإسلام، مرجع سابق (ص٢٧١).

(٧) الرحيق المختوم، مرجع سابق (ص٢٩٢) باختصار وتصرف.

وثقيف[1].

ولولا أن النبي ﷺ كان متيقظًا ببعث العيون ليجمعوا له الأخبار لاستطاع الأعداء أن يقضوا على الإسلام والمسلمين.

يقول صاحب الرحيق المختوم عند تعرضه لغزوة الأحزاب:

لو بلغت الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أبواب المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة، وتتحسس الظروف وتقدر ما يتمخض عن مجراها، فلم تكن تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير[2].

ولقد استفاد النبي ﷺ من المعلومات التي جمعتها عيونه في كل مكان وكان لها أبلغ الأثر في الاستعداد واستغلال الوقت والسرعة المباغتة مما أذهل الأعداء وأضعف معنوياتهم وكان ﷺ يختار لهذه المهمة الأمناء الذين يثق بهم فكانت المعلومات التي تأتيه صحيحة ودقيقة مما أسقط في أيدي الأعداء[3].

فما أحوجنا الآن لاستخدام هذه الوسيلة بهذه الدرجة التي كان عليها العملاء من الولاء والإخلاص للدين والعقيدة.

وما أحوجنا إلى القائد الذي هو المثل الأعلى للتفاني في الدين والعقيدة.

وهكذا فقد استخدام المسلمون العملاء السريين كوسيلة من وسائل الحرب النفسية وهم في استخدامهم لهذه الوسيلة لم يكونوا أول من استخدمها لكنهم كانوا المتميزين في استخدامها، وكانوا يتصفون بالأخلاق الفاضلة بعكس غيرهم، فاليهود مثلاً كانوا

---

(١) نقلاً عن: كتاب الحرب النفسية في العصر المدني، محمد داكان الدغمي (ص٢٧١، ٢٧٢).
(٢) الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري (ص٣٥٧)، ط/ دار الوفاء، ١٩٩١م.
(٣) الحرب النفسية في صدر الإسلام في العصر المدني (ص٢٧٢، ٢٧٣)، باختصار وتصرف.

يستخدمون هذه الوسيلة بطريقة غير أخلاقية فالغاية عندهم تبرر الوسيلة فقد استخدموا فيها النساء كأداة غير أخلاقية للتجسس، وكانوا يستخدمونها للإفساد في الأرض، وقد استخدموها قديمًا مع النبي ﷺ وقد حكى القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ [المائدة: ٤١] والمعنى أنهم عيون وجواسيس لقوم آخرين، لم يأتوك ولم يحضروا مجالسك وقد ساق ابن إسحاق أسماء بعض اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقًا، ليتمكنوا من التجسس على المسلمين، فقال: وكان ممن تعوذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار اليهود: سعد بن حنيف، وزيد بن السليط، ونعمان بن أوفى وغيرهم.

وما يزال التجسس دأب اليهود في كل قطر حلوا به، وتعرفوا عليه، ونزلوا بين سكانه، ويرى بعض الكاتبين أن عملية طرد اليهود من ألمانيا في عهد هتلر، كان هدفها توزيعهم على مختلف الدول، ليكونوا جواسيس لألمانيا تحت إشراف بعض الخبراء اليهود[1].

وكان اليهود خلال الحربين العالميتين الماضيتين جواسيس للمعسكرين المتحاربين، ومن هذا الطريق كانوا يقفون على أسرار الفريقين ويعرفون أسرار الدول الداخلية والخارجية.

أما تجسس اليهود في البلاد العربية فهو أمر يحتاج منا إلى الحيطة والحذر ويشترك فيه الرجال والنساء، ويدرب الجواسيس تدريبًا كاملاً على استعمال الأجهزة، والآلات الخاصة بالاستقبال والإرسال، وكذا على فنون التصوير واستعمال المتفجرات وإرسالها

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، الدكتور محمد سيد طنطاوي (ص٦١٦)، نقلاً عن كتاب: الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار، لفتحي الرملي (ص١٢١).

داخل المظاريف، وما أكثر شبكات التجسس اليهودية التي ضبطت في البلاد العربية.

والخلاصة في ذلك أن التجسس من الأعمال التي برع فيها اليهود، وكان ولا يزال من أهم الوسائل التي يلجأون إليها لمعرفة أسرار الدول والجماعات، ليستغلوا هذه الأسرار في خدمة مصالحهم الخبيثة والغير مشروعة وفي الكيد لغيرهم وفي نشر الفساد في الأرض[1].

وهكذا فقد استخدم المسلمون قديمًا الوسائل الإسلامية المختلفة في حربهم النفسية في مواجهة أعدائهم مما كان له أكبر الأثر في نفوس هؤلاء الأعداء.

فلقد استخدموا وسيلة المباغتة وحرصوا على إعداد جيوشهم إعدادًا متطورًا كما تفننوا في الجهاد باللسان كما حرصوا على حرمان أعدائهم من مرافقهم الأساسية في كثير من معاركهم ضد هؤلاء الأعداء وكانوا دائمًا يظهرون بمظهر القوة والشجاعة مما يدخل الرهبة في قلوب أعدائهم كما استخدموا وسيلة قتل الأسرى لإرهاب الأعداء أيضًا وكانوا على دراية بالحالة الداخلية لدى أعدائهم فكانوا يستغلون أي تناقضات أو خصومات تقع في صفوف الأعداء لصالحهم ومما ساعدهم على معرفة ظروف أعدائهم الداخلية أنهم استخدموا جهاز الاستخبارات أو العملاء السريين ومع كل هذا فكان سمتهم العامة الصدق في القول والاستعلاء بالإيمان وإظهار العزة على الأعداء.

---

(١) المرجع السابق (ص٦١٦، ٦١٧) بتصرف يسير.

المبحث الثاني
أهداف الحرب النفسية من المسلمين
في مواجهة أعدائهم

ويشتمل على:

أولاً: بث اليأس من النصر في نفوس الأعداء.

ثانيًا: تشجيع الأعداء على الاستسلام والدخول في الإسلام.

ثالثًا: إضعاف معنويات العدو.

رابعًا: إضعاف ثقة العدو في أن قدراته جديرة بإحراز النصر.

خامسًا: تفتيت وحدة العدو وتفريق شمله.

أهداف الحرف النفسية من المسلمين في مواجهة أعدائهم:

لقد استخدم أعداء الإسلام الحرب النفسية ضد المسلمين ودفعهم إلى استخدامها أغرضًا خبيثة واضطر المسلمون لاستخدام الحرب النفسية لمواجهة أعدائهم والذب عن أنفسهم ودينهم ولكن كانت غايتهم وهدفهم على أسمى ما تكون الغاية والهدف ولقد تمثلت أهداف المسلمين في استخدامهم للحرب النفسية فيما يلي:

أولاً: بث اليأس من النصر في نفوس الأعداء.

ثانيًا: تشجيع الأعداء على الاستسلام والدخول في الإسلام.

ثالثًا: إضعاف معنويات العدو.

رابعًا: إضعاف ثقة العدو في أن قدراته جديرة بإحراز النصر.

خامسًا: تفتيت وحدة العدو وتفريق شمله.

أولاً: بث اليأس من النصر في نفوس الأعداء:

كانت الغاية العظمى للرسول ﷺ والمسلمين هي دعوة الناس إلى طريق الله المستقيم وأوبهم إلى المنهاج القويم والأخذ بأيديهم إلى جنة النعيم وكانوا يحرصون كل الحرص في سبيل تحقيق ذلك على حقن الدماء إلا ما اضطروا إليه وعلى إرجاع الناس إلى الحق إلا إذا أصروا على خلافه ومن هنا كان استخدام المسلمين للحرب النفسية والتي كان من أهدافها بث اليأس من النصر في نفوس الأعداء فإذا يئسوا من النصر كانت محاولتهم للحرب أقل والصد عن الحق أضعف.

ومن آيات القرآن ما حملت معنى تيئيس أعداء الإسلام من النصر منها قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

ذكر العلامة الواحدي في سبب نزول هذه الآية أن يهود المدينة لما انتصر الرسول ﷺ على المشركين في بدر أرادوا تصديقه واتباعه وقالوا: هذا هو النبي الذي بشر به موسى، وقال بعضهم انتظروا حتى نرى واقعة أخرى فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب النبي

ﷺ شكوا وضربوا عليهم الشقاء ولم يسلموا وكعادتهم نقضوا عهودهم مع النبي ﷺ وانطلق كعب بن الأشرف يتآمر مع قريش فأجمعوا أمرهم على عداوة الرسول ﷺ فنزلت الآية.

وذكر أيضًا أنه لما انتصر النبي ﷺ في بدر جمع اليهود وحذرهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بقريش في بدر وطلب منهم الإسلام، فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لاقيت قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب، إنك إن لاقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس، فنزلت الآية[١].

فالآية الكريمة يأمر فيه الله عز وجل نبيه ﷺ أن يخبر أعداءه أنه سيكون مصيرهم بئس المصير في الدنيا والآخرة.

فمصيرهم في الدنيا الخزي والهزيمة وأما مصيرهم في الآخرة فسيكون عذاب جهنم وبئس المصير جزاءًا وفاقًا لما اقترفوه فليحاربوا كيف شاءوا فمآل حربهم الهزيمة وعاقبتهم جهنم.

والآية الكريمة تبين خطاب الله عز وجل للنبي ﷺ ، أي قل لهم يا محمد لهؤلاء المغرورين بحولهم وقوتهم المعتزين بأموالهم وأولادهم أنكم ستغلبون في الدنيا وتعذبون في الآخرة.

وقد أنفذ الله وعيده الأول في أولئك الكافرين فغلبوا في الدنيا.

وقيل أن الخطاب لليهود وقد غلبهم المسلمون فقتلوا بني قريظة وأجلوا بني النضير وفتحوا خيبر، وقيل هم المشركين وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر وأتم الله نعمته بغلبهم يوم الفتح ولم تغن عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم وسينفذ وعيده لهم في الآخرة فسيحشرون إلى جهنم وبئس المهاد[٢].

وهكذا فالآية الكريمة تبث روح اليأس من النصر في قلوب أعداء الإسلام.

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص٨٥) باختصار وتصرف.

(٢) انظر: تفسير المنار (٣/ ١٩٤).

فإذا علموا أنه لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في حربهم مع المسلمين وسيكون مصيرهم في الدنيا الهزيمة وفي الآخرة العذاب الشديد، إذا علموا كل ذلك ترددوا ألف مرة قبل عزمهم على عداء الإسلام ومواجهته.

إذ كيف يتسنى لعاقل أن يخوض معركة يعرض نفسه وماله فيها للخطر وهو يعلم تمام العلم أن مصيره الفشل وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: تشجيع الأعداء على الاستسلام والدخول في الإسلام:

كذلك من أهداف المسلمين في حربهم النفسية في مواجهة أعدائهم تشجيعهم لأعدائهم لإنهاء العداوة والحرب الدائرة بينهما بدعوتهم للاستسلام والدخول في الإسلام وذلك بوعدهم بالجزاء الجزيل والعطاء الوفير والغفراء للذنوب إن هم فعلوا ذلك.

والقرآن الكريم هو الذي أرشد النبي ﷺ وأتباعه لاستخدام ذلك، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

فالآية الكريمة تفتح باب الإنابة إلى الله تعالى وتعطي الأمل لمن أعرضوا عن الله سبحانه بالغفران إن هم أسلموا وانتهوا عن شركهم وعن حربهم للمسلمين.

يقول الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية:

أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر وعداوة الرسول ودخلوا الإسلام والتزموا شرائعه غفر لهم ما قد سلف من كفرهم وعداوتهم للرسول وإن عادوا وأصروا فقد مضت سنة الأولين في نصر الله لعباده الصالحين وهزيمته لأعدائه(١).

ومن الآيات التي تشجع أعداء الإسلام على الاستسلام والدخول في الإسلام أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣].

فمعنى قوله: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ ﴾ أي رجعتم عن كفركم وأخلصتم التوحيد.

﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي أفضل وأحسن عاقبة لكم في الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم عن الإيمان، ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٧/ ٤٩٣) باختصار وتصرف.

كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)].

فالآية الكريم ترغب أعداء الإسلام في الرجوع عما هم فيه من الغي والضلالة والعداء للمسلمين ثم هي ترهبهم وتخوفهم بالعذاب الأليم إن هم لجوا وأصروا.

ومن الآيات أيضًا التي تشجع أعداء الإسلام على الاستسلام والدخول في الإسلام أيضًا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

فالفرصة أمام أعداء الإسلام سانحة لينتهوا عما هم فيه من الكفر ومن التجمع لحرب الإسلام وأهله ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا إلى الله عز وجل ولهم عندئذ أن يغفر لهم ما قد سلف فالإسلام يجب ما قبله ويدخله الإنسان بريئًا من كل ما كان قبله كما ولدته أمه[(٢)].

فالآية الكريمة إرشاد للرسول ﷺ ولأتباعه أن يسبق حلمهم غضبهم وسلمهم حربهم وهو يعلمهم أن يستخرجوا الأساليب المختلفة من الترغيب والترهيب لأعدائهم لينتهوا عما هم فيه من محاربتهم للإسلام ولا تكون محاربتهم للأعداء إلا بعد أن تفشل الطرق السلمية في تحقيق هذا فهل يتسنى لأعداء الإسلام بعد ذلك أن يشيعوا عنه أنه دين حرب وسفك دماء إن هذا والله جد الغباء والافتراء.

ولقد كانت سياسة الرسول ﷺ مع العدو في تشجيعه لهم على الاستسلام والدخول في الإسلام سياسة واضحة نلمحها في مواقف كثيرة منها:

الأمثلة التي تدل على تشجيع النبي لأعدائه على الاستسلام والدخول في الإسلام.

أن النبي ﷺ عندما خرج لقتال أهل خيبر بلغه أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٦٨).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣/ ١٥٠٨).

الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم حسًا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أموالهم وأهليهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر(١) وبعث الرسول ﷺ مع وفد هوازن الذين جاءوا إليه أن يذهبوا إلى مالك بن عوف سيدهم الذي أقام بالطائف ويذكروا له أن الرسول يعفوا عنه إن جاء مسلمًا ويرد عليه ما أخذه منه فلما بلغ ذلك مالكًا انسل من ثقيف حتى أتى رسول الله ﷺ وهو بمكة أو بالجعرانة فأسلم وحسن إسلامه، فرد الرسول ﷺ عليه أهله وماله(٢).

وهكذا تتجلى لنا سياسة الرسول ﷺ في حقن الدماء وتشجيع الأعداء على الاستسلام وتشجيعهم على الدخول في الإسلام.

وهو في هذا المثال يصوب إلى سيد القوم فيقصده لعله يؤثر فيمن خلفه وهكذا يجب أن يعمل الداعية يصوب إلى من له الأثر البالغ في قومه فيركز عليه في دعوته.

ومن الأمثلة أيضًا التي تدل على استخدام النبي ﷺ لهذه الوسيلة:

أنه ﷺ في حصاره للطائف استخدم الآلات المختلفة وغير المعروفة عند الخصم وهي المنجنيق «الدبابة» حيث استخدمها ﷺ لأول مرة ما أذهل الخصم وأسقط في يده وأراد النبي ﷺ أن يشن حربًا نفسية بعد الحرب العسكرية بهدف تشجيع الأعداء على الاستسلام والدخول في الإسلام.

فنادى رسول الله ﷺ وقال: «**أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر**» فخرج منهم رجال أعتقهم رسول الله ﷺ(٣).

ومن نماذج السيرة النبوية العطرة أيضًا مما يجسد سياسة النبي في تشجيع أعدائه على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٧٩)، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٦١) باختصار وتصرف.

(٣) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص٣٠٦)، ط/ دار الشروق، جدة، سنة ١٤٠٢هـ.

الاستسلام والدخول في الإسلام:

موقف النبي ﷺ مع مشركي مكة يوم فتحها حيث أخبرهم على لسان زعيمهم أبا سفيان: أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن[١].

وهكذا كان إعطاء الأمان لقريش على لسان زعيمهم أبي سفيان إن هي أسلمت بلا مقاومة بمثابة الضربة النفسية القاضية على إرادتها القتالية فدخل المسلمون مكة بدون قتال يذكر وتحقق للرسول ﷺ ما أراد[٢].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٢).

(٢) غزوات الرسول، للواء جمال الدين محفوظ (ص٣١٦)، دار الاعتصام.

ثالثًا: إضعاف معنويات العدو:

إن الهدف الحيوي من الحرب هو الطاقات المادية والمعنوية للعدو فإذا انتصر عليه في ميدان الحرب واستطاع أن يحطم طاقاته المادية فلا بد من جهود أخرى لتحطيم طاقاته المعنوية ليكون النصر كاملاً يؤدي للاستسلام وهنا تبدأ الحرب النفسية التي تستهدف الطاقات المعنوية بالدرجة الأولى وقبل كل شيء وفي تاريخ الحرب أمثلة لا تعد ولا تحصى عن انتصارات استطاعت القضاء على الطاقات المادية، ولكنها عجزت عن القضاء على الطاقات المعنوية فكانت تلك الانتصارات ناقصة استمرت مدة من الزمن ثم أصبح المهزوم منتصرًا والمنتصر مهزومًا[1].

ولقد صورت بعض آيات القرآن هذه المحاولات لإضعاف الروح المعنوية للعدو عن طريق تشكيكهم في المبدأ الذي يقاتلون من أجله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

فالمؤمن يعرف أنه يقاتل في سبيل الله والله ناصره ويقف إلى جواره وهو بذلك يقاتل بمعنويات عالية بصبر وثبات يقاتل من أجل غاية سامية.

أما الكافر فقتاله للشيطان والشيطان ضعيف مكره يخذل من يتولاه، فهل من يقاتل من أجله أو من أجل أي مبدأ فاسد أو غاية دنيا من نفس أو هوى تكون معنوياته عالية؟

يقول العلامة الألوسي في تفسيره لهذه الآية:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ كلام مستأنف سيق لتشجيع المؤمنين وترغيبهم في الجهاد.

أي المؤمنون إنما يقاتلون في دين الله تعالى الموصل لهم إليه عز وجل وفي إعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لا محالة.

---

(١) الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية (ص٢٠٥)، ط/ دار القلم، الكويت، تأليف: أ/ أحمد بدر.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان وهو الكفر فلا ناصر لهم سواه.

﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ ﴾ يا أولياء الله تعالى إذا كان الأمر كذلك ﴿ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ ﴾ جميع الكفار فإنكم تغلبونهم.

﴿ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ في حد ذاته فكيف يقاس إلى قدرة الله تعالى[(١)].

فإذا علم المؤمنون ذلك ارتفعت روحهم القتالية واستماتوا في الدفاع عن دينهم والكفار على عكس ذلك فإن معرفتهم لذلك تحطم معنوياتهم.

فهم يقاتلون وقد يموتون ويكون مصيرهم مع وليهم في النار.

وأحداث السيرة النبوية على صاحبها ﷺ أفضل الصلاة والتسليم تشهد بما حدث لمعنويات أعداء الإسلام بتأثير مواقف النبي ﷺ وأصحابه.

ومن ذلك ما حدث في عمرة القضاء في السنة السابعة:

فقد خرج الرسول ﷺ مع أصحابه إلى العمرة فلما سمع به أهل مكة خرجوا عزلاً، وتحدثت قريش فيما بينها أن محمد وأصحابه في عسر وجهد وشدة[(٢)].

فقد وقفوا له عند دار الندوة ينظرون إليه وإلى أصحابه فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع[(٣)] بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «**رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة**» ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا استلم الركن اليماني مشى حتى الركن الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أشواط[(٤)].

ثم بقي بمكة ثلاثة أيام وعاد بعدها إلى المدينة وهو لا يشك بتأثير ما رأته قريش من

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي (٤/ ١٢٥) الجزء الخامس.

(٢) مجلة الوعي الإسلامي، العدد (٤٢٧) رجب ١٤١٥هـ، ديسمبر ١٩٩٤م (ص٤٤).

(٣) اضطبع: أي ادخل بعضه تحت عضده اليمنى وجعل طرفه على منكبه الأيسر، المرجع السابق، السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٢).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٢) باختصار وتصرف.

قوة المسلمين ومن ضبطهم ومن إطاعتهم للرسول ﷺ ومن تعظيم البيت الحرام فلم يكد يترك الرسول ﷺ وأصحابه مكة حتى وقف خالد بن الوليد ﷺ.

يقول في جمع من قريش: لقد استبان لكل ذي عقل أن محمدًا ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذي لب أن يتبعه.

وسمع أبو سفيان بذلك فبعث في طلب خالد وسأله عن صحة ما سمع عنه فأكد له خالد صحته، فاندفع أبو سفيان إلى خالد في غضبه فحجزه عنه عكرمة بن أبي جهل وكان حاضرًا، وقال: مهلاً يا أبا سفيان فوالله خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه.

أنتم تقاتلون خالدًا على رؤى رآها وهذه قريش كلها تبايعت عليه والله لقد خفت أن يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلها[١].

وهكذا أثرت تصرفات النبي ﷺ وأصحابه في تحطيم معنويات أعدائه، كما أثرت في ذوي القلوب الحية منهم فأسلم خالد بن الوليد ومن بعده عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم.

بل دخل الإسلام كل بيت من قريش سرًا وعلانية.

وكذلك من المواقف التي كان لها الأثر في إضعاف الروح المعنوية عند الأعداء أن النبي ﷺ حينما هاجم اليهود في خيبر أخذ يهتف: «الله أكبر، خربت خيبر ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾»[٢].

ومن مواقف السيرة النبوية التي أثرت في معنويات أعداء الإسلام ما حدث يوم فتح مكة حيث أمر الرسول ﷺ أن يوقد كل جندي مسلم نارًا حتى ترى قريش ضخامة الجيش دون أن تعرف هويته فتتحطم بذلك معنوياتهم وتتخاذل نفوسهم عن الصمود

---

(١) الرسول القائد للواء محمود شيت خطاب (ص٣١٤، ٣١٥) باختصار وتصرف، ط/ دار الفكر.

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ١٧٨).

والقتال[١].

ولقد كان لهذا التصرف تأثير بالغ في معنويات قريش فلقد ضعفوا وجبنوا عن القتال فدخل الرسول ﷺ مكة دون قتال يذكر.

وكان المسلمون يهتفون في كل معركة «الله أكبر، الله أكبر» وهذا الهتاف كان من أهم الأمور التي تحطم روح العدو وتلقي الرعب في قلبه حينما كانوا يسمعون المسلمين يهتفون بهذا الهتاف ويزأرون به زئير الأسد[٢].

ويدل على تأثير الهتاف «الله أكبر، الله أكبر» في تحطيم معنويات العدو.

ما أحدثه هتاف الجنود المصريين في حرب اكتوبر فلقد كان هتافهم يهز قلوب أعدائهم فلقد كان وقعه عليهم أشد من القنابل والصواريخ مما يجعلهم يفرون ويهربون.

وهكذا كانت محاولة إضعاف معنويات أعداء الإسلام أحد أهداف المسلمين الرئيسية في حربهم النفسية معهم وما حملهم إلى ذلك إلا لزلزلة قلوبهم وإثنائهم عن الضلال الذي هم عليه ومحاولة الأخذ بأيديهم إلى صراط الله المستقيم.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ١٢١).

رابعًا: إضعاف ثقة العدو في أن قدراته جديرة بإحراز النصر:

فكان ذلك هدفًا من الأهداف الإسلامية في الحرب النفسية حيث يريدون أن يعلموا أعداء الإسلام أن ما ينفقون من أموال وما يخططون له من حروب ومؤامرات ضد الإسلام سوف يضيع كل هذا هباء وسيكون وباله عليهم في الآخرة إذ يكون مصيرهم النار وبئس المصير.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

يقول العلامة الواحدي في سبب نزول هذه الآية، قال مقاتل والكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلاً كلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر.

وقال سعيد بن جبير: نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي ﷺ سوى من استجاب له من العرب.

وقال الحاكم بن عتبة: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقية من ذهب(١).

فنزلت الآية الكريمة تخبرهم أن تخطيطهم وتآمرهم وإنفاقهم للصد عن سبيل الله كل ذلك سيذهب بلا طائل بل وسيرجع وباله عليهم وسيكون مصيرهم في الدنيا الهزيمة والخزي وفي الآخرة عذاب عظيم.

يقول أ/ رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي عن الإسلام واتباع خاتم الرسل ﷺ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص١٧٥) باختصار وتصرف.

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ﴾ حقدًا وفتنة وقتالاً.

﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ ندمًا وأسفًا لذهابها سدى وخسرانها عبثًا إذ لا يطيعهم ممن أراد الله هدايتهم أحد.

﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ المرة بعد المرة وينكسرون الكرة بعد الكرة.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ يساقون يوم القيمة إليها لا إلى غيرها.

وفي الآية عبرة للمؤمنين بأنهم أولى بإنفاق أموالهم وأنفسهم في سبيل الله لأن الله وعدهم بها سعادة الدارين.

والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصد عن سبيل الله وفتنة الضعفاء العوام بجهاد سلمي أعم من الجهاد الحربي وهو الدعوة إلى أديانهم والتوسل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم والمسلمون مواتون يرسلون أولادهم إليها ولا يبالون[(١)].

وهكذا يوضح سبب النزول كما ذكره الإمام الواحدي أن مواقف أعداء الإسلام في عهد النبي ﷺ للصد عن سبيل الله بالتآمر وإنفاق الأموال قد تكررت فهذا ديدنهم وهو ما يشهد له التعبير بالمضارع في الآية.

كما بين شرح أ/ رشيد رضا للآية أن هذا التصرف ما زال في أعداء الإسلام حتى الآن فالكفر كله ملة واحدة، وسيكون مصير هؤلاء وهؤلاء الهزيمة في الدنيا والنكال في الآخرة فهم ينفقون أموالهم وأوقاتهم وأنفسهم ليعذبوا بها في الآخرة ويغلبون بها الدنيا فبئس العقل الذي أوصلهم لهذا.

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٥٢) باختصار وتصرف.

خامسًا: تفتيت وحدة العدو وتفريق شمله:

من الأهداف الإسلامية في الحرب النفسية محاولة تفتيت وحدة العدو وتفريق شمله وذلك بغية انتهاء العدو عن عدائه بلا حرب عسكرية وإسالة دماء.

ولقد حدث ذلك بالفعل حين اجتمعت الأحزاب لمقاتلة النبي ﷺ ففتت الله سبحانه وحدتهم وفرق شملهم فكانت الهزيمة لهم بلا قتال وتلك كانت نعمة عظيمة أنعمها الله على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

فالآية الكريمة تصور مدى النعمة التي أنعمها الله سبحانه وتعالى على عباده يوم اجتمعت عليهم الأحزاب ففرق شملهم وشتت جمعهم بان أرسل عليهم الريح اقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم وهيجت خيلهم حتى كان يقول كل حزب منهم لأتباعه النجاء النجاء[١].

وما كانت تلك النعمة التي أنعم الله بها على عباده إلا بما رأى منهم من حسن اللجوء إليه والتوكل عليه.

يقول العلامة البيضاوي في تفسيره لهذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر ألفًا[٢].

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم[٣].

---

(١) ابن هشام (٣/ ١١٧) باختصار وتصرف.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٢٤٠).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٥٧).

﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ يعني الملائكة.

روى أن الرسول ﷺ لما سمع بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة ثم خرج إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينه وبينهم ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الرمي بالنبل أو بالحجارة حتى بعث الله ريحًا باردة في ليلة شاتية، فدحرتهم وسفت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها في بعض وكبرت الملائكة في جوانب العسكر فقال طليحة بن خويلد الأزدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال[1].

ومن مواقف السيرة المشهورة التي تجسد هدف المسلمين في تفريق شمل الأعداء ما فعله نعيم بن مسعود حين أتى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال رسول الله: **«إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة»** حتى أتى بني قريظة فقال يا بني قريظة: قد عرفتم ودي لكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريش وغطفان ليسوا كأنتم والبلد بلدكم فيه أموالكم وأبناءكم ونساءكم لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونسائهم بغيره فليسوا كأنتم وإن رأوا فرصة أصابوها وإن كان غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وتركوكم فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم.

فقالوا له: لقد أشرت بالرأي، ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لرجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد وأنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموا عني، فقالوا: نفعل، قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ من

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ٢٤٠) بتصرف يسير.

القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحدًا منكم، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل فما أمرك، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثل ما حذرهم[١]، فأطاع كل فريق مشورة نعيم فحلت الفرقة وهكذا نجحت محاولة نعيم بن مسعود في محاولة تفريق شمل الأعداء والإيقاع بينهم فكان مصيرهم الإخفاق لأن النجاح لا يأتي إلا بوحدة الصف وجمع الكلمة.

ومن مواقف السيرة التي تكشف هدف المسلمين في تفريق شمل أعدائهم أنه عندما عزم النبي ﷺ على عمرة القضاء وكان من بين رسل قريش له الحليس بن علقمة وكان من سيد الأحابيش فلما رآه الرسول ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه» فلما رأى الهدي رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى فقال لهم: خلوا ما بين الرجل والبيت فإنما جاء زائرًا ولم يأت محاربًا، فقالوا له: كف عنا يا حليس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فقال لهم: لتخلن ما بين محمد وما جاء به أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[٢].

وفي هذا دلالة واضحة على العبقرية العظيمة للنبي ﷺ حين صرف سيد الأحابيش وقد تبنى رأيه بالعمرة دون أن يلقاه وكاد صف مكة الداخلي أن يتفجر وتقع المواجهة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٦)، باختصار، ط/ دار الفكر، وانظر: البداية والنهاية (٤/ ١١١، ١١٢) باختصار وتصرف.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٦٨) باختصار وتصرف.

بين الأحابيش وقريش وأصبح هناك تيار قوي داخلي مواجهًا لقريش بفضل ذكاء النبي ﷺ وحسن تصرفه[1].

وهكذا تفرق شمل الأعداء بعد تحويل بعضهم من معادين إلى محايدين بل ومؤيدين.

وهكذا كان استخدام المسلمين للحرب النفسية يدفعه أهدافًا وغايات قصدوا من ورائها حقن الدماء والمحافظة على الأرواح والحد من الأعمال العسكرية قدر الإمكان.

عسى أن يهتدي هؤلاء الأعداء إلى طريق الله المستقيم وتمثلت هذه الأهداف في:

بث اليأس من النصر في نفوس الأعداء، وتشجيع الأعداء على الاستسلام والدخول في الإسلام، وإضعاف معنويات العدو فلا يقوى على المجابهة العسكرية، وإضعاف ثقة العدو في أن قدراته قادرة على إحراز النصر وتفتيت وحدة العدو وتفريق شمله.

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، لمنير محمد الغضبان (٣/ ١٥) باختصار وتصرف.

الفصل الخامس

منهج القرآن الكريم
في
الوقاية من الحرب النفسية

منهج القرآن الكريم في الوقاية من الحرب النفسية

ذكرت في الفصول السابقة أنواع الحرب النفسية وجبهاتها، كما ذكرت وسائل الأعداء وأهدافهم في الحرب النفسية وذكرت وسائل المسلمين وأهدافهم في الحرب النفسية في مواجهة أعدائهم.

أما هذا الفصل فسأتحدث فيه إن شاء الله عن منهج القرآن في وقاية الصف المسلم من الآثار السيئة التي قد تنتج عن الحرب النفسية ويمكن توضيح هذا المنهج من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أثر الإيمان في الوقاية من الحرب النفسية.

المبحث الثاني: التوجيه النفسي القرآني للصف المسلم.

المبحث الثالث: إزالة آثار الحرب النفسية

المبحث الأول
الإيمان وأثره في الوقاية من الحرب النفسية

قبل أن أتحدث عن أثر الإيمان في الوقاية من الحرب النفسية سأقدم بذكر أسس الإيمان أولاً، وهي:

١- **الإيمان بالله وحده ربًا ومعبودًا**، وهذا الأساس له واقعه في الوقاية من الحرب النفسية حيث إنه يمنح من استقر في قلبه استقرارًا نفسيًا فلا يخاف من أحد ولا يخشى شيئًا إلا الله سبحانه وتعالى كما أنه يمنح الإنسان الثقة والصبر واليقين.

٢- **الإيمان بالملائكة**: وهذا الأساس ينمي في نفس المؤمن التفاني في الطاعة مهما كانت مشقة التكاليف فهو يمضي نحو هدفه ويقاوم أي حرب مهما كانت ضراوتها.

٣- **الإيمان بالكتب**: وهذا الأساس ينمي في نفس المؤمن العودة إلى منهجه الصحيح واليقين بأن فيه فلاحه ونجاحه فإذا فعل وجد في كتاب الله خير معين ومقوي على مشقة الطريق وتصبح كل حرب يتعرض لها كأنها بالنسبة له لا شيء.

٤- **الإيمان بالرسل** -عليهم السلام-: وهذا الأساس ينمي في نفس المؤمن التخلق بأخلاق أنبياء الله ورسله عليهم السلام فإذا فعل وجد في سيرهم القدوة الحسنة في مقاومة كل لون من ألوان الإيذاء أو الحرب النفسية.

٥- **الإيمان بالدار الآخرة**: وهذا الأساس ينمي في نفس المؤمن الشوق إلى الجنة وعدم الخوف من الموت ما دام هذا الموت في سبيل الله فيمضي المؤمن في طريقه لا يخشى تهديد ولا يخاف وعيد[1].

---

(١) والله عز وجل يقول: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

=

٦- الإيمان بالقدر: وهذا الأساس يقذف في قلب المؤمن الثقة في الله والطمأنينة لكل ما يحدث وعندئذ لا يهون ولا يلين في الحق ولا يساوم عليه فقدره بيد الله يمضيه مهما كانت الظروف(١).

والإيمان بهذه الأسس ينشئ عقيدة قوية وهذه هي أول خطوة في تحصين النفس المؤمنة من الحرب النفسية فلولا قوة العقدية لانهارت نفسية المجاهد أمام أقل تهديد أو وعيد أو تخويف أو إغراء.

فالعقيدة هي الضابط الأمين الذي يحكم التصرفات ويوجه السلوك ويتوقف على مدى انضباطها وإحكامها كل ما يصدر عن النفس من كلمات أو حركات بل حتى الخلجات التي تساور القلب والمشاعر التي تعمل في جنبات النفس، والهواجس التي ترد في الخيال، هذه كلها تتوقف على هذا الجهاز الحساس وباختصار فالعقيدة هي دماغ التصرفات فإذا تعطل جزء منها أحدث فسادًا كبيرًا في التصرفات وانفراجًا هائلاً على سواء الصراط ولذا فقد عنى القرآن الكريم ببناء العقيدة فلا تكاد تخلو آية من شد الإنسان بكليته إلى ربه وربط كل تصرف بهذه العقيدة التي تمثل القاعدة الأساسية لهذا الدين الذي لا يقوم بدونها.

كما اتضح لنا ذلك في السور المكية التي اهتمت ببناء العقيدة والذي يعتبر هذا الموضوع هو موضوع السور المكية الأساس إن لم يكن الوحيد(٢).

=

ولما جاء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ قال له: فأخبرني عن الإيمان؟ قال ﷺ : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» أخرجه الإمام مسلم، في الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان (١/ ٣٦، ٣٧).

(١) قال الله عز وجل: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

(٢) العقيدة وأثرها في بناء الجيل، الأستاذ عبد الله عزام (ص٩، ١٠) ط/ دار الجيل.

والعقيدة لغة: فعيلة من عقد بمعنى، معقودة من عقد الحبل والبيع والعهد يعقده، يشده، والعقد: العهد[(١)] واعتقد فلان الأمر: صدقه وعقد عليه قلبه وضميره[(٢)].

وتقرر المدرسة الإسلامية أن العقيدة الراسخة المؤسسة على الإيمان الذي لا يتزعزع هي الركيزة العظمى لتحصين المجاهد ضد الحرب النفسية إذ ينتج عنها الآثار الآتية:

- أولاً: تجعل المؤمن لا يرهب التهديد ولا يخاف الوعيد.

ثانيًا: تجعل المؤمن لا يخشى الموت.

ثالثًا: تجعل المؤمن لا يخشى عدوه مهما كان عدده وعدته.

رابعًا: تجعل المؤمن لا يستسلم ولا يفكر في الاستسلام.

خامسًا: تجعل المؤمن يتثبت من الأخبار ولا يسير خلف الإشاعات.

سادسًا: تجعل المؤمن يقاوم الغزو الفكري.

سابعًا: تجعل المؤمن لا ييئس من نصر الله.

أولاً: فالعقيدة الراسخة: تجعل المؤمن لا يرهب التهديد ولا يخاف الوعيد:

فالمؤمن إيمانًا كاملاً لا يرهب التهديد ولا يخاف الوعيد بل لا يزيده التهديد والوعيد ووسائل الحرب النفسية إلا إيمانًا وثباتًا واستعداد للبذل والتضحية[(٣)] كأولئك الذين قال فيهم الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

يقول الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية: أن ذلك كان يوم أحد بعد القتل

---

(١) القاموس المحيط فصل العين، باب الدال.

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ٦١٤).

(٣) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية للواء جمال الدين محفوظ (ص١٥٣)، باختصار، ط/ دار الاعتصام.

والجراحة وبعد ما انصرف المشركون أبو سفيان وأصحابه قال نبي الله ﷺ لأصحابه: «**ألا عصابة تشدد لأمر الله فتطلب عدوها فإنه أنكى للعدو وأبعد للسمع؟**» فانطلق عصابة على ما يعلم الله من الجهد حتى إذا كانوا بذي الحليفة جعل الأعراب والناس يأتون عليهم فيقولون: هذا أبو سفيان مائل عليكم بالناس، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1].

والآية الكريمة تؤكد قوة الإيمان والعقيدة في هؤلاء النفر من المؤمنين فهم لم يكترثوا بتهديد ولا بوعيد ولم يزدهم التهديد إلا ثباتًا وإيمانًا وصدقًا في التوكل على الله وحسن اللجوء إليه على الرغم مما كان بهم من جهد جهيد.

ولقد اختلفت أقوال العلماء في القائلين:

فالإمام الواحدي يرى: أنهم جماعة من الأعراب، كما ذكر ذلك في سبب النزول.

أما الإمام الرازي فقد أورد في القائلين ثلاثة آراء:

الأول: أن القائل هو نعيم بن مسعود.

الثاني: أن القائل ركب من عبد قيس مروا بأبي سفيان فدسهم إلى المسلمين ليجبنوهم وضمن لهم عليه جعلاً.

الثالث: أنهم المنافقون[2].

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ المراد بالناس: أبو سفيان وأصحابه ورؤساء عسكره، روى أنه نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن شاء الله تعالى**» فلما كان القابل خرج في أهل مكة حتى نزل بمر الظهران فأنزل الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع فمر به ركب من

---

(١) أسباب النزول للإمام الواحدي (ص١١٢).

(٢) مفاتيح الغيب للإمام الرازي (٤/ ٥٧٣).

عبد قيس يريدون المدينة للمسيرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوا المسلمين.

وقيل لقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرًا فسأله ذلك والتزم له عشرًا من الإبل فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون، فقال لهم: آتوكم في دياركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففتروا، فقال ﷺ : «**والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد**» فخرج في سبعين راكبًا يقولون: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [1].

﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ أي فزادهم هذا القول الذي فيه معاني التثبيط والتهديد والوعيد إيمانًا وثقة في الله عز وجل.

﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ حسبنا أي كافينا، ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ونعم الموكول إليه[2].

وهكذا فالفئة المؤمنة حق الإيمان القوية العقيدة لا تخشى إلا الله ولا تخاف إلا من الله لا يهزها شيطان ولا يخوفها أعوان الشيطان.

فالشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء أوليائه وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون من وسوسته ولكن الله سبحانه وتعالى يفضح أمره ويوجه المؤمنين ألا يكترثوا له ولا يقعوا في حبائله فهو أضعف من أن يخافه مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته، فقوة الله سبحانه وتعالى هي القوة الوحيدة التي تخشى وهي القوة التي تملك النفع والضر هي قوة الله وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها وحدها فهي أقوى الأقوياء فلا تقف لهم قوة في الأرض لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان[3].

ولقد كانت قوة المسلمين طالما عاشوا هذه المعاني، وما ضعفوا وما هان أمرهم إلا بعد أن غفلوا عنها، وخير مثال على ثبات جأش المؤمن أمام التهديد موقف رسول الله ﷺ

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٩٠) بتصرف.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري (١/ ٤٨١).

(٣) في ظلال القرآن (١/ ٥٢١) باختصار وتصرف.

حيث خرج عليه رجل من بني محارب يريد قتله ﷺ فأقبل عليه وسيفه في حجره، فقال للرسول: يا محمد أتنظر سيفك هذا! فقال الرسول ﷺ : «نعم» واستل الرجل السيف ثم جعل يهزه ويريد الوثوب به على الرسول ﷺ والرسول ﷺ لا يتحرك فقال له الرجل: يا محمد أما تخافني؟ فقال ﷺ : «لا، ما أخاف منك» فما كان من الرجل إلا أن أعاد السيف إلى الرسول ﷺ[1].

وهكذا فالإيمان يقوي قلب صاحبه ويجعله ثابتًا راسخًا لا يهزه تهديد ولا وعيد فهو متصل بنور الله سبحانه الذي يمنحه هذه القوة والثبات.

إن الإيمان الراسخ والعقيدة القوية لأعظم ركيزة لتحصين المسلمين ضد الحرب النفسية.

فالمؤمن إيمانًا كاملاً لا يخاف الوعيد ولا يرهبه التهديد وليس ذلك فحسب بل إن المؤمن لا يزيده التهديد والوعيد ومختلف وسائل الحرب النفسية إلا إيمانًا وثباتًا واستعدادًا للبذل والتضحية، وذلك أمر يفت في عضد العدو الذي يشعر بأن حملاته النفسية لم تزد المسلمين إلا إيمانًا وصلابة وهو عكس ما أراد فيصيبه اليأس ويكف عن توجيه حملاته.

فالإيمان بالنسبة للمؤمنين نور يهديهم وزاد يقويهم ويثبت أفئدتهم، وبالنسبة لأعدائهم صخرة تتحطم عليها وسائلهم في حربهم النفسية ضد المسلمين[2].

فالإيمان بالله هو الحصن الحصين الذي يأوي إليه المؤمن فيقيه من كل نازلة تنزل به وينطلق منه ليملأ الآفاق بالنور الذي ملأ الله سبحانه وتعالى قلبه به.

يقول اللواء محمود شيت خطاب تحت عنوان «كيف يصاول الإسلام الحرب

---

(١) قبسات من حياة الرسول ﷺ للشيخ أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م (ص١٠٣، ١٠٤) باختصار وتصرف.

(٢) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل (٢/ ٢٠٦) باختصار وتصرف.

النفسية؟»

لعل أهم أهداف الحرب النفسية هي التخويف من الموت ومن القوة الضاربة للمنتصر، ومن محاولة جعل النصر حاسمًا بالدعوة إلى الاستسلام وبث الإشاعات والأراجيف وإشاعة الاستعمار الفكري بالغزو الحضاري وإشاعة اليأس والقنوط، ولكن المؤمن الحق الذي قويت عقيدته وثبت إيمانه يقاوم بإيمانه ويصاول كل هذه الأساليب في قوة وثبات لا مثيل لهما(١).

ثانيًا: العقيدة الراسخة تجعل المؤمن لا يخشى الموت:

فالمؤمن بالله إيمانًا راسخًا لا يخشى الموت ولا يخاف منه لأنه يؤمن يقينًا أن كل البشر يموتون وان كل نفس لن تموت إلا بعد استيفاء أجلها وأن كل شيء عند الله سبحانه وتعالى بميعاد:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فالآية الكريمة تؤكد أن لكل نفس ميعادًا ستموت فيه وأن المتحكم في ذلك هو الله سبحانه وتعالى.

يقول العلامة البغوي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بقضائه وقدره وقيل بعلمه وقيل لأمره.

﴿ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ أي كتب لكل نفس أجلاً لا يقدر أحد على تغييره وتأخيره(٢).

فالجبن والخور والخوف والإدبار لا يزيد العمر وبالمقابل فالشجاعة والإقدام والثبات لا يقصر العمر فكل شيء موكول إلى قضاء الله وقدره وكل شيء عند الله بميعاد.

إن لكل نفس كتابًا مؤجلاً إلى أجل مرسوم ولن تموت نفس حتى تستوفى هذا

---

(١) بين العقيدة والقيادة، محمود شيت خطاب (ص١٠٩، ١١٢) باختصار وتصرف.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٣٥٩) باختصار وتصرف.

الأجل المرسوم فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً، والشجاعة والثبات والإقدام لا تقصر عمرًا فلا كان الجن ولا نامت أعين الجبناء والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد.

بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس فتترك الاشتغال به ولا تجعله في الحساب وهي تفكر في الأداء والوفاء بالالتزامات والتكاليف الإيمانية وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص، كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع، وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته في صبر وطمأنينة وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده(١).

وكذلك من آيات القرآن التي تقوي في المؤمن عقيدة عدم الخوف من الموت لأنه بأجل وميعاد ويأتي الإنسان في أي مكان فلا داعي للجبن والخور، قول الله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

يقول الشيخ رشيد رضا تعليقًا على هذه الآية:

أي أن الموت حتمًا لا مفر منه ولا مهرب فهو لا بد أن يدرككم في أي مكان كنتم ولو تحصنتم منه في البروج المشيدة وهي القصور العالية.

وإذا كان الموت لا مفر منه ولا عاصم، وكان المرء يخوض معامع القتال فيصاب ولا يموت ويخاطر فيه أحيانًا فلا يصاب بجرح ولا يقتل وقد يموت المعتصم في البروج اغتضارًا!(٢).

وإذا كان الإقدام على القتال هو أقوى أسباب النجاة من القتل لأن الجبناء يغرون أعداءهم بأنفسهم بعدم دفاعهم عنها وإذا كان الاستعداد للقتال والإقدام فيه لأجل الدفاع عن الحق وحماية الحقيقة ومنع الباطل أن يسود والشر أن يفشو موجبًا لمرضاة الله ولسعادة الآخرة فما هو عذركم أيها القاعدون المبطئون:

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٨٧) باختصار وتصرف.

(٢) أي مات شابًا في غضارة العيش ونعيمه، انظر: تفسير المنار (٤/ ٢١٥).

فلماذا تختارون لأنفسكم الحقير على العظيم وهذا ليس من شأن العقلاء ولا المؤمنين(١).

والقرآن الكريم يدل على أن كل نفس ستذوق الموت وكل النفوس في ذوقه سواء ولكن ليسوا سواء في مصيرهم بعد الموت فليحرص صاحب الإيمان القوي والعقيدة الثابتة أن يكون مصيره بعد الموت الذي لا محالة ذائقة مصيرًا سعيدًا، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتمًا: يموت الصالحون ويموت الطالحون، يموت المجاهدون ويموت القاعدون، يموت المستعلون للعقيدة ويموت المستذلين للعبيد، يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة، بأي ثمن، يموت ذوي الاهتمامات الكبيرة والأهداف العلية ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص، الكل يموت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ﴾ كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة، لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذهاالجرعة من هذا الكأس الدائرة على الجميع إنما الفارق في شيء آخر، الفارق في قيمة أخرى، الفارق في المصير الأخير(٢).

فإذا رسخت العقيدة في قلب المؤمن فلا مجال للحرب النفسية من التخويف من الموت او الترهيب منه أو التخذيل عن الدفاع عن الدين والبذل من أجله فالمؤمن الحق يعلم يقينًا أن روحه بيدي الله وأجله بقدر الله وما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فالتخويف من الموت لا يزيده إلا إصرارًا وحرصًا عليه، ومن حرص على الموت

---

(١) انظر: تفسير المنار (٤/ ٢١٥، ٢١٦) باختصار وتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٥٣٨) باختصار وتصرف.

وهبت له الحياة.

ولقد تشرب الصحابة رضوان الله عليهم هذه المعاني ففاحت بها عباراتهم مثلما تحركت بها أركانهم:

فها هو أبو بكر ﷺ يرسل كتابًا إلى هرمز يطلب فهي التسليم والسلام وقد جاء فيه: «أما بعد، فأسلم تسلم أو اعقد لنفسك وقومك الذمة وإقرار الجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»(١).

وهكذا فقوة الإيمان داخل المؤمن تجعله لا يخاف الموت بل يحبه ويحرص عليه.

وها هو سعد بن خيثمة وأبوه يتنافسان على الشهادة والموت في سبيل الله حيث يقترعان قبيل بدر على من يخرج منهما في بدر فخرجت القرعة لسعد، فطلب منه أبوه أن يتنازل فقال له ولده: «يا أبتاه لو كان ما تريد غير الجنة لأجبت».

ثم استشهد سعد في المعركة وفي السنة التالية تأتي غزوة أحد فيسرع خيثمة للذهاب إلى رسول الله ﷺ قائلاً: لقد رأيت ابني البارحة في المنام في أحسن صورة ينعم في الجنة ويقول: لقد وجدت يا أبي ما وعدني ربي حقًا فالحق بنا ترافقنا في الجنة، وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقًا إلى مرافقة ولدي ولقاء ربي فادع الله أن يرزقني الشهادة، فدعى له رسول الله ثم دخل المعركة فاستشهد في أحد(٢).

وهكذا فالإيمان يجعل المؤمن لا يخاف الموت بل يحرص عليه ويتنافس عليه ويتمناه ويسعد به.

ثالثًا: العقيدة الراسخة تجعل المؤمن لا يخشى عدوه مهما كان عدده وعدته:

والإيمان الحق والعقيدة الراسخة لا تجعل صاحبها يخشى من عدد ولا عدة لأعدائه، فما انتصر المسلمون بعدة ولا عدد وإنما انتصروا بإيمان قوي وعقيدة ثابتة لا تزلزلها أي

---

(١) قبسات من حياة الرسول ﷺ مرجع سابق (ص٧٦) باختصار.

(٢) قبسات من حياة الرسول ﷺ مرجع سابق (ص٨٣).

قوة، ولا تؤثر فيها أي حرب نفسية.

ولقد بين الله عز وجل ذلك في كتابه العزيز فقال مخبرًا عن حالة الفئة المؤمنة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

يقول العلامة ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ أي الذين لا يحبون الحياة ويرجون الشهادة في سبيل الله.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ قصدوا بقولهم هذا تثبيت أنفسهم وأنفس رفقائهم ولذلك دعوا إلى ما به النصر وهو الصبر والتوكل، فقالوا: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [(١)].

وثبات الفئة القليلة أمام الفئة الكثيرة بهذه الصورة لا ينبع إلا من إيمان قوي وعقيدة راسخة تمكنت من القلوب فسلمت واستسلمت لخالقها وثوقًا به وطمعًا في لقائه.

يقول العلامة الألوسي عند تعرضه لهذه الآية:

وهذا كما ترى ناشئ من كمال إيمانهم بالله واليوم الآخر وتصديقهم بأنه سبحانه لا يعجزه إحياء الموتى كما لا يعجزه إماتة الأحياء فضلاً عن نصرة الضعفاء[(٢)].

فقوة الإيمان في قلب المؤمن لا تعترف بقوى مادية أيًا كانت ما دامت بعيدة عن نور الحق.

ويقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فلا يؤثر في نفس المؤمن حرب أعدائه النفسية بتخويفهم له بعددهم وعدتهم، فالعشرون الصابرون المؤمنون يغلبوا مائة والمائة تغلب ألفًا وما ذلك إلا بقوة الإيمان ورسوخ العقيدة.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، الجزء الثاني (٢/ ٤٩٩) باختصار وتصرف.

(٢) روح المعاني للألوسي، الجزء الثاني (٢/ ٢٥٩).

يقول العلامة البغوي: أي أن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال خشية أن يقتلوا[(١)].

وإذا كان هذا شأن الكافرين فشأن المؤمنين بالعكس فهم صابرون محتسبون لا يفرون من وجه عدوهم وهم حريصون على القتال متمنين للقتل لأنه شهادة في سبيل الله فهم يفقهون طريقهم ورسالتهم أما الكافرون فلا يفقهون.

وصلة الفقه بالغلبة صلة حقيقية وصلة قوية، إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف حقيقة وجودها وحقيقة غايتها، إنها تفقه حقيقة الألوهية وأنها لا بد أن تنفرد وتستعلى وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك وتفقه أنها الأمة المسلمة المستهدية بهدي الله المنطلقة في الأرض بإذن الله لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وأنها المستخلفة عن الله في الأرض الممكنة فيها لتستعلى هي وتستمتع ولكن لتعلى كلمة الله وتجاهد في سبيل الله ولتعمر الأرض بالحق وتحكم بين الناس بالقسط وتقيم في الأرض مملكة الله التي تقوم على العدل بين الناس وكل ذلك فقه يسكب في قلوب الفئة المسلمة النور والثقة واليقين، ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل الله بقوة وطمأنينة تضاعف القوة بينما أعداؤها قوم لا يفقهون قلوبهم مغلقة وبصائرهم مطموسة وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرًا إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير[(٢)].

وسيرة الرسول ﷺ وصحابته الكرام مليئة بالمواقف العملية التي تجسد معنى أن المؤمن بقوة إيمانه لا يخشى عدوه مهما كان عدده وعدته.

ولعل من خير الأمثلة على ذلك: غزوة بدر حيث كان الصحابة ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً أما أعداؤهم فكانوا يقربون من الألف وكانت عدة الأعداء من السلاح أفضل بكثير ولكن قوة الإيمان جعلت الصحابة يثبتون ولا يكترثون بعدد

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٦٠).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٥٠) بتصرف.

عدوهم ولا عدته(١).

وغزوة مؤتة: كان المؤمنون ثلاثة آلاف بينما أعداؤهم مائة ألف ومع ذلك لم يرهب المؤمنون هذا العدد الهائل لعدوهم، وها هو عبد الله بن رواحة يحفزهم ويقول: «ما نقاتل الناس بعدد ولا عدة ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به»(٢).

كذلك غزوة اليرموك: كان المسلمون أربعة وعشرون ألفًا بينما جيش الروم مائة وعشرون ألفًا ومع ذلك قاتلوا بشجاعة واستبسال لا يخافون هذا العدد الهائل(٣).

فكل هذه الأمثلة وغيرها تؤكد معنى أن الإيمان يجعل صاحبه لا يخاف عدوه مهما كان عدده وعدته فهو مقتنع أن الإيمان وحسن التوكل على الله سبب النصر وليس القوة المادية من عدد وعتاد ولعل ما يجسد هذا المعنى أنه جاء رجل من نصارى العرب يقول لخالد بن الوليد في معركة اليرموك ما أكثر الروم وأقل المسلمين!! فقال خالد: ويلك أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال(٤).

رابعًا: العقيدة السليمة تجعل المؤمن لا يستسلم ولا يفكر في الاستسلام:

فالإيمان وقوة العقيدة يجعلان المؤمن صامدًا أمام العدو لا يستسلم ولا يفكر في الاستسلام فهو يدرك تمام الإدراك أنه سينتصر في النهاية بعقيدته وأنه لا عز له إلا بها ولا قيمة لحياته إلا إذا كانت حياته لها أما النصر والهزيمة العاجلة فهي أمور يداولها الله بين الناس في الحروب.

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٧) وما بعدها.

(٢) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري (ص٤٥٩، ٤٦٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٥، ٦).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٩) باختصار.

فسنة الله في الحروب أن تكون الدفة لهؤلاء تارة ولهؤلاء تارة فعلى الفئة المؤمنة أن تصبر وتحتسب سواء كانت الدفة لها أو عليها.

يقول العلامة البيضاوي في تفسيره: «القرح» بالضم وبالفتح الجراح وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها والمعنى: إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون، وقيل كلا المسين كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ نصرفها بينهم لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى[1].

كذلك فالإيمان والعقيدة يجعلان المسلم لا يستسلم ولا يفكر في الاستسلام لأنه على حق ومن شأن من كان على الحق ألا يتخلى ولا يتراجع عن هذا الحق، وقد قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فمن شأن من يسير على طريق الحق ألا يصيبه وهن ولا حزن ولا ضعف مهما أصابه في سبيل ذلك الحق هذا شأنه إن كان مؤمنًا حقًا وإلا فليختبر إيمانه.

يقول العلامة الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية لقلوبهم يعني ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم أي لا يورثنكم ذلك وهنًا وجبنًا ولا تبالوا به ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح.

﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد أو وأنتم الأعلون شأنًا لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقتالهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر ولأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار أو هي بشارة بالعلو والغلبة.

---

(١) معالم التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٨١) بتصرف.

﴿ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان وقوة العقيدة توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه[١].

كذلك من الآيات التي تزيد المؤمن ثقة في الله ووعده وتجعله لا يستسلم ولا يفكر في الاستسلام قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقين: ٨].

فإذا كانت العزة والقوة والغلبة لله عز وجل ولرسوله وللمؤمنين فكيف يفكر صاحب الإيمان القوي والعقيدة الراسخة أن يستسلم أو أن يتراجع.

يقول العلامة الشوكاني في تفسيره:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله ولصالحي عباده لا غيرهم[٢].

فبعد أن يكرم الله سبحانه وتعالى المؤمنين ويجعلهم يتنعمون في عزته فهل يتسنى لهم أن يتراجعوا ويستسلموا بعد هذا الشرف الرفيع، فالآية الكريمة شرف عظيم للمؤمنين حيث يضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه ويضفي عليهم من عزته وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره ويقول: ها نحن أولاء الأعزاء وهذا هو الصف العزيز.

وصدق الله فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن ولا تنحني ولا تلين ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة[٣].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (١/ ٤٦٥) باختصار وتصرف يسير.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٢٩).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٥٨).

فهل هناك قلب آمن حقًا وعاش هذه المعاني القرآنية تؤثر فيه بعد ذلك حربًا نفسية ولعل من الأمثلة على أن الصحابة رضوان الله عليهم لما تغلغل الإيمان في قلوبهم جعلهم يتمسكون بالحق ولا يستسلمون لعدوهم حتى ولو كان الثمن حياتهم، وما فعله الصحابي الجليل حبيب بن زيد حينما أسره مسيلمة الكذاب وقال له: هل تشهد أني رسول الله؟ فقال حبيب: لا أسمع، فقال مسيلمة: وهل تشهد أن محمد رسول الله؟ فأجابه حبيب: نعم، فأمر مسيلمة بقتل حبيب فكان رجال مسيلمة يقطعون جسمه جزءًا جزء ويسألون عند قطع كل جزء نفس السؤالين فيجيب بنفس الجواب حتى استشهد[1] ولم يفكر لحظة واحدة أن يستسلم وينثني عن موقفه.

خامسًا: العقيدة الراسخة تجعل المؤمن لا يسير خلف الإشاعات:

فالإيمان والعقيدة الراسخة يجعلان المؤمن يتثبت من الأخبار ولا يصدق الإشاعات ولا يروجها ولا يسكت عن مروجيها.

ولا شك في أن سلاح الإشاعات سلاح قوي من أسلحة الحرب النفسية فالقرآن الكريم يدعو إلى التثبت من الأخبار، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

فجعل التثبت دعوة للمؤمنين فينبغي أن تكون خصلة من خصالهم حتى لا يسيرون خلف إشاعات لا يعلمون عاقبتها ولا حقيقتها.

يقول العلامة البروسوي في تفسير ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ ﴾ أي فاسق ﴿ بِنَبَإٍ ﴾ أي نبأ فالتنكير للتعميم وإنما قال ﴿ إِن جَآءَكُمْ ﴾ بحرف الشك ولم يقل «إذا جاءكم» ليدل على أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطمع فاسق في مكالمتهم بكذب ما.

﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ أي إن جاءكم فاسق بخبر يعظم وقعه في القلوب فتعرفوا وتفحصوا حتى يتبين لكم ما جاء به أصدق هو أم كذب ولا تعتمدوا على قوله المجرد لأن من لا

(١) قبسات من حياة الرسول، مرجع سابق (ص٧٣)، باختصار وتصرف.

يتحاشى جنس الفسوق لا يتحاشى الكذب الذي هو نوع منه، روى أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه عليه السلام مصدقًا إلى بني المصطلق أي آخذًا وقابضًا لصدقاتهم وزكاتهم وكان بينه وبينهم كره وبغض في الجاهلية فلما سمعوا بقدومه استقبلوه ركبانًا فحسب أنهم مقاتلوه فرجع هاربًا وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة وهموا بقتلي فهم عليه السلام بقتالهم فنزلت[1].

والآية الكريمة تجعل التثبت من الأخبار من شين المؤمنين فينبغي على صاحب الإيمان القوي والعقيدة الراسخة ألا يصدق أي شيء وكل شيء بل يتثبت من الأمور قبل تصديقها لأن تصديق الخبر الكاذب قد يوصل إلى ما لا تحمد عقباه.

ولما كان أبعد الناس عن العقيدة الصحيحة والإيمان القوي هم المنافقون فكانوا أكثر الناس إشاعة للأخبار الكاذبة فتوعدهم الله على ذلك قال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

بين الله سبحانه وتعالى أن إشاعة الأخبار الكاذبة هي ديدن المنافقين وصفاتهم وهنا يتوعدهم الله عز وجل إذا ما استمروا على هذه الصفة.

يقول العلامة الشوكاني: هذا توعد من الله سبحانه وتعالى لأهل النفاق والإرجاف فقال ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ عما هم عليه من النفاق.

﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب.

﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين وظهور المشركين عليهم.

قال الإمام القرطبي: أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد والمعنى: أن

---

(١) تنوير الأذهان للبروسوي، اختصار الشيخ الصابوني (٤/ ١١٦) باختصار، انظر لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (ص١٩٦، ١٩٧) باختصار.

المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين.

والإرجاف في اللغة: إشاعة الكذب والباطل، يقال: أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقته، لكونه خبرًا متزلزلاً غير ثابت من الرجفة وهي الزلزلة يقال رجفت الأرض أي تحركت وتزلزلت، ترجف رجفًا، والرجفان الاضطراب الشديد وسمي البحر رجفانًا لاضطرابه.

وذلك لأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا، وتارة بأنهم قتلوا، ونحو ذلك مما تتنكر له قلوب المسلمين من الأخبار فتوعدهم الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أي لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك[1].

إن بث الأخبار الكاذبة لها خطرها على الصف المسلم وهي تفتت من عقد الصف المسلم وهي من أشد وسائل الحرب النفسية ولذا توعد الله سبحانه وتعالى الذين يبثون الأخبار الكاذبة في الصف المسلم.

والقرآن الكريم أيضًا يدعو المؤمنين إلى إرجاع الأخبار لمصادرها الأصلية فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

قيل إن النبي ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيعيثون ويحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ فيضعفون به قلوب المؤمنين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ ﴾ يقصد المنافقون، ﴿ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ ﴾ أي الفتح والغنيمة، ﴿ أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾ القتل والهزيمة ﴿ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ أشاعوه وأفشوه، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ إلى رأيه ولم يحدثوا به حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يحدث به ﴿ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٩٦) باختصار وتصرف.

أي ذوي الرأي من الصحابة مثل أبي بكر وعمرو عثمان وعلي رضي الله عنهم.

﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ أي يستخبرونه وهم العلماء أي علموا ما ينبغي أن يكتم وما ينبغي أن يفشى[١].

إن الصورة التي يرسمها هذا النص القرآني، هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي لم تألف نفوسهم النظام ولم يدركوا فيه خطر الإشاعة من خلخلة للمعسكر، ومن النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة، لأنهم لم يرتقوا إلى مستوى الأحداث ولم يدركوا جدية الموقف وإن كلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال، وما لا يتداوى بعد وقوعه بحال! أو -ربما- لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر ولهذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل إشاعة والجري بها هنا وهناك، وإذاعتها، حين يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة.

فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة الغدر، تحدث نوعًا من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة التابعة أو النابعة من مجرد الأوامر ومن ذلك التراخي قد تكون القاضية.

كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة، وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكًا، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مكان الخوف، وقد تكون كذلك القاضية[٢].

سادسًا: العقيدة الراسخة تجعل المؤمن يقاوم الغزو الفكري:

والإيمان والعقيدة الراسخة تجعلان المؤمن يقاوم الاستعمار الفكري ويصاول الغزو الحضاري، لأن له من مقومات دينه ما يصونه من تيارات المبادئ الوافدة التي تناقض

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٤٥٦) باختصار وتصرف.

(٢) تفسير الظلال (٢/ ٧٢٣، ٧٢٤) بتصرف.

دينه، وتذيب شخصيته وتمحو آثاره من الوجود[١].

ولا شك أن سلاح الاستعمار الفكري سلاح قوي من أسلحة الحرب النفسية يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يأمرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن نتبع الطريق الحق وهو طريق القرآن وطريق الإسلام وأن نأخذ أمورنا من ديننا وأن نبتعد عن الأشياء الخارجة عن الدين وعن الأشياء التي تستورد من النصارى واليهود وغيرهم في أمور الدين لأن الله يعلم أن هذا فيه مضرة لنا والله عز وجل قد أغنانا وأكمل لنا هذا الدين.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات.

﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ ﴾ فتفرقكم، ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام[٢]، وقيل أن النبي ﷺ خط خطًا ثم قال: «**هذا سبيل الرشد**» ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطًا ثم قال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم تلا هذه الآية ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾[٣]، قيل: إن هذه الآية من عمل بها دخل الجنة ومن تركها دخل النار.

إنه صراط واحد -صراط الله- وسبيل واحدة تؤدي إلى الله.

أن يفرد الناس الله بالربوبية ويدينون له وحده بالعبودية، وإن يعلموا أن الحاكمية لله وحده، وأن يدينوا لهذه الحاكمية في حياتهم الواقعية، هذا هو الصراط وهذا هو سبيله،

---

(١) مقتبس من كتاب بين العقيدة والقيادة، لمحمود شيت خطاب (ص١٢).

(٢) تفسير الكشاف (٢/ ٦٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٦٥) ط/ دار الفكر العربي.

وليس وراءه إلا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله[(١)].

وهكذا فالعقائد في الأمم تقف سدودًا بينها وبين الأفكار الوافدة أو المذاهب المقتحمة وتعطي أعماقًا للروح والمجتمعات والأفراد، كما تمنح استقرارًا وثباتًا للإنسان في الحياة أما إذا تركت الأمم عقائدها وتخلفت عن غذائها الروحي وعن عمقها الإيمان فإنها تصبح فريسة لمن هب ودب[(٢)].

سابعًا: العقيدة الراسخة تجعل المؤمن لا ييأس من نصر الله:

والعقيدة الراسخة والإيمان الحق تجعلان صاحبها لا يقنط أبدًا ولا ييأس من نصر الله ورحمته لا شك أن المؤمن إذا يئس من رحمة الله وقنط فإن هذا يؤدي إلى انهزام نفسي داخله بل يؤدي إلى تدميره وإلى انهزامه أمام نفسه وإلى انهزامه أمام عدوه، وبذلك يكون فريسة سهلة لأعدائه يستطيعون القضاء عليه بسهولة ويسر ولذا حض القرآن أتباعه الذين تربوا على العقيدة على عدم القنوط وعد اليأس من نصر الله ورحمته.

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

يقول العلامة الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية:

لما ذكر سبحانه وتعالى ما ذكره من الوعد قبل هذه الآية الكريمة عقبه بذكر سعة رحمته وعظيم مغفرته وأمر الرسول ﷺ أن يبشرهم بذلك فقال: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

المراد بالإسراف الإفراط في المعاصي والاستكثار منها ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ ﴾ لا تيأسوا ﴿ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ من مغفرته، ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ويجعل

---

(١) تفسير الظلال (٣/ ١٢٣٤) باختصار وتصرف.

(٢) في الغزو الفكري، د/ أحمد عبد الرحيم السايح (ص٦٢)، ط/ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر.

الرجاء مكان القنوط فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ .

واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، بالنهي عن القنوط من الرحمة للمؤمنين من باب أولى[(١)].

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت وإنها الدعوة للأوبة، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بقول الله إن الله رحيم بعباده[(٢)].

ويبين الله عز وجل أنه ناصر أوليائه وإنه لا بد أن يقف بجانبهم.

والمؤمن حقًا ذا العقيدة الراسخة متأكد من نصر الله سبحانه إن آجلاً أو عاجلاً فيدفعه ذلك التأكد إلى مواجهة الحرب النفسية أيًا ما كانت.

قال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فسنة الله في الأمم المختلفة أن يمحصهم الله حتى يدخلوا الجنة عن استحقاق وأن يذيقهم الشدائد في سبيل دعوتهم حتى إذا استبطأوا النصر طمأنهم بأنه ناصرهم وأن نصره لهم قريب فليهدأوا ويطمئنوا وليمضوا في جهادهم وجهودهم، فإنها إن شاء الله متوجة بالنجاح.

يقول العلامة البيضاوي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعدما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٥٢)

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٥٨).

تشجيعًا لهم على الثبات مع مخالفيهم.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة، ﴿ وَزُلْزِلُواْ ﴾ أزعجوا إزعاجًا شديدًا بما أصابهم من الشدائد.

﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر.

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ استبطاء له لتأخره، ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ استئناف على إرادة القول أي فقيل لهم ذلك إسعافًا إلى طلبهم من عاجل النصر، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات[١] كما قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٢].

فنصر الله سبحانه لعباده المؤمنين الصادقين آت لا ريب فيه فلقد وعدهم به ووعد الله نافذ قد يبطئ أحيانًا في تقديرات البشر لكن راسخي الإيمان أقوياء العقيدة واثقون منه مطمئنين إليه.

يقول أ/ سيد قطب: وقد يبطئ هذا النصر أحيانًا في تقدير البشر لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله والله هو الحكيم الخبير بعباده يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه وفق مشيئته وسنته وقد تتكشف حكمة توقيته للبشر وقد لا تتكشف ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح ووعده القاطع واقع عن يقين يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين[٣].

وهكذا فإن الإيمان وقوة العقيدة يجعلان صاحبها لا يخشى الموت فهو يعلم أنه لن

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١١٦) باختصار.

(٢) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٢) (٤/ ٢١٧٤) ط/ عيسى البابي الحلبي.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٧٧٤).

يموت إلا بأجله الذي قدره الله كذلك فهما يجعلان صاحبهما لا يستسلم ولا يفكر في الاستسلام فهو عزيز بعقيدته عليّ بشريعته لا يهون ولا يحزن ما دام متصلاً بخالق القوى عز وجل، كما تجعلان صاحبهما لا يصدق الإشاعات ولا يروجها بل يقف في وجه مروجيها كما يجعلان صاحبهما مستمسك بدينه لا ينحرف خلف التيارات الواردة فعنده في دينه ما يغنيه وما ينبغي أن يحمله إلى العالم كافة كما يجعلان صاحبهما لا ييئس من رحمة الله ونصره فهو واثق أن نصر الله آت فعليه الاستمساك بعرى الإيمان.

المبحث الثاني
التوجيه النفسي القرآني للصف المسلم

كانت وما زالت الحرب النفسية التي يعيشها المسلمون من أعدائهم حربًا ضروسًا تدفعها أهداف خبيثة ولكن القرآن كان يوجه أتباعه بعدة توجيهات تجعل نفوسهم قوية وتدفعهم إلى روح معنوية عالية وتتمثل هذه التوجيهات فيما يلي:

أولاً: اليقين بأن المسلمين معهم الحق الوحيد على الأرض.

ثانيًا: اليقين في الرزق والأجل.

ثالثًا: تعبئة روح الأمة على البغض والكره لعدوهم.

رابعًا: إقناع الصف المسلم بعدالة حربهم مع عدوهم للاحتفاظ بمعنوياتهم عالية.

خامسًا: تثبيت فكرة الثقة من النصر في نفوس المسلمين.

أولاً: اليقين بأن المسلمين معهم الحق الوحيد على الأرض.

لقد أخبر القرآن الكريم أتباعه بأن معهم الحق الوحيد على الأرض وهذه قضية في منتهى الخطورة إذا اقتنع بها المسلم عاش بها ولها مضحيًا بكل غال ونفيس، فهذا الحق لا بد له من أتباع يؤمنون به ويحولونه إلى واقع عملي ويحملون الناس عليه فهو القضية الوحيدة في حياتهم يعيشون من أجلها ويموتون في سبيلها وهو الحق الوحيد على الأرض ولا حق سواه وما سواه باطل وكاذب.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يقول العلامة الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا ﴾ يعني اعلموا أن السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعه الضلالة له ومصيره النار [١].

---

(١) الشوكاني (٢/ ١٨٤، ١٨٥) باختصار.

وعن ابن مسعود ﷺ قال خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيمًا» ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ ... الآية»(١).

وإذا وعى المسلمون ذلك وعلموا أنهم أصحاب الحق الوحيد على الأرض فعليهم حينئذ أن يقوموا بما عليهم تجاه ذلك الحق وهو أن يؤمنوا به حق الإيمان وتتفاعل به نفوسهم وتطمئن به قلوبهم وتتحرك به جوارحهم ويعيشون به واقعًا وتنفيذًا ثم يحملون الناس عليه ويأخذون بأيديهم إليه لأن عليهم -أي على المؤمنين- تبعة عظيمة وهي كونهم الشهداء على الناس وهذه الشهادة تستوجب مسئولية على هؤلاء الشهداء أن يؤدوها، هذه المسئولية هي ريادة هذا العالم حتى يستطيعون أن يأخذوا بيده إلى الصراط المستقيم فالحق لا بد له من أمة ترعاه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

فالآيات الكريمات بدأت بالخطوة الأولى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي الذين آمنوا بالدين الحق وهو دين الإسلام وهو الحق الذي لا حق سواه.

يقول العلامة ابن عاشور: وفي هذا الترتيب إيماء إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، ط/ دار الفكر.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور الجزء السابع عشر (٨/ ٣٤٦).

أما الخطوة الثانية تجاه هذا الحق فهو تحويله إلى واقع عملي وهو ﴿ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فالركوع والسجود وعبادة الله لفظ جامع للعبادات التي شرعها الله سبحانه ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ أمر بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة وحسن المعاملة كصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر مكارم الأخلاق[١].

وأما الخطوة الثالثة فهي: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ أي جاهدوا في ذات الله ومن أجله والمراد به: الجهاد الأكبر وهو غزو الكفار وقيل المراد بالجهاد: امتثال ما أمر الله به[٢] ﴿ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ أي جهادًا خالصًا لوجهه[٣].

ثم لما بينت الآية السابقة واجب المسلمين تجاه الحق الذي يحملونه بينت الآية اللاحقة سبب تحملهم لهذه الأمور.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ الاجتباء هو: الاصطفاء والاختيار أي هو اختاركم لتقي دينه ونشره ونصره على معانديه[٤].

فإذا وعي المسلمون هذه المهمة وقدروا كون الله سبحانه اختارهم من دون الناس لحمل دينه فعليهم أن يؤدوا واجبهم نحو هذا الدين.

ومن مواقف السيرة التي تشهد اقتناع النبي ﷺ بقضية أن دينه هو الحق الوحيد على الأرض وأن عليه واجبات لهذا الحق لا بد أن يؤديها أن قريش بعثت تساومه على لسان عمه أبي طالب فكان الرد عليه واثقًا حاسمًا: «**والله يا عم لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري على أن أدع هذا الأمر لن أدعه حتى يأذن الله لي أو أهلك دونه**»[٥].

---

(١) السابق ذاته.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٦٨).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٣٤٩).

(٥) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي (ص١١٧).

فلولا يقينه أن الأمر الذي عليه هو الحق الوحيد الذي يستحق كل بذل وافتداء لقبل المساومة بسهولة.

ومن المواقف التي تجسد هذا المعنى: دعاء النبي ﷺ يوم بدر: **«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد اللهم إن شئت لن تعبد بعد اليوم أبدًا»**[1].

فلولا يقين النبي أن هذه العصابة وهم الصحابة الذين شهدوا بدرًا هم الحاملون الوحيدون لدين الله على الأرض لما دعا هذا الدعاء.

ولقد قذف النبي ﷺ في قلوب أصحابه هذه المعاني:

أ- قذف في قلوبهم أن ما جاء به هو الحق وما عداه الباطل وأن رسالته خير الرسالات، ومنهجه أفضل المناهج وشريعته أكمل النظم التي تتحقق بها سعادة الناس أجمعين.

ب- وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا أهل الحق وما داموا حملة رسالة النور، وغيرهم يتخبط في الظلال، وما دام بين أيديهم هدي السماء لإرشاد الأرض فهم إذن يجب أن يكونوا أساتذة الناس وأن يقعدوا من غيرهم مقعد الأستاذ من تلميذه، يحنوا عليه ويرشده ويقومه ويسعده ويقوده إلى الخير يهديه سواء السبيل.

ج- وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا كذلك مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسابهم إليه فإن الله معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيدهم ويمدهم إذا تخلى عنهم الناس، ويدافع عنهم إذا أعوزهم النصير، وهو معهم أينما كانوا، وإذ لم ينهض معهم جند الأرض تنزل عليهم المدد من السماء[2].

وبعد فهل يسوغ للمؤمنين بعد اقتناعهم بأنهم حماة الحق الوحيد على الأرض وهو دين الإسلام فهل يسوغ لهم أن يهونوا أو يخضعوا أو يتأثروا بأي حرب مهما كانت شدتها.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري، باب قصة غزوة بدر (٥/ ٩٣) ط/ دار الشعب.

(٢) مقومات رجل العقيدة على طريق الدعوة، أ/ مصطفى مشهور (ص٩، ١٠).

ثانيًا: اليقين في الرزق والأجل:

كذلك من توجيهات القرآن النفسية للمؤمنين قضية اليقين في الرزق والأجل، فلقد ربى القرآن أتباعه على أن يكونوا على يقين أن رزقهم بيد الله لا يملكه أحد سواه وأن أجلهم بيد الله لا يتحكم فيه أحد وبهذا يفوت على الأعداء الفرصة في استغلال الحصار الاقتصادي والتضييق.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

فهل يخاف المسلم من أحد على رزقه ما دام الرزق بيد الله!

يقول العلامة القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ أي من الله رزقها أو على الله رزقها فضلاً لا وجوبًا وقيل وعدًا منه حقًا.

والدابة: كل حيوان يدب والرزق حقيقة ما يتغذى به الحي ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده.

وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ قال: من عند الله، فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء، فقال: يا هذا الأرض له والسماء له فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض وأنشد:

وكيف أخاف الفقر والله رازقي ... ورازق هذا الخلق في العسر واليسر

تكفل بالأرزاق للخلق كلهم ... وللضب في البيداء والحوت في البحر

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أي من الأرض حيث تأوي إليه ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ ﴾ حيث تموت وتبعث، ﴿ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ في اللوح المحفوظ(١).

وفي القرآن الكريم آيات أخرى تؤكد في نفس المؤمن أن رزقه بيد الله فليمض في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٥/ ٣٢٣٤، ٣٢٣٦) باختصار وتصرف.

طريقه ولا يخاف ذا جاه أو سلطان دنيوي على رزقه فالله سبحانه هو رازق الجميع، قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ولقد عاش الصحابة والصالحون رضوان الله عليهم هذه المعاني فلم يخشوا فقر لأنهم على يقين أن الله رازقهم فلم تبخل أنفسهم ولم تخر عزائمهم.

فهذا أبو بكر الصديق ينفق في سبيل الله ماله كله ويسأله النبي ﷺ ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟ قال: تركت لهم الله ورسوله[1].

أما اليقين في الأجل فالقرآن يربي أتباعه ألا يخافوا على آجالهم لأن آجالهم بيد الله فعليهم أن يمضوا في طريقهم ولا يخافوا في الله لومة لائم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

يقول صاحب المنار: ما دام محيانا ومماتنا بيد الله فلا محل للجبن والخوف ولا عذر في الوهن والضعف وفيها تأكيد أن الموت لا يدل على بطلان ما كان عليه من يموت ولا على حقيقته.

والمعنى أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله فلا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له أن يقبض نفسًا إلا بإذن الله، وفي الآية تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع وأن أحدًا لن يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك[2].

كما أن الآية تؤكد أنه لا داعي للجبن فإن الجبن لا ينجي فقد يؤدي الجبن إلى الخوف

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي، باب المناقب، برقم (٣٧٥٧)، (٥/ ٢٧٧)، ط/ دار الفكر.

(٢) المنار (٤/ ١٣٦) باختصار وتصرف يسير.

الشديد وقد يوقف الخوف الشديد قلب صاحبه فيموت، وإذا تيقن المؤمن الصادق ذلك مضى في طريقه قُدمًا لا يخاف على رزقه أو على رزق أولاده فرزقهم جميعًا بيد الله لا بيد بشر ولا يخاف على أجله فأجله بيد الله لا بيد بشر، فإن يمت رافع الرأس أكرم له من أن يموت جبانًا خائر العزيمة.

ثالثًا: تعبئة روح الأمة على البغض والكره لعدوها:

لقد وجه القرآن الكريم مشاعر الأمة بأسرها إلى البغض والكره لعدوها وبيّن أسباب ذلك فعدوها لا يريد لها، ولا لدينها إلا التباب والفساد، فلقد ود أعداء الإسلام لو يغمضون جفنا ويفتحونه فإذا الإسلام وأتباعه أصبحا في طي النسيان، فنزل القرآن الكريم يوجه مشاعر المسلمين لكره أعدائهم ويعبئ روحهم المعنوية ضد أعدائهم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فلا ينبغي لذي عقل أن يود أعداءه ويتخذهم أصدقاء وهم بهذه الحالة من الكره والبغض لهم فالأولى به أن يقاطعهم وأن يحمل لهم مثل تلك المشاعر التي يحملونها له على الأقل.

والبطانة مصدر يسمى له الواحد والجمع، وبطانة الرجل: خاصته الذين يستبطنونه أمره.

﴿ مِّن دُونِكُمۡ ﴾ من سواكم أي من دون المسلمين وهم الكفار.

﴿ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا ﴾ لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم(١).

﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ أي أحبوا مشقتكم الشديدة وضرركم.

وقال السدي: تمنوا ضلالتكم عن دينكم.

﴿ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم وفحوى كلماتهم لأنهم لشدة بغضهم لكم لا يملكون أنفسهم ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم(٢).

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٥٧) باختصار.

(٢) روح المعاني للألوسي الجزء الرابع (٣/ ٦١).

﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ ﴾ من البغضاء، ﴿ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم مما بدا لأنه كان عن فلتة لسان ومثله لا يكون إلا قليل.

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أي أظهرنا لكم الآيات الدالة على النهي عن موالاة أعداء الله ورسول الله ﷺ أو قد أظهرنا لكم الدلالات والواضحات التي يتميز بها الولي من العدو.

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل أو إن كنتم تعلمون الفضل بين الولي والعدو[1] فيا سبحان الله.

وكأن الآيات منزلة اليوم في أعدائنا من حولنا فها هم يتربصون بنا الدوائر ويجمعون كلمتهم على إهلاكنا فلا يجمعون على حرب دولة إلا دولة إسلامية ولا يجمعون على حصار دولة اقتصاديًا إلا دولة إسلامية ولا يجمعون على استنفاذ موارد دولة إلا دولة إسلامية قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، وعى ذلك عقلاء سلفنا الصالح فعملوا بناء على هذا الوعي فهلا من عقلاء اليوم يعون ذلك.

ومن الآيات الدالة على حقد أعداء الإسلام وكرههم للإسلام قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

فهل يليق بالمؤمنين أن يحملوا مشاعر طيبة لمن يحملون لدينهم هذا التآمر الخبيث.

يقول العلامة البغوي ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه.

وقال الكلبي: النور القرآن، أي: يريدون أن يردوا القرآن بألسنتهم تكذيبًا.

﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ أي: يُعلي دينه ويُظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به محمد ﷺ.

---

(١) روح المعاني للألوسي الجزء الرابع (٣/ ٦١).

﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [1] فأعداء الإسلام يتربصون به الدوائر ويقتنصون الفرص ليُحيقوا به، ولقد حكت آيات القرآن الكريم الكثير من تلك الحكايات.

فأما اليهود فقد تحدثت معظم سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة فهم نقضة العهود وهم المتحرشون بالمسلمين وهم رأس الفتنة التي وقع فيها عثمان ﷺ وهم رأس الفتنة فيما وقع بين علي ومعاوية وهم حملة الوضع في السيرة والتفسير وهم الممهدون لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية وهم حديثًا وراء كل كارثة حلت بالمسلمين وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي [2].

وليس باقي جبهات العداء للمسلمين بأقل من اليهود خطورة وعداوة للإسلام وأهله وآيات القرآن الكريم وصفحات التاريخ والحروب بين الإسلام وأعدائه تشهد بذلك.

فهل بعد ذلك كله يليق بالمسلمين أن تربطهم بهؤلاء الأعداء مشاعر حب أو ود، وهل يليق إلا أن تكون مشاعر بغض وكراهية.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٢٨٦).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٢٧، ١٨٢٨) باختصار وتصرف.

رابعًا: إقناع الصف المسلم بعدالة حربهم للاحتفاظ بمعنوياتهم عالية:

لقد كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية راسخة ثابتة ثبات الشم الرواسي فيملأ قلوبهم شجاعة وجرأة وأملاً في النصر على الأعداء فكان رسول الله ﷺ يوضح لهم حقيقة أعدائهم ومبعث عداوتهم وخطرهم على دينهم ودولتهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم ومقدساتهم ولا علاج لهؤلاء الأعداء الحاقدين إلا بقتالهم[(١)]، فالحرب معهم حرب عادلة وهي الحل الوحيد والأكيد لما هم عليه من بغي وطغيان وبهذا تظل معنويات الصف المسلم عالية فهم يقاتلون من أجل قضية عادلة فلا بأس أن يبذلوا فيها الأموال والأرواح، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

قال الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية: كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج فشكوا إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: اصبروا لم أؤمر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٢)].

ويقول العلامة الشوكاني عند تفسير لهذه الآية:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ قرئ ﴿ أُذِنَ ﴾ مبنيًا للفاعل ومبنيًا للمفعول وكذلك ﴿ يُقَـٰتَلُونَ ﴾ وعلى كلا القراءتين فالإذن من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين بأنهم إذا حملوا على القتال أو قاتلهم المشركون قاتلوهم.

﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ للسببية أي بسبب أنهم ظلموا لما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب.

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعد من الله سبحانه وتعالى لهم بالنصر وفي العبارة

---

(١) المدرسة النبوية العسكرية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس (ص١٤١)، ط/ دار الفرقان.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص٢٥٨).

تأكيد أيضا لهذا الوعد[1].

فالحرب إذن هي عين العدالة لأنها ليست حرب عدوان وإنما حرب لإيقاف الظلم والطغيان. قال تعالى أيضا: ﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[التوبة: ١٣].

يقول العلامة البيضاوي في تفسيره لهذه الآية:

﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا ﴾ هذا تحريض من الله على القتال لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل.

﴿ نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ ﴾ التي حلفوها مع الرسول ﷺ على ألا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة.

﴿ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ حين تشاوروا بأمره في دار الندوة.

وهو ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا بإخراجه من المدينة.

﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ بالمعاداة والمقاتلة لأنه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به فعدلوا على عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم[2]، ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ ﴾ أي أتتركون قتالهم خشية لهم وجبنا منكم إن كانت الخشية هي المانع لكم من قتالهم ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فالمؤمن حقا لا يخاف ولا يخشى إلا الله تعالى لعلمه بأنه بيده ملكوت كل شيء.

فالحرب إذن عادلة وأعداءكم يستحقونها لأنهم فعلوا ثلاثة أشياء كل منها يستحق

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٥٥) باختصار وتصرف.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٣٩٨).

الحرب ردًا عليهم حتى ولو انفرد هي:

١ - أنهم نكثوا عهدهم.

٢ - أنهم هموا بإخراج الرسول.

٣ - أنهم هم البادئين بالعدوان.

فهذه ثلاثة أسباب جد مقنعة لعدالة الحرب مع هؤلاء الأعداء.

وقد قال تعالى أيضًا: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فالقتال هذه المرة لنشر الدين والقضاء على الشرك وأي قتال أسمى من قتال يعيد الناس إلى توحيد الله عز وجل فهو الأصل في فطرتهم التي حادوا عنها.

يقول العلامة البغوي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ يعني: المشركين ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي شرك يعني قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام فإن أبى قتل.

﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ ﴾ أي الطاعة والعبادة ﴿ لِلَّهِ ۖ ﴾ وحده فلا يعبد شيئًا دونه.

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ﴾ عن الكفر وأسلموا، ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ ﴾ فلا سبيل، ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين أصروا على الكفر والجحود والمعاداة لكم[1].

فإذا اقتنع المسلمون بعدالة حربهم مع أعدائهم خاضوها بكل ثبات وصبر وتحملوا ما قد يواجهون في سبيلها من عنت ومشقة مادية أو نفسية.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (١/ ١٦٢، ١٦٣).

خامسًا: تثبيت فكرة الثقة من النصر في نفوس المؤمنين:

كان من ضمن أسلوب القرآن في التبعية المعنوية للجيش المسلم أنه يثبت في نفوسهم أنهم الفريق الفائز على أية حال فينتظره على الأقل إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة فكان يندفع في جهاده مع أعدائه لا يلتفت لأي شيء فالشوق إلى الجنة يحدوه، والحور العين تناديه فهل يثقل إلى أرض كلها تعب ونصب.

قال تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

فهل تتزعزع معنويات إنسان يعلم أنه ينتظره من عنده الله سبحانه وتعالى الأجر العظيم.

يقول العلامة الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هذا أمر للمؤمنين وقدم الظرف على الفعل للاهتمام به.

﴿ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ﴾ معناه يبيعون وهم المؤمنون والفاء في قوله ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ ﴾ جواب لشرط مقدر، أي إن لم يقاتل هؤلاء المذكورون سابقًا الموصوفون بأن منهم لمن ليبطأن فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم البائعون للحياة الدنيا بالآخرة، ثم وعد المقاتلين في سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجرًا عظيمًا لا يقادر قدره، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور وإن غلب وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا والغنيمة(١).

وهكذا فالمؤمن بهذه الروح يخوض المعامع ولا يخشى الخطوب ولم لا والنصر والفوز هما سبيله وقد قال الله تعالى أيضًا: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

فهذا وعد الله لأنبيائه والسائرين على دربهم في كل زمان ومكان ووعد الله لا يخلف.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٧٧).

يقول العلامة القرطبي[(١)] ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ أي قضى الله ذلك، وقيل: كتب في اللوح المحفوظ، وقيل: كتب بمعنى قال: ﴿ أَنَا۠ ﴾ توكيد ﴿ وَرُسُلِيٓ ﴾ من بعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب ومن بعث منهم بالحجة فهو غالب بالحجة، قال مقاتل قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أتظنون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عددًا وأشد بطشًا من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ نظيره، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وفي السيرة النبوية الأمثلة الكثيرة على أن النبي ﷺ كانت نفسه مطمئنة إلى نصر الله وكانت كلماته تبعث في نفوس أصحابه الثقة في النصر فهذا هو النبي ﷺ يعد سراقة بن مالك بسواري كسرى والعجب أن ذلك الوعد كان حين هجرته ﷺ إلى المدينة متخفيًا هو وصاحبه أبو بكر ﷺ[(٢)].

كان النبي ﷺ دائمًا يحاول أن يملأ قلوب المؤمنين بالأمل والثقة في نصر الله والتفاؤل بالمستقبل وما يتحقق لهم فيه من عزة وسيادة، ومن أمثلة ذلك:

حديث خباب حين جاء إلى النبي ﷺ في الفترة التي شددت فيها قريش قبضتها على المسلمين، وكان النبي ﷺ حين جاءه خباب يتوسد برده في ظل الكعبة، وكان خباب قد عذبته قريش حتى أنهكته فقال: يا رسول الله ألا تستنصر لنا، ألا تدعوا لنا فقال ﷺ: **«والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت فلا يخاف**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٩/ ٦٤٧٦).

(٢) انظر: هذا الحبيب يا محب لأبي بكر الجزائري (ص١٦٣).

إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[١].

يقول الشيخ محمد الغزالي معلقًا على هذه الحادثة:

وكان رسول الله ﷺ يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب[٢].

والنبي ﷺ كان عارفًا بالحق الذي معه، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يوم ذاك، وكان واثقًا من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل وحين نقضت قريظة عهدها، قال ﷺ: «أبشروا بفتح الله ونصره»[٣].

وهذا هو موقف الرسول المملوء بالثقة في النصر والظهور إن شاء الله يوم الأحزاب.

قال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ فجاء وأخذ المعول فقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع آخر فقال: الله أكبر أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني[٤].

فما بالك برجال قائدهم على هذه الروح العالية وهذه الثقة في النصر والأمل في الغلبة والمؤمن بهذه الروح يخوض المعامع ولا يخشى الخطوب ولم لا والنصر والفوز هما سبيله.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٩/ ٢٤)، ط/ دار الشعب.

(٢) فقه السيرة، للشيخ الغزالي، (ص١١٢، ١١٣).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١[illegible]) باختصار.

(٤) الرحيق المختوم، للمباركفوري (ص٣٦٠).

وهكذا كان ضمن منهج القرآن في الوقاية من الحرب النفسية أن وجه القرآن أتباعه لعدة توجيهات من شأنها أن تقوى نفوسهم وتثبت أفئدتهم وتجعل روحهم المعنوية دائمًا مرتفعة وهذه التوجيهات منها:

توجيههم إلى اليقين بأن معهم الحق الوحيد على الأرض فليبذلوا في سبيله كل شيء ولا يكترثوا بمن عاداهم وحاربهم نفسيًا أو عسكريًا، وتوجيههم إلى اليقين في أن أرزاقهم وآجالهم بيد الله فلا يركنوا ولا يهونوا فكل شيء يجري بقدر الله، كذلك توجيههم إلى البغض والكره لعدوهم لأن عدوهم حريص على عنتهم فلا يلينوا هم معه ولا يحملوا له مشاعر الود.

كما وجه القرآن أتباعه إلى عدالة حربهم مع عدوهم فهي حرب حق قامت وتقوم لإحقاق الحق.

كما ثبت القرآن قلوب المؤمنين بأن بث في نفوسهم أنهم الفئة الغالبة إن شاء الله وبذلك لا تؤثر في معنوياتهم الحرب النفسية مهما كانت وسائلها أو موجهها.

المبحث الثالث
إزالة آثار الحرب النفسية

وكما يوجه الإسلام إلى وسائل التحصين والوقاية من الحرب النفسية ليفوت على الأعداء أغراضهم الخبيثة نراه يوجه أيضًا إلى أساليب إزالة آثار الحرب النفسية من قلوب المسلمين وعقولهم إذا ما وقعت عليهم.

وقد وضع الإسلام في ذلك منهجًا على النحو التالي:

أولاً: تطهير النفوس من الآلام النفسية واستعادة القوى المعنوية.

ثانيًا: المواجهة بالحقيقة الدامغة.

ثالثًا: سرعة الرجوع إلى أصول العقيدة.

رابعًا: الاستعانة بالصبر والصلاة.

خامسًا: إزالة آثار الحرب النفسية بالعمل العسكري.

أولاً: تطهير النفوس من الآلام النفسية واستعادة القوى المعنوية:

تطهير النفوس من الآلام النفسية واستعادة القوى المعنوية مثل ما حدث لنفوس المسلمين من آلام نفسية بعد هزيمة أحد وما لحق بمعنوياتهم من انكسار وما حدث لنفوسهم من حزن فجاء القرآن الكريم يداوي كل هذا ويزيل آثاره ويطهر النفوس مما حدث لها من آلام ويعيد القوى المعنوية للمؤمنين أفضل مما كانت.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٢].

يقول صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ تسلية من الله سبحانه

وتعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية لقلوبهم، يعني ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم أي لا يورثنكم ذلك وهنًا وجبنًا، ولا تبالوا به ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد أو أنتم الأعلون شأنًا لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر ولأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة أي وأنتم الأعلون في العاقبة، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾.

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي بمعنى ولا تهنوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه(١).

فقوة الإيمان تجعل المؤمن دائمًا ثابت الجنان هادئ النفس مطمئن إلى قدر الله.

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ والمعنى: إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بألا تضعفوا فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي نصرفها بينهم والمراد بها أوقات النصر والغلبة.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ قيل معناه ليعلمهم علمًا يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء الموجود.

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ ويكرم ناسًا منكم بالشهادة.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون أو الكافرين وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحيانًا استدراجًا لهم وابتلاء للمؤمنين.

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٤٦٥).

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم.

﴿ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، والمحق: نقص الشيء قليلاً قليلاً[(١)].

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ بل أحسبتم ومعناه: الإنكار ﴿ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ والمعنى: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أي الجمع بينهما[(٢)].

وهكذا فقد بينت الآيات الكريمة حكمًا خمسًا لما لحق بالمؤمنين بغزوة أحد:

١ - ففي ظلال المحنة والشدائد يظهر الإيمان الصادق.

٢- وينعم بعض المجاهدين بالشهادة التي هي بداية الخلود وليست نهاية الحياة.

٣- ويتضح كذلك الصامد من غيره.

٤- وليكفر بهذه المحن ذنوب المؤمنين أو يرفع بها درجاتهم.

٥- وبالمواجهة بين الجبهة المؤمنة والجبهة الكافرة تنحصر الموجة الباغية الطاغية ويدمر أهل الحق أهل البغي والباطل وهذا هو الطريق إلى الجنة ونعيمها.

بهذا الأدب القرآني يؤدب الله عز وجل عباده في ظروف النكسات وفي أوقات الهزائم ليزيل آثارها النفسية وليخرجهم منها أصلب عودًا وأمضى عزيمة وأقوى إرادة كل هذا نلمحه من الآيات[(٣)] وذلك مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٨١، ١٨٢) باختصار.

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٦٧) باختصار.

(٣) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية لجمال الدين محفوظ (ص١٦٦).

ومصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»(١).

فطريق القمة ليس سهلاً ولا بد من تضحيات.

ثانيًا: إزالة آثار الحرب النفسية بالمواجهة بالحقيقة الدامغة:

ولقد واجهت آيات القرآن الكريم أساليب الأعداء في الحرب النفسية بالحقيقة الدامغة فيما قالوه، قال الله عز وجل حاكيًا لما قاله أعداء الإسلام في محاولتهم تشكيك المسلمين في تغيير القبلة: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ الجهال، ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾ أي شيء صرفهم وحولهم، ﴿ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾ أي بيت المقدس، وقد نزلت الآية في اليهود ومشركي مكة طعنوا في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة، فقال اليهود لمشركي مكة: قد تردد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع إلى دينكم فكانت تلك فريتهم فرد الله سبحانه في قرآنه بموجهتهم بالحقيقة الدامغة فقال: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾ خلقها والخلق عباده، فهو سبحانه الذي وجه نبيه هذا التوجيه فليس النبي ﷺ شاك كما ادعيتم(٢).

ومن الأمثلة أيضًا لمواجهة القرآن للأعداء بالحقيقة الدامغة قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾ فكانت مواجهة القرآن لهم بالحقيقة الدامغة فقال: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

والقرآن الكريم دائمًا يواجه أعداءه بالحقيقة الدامغة والأمثلة في القرآن غير ما

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٢) (٤/ ٢١٧٤).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (١/ ١٢٢) باختصار وتصرف، وانظر: لباب النقول في أسباب النزول للإمام السيوطي (ص٣٠).

ذكر كثيرة.

وهكذا تبين لنا من الآيات الكريمة أن أسلوب المواجهة بالحقيقة الدامغة كان أسلوبًا قرآنيًا لمواجهة آثار الحرب النفسية حيث إن التشكيك أو الادعاء الكاذب قد يحدث خللاً وبلبلة داخل الصف المسلم فإذا بالقرآن يأتي قاطعًا وقولاً فاصلاً لأي تشكيك أو ادعاء كاذب.

ومن أمثلة ذلك في السنة النبوية:

ما حدث في غزوة أحد من إشاعة مقتل النبي ﷺ كلمة حاقدة أطلقها شيطان رجيم في وقت عصيب وفي ظروف بالغة القسوة فكان لها أثر شديد في نفوس المسلمين فخارت قواهم وألقى كثير منهم ما معه من السلاح.

يصور لنا ذلك الصحابي الجليل أنس بن النضر حينما مر بعمر بن الخطاب في جمع من الأنصار والمهاجرين قد ألقوا سلاحهم فقال لهم: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ ، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم حتى قتل[1].

ولقد كان رد الرسول القائد على إشاعة مقتله أنه صعد فوق الجبل ليطمئن أصحابه ويرد إليهم الثقة في أنفسهم، وكان ﷺ ينادي: «**إلي يا فلان، إلي يا فلان أنا رسول الله**»[2] وهكذا كانت الحقيقة الدامغة أقوى مزيل لما أحدثته الإشاعة من أثر معنوي في نفوس المؤمنين.

وهكذا ينبغي أن يفعل أي قائد يريد كسب ثقة رعيته والإبقاء على معنوياتهم عالية يكشف لهم حقائق الأمور ويصارحهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٩).

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري (٢/ ٦٧، ٦٨) باختصار وتصرف.

ثالثًا: سرعة الرجوع إلى أصول العقيدة:

كذلك من وسائل إزالة آثار الحرب النفسية سرعة الرجوع إلى أصول العقيدة والاعتصام بالدين ليزيل أي أثر كان للحرب النفسية.

ومن الأمثلة التي تضرب في ذلك ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

يقول الإمام الواحدي في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما أصيب يوم أحد صاح الشيطان قائلاً: قد قتل محمد ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل: قد أصيب محمد فاعطوا بأيديكم إنما هم إخوانكم(١).

وقال آخر: لو كان رسولاً ما قتل فرد الله عليهم ذلك وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل وسيخلو كما خلوا فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... ﴾ الآية.

صفة للرسول والقصر قصر إفراد كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين الرسالة وكونه لا يهلك، فرد الله عليهم بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك وقيل هو قصر قلب وقرأ ابن عباس «قد خلت من قبل رسل» ثم أنكر الله عليهم بقوله: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ أي كيف ترتدون وتتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم وإن فقدوا بموت أو قتل ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ بإدباره عن القتال أو بارتداده عن الإسلام ﴿ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ وإنما يضر نفسه ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾(٢) من امتثل ما أمر الله به.

وهكذا فالآية الكريمة كما أنهت البلبلة والفتنة وقت موت الرسول ﷺ أنهتها من

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص١٠٦).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٦٨) باختصار.

قبل حين أشيع خبر قتله ﷺ.

والآية الكريمة تبين لنا:

١- أن الولاء للدين وليس لشخص حتى ولو كان هذا الشخص هو النبي ﷺ.

٢- أن شأن الله سبحانه في أنبيائه سننًا لا تتبدل فكلهم بشر من شأن البشر أن يموت.

٣- أن من اعتصم بالدين هو المستفيد بهذا الاعتصام فليس لله حاجة في إيمان الناس فهو سبحانه أغنى الأغنياء ومع ذلك فإنه يجزي المعتصم بدينه أجزل الجزاء.

وكذلك من وسائل إزالة الحرب النفسية سرعة الرجوع إلى أصول العقيدة والاعتصام بالدين ليزيل أي أثر كان للحرب النفسية ولقد تعرض الصف المؤمن لهزة نفسية عنيفة بسبب ما حاوله المشركون والمنافقون بعد وفاة الرسول ﷺ أخذوا يشنون الحرب النفسية ضد المسلمين لزعزعة إيمانهم وإثارة الفتنة بينهم وقد أسرع عمر بن الخطاب ﷺ إلى حيث جثمان النبي ﷺ وهو لا يصدق أنه مات فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به، فحسبه في غيبوبة لا بد أن يفيق منها وعبثًا حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة المؤلمة، فقد ظل مؤمنًا بأن محمد لم يمت فلما ألح المغيرة قال له: كذبت وخرج إلى المسجد وهو يصيح: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجالاً وأرجلهم زعموا أنه مات.

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم في حال أشبه بالذهول لولا أن خرج أبو بكر الصديق وحسم الموقف بخطبته المشهورة التي قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي

لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وهكذا زال من القلوب كل شك في أن محمدًا قد مات، ولما كان الغد من ذلك اليوم خطب عمر الناس فقال: «إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهده إلي رسول الله ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدي رسوله فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له»[1].

رابعًا: الاستعانة بالصبر والتقوى والصلاة:

من ضمن منهج القرآن الكريم في إزالة آثار الحرب النفسية توجيه المؤمنين للاستعانة بالصبر والتقوى والصلاة.

قال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى أيضًا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

يقول العلامة الألوسي عند تفسيره لهذه الآية:

---

(١) غزوات الرسول، للواء جمال الدين محفوظ (ص٤١٧، ٤١٨) بتصرف، وانظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣) وانظر: الروض الأنف (٢/ ٣٧٢) باختصار وتصرف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ على الذكر والشكر وسائر الطاعات من الصوم والجهاد وترك المبالاة بطعن المعاندين.

﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ التي هي الأصل والموجب لكمال التقرب إليه تعالى، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ معية خاصة بالعون والنصر ولم يقل مع المصلين لأنه إذا كان مع الصابرين كان مع المصلين من باب أولى لاشتمال الصلاة على الصبر(١).

فالاستعانة بالصبر والصلاة تزيل أي أثر لعناد الأعداء ومؤامراتهم لأنهما يؤهلان لمعية الله سبحانه وتعالى وأي شيء يضر من كان الله معه.

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ تشعر بقيمة الصبر والاستعانة به على إزالة آثار الحرب النفسية، فقد قال ﷺ : **«واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»**(٢)، فالصبر دائمًا يتبعه النصر وبين النصر والهزيمة صبر ساعة.

ولقد قال رسول الله ﷺ أيضًا: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**(٣).

وكان النبي ﷺ إذا حزبه شيء فزع إلى الصلاة، فهذه الأحاديث توصل أثر الصبر والصلاة في القضاء على أي أثر محزن في نفس المؤمن وأنه دائمًا يتبعهما النصر المؤزر.

---

(١) روح المعاني للألوسي، الجزء الثاني (٢/ ٢٩) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس (١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ط/ المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٢٩٩٩) (٤/ ٢٢٩٥)، ط/ إحياء الكتب العربية، وأخرجه الإمام أحمد (١/ ١٧٣) ط/ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت.

خامسًا: إزالة آثار الحرب النفسية بالعمل العسكري:

فلقد خط الإسلام لأتباعه المنهج الناجح للوقاية من الحرب النفسية قبل حدوثها ولكن إذا حدثت فلا بد لها من علاج قوي يزيل أثرها ويمحوه فتصبح كأن لم تكن وقد يكون هذا العلاج عملاً عسكريًا ومن الأمثلة التي تضرب في ذلك بعد غزوة أحد جعل الرسول ﷺ يفكر فيما خلفته الهزيمة من آثار على هيبة المسلمين.

١- فأهل يثرب من اليهود والمشركين بمكة يظهرون أشد السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه.

٢- وسلطان المسلمين بالمدينة الذي كان قد استقر فلم يبق لأحد أن ينازع فيه يوشك أن يضطرب ويتزعزع.

٣- وكبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول قد خرج إلى الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعوى أن محمدًا لم يسمع رأيه وأن محمدًا قد غضب على مواليه من اليهود.

٤- ولو ترك أمر نتيجة المعركة على النحو الذي انتهت إليه لبقيت الهزيمة هي الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش، ولهان أمر محمد وأصحابه على العرب وتضعضع سلطانهم بالمدينة ولكانوا عرضة لاستخفاف قريش والاستهزاء منهم في أنحاء شبه الجزيرة.

فكان لا بد من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحد وترد للمسلمين قواهم المعنوية وترهب اليهود والمنافقين والمشركين وتعيد هيبة الرسول وأصحابه في المدينة فأمر الرسول ﷺ أصحابه في الغد بعد أحد أن يخرج معه من حضر معه الغزوة ليتتبعوا العدو ويطاردوهم فخرجوا حتى بلغوا حمراء الأسد، ووصل الخبر لأبي سفيان فخاف وارتعد ولجأ إلى الحيلة وأرسل إلى الرسول وأصحابه يقول لهم: «إن أبا سفيان قد جمع الجمع ليستأصلهم» ولكن الرسول وأصحابه لم يخافوا ولم يتراجعوا[1] وقالوا: حسبنا

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص١١١، ١١٢)، وانظر: غزوات الرسول، للواء جمال الدين محفوظ (ص٤٢٠، ٤٢١) بتصرف، وانظر: الرحيق المختوم (ص٣٣٤).

الله ونعم الوكيل، فنزل قول الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

يقول العلامة البيضاوي ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ ﴾ فرجعوا، ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة، ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ ربح في التجارة فإنهم لما أتوا بدر أوفوا بها سوقًا فاتجروا وربحوا ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ من جراحة وكيد عدو، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجراءتهم وخروجهم، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة والجهاد والتصلب في الدين وإظهار الجراءة على العدو وبالحفظ عن كل ما يسوءهم وإصابة النفع مع ضمان الأجر(١).

وهكذا نرى أن استخدام وسيلة العمل العسكري كوسيلة من وسائل إزالة الحرب النفسية وسيلة ناجحة فقد أعاد للمسلمين معنوياتهم وهيبتهم في المدينة وفي شبه الجزيرة العربية وأعادوا الخوف منهم والحسرة في قلوب أعداءهم، وعادت شبه الجزيرة العربية تعمل لملاقاتهم ألف حساب، ولذلك يقولون إن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع.

وهكذا فإن في اتباع منهج القرآن في إزالة الحرب النفسية بتطهير النفوس لما حدث لها من آلام ومواجهة الأعداء بالحقيقة الدامغة والدعوة إلى الرجوع إلى أصول العقيدة وتوجيه المؤمنين للاستعانة بالصبر والصلاة عما ألم بهم من آلام وإزالة آثار الحرب النفسية بالعمل العسكري إن اقتضى الأمر فإن في اتباع هذا المنهج الدواء الشافي لآثار الحرب النفسية، والرسول ﷺ وصحابته الكرام كانوا خير مثال، فعلى الرغم من ضراوة ما تعرضوا له من حرب نفسية إلا أنها لم تفت في عضدهم ولم تؤثر فيهم.

وهكذا فقد تحدثت من خلال صفحات هذا الفصل عن منهج القرآن في الوقاية من

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٩١) باختصار وتصرف.

الحرب النفسية كما تحدثت عن التوجيهات النفسية التي وجهها القرآن لأتابعه حتى يقيهم من الحرب النفسية ويحتفظ بمعنوياتهم عالية.

كما تحدثت عن منهج القرآن في إزالة آثار الحرب النفسية ومعالجة هذه الآثار وبذلك يكون القرآن الكريم وضع لأتباعه المنهج المناسب في وقايتهم من الحرب النفسية وعلاج آثارها إن وجدت.

الخاتمة

وتشتمل على:

أهم النتائج والتوصيات

التي خرجت بها من البحث والدراسة

النتائج

من خلال البحث وبالدراسة لموضوع «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن» وما تهللته هذه الدراسة من موضوعات فقد توصلت إلى النتائج التالية:

أن الحرب النفسية قديمة قدم الجنس البشري، فقد استخدمت على مر العصور بوسائلها المختلفة، وإن لم تعرف بمعناها الاصطلاحي إلا في العصر الحديث.

أن وسائل الحرب النفسية قد يهمل بعضها ويبرز البعض حسب اختلاف الأحداث والظروف.

أن الحرب النفسية استخدمت ضد أنبياء الله من أقوامهم ولكنهم قاوموها وردوها عليهم.

أن المعركة دائرة بين أهل الحق وأهل الباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أن جبهات ألعداء للرسول ﷺ قد أمعنوا في استخدام الحرب النفسية ضده ﷺ وضد أصحابه، ولكنهم صبروا وتحملوا واستعملوا وسائل الخلاص منها.

أن القرآن الكريم تولى الذب عن النبي ﷺ والدفاع عنه ورد ما حاول أعداء الإسلام توجيهه للنبي ﷺ من حرب نفسية.

أن النبي ﷺ وأصحابه الكرام قد عاشوا معاني آيات القرآن الكريم، وانفعلت بها نفوسهم فطبقوها واقعا مرئيا وعاشوا بها ولها فلم تؤثر فيهم حربا نفسية.

أن القرآن الكريم هو سبب عزة هذه الأمة وسبيل رفعتها وتقدمها، ولن يصلح شأنها إلا بالرجوع إليه وتطبيقه في شتى ميادين الحياة.

أن المسلمين الأوائل وعوا خطورة ما يوجه إليهم من حرب نفسية فقاوموها، وردوا عليها وكانت لهم هجمات نفسية على أعدائهم برزت فيها وسائلهم الخاصة التي تنم عن نبل الأهداف وعمق الفهم وحسن تصريف الأمور والدراية الكافية لظروف الأعداء.

أن القرآن الكريم وضع المنهج الشافي الكافي للوقاية من الحرب النفسية، كما وضع المنهج لعلاجها وتطهير النفوس من آثارها إن وقعت.

أن الكفر كله ملة واحدة، وأعداء الإسلام يتربصون بالمسلمين الدوائر في كل زمان ومكان وقد نبأنا القرآن الكريم عن ذلك، فيجب على المسلمين ألا يغتروا بوعود أعدائهم الزائفة وأقنعتهم التي يختبئون ورائها.

التوصيات

من خلال البحث والدراسة لموضوع «الحرب النفسية كما تحدث عنها القرآن» أوصي بالتوصيات الآتية:

سرعة الرجوع إلى كتاب الله عز وجل، فهو مصدر عزة المسلمين وصلاح البشرية.

التمسك بسنة النبي ﷺ الرحمة المهداة والسراج المنير.

دراسة التاريخ الإسلامي والعكوف عليه من مصادره الأصلية، وإبراز القدوة الحسنة التي تمثلت في النبي ﷺ وصحابته، والقادة المسلمين الأوائل الذين حفروا ماضي هذه الأمة على جبين التاريخ.

تنقية مناهج التعليم مما يتخللها من تزييف لوقائع التاريخ، أو إبراز الأعداء أصدقاء والأصدقاء أعداء، ومن النظريات الهدامة، والأفكار المنحرفة التي لا تتماشى مع منهج القرآن الكريم.

دراسة واقع الأمة الإسلامية دراسة موضوعية متأنية، ودراسة حقيقة ما تتعرض له الأمة من حرب نفسية والعكوف على إيجاد الوسائل المناسبة للرد عليها ومقاومتها.

إيجاد الإعلام الإسلامي الذي يحسن تربية الناشئة، وتربية روح العزة بداخلهم ويعرفهم القدوة الصالحة الصحيحة من أجدادهم، ويعلمهم حقيقة عدوهم، ووسائله، وأهدافه التي يعمل بها.

ألا ينخدع المسلمون بالشعارات الزائفة التي يروجها أعدائهم لهم من قومية ووطنية وغيرها بل على المسلمين أن يجتمعوا جميعا تحت لواء الإسلام، فإن الإسلام يدعوا إلى التمسك بهذه الأمور.

إن على القادة المسلمين وولاة الأمور تطبيق شرع الله سبحانه وتعالى، والاهتمام بالنشأ وتربيته تربية إسلامية، وعدم مولاة أعداء الله، فكل ذلك مسئوليه سيسألون عنها أمام الله عز وجل.

وأهم من هذا كله تقوى الله في السر والعلن، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

مراجع التفسير وعلوم القرآن.

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، لأبي السعود بن محمد العمادي، ط دار الفكر العربي.
٢. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط المكتبة الثقافية، بيروت (١٩٧٣م).
٣. الأساس في التفسير، للشيخ سعيد حوى، ط دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٤. أسباب النزول، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: أيمن صالح شعبان، ط دار الحديث، القاهرة.
٥. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر الجزائري، ط جدة راسم للدعاية والإعلان، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٦. البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار التراث.
٧. بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د/ محمد سيد طنطاوي، ط دار الشروق.
٨. تفسير البيضاوي - المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للعلامة نصر الدين أبي سعيد عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي، ت/ ٧٩١هـ، ط دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان.
٩. التحرير والتنوير، لسماحة الشيخ - محمد الطاهر بن عاشور، ط دار سحنون تونس.
١٠. التفسير العظيم، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.

١١. التفسير القرآني للقرآن، للشيخ - عبد الكريم الخطيب، ط دار الفكر العربي.
١٢. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د/ أحمد الكومي، د/ محمد أحمد يوسف القاسم، بدون.
١٣. التفسير الواضح، د/ محمد محمود حجازي، ط دار التفسير، القاهرة ١٣٩٩ هجرية.
١٤. تفسير القرآن العظيم، للعلامة، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، ت٧٧٤هـ، ط دار الفكر العربي.
١٥. تفسير ابن عباس، تحقيق: راشد عبد المنعم الرجال، ط مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، بيروت - لبنان.
١٦. تفسير الخازن، المسمى، لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الخازن، ولد سنة ٦٧٨هـ، ت٧٤١م، طبعة دار الفكر العربي.
١٧. تفسير الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهر، ط درا الفكر.
١٨. تفسير القرآن العظيم، للشيخ الخطيب الشربيني، المسمى، بالسراج المنير، ط دار المعرفة.
١٩. تفسير القرآن العظيم، للشيخ العز بن عبد السلام، ط دار ابن حجر.
٢٠. تفسير البحر المحيط، للإمام، محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي،ت٧٤٥هـ، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١. تفسير غريب القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ولد ٢٢٦، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٢٢. تفسير كلمات القرآن، للشيخ حسنين مخلوف، ط دار الإمام النووي - دمشق ١٤١٦هـ.
٢٣. تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، ت/ ١٣٥٤هـ، ط دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.

٢٤. تفسير مجاهد، للإمام المحدث المقري المفسر أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، ت١٠٤هـ ط دار المنشورات العلمية - بيروت.

٢٥. تفسير المراغي، د/ أحمد مصطفى المراغي ت ١٣٧١هـ ط مصطفى البابي الحلبي.

٢٦. تنوير الأذهان، للشيخ إسماعيل حقي البروسوي باختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، ط دار العلم.

٢٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: طه عبد الرؤوف، ط دار القدس، المدينة المنورة.

٢٨. جامع البيان في تفسير القرآن، للإمام الطبري، ط دار الفكر بيروت -لبنان.

٢٩. الجامع لأحكام القرآن الكريم، للإمام شمس الدين أبو عبد الله عمر بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، ت٦٧١هـ، ط دار الريان للتراث.

٣٠. حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الكشاف أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (٤٦٧هـ٥٣٨هـ) ط دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

٣١. الدر المنثور، للإمام السيوطي، جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ، ط دار المعرفة بيروت، لبنان.

٣٢. روح المعنى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، ت١٢٠٧هـ، مفتي بغداد ومرجع أهل العراق، ط دار الفكر العربي.

٣٣. زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج جمال الدين بن عموم حسن بن الجوازي القرشي، ط المكتب الإعلامي بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.

٣٤. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الأمام نظام الدين أحمد ين محمد النيسابوري، ط مكتبة البابي الحلبي.

٣٥. صفوة البيان في مباحث علوم القرآن، د/ عزت محمد حسن، ط دار أبو الفضل - المحلة.

٣٦. فتح القدير، للإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت١٢٠٠هـ بصنعاء، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ط دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة.

٣٧. في ظلال القرآن، لسيد قطب، ط دار الشروق الطبعة الثالثة عشر (١٤٠٤هـ١٩٩٧م).

٣٨. في رحاب التفسير، للشيخ عبد الحميد كشك، ط المكتبة المصرية الحديثة.

٣٩. القاموس القويم للقرآن الكريم، الأستاذ/ محمد يوسف، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

٤٠. كنوز القرآن وبيان الفرقان، لعبد العزيز الشناوي، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

٤١. لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ط إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م.

٤٢. محاسن التأويل، للقاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، ط دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٤٣. تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن سعود البغوي الشافعي، ت٥١٦هـ ط دار المعرفة، لبنان، بيروت.

٤٤. مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الكريم بن تيمية، تحقيق: محمود محمد نصار، ط مكتبة التراث الإسلامي.

٤٥. مناهل العرفان، للزرقاني، لإمام محمد بن عبد العظيم الزرقاني، المطبعة الفنية، القاهرة.

٤٦. المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، ط دار الكتب العلمية (١٤١٣هـ١٩٩٣م).

٤٧. المنافقون في القرآن، الأستاذ محمد يوسف، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

ثانيا: كتب السنة

١. سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت٢٧٥هـ ط دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
٢. سنن ابن ماجة، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزديني بن ماجة، ت٢٧٣هـ ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣. سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، لأبي عيسى بن سورة، ت٢٩٧هـ، ط دار الفكر، بيروت ١٩٩٨م.
٤. سنن النسائي، للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن دينار النسائي، ط مصطفى البابي الحلبي.
٥. صحيح البخاري، للإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، ط دار الشعب.
٦. صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٩٦_٢٦١هـ) ط مصطفى البابي الحلبي.
٧. صحيح الحاكم، ط دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٨. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مطبعة البابي الحلبي وأولاده القادة، سنة الطبعة ١٣٧٨هـ، ١٩٥٩م.
٩. مسند الإمام أحمد، ط المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت.

ثالثا: كتب السير والتراجم

١. أسد الغابة في معرفة الصحابة، للإمام عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري ت ٦٣٠، ط دار الشعب ١٩٧٠م.
٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، للإمام، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، ت ٦٣٠هـ، ط دار الفكر بيروت لبنان.

٣. الأعلام، لخير الدين الزركلي، ط دار العلم للملايين ١٩٨٤م بيروت.
٤. الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ ط دار الفكر، بيروت، لبنان.
٥. أصول الدعوة من فقه سيدنا إبراهيم، د/ محمد محمود عمارة، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.
٦. أنساب الأشراف، للإمام أحمد بن يحيى البلاذي، تحقيق: محمد حميد الله، ط مطابع دار المعارف بمصر، القاهرة.
٧. البداية والنهاية، للإمام عماد الدين أبي الفداء محمد بن كثير، ت ٧٧٤هـ ، ط مكتبة المعارف، بيروت، لبنان.
٨. تاريخ الأمم والملوك، الطبري.
٩. التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، ط دار الكتب الحديثة القاهرة ١٣٩٦هـ.
١٠. حلية الأولياء، للإمام الحافظ أبي نعيم احمد بن عبد الله الأصبهاني، ت٤٣٠هـ، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١١. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ بن حجر، ط دار الجيل.
١٢. الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، ط دار الوفاء.
١٣. الروض الأنف، للفقيه المحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، ت ٥٨١هـ، ١١٨٥م، ط الجمالية، مصر.
١٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ت٧٥١هـ، تحقيق: صلاح عويضة، ط دار المنار ط أولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
١٥. سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت ٧٣٨هـ، ط دار مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٢ه، ١٩٩٨م).

١٦. السيرة النبوية، للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري، ت٢١٣هـ ط دار الفكر العربي.

١٧. السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ط دار الشروق، جدة ١٤٠٢هـ.

١٨. شرح المواهب المدنية، محمد عبد الباقي الزرقاني، الطبعة الأولى، ط/ المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة.

١٩. شرح السير الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني، ط/ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط/ وشركة الإعلانات الشرقية.

٢٠. صفة الصفوة، لابن الجوزي، ط/ دار المعرفة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، بيروت.

٢١. صور من حياة الصحابة، د/ عبد الرحمن رأفت الباشا، ط/ دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٢٢. طبقات المفسرين، للسيوطي، مكتبة وهبة، ١٩٧٦م، القاهرة.

٢٣. طبقات المفسرين للداودي، شمس الدين محمد بن علي الداودي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٤. غزوات الرسول، شرف الآباء وهداية الأبناء، للواء جمال الدين محفوظ، ط/ دار الاعتصام القاهرة.

٢٥. غزوة حنين، محمد أحمد باشميل، ط/ دار الفكر.

٢٦. فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالي، ط/ دار الريان للتراث، ط/ أولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٧. في ظلال السيرة النبوية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، غزوة الأحزاب، ط/ دار الفرقان.

٢٨. في ظلال السيرة النبوية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، غزوة الحديبية، ط/ دار الفرقان.

٢٩. في ظلال السيرة النبوية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، غزوة أحد، ط/ دار الفرقان.
٣٠. في ظلال السيرة النبوية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، غزوة بدر، ط/ دار الفرقان.
٣١. قبسات من حياة الرسول، للشيخ محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨١م.
٣٢. قصص الأنبياء، لابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.
٣٣. القيم الخلقية الإنسانية في الغزوات، لحسن فتح الباب، ط/ مجمع البحوث الإسلامية.
٣٤. الكامل في التاريخ، للإمام عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير الجزري.
٣٥. المستفاد من قصص الأنبياء للدعوة والدعاة، د/ عبد الكريم زيدان، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٦. معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ط/ دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٦هـ بيروت.
٣٧. المجازي النبوية، محمد بن شهاب الزهري، حققه وقدم له/ د. سهيل زكام، ط/ دار الفكر، دمشق.
٣٨. المنهج الحركي للسيرة النبوية، أ/ منير الغضبان، ط/ مكتبة المنار، الأردن.
٣٩. النبوة والأنبياء، للشيخ محمد علي الصابوني، ط/ دار القلم، دمشق.
٤٠. مصر في العصور القديمة، لإبراهيم نمير، وذكي علي، وأحمد هاشم، ط/ مكتبة المدبولي، القاهرة، ١٤١١هـ.
٤١. وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، ط/ دار الثقافة بيروت.

رابعًا: الكتب العامة:

١. احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د/ سعد الدين السيد صالح، ط/ مكتبة التابعين، القاهرة، ١٤٢٠هـ.
٢. الإرهاب والعنف في الفكر الصهيوني، لإسماعيل باقي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٧هـ الرياض.
٣. أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد، لمارسيل بريل، ترجمة من مطبعة مركز ابن خلدون، ودار سعاد الصباح، ط/ أولى.
٤. الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، لرجاء جاردوي، ط/ دار الغد العربي، ١٩٩٦م، القاهرة.
٥. الإسلام والمسيحية لإلسكي جويفسيكي، ترجمة د/ خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، جمادي الآخر ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٦. انتشار الإسلام وقائع وملاحظات، لعماد الدين خليل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٥هـ.
٧. أيام صلاح الدين، لعبد العزيز سيد الأهل، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة التعريف بالإسلام، ط/ أولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٨. بين العقيدة والقيادة، لواء محمود شيت خطاب، ط/ دار الفكر.
٩. تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظيم، ط/ دار القلم.
١٠. تاريخ الملل والنحل، أ/ أمين الخولي.
١١. الاتصال بالجماهير والرعاية الدولية، أحمد بدر، ط/ دار القلم، الكويت.
١٢. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، للشيخ محمد الغزالي، ط/ دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٨٩م، القاهرة.
١٣. الإعلام والدعاية لعبد اللطيف حمزة، ط/ دار الفكر.

١٤. الجهاد والفدائية في الإسلام، للشيخ حسن أيوب، ط/ دار النبوة، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٥. الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ط/ القاهرة للطباعة والنشر، ١٩٦٧م.

١٦. الحرب النفسية، د/ أحمد نوفل، ط/ دار الفرقان، عمان.

١٧. الحرب النفسية من منظور إسلامي، د/ أحمد نوفل، ط/ دار الفرقان، عمان.

١٨. الحرب النفسية في صدر الإسلامي (العهد المدني)، د/ محمد بن خلف، ط/ دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.

١٩. الحرب النفسية بين الكلمة والطلقة، وليد الكيلاني، ط/ القيادة العامة للقوات المسلحة الأردنية، عمان ١٩٧٥م.

٢٠. الخطابة نشأتها وميدانها، د/ محمد رسلان، بدون.

٢١. الخطابة الإسلامية، د/ صبر محمد حسن، بدون.

٢٢. خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، د/ عبد الله التل، ط/ المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

٢٣. الدعاية السياسية في العصر الأموي، محمد منير حجاب، جامعة أسيوط، ١٤٠٦هـ.

٢٤. الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، جيهان رشتي، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥م.

٢٥. دروس في الكتمان، لواء محمود شيت خطاب، ط/ دار الإرشاد، بيروت، ط/ أولى، ١٩٦٩م.

٢٦. قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام، أبيدوا أهله، لجلال العالم، ط/ دار الاعتصام.

٢٧. الرسول والحرب النفسية، د/ علي حسن الخربوطلي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٢٨. الرسول والحرب النفسية، لمنصور عويس، ط/ مكتبة النجاح، ليبيا.

٢٩. الرسول القائد، لواء محمود شيت خطاب، ط/ دار الفكر.

٣٠. شغب اليهود على الأنبياء، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، ط/ دار الفرقان، عمان.

٣١. طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، المولد ١٢٦٥هـ بحلب وتوفي سنة ١٣٢٠هـ، ط/ دار النفائس، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣٢. عبقرية خالد، لعباس محمود العقاد، ط/ دار الهلال، القاهرة.

٣٣. عرب ومسلمون للبيع، د/ عبد الودود شلبي، ط/ المختار الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة.

٣٤. طبائع اليهود من خلال مصادرهم، د/ فرج محمد الوصيف.

٣٥. الغزو الصليبي والعالم، د/ علي عبد الحليم محمود، ط/ دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٦. في الغزو والفكر، د/ أحمد عبد الرحيم السايح، ط/ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر.

٣٧. فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية، محمد فرج، مجمع البحوث الإسلامية.

٣٨. قراءة سياسية للسيرة النبوية، د/ محمد قلعة جي، ط/ دار النفائس، بيروت، لبنان.

٣٩. قاموس علم الاجتماع، لمحمد عاطف غيث، ط/ الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

٤٠. مبادئ الإسلام، لأبي الأعلى المودودي، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت.

٤١. المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، للواء جمال الدين محفوظ، ط/ دار الاعتصام، القاهرة.

٤٢. المدرسة النبوية العسكرية، د/ محمد عبد القادر أبو فارس، ط/ دار الفرقان، الأردن.

٤٣. المدرسة العسكرية، محمد فرج، ط/ دار الفكر.
٤٤. مصر القديمة، سليم حسن، ط/ الهيئة المصرية للكتاب.
٤٥. مقارنة الأديان «المسيحية»، د/ أحمد شلبي، ط/ المكتبة المصرية.
٤٦. مقومات رجل العقيدة على طريق الدعوة، أ/ مصطفى مشهور، ط/ دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.
٤٧. مكايد اليهود، لعبد الرحمن الميداني، ط/ دار القلم، دمشق، ١٣٩٨هـ.
٤٨. نظرة حول المؤامرات الدولية اليهودية، د/ سعيد محمد باشا باناجة، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ أولى.

خامسًا: معاجم اللغة:

١. القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط/ دار الجيل، القاهرة.
٢. لسان العرب، لابن منظور، ط/ دار المعارف.
٣. مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، ط/ مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.
٤. المخصص، لابن سيدة: أبو الحسن بن إسماعيل الأندلسي، ط/ المكتب التجاري للطباعة، بيروت.
٥. معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ط/ دار الفكر، بيروت.
٦. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ط/ وزارة التربية والتعليم المصرية، ١٩٩٨م.
٧. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط/ دار الدعوة، تركيا.
٨. الموسوعة العربية الميسرة، لمحمد شفيق، الكويت.

سادسًا: الرسائل العلمية:

١. التفسير بالمأثور لسورة الفرقان، للباحث محمد عبد السلام كامل، رسالة ماجستير، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، المنصورة.

٢. الحرب النفسية وأثرها في الأديان السماوية، رسالة ماجستير للباحث حنفي أحمد، قسم الأديان والمذاهب، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، كلية الدعوة، القاهرة.

سابعًا: المجلات:

١. جريدة صوت الأزهر، عدد الجمعة ١١ جمادي الآخر ١٤٢١هـ.

٢. حوليات كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد ١٣ لسنة ١٩٩٦م.

٣. صحيفة الأسبوع المصرية، العدد العشرون، ١٠/ ٦/ ١٩٩٧م.

٤. مجلة صوت الأزهر، العدد ٤٢٧، رجب لسنة ١٤١٥هـ ديسمبر ١٩٩٤م.

٥. مجلة منبر الإسلام، عدد ٤ سنة ٤٧ شهر ربيع الثاني ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٦. مجلة الوعيد الإسلامي، العدد ٤٢٧، رجب لسنة ١٤١٥هـ/ ديسمبر ١٩٩٤م.

٧. مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٣٩٧، الكويت، ديسمبر ١٩٩٨م.

٨. مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٣٦، ١٩٩٦م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت : ٣٣٧٥٦٢٩٩